

فَصْحةُ الكَنِيسَةِ القِبطِيَّةِ

وهي تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية المصرية

التي أسستها

مارمرقس البشير

الكتاب الرابع بقلم

إيريس حبيب المصري

فقه اللبنة القبطية

من سنة ١٥١٧ - ١٨٧٠ م

الكتاب الرابع

١٩٩٢

إيريس حبيب المصطفى

الاهـنـاء

إلى أختي ثريا

ذات الاغوار الروحانية العميقة

حيناً منى

إلى مناقشاتهما ومداعباتهما

وإلى عينيها اللتين كانتا تتطلعان دوماً إلى فوق



ديونا وانخفايا رفاتك لا

عنه راي قبايضا قبايضا تعقب راي قبايضا راي قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا

قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا

قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا

اختنا العزيزة الاستاذة ايريس حبيب المصري

نعمه وبركة وسلام من الله لشخصك العزيز ولكل المراد الأعمرة

راجعت الجزء الأخير من كتابك القيم قصة الكنيسة القبطية وامتلأت سرورا

للنهاية المبدعة التي ختمت بها كتابك بهذا الجزء النفيس ، واني اعتقد انك قدمت

بدور خالد في خدمة كنيستك المجيدة ، فسكنت دون ان تدري علامة بارزة

على طريقها الإلهي الخالد وصوتا شجاعا امينا يربط اصوات الماضي بتطلعات

المستقبل ، وهكذا كما كنت امينة في تكريم عظماء كنيستك فسوف تكرم

الكنيسة اسمك الى مدى الأجيال . راي راي راي راي راي راي راي راي راي راي راي

وتحية لك مع الدعاء من برية القديس انبا مقار



القمص من المسكين

٧٤/١٠/٢٠

قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا

قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا

قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا قبايضا

القمص من المسكين

الاعتراف بالفضل لذويه

من نعمته الله أنه قد هيا لي الفرصة للسير بقصة الكنيسة القبطية إلى عهد
الأببا ديمتريوس الثاني البابا الاسكندري الحادى عشر بعد المئة .

ومن نعمته أيضاً أنه أتاح لي الفرص للاطلاع الواسع . وكان بعض هذه
الفرص يبدو كأنه صدقة إذ وجدت الكتاب أو المخطوط عن غير قصد . ولكن
آباء الكنيسة التي تابعت قصتها قد أكدوا أنه ليست هناك صدقة للعاملين مع
الله ، فما يبدو صدقة ليس سوى ترتيب خفي . فشكرى بلا انقطاع أرفعه إلى
رب المجد .

ومع شكره تعالى على نعمته الجزيلة أشكره أيضاً على الخدمات التي شاء أن
يقدمها لي العاملون الأوفياء . لهذا أقدم شكري إلى جناب أيدنا القمص متى المسكين
لاستمراره على مراجعة مخطوطاتي وعلى توجيهاته البناءة في كل مناسبة .

وأشكر جناب أيدنا القمص يشوى كامل لداومته على تشجيعي وتوجيهي .

كذلك أشكر الدكتور وايم سليمان لتفضله بإعارة العدد الوفير من كتبه
الخاصة ولتوصيلي إلى المكتب النافعة في المكتبات العامة .

كما أشكر الاستاذ كال رزق أستاذ اللغة الألمانية لخدماته الكثيرة .

ومرة أخرى أنتهز الفرصة لأبعث بالشكر إلى روح أستاذي يسى عبد المسيح .

مع شكري لأصحاب الفضل على أكرر شكراتي الوفيرة للآب السماوى .

إيريس حبیب المصرى

تمهيد

لم اكن ادري يوم بدأت بكتابة و قصة ، الكنيسة القبطية الى اى مدى
 ستخلبنى بكل ما فيها من اعاجيب . والحق اننى كلما تماشيت مع هذه القصة وجدتنى
 اغوص فيها اكثر فأكثر مبتهجة بهذا الغوص . فلما وصلت الى العصر التركى
 وجدتنى اردد تلقائياً وعن غير قصد ذلك البيت الشعرى المأثور :

ولانى لتعرونى لذكراك هزّة
 كما انتفض المصفور بلكه القطر

ذلك لان العصر التركى اصدق شاهد على سر الحيوية التى اودعها الله داخل
 كنيسة المصرية فسكنها من اجتنياز ظلمته والوصول الى فجر جديد . ومع
 ما احتوته العصور الاولى من اعلام ساطعين فالعصور الوسطى قد اعطتنا نماذج
 رائعة من الآباء الذين انعكس خلالها نور الله .

ولقد آن الاوان لان لستضىء نحن بهذا النور الإلهى المنعكس عنهم .



منحدر شامق

١ - أنبا غبريال السابع

- ١ - ظلمة وإفكار
- ٢ - انتخاب البابا الرقي
- ٣ - درس من السماء
- ٤ - تعبير ديرى الصعراء الشرقية
- ٥ - حكم الجوارح
- ٦ - غرور الحياة
- ٧ - تصالح الأم وابلتها
- ٨ - الانتهازية
- ٩ - غلسم مسرير
- ١٠ - عرفان الجميل

١ - شاهدت بابوية الانبا يونس الثالث عشر نهاية دولة المماليك الشراكسة إذ قد انتصر عليهم السلطان التركي سليم الاول . ومع أنهم كانوا رجال حرب وصدام إلا أن تحاسدهم وخيانتهم لبعض مكنت العثمانيين منهم . وحينما انتهى الحكم المملوكى وبدأ الحكم التركى تحولت مصر من إمبراطورية متراعية الأطراف إلى بلد محكوم تابع لغيره . واثن كان الحكم التركى غشوماً باطشاً سياسياً ففشامته وبطشه فى الناحية الحضارية كان مضاعفاً . لان السلطان سليم الاول لم يستقر فى القاهرة بل اكنفى بقضاء بضعة أيام فيها عاد بعدها إلى بلاده . وبذلك هبطت هذه العاصمة الكبرى وفقدت رونقها ومكانتها . وليت الامر وقف عند هذا الحد ، لان السلطان حين قرر العودة أمر بترحيل المهرة من الصناع والحرفيين والفنانين إلى تركيا لينتفع هو بمواهبهم ومهارتهم ا ويقدر بعض المؤرخين أنه أخذ معه ألفاً من هؤلاء المنتخبين بينما يرتفع البعض الآخر بالعدد إلى ألف وسبعمائة ، بل وأكثر : وتاهب السلطان سليم للرحيل فسير أمامه ... والكتتاب من القبط وهم المعلم بانوب كاتب الخزينة السلطانية والمعلم يوحنا الصغير والمعلم أبو المسكارم وغيرهم ... وكبار التجار وأرباب الصنائع مثل المهندسين والبنائين والنجارين والحدادين والمرخين وصفار الفعلة ... قال بعض كتتاب الاخبار كان عدد من خرج بزهاء ألف وثمانمائة وقيل بل أكثر من ذلك جداً . فكانت

شدة عظيمة للغاية ، (١) . ويؤيد ابن أياس هذه الحقيقة بقوله : « وفي بدء إقامة ابن عثمان في القاهرة حصل لأهلها الضرر الشامل وبطل فيها نحو وخمسين صنعة وتعطلت منها أصحابها ولم يعمل بها في أيامه بمصر ، . . . »

ومن المؤلم حقاً أن الجهل بهذه الوقائع دفع بالمصريين إلى الزعم بأن صناعتهم و حرفيهم أعجز عن الاتقان الذي للصناع والحرفيين العثمانيين حتى أنهم يعبرون عن أعجابهم بالعمل الفنى بقولهم : « دى صنعة اسطنبولى ، ا »

ومن أكبر الشخصيات التي أخذها السلطان سليم الأول المعلم بركات كبير كتيبة ديوان الملك الأشرف ولقد استطاع هذا القبطى أن يصل إلى مكانة مرموقة لدى السلطان لأنه كان متضلماً من العلوم الهندسية والفلكية والرياضية إلى جانب درايته بالشئون المالية . فلما رآه سليم الأول عند السلطان الأشرف أعجب بذكائه وبسعة مداركه ومعارفه وأمره بالذهاب معه إلى القسطنطينية . فاضطر إلى ترك بلاده الحبيبة واستصحب معه أمرته . وهناك في المهجر ، الإضطرابى وكل إليه سليم الأول تنظيم الأعمال المالية في ديوانه . فخدم تركيا بقية حياته (٢) .

وهكذا استهل الترك حكمهم بتجريد مصر من مهرة عمالها وبالتالي بقتيل الصناعات والإنتاج الفنى . ومرة أخرى ليت الأمر وقف عند هذا الحد ! لأنهم بعد أن قتلوا الصناعة تحولوا إلى البطش بالفلاحين وأحراق زراعاتهم أو دوابها بحوافر خيولهم . فحينما أتجهت أبصارنا في هذه الفترة الحالكه من تاريخنا لا تلقى

(١) الكافى فى تاريخ مصر الحديث والقديم لمبخائيل شاروويم ج ٢ ص ٢٢ ، « تاريخ الأمة المصرية » (بالفرنسية) ، الكتاب الخامس « مصر التركبة » لهنرى ديبيرين ص ٩ ، المجلد فى التاريخ المصرى لبعس أعضاء هيئة التدريس بكلية آداب جامعة فؤاد الأول (القاهرة) نشره حسن ابراهيم حسن - الفصل « تاريخ مصر فى العهد العثمانى لحسن عثمان ص ٢٤٤ » .

(٢) دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس ج ١ ص ١٢ .

غير الدمار والبوار . فلقد أجمع المؤرخون من أجاناب ومصريين على أن الحكم
التركي لم يفقد مصر استقلالها لحسب بل استهدف سبقي شخصيتها الخاصة فرسفت
بلادنا الحبيبة مدى ثلاثة قرون في قيود من الذل السياسي والإفقار العلمي الفنى
والفقر المادى (١) .

ولئن كال خصوم مصر لها اللوم ، ولئن امتلأت نفوس أبناء مصر توجعاً
بأزاء هذا اللوم وبأزاء ما يروونه اليوم من نقص واضطراب فليذكر هؤلاء
وأوثك أن أثر القرون لا يتمحى في أيام ، وأن الضرورة موضوعة على المصريين
ليضاعفوا الجهد ويضاعفوا السعى كي ينجحوا في محو هذا الأثر البغيض في
أقرب فرصة . . .

(١) يعلق الكاتب الانجليزى مويرلى ال على هذه الفترة فيقول :

“ . . . by the Mosque of Al - moayyad is Bab Zaweila the
Turkish Sultan Selim hanged Toumān Bay last of his race,
assumed the title of Caliph, and secured Egypt to the hated
rule of the Turk. Three hundred years pass before us,
leaving no trace on the map before us but the ever-standing
Pyramids . . . From the time when the Turk assumed sway in
Egypt until the day he lost it , history and art alike cease .
The triumph of the Turk is marked by ruin, and by the
moral, political, and social degradation ” .

وترجمته ما يلى : وعلى مقربة من جامع المؤيد يقم باب زويلة الذى أمر السلطان سليم
بشنق طومان باى آخر المماليك من فوقه ، وأخذ لقب « خليفة » وأدخل مصر تحت حكم الترك
البغيض . فتمر ثلاثمائة سنة أمامنا دون أن تترك أثرأ على الخريطة غير الأهرامات الخالدة . . .
ومنذ اليوم الذى تسلّم فيه الترك السيادة على مصر إلى اليوم الذى فقدتها فيه انتهى الفن والتاريخ .
وبنم انتصار الترك بالخراب وبالانحطاط الأدبى والسياسى والاجتماعى ، من كتاب « من
فرعون إلى الفلاح » ص ٤٤ و ١٨٠ - راجع أيضاً تاريخ مصر الحديث للمحمد عبد الرحيم
مصطفى ص ٣٥ ، دراسات فى تاريخ مصر السياسى منذ العهد المملوكى لنوزى جرجس ص ١٨
حيث يقول : « بدخول العثمانيين بدأت بلادنا تنحدر نحو عزلة نمبنة عن النشاط والتطور
العالمى . . . وأول ضربة وجهها العثمانيون إلى مصر هى اختلاس خبرة الصناع والحرفيين المصريين
وتصديرهم إلى القسطنطينية ليطوروا الصناعة هناك ويهدموها فى مصر » .

٢ - وفي بداية هذا العصر الممالك اختير الأبا غريبال السابع سنة ١٥٢٦م^(١)

ليجلس على السدة المرقسية .

واقدم ولد هذا البابا في قرية دأبو عايشة ، بالقرب من الدير المحرق ، ودعاه والده باسم جده روفائيل . واسكنه عاش في مصر لان أباه جرجس مينخائيل كان راعي بيعة الشهيد العظيم مرقوريوس (أبو السيفين) بمصر العتيقة . فلما بلغ روفائيل أشده اشتاقت نفسه إلى الحياة الرهبانية ، فأطاع هذا الشوق ووجد من أبيه التشجيع على تنفيذ فكره مصر وانضم إلى دير السيدة العذراء المعروف بالسرياني محفظاً في رهبته باسمه العلياني روفائيل . فلما نال كرامة البابوية المرقسية استبدل اسم الملاك مطيَّب القلوب باسم الملاك حامل البشارة .

٣ - وكان صاحب الحكم إذ ذاك السلطان سليمان الذي خلف أباه سليم الفاتح

على العرش . وكان هذا السلطان شديد الإيمان بالتنجيم ، وله منجم يودى يستشير في كل أموره . فسأله عما يمكن أن يعمل لتوطيد دعائم ملكه . أجابه هذا اليهودي بأن النصارى في مصر وفي غيرها من بلاد الشرق الأوسط يشكلون خطراً على مملكته لأنهم قد يشورون عليه إرتكاباً على ملك الروم الذي سيجد الفرصة مواتية لمحاربة الدولة العثمانية . فصدق السلطان هذه التكهنات لساعته وأراد أن يصدر الأمر بقتل النصارى في مختلف هذه البلاد . ولكن الأب السماوي الساهر دوماً على أولاده أنطق الوزير بيروز باشا الذي قال للسلطان : إن الملك من الله ولمن أراد الله أن يعطيه إياه . فإن فعلت هذا خربت مملكته ، فأعادت هذه الكلمات الصواب إلى السلطان وأوقفته عن الايقاع بالقبط وبإخوتهم من نصارى الشرق^(٢) .

(١) التقويم في هذا الكتاب من قصة الكنيسة يتبع السنة الغربية كي لا يحدث تضارب بين الأحداث الكنسية والأحداث السياسية في التاريخ المصري العام .
(٢) كتاب تاريخ الأمير جيدر أحمد الشهابي ص ٦٠٩ .

ويبدو أن الله تعالى أراد أن يلحق السلطان سليمان درساً بالغاً إذ قد اندلعت الثورة في مصر فعلا ولكن بزعامة أحمد باشا الوالي الذي عينه السلطان بنفسه ! وكان هذا الوالي المتمرد عاتياً ظالماً لم يهجم استمالة الشعب ليؤازره ضد سلطاناه بل استعان بالرشوة وبالسخرة وباستنفاد قوى الشعب ما أمكنه . فكانت النتيجة أن سقط بسرعة وخطائة أيضاً (١) .

٤ - على أن الأنبا غبريال السابع سار على خطة أسلافه : خطة المحافظة على الإيمان والسعى إلى المحافظة على المؤمنين . ومن أعماله الصادقة إعادة بناء ديرى الأنبا بولا والأنبا أنطوني الذين كانا قد خربهما عربان الصعيد . ولما أتم بناءهما طلب إلى رهبان دير السيدة العذراء (السريان) الذين هم إخوته في الرهبنة أن يعيدوا الحياة الرهبانية إليهما . فذهب البعض منهم إلى دير الأنبا بولا والبعض إلى دير الأنبا أنطوني ، وحملوا معهم عدداً من الكتب المقدسة لتكون نواة لمكتبي الديرين . ولا تزال كثير من أواني البيعة المقدسة وآلات الديرين للخدمة اليومية تحمل اسم دير السريان .

ولقد ساء عدو الخير أن يعمر الديران وأن ترتفع الصلوات والتسابيح منهما فاستثار عربان بني عطية (قرب بني سويف) الذين لم يفلحوا هذه المرة إلا في تخريب دير الأنبا بولا والقضاء على الرهبان الذين فيه . ولكن شاءت المراحل الإلهية أن تمنح الأنبا غبريال نفسه نعمة ترميم بعض أجزائه (٢) . كذلك منحه أن يعمر دير الأنبا أنطوني بالجيزة - وهو المعروف بدير الميمون (٣) . ومن

(١) « مصر والهلل الحصب » بالانجليزية - كتاب الأرمبكي هولت ص ٤٨ - ٥٠ .

(٢) سلسلة تاريخ الباباوات حلقة ٤ لكامل صالح نخله ص ٧٠ .

(٣) جزيرة الميمون تقع في منطقة بني سويف - والجيزة هي المكان الأول الذي

قصد إليه أبو الرهبان .

الواضح أن الأنبا غبريال كان من البناة السكادحين إذ قد امتدت رغبته في التعمير إلى الدير المحرق بجبل قسقام (١).

هـ - ولم يقف أذى الحكم التركي عند ترحيل الفنيين بل امتد إلى قتل تجارة مصر بتحويلها طبعاً إلى القسطنطينية ، ثم إلى ابتزاز أموال المصريين بلا هوادة . ذلك لأن الوالي الذي يعينه السلطان كان لا يأتي إلا لمدة سنة وأحياناً أقل من ذلك بكثير . فكان هدفه الأوحده ملء جيوبه . وكان السلطان نفسه يفرض مبلغاً معيناً مقابل الإبقاء على الوالي الموجود أو استبداله بغيره . وبالطبع كانت هذه المبالغ المالية كلها تقتطع من شعب مصر . ذلك لأن العالم ، في نظر الترك كان ينقسم إلى حكام ورعايا - وهؤلاء الآخرون مهمتهم توفير حاجات الفئة الأولى وفقاً للمشيئة الإلهية . وكانت النتيجة العملية لهذه النظرة الشرسة أن حلت القيم المالية في كل مكان محل قيم الكفاءة القديمة فالباشا ، الصالح ، هو الذي يسارع في تقديم الكميات والمنقولات النوعية التي تتطلبها الخزانة الإمبراطورية . . . بل لقد أصبحت العادة الشائعة منح الترفيعات بالحظوة والرشوة وأن يطبق المزاد حتى على الوظائف القضائية والدينية (٢).

ومع أن المماليك كانوا متعاليين على الشعب المصري إلا أنهم كانوا محبوبون البلاد ويحتكون بهذا الشعب المسكين . أما ولاية الترك فكانوا يقبعون في القلعة لا يخرجون منها إطلاقاً ورغم إقامتهم فيها باستمرار كانوا عديمي الاهتمام بالمحافظة عليه ، فكانوا أشبه بالجوارح العابرة التي لا تطير فوق منطقة إلا لتتقضى على ما فيها ثم ترحل (٣).

(١) الأدبيرة المصرية العامرة لصموئيل تاو وروس السرياني ص ١٦٤ .

(٢) المجتمع الإسلامي والغرب ترجمه عن الأنجليزية أحمد عبد الرحيم مصطفى وراجعه

أحمد عزت عبد الكريم ص ١٥ .

(٣) تاريخ الأمة . . . الكتاب الخامس لهنري دهران . . . ص ٢٣ .

٦ - ولأن الوالي التركي ورجاله حددوا إقامة أنفسهم بأنفسهم فقد تركوا السلطة في أيدي المماليك ومن يلوذ بهم . فظل التنظيم المالي كما كان قبل الفتح العثماني ، كما ظل في يدي أسرة معروفة هي أسرة بني جيعان وكانت هذه الأسرة مسيحية أصلاً إلا أن عميدها أبو البقاء أشهر أسلامه أيام السلطان قايتباي فاحتفظ بمركزه العالمي وبما يستتبعه من جاه . وتوارث أبناؤه هذا المركز وهذا الجاه . وفاز أبو البقاء بثقة السلطان وسافر معه إلى سورية وإلى فلسطين . ثم سجل هذه الرحلة في كتابٍ ما زال موجوداً بعنوان : القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف . . ورغم هذه الحظوة فقد مات أبو البقاء مقتولاً (١) .

٧ - ووسط هذا الضنك بدت مراحم الله : مراحمه التي تسطع دائماً خلف الفيوم الكشيفة . فتجالت إذ ذاك في عودة الصلة بين الكنيحة القبطية والبلاد الحبشية . لأن هذه الصلة كانت قد انقطعت بسبب تناكب المماليك فيما بينهم واضطهادهم للقبط ، ثم غضبهم لأن أخبار هذا التناكب وهذا الاضطهاد قد بلغت إلى مسامع امبراطور الحبشة . فدفعهم غضبهم إلى عدم السماح للأحباش بالدخول إلى مصر ، ثم بالتشديد على البابا المرقسي بعدم التعامل معهم إطلاقاً حتى حين يكونون في حاجة علوية إلى مطران . فأدى هذا كله إلى رسالة مطران برتغالي كاثوليكي أطلق بابا رومية عليه لقب بطريك الإسكندرية . . على أن هذا التمرد الروماني المزدوج انتهى حين اعتلى جلاوديوس عرش الحبشة . لأن هذا الملك أعلن المطران البرتغالي بأنه موقوف . فإن شاء أن يعيش في البلاد الحبشية عليه أن يعتبر نفسه مجرد ضيف نزيل عليهم . وبعد ذلك بعث الملك برسالة إلى

الأنبا غبريال السابع يرجو منه رسالة مطران لبلاده . ومن نعمة الله أن هؤلاء

(١) من مجلة المعهد الفرنسي للأثار الشرقية ج ٢٠ (القاهرة سنة ١٩٢١) مترجم عن

العربية بقلم مدام ديفونشاير .

الرسول استطاعوا أن يدخلوا مصر وأن يقابلوا البابا المرقسي ويبدلوا له طلبهم ، وبالطبع فرح خليفة مار مرقس بعودة أولاده إليه وسارع إلى اختيار راهبٍ ممتاز اسمه باسم يوساب الثالث . وبعد الرسامة بأيام غادر المطران وطنه الأصلي ليذهب إلى وطنه الجديد ويرعى الشعب الذي شاء الله أن يأتئنه عليه . وقد سافر مع الوفد الذي كان قد جاء خصيصاً لطلبه . ولما وصل تلقاه الملك والشعب بكل ترحاب (١) .

٨ - ولم يعتبر بابا رومية بالفشل الذي أصابه في الحبشة وزعم أنه قد يستطيع اقتناص الام حيث فشل في اقتناص بنتها . وقد شجعه ذلك ما يرسف القبط تحته من ظلم الولاة العثمانيين . فأرسل رساله إلى البابا غبريال السابع يقترحون الانضواء تحت رعايته . وقابلهم البابا المرقسي بهدوء ووقار ، وأعلمهم خلال هذا الهدوء وهذا الوقار أنه لا يجيد قيد شعرة عن العقيدة التي تسلمها عن أسلافه . ولما رأوه بمصرراً على التمسك بعقيدة الآباء رجوا منه أن يطلب إلى سييعد الاول ملك الحبشة عدم طرد الكاهنين الرومانيين اللذين تركها المطران البرتغالي . فقبل رجاءهم وأرسل إلى أولاده الاحباش رساله بهذا المعنى . وعندها سمح الملك للكاهنين بالبقاء في بلاده .

وأخذ الكاهنان الكاثوليكيان إلى السكينة خلال حكم سييعد الاول . فلما خلفه أخوه مينا على العرش ساءه وجودهما . وعندها أخذ هذان الغيبيان يستفزان كبار قادة الجيش على التمرد ضد الملك مينا ويزيتان لهم التحالف مع المسلمين . فشعر بمؤامراتها وبدد مشورتها وأنزل بها العقاب . واستساء الخبر الروماني لهذا الفشل فأستدعى الكاهنين واستبدل بها رسلا جدداً . على أن هؤلاء الرسال ما لبثوا أن كتبوا له يقولون بأن الاحباش ان يرضوا عن عقيدتهم بديلاً لإلحاد السيف .

فاضطر بأزاء هذا التقرير أن يستدعيهم بدورهم أملاً أن تواتيه فرصة أخرى (١١).
ويعلق كاتبو قاموس السير المسيحية على هذا المسلك بقولهم أن البرتغاليين
زعموا أن الإيمان الحقيقي يجب نشره بحد السيف - فأنتهى بهم الأمر أن فنى هذا
الإيمان وناشروه بحد السيف (١٢).

٩ - وحدث أن السلطان فرض ألني دينسار على غير المسلمين ، ووقع الجزء
الأكبر من هذا المبلغ المفروض على طاق القبط . فاضطر الأنبا غبريال إلى الهرب
إلى دير القديس أنبا أنطوني تجنباً لما قد يصيبه من أذى وذل . لأن الترك لم تكن
لديهم وسيلة غير الكرباج دون مراعاة لكرامة أى إنسان . وبينما كان فى الدير
يضرع بحرارة ليتدارك الله شعبه طغى عليه الحزن والتوجع إلى حد أنه فارق
هذه الحياة الدنيا وانتقل إلى بيعة الأبقار .

١٠ - وقد سجل الآباء الرهبان ذكراه اعترافاً بفضله فكتبوا على حائط
الكنيسة تحت أيقونة الأنبا أنطوني والآنبا بولا ما يلى : ولما كان بتاريخ يوم
الثلاثاء المبارك تاسع عشرين بابه المبارك سنة ألف ومائتين وخمسة وثمانين للشهداء
الاطهار رزقنا الرب ببركاتهم ، تفتح السيد الأب البطريك العظيم فى البطارقة أنبا
غبريال الخامس والتسعون فى عدد الآباء البطارقة فى كرمى مار مرقس . وكانت
نياحته فى أحضان رهبان هذا الدير المقدس التحتانى على شاطئ البحر لقوة عزيمته
الطاهرة . ونقل جسده الطاهر إلى مصر المحروسة فى ٢٥ هاتور سنة تاريخه أعلاه .
وجنزه فى بيعة الشهيد العظيم مرقوريوس بمصر ، ودفن بها ، فى مقبرة جديدة

(١) « تاريخ الكنيسة القبطية » لمنسى القمص من ٦٠٧ - ٦٠٩ ، سلسلة ص ٧٢ .

(٢) فقد جاء فى قاموسهم ج ١ ص ٦٧٩ ما يلى :

“ ... the lamentable belief took possession of the Portuguese
that the true faith was to be propagated by the sword .
Eventually that faith & its propagators perished by the sword ”.

ثمت جسد مرقوريوس . وأما عدد الكهنة والاساقفة الذين حضروا تيجيزه ثانياً
خسة وثمانون كانوا . وأما الشعب فلا يحصى عددهم . وأقام هذا الأب المكرم
على الكرسي المرقسي ثلاثة وأربعين سنة وكسر . ورعى شعب الله أحسن رعاية .
وكان ذا إجهاد بليغ في عمارة الديارة والكائس وترميمها وبشدها . ومن جملة
هذا المجمع المقدس المعروف بدير العربية سكن أبينا العظيم أنطونيوس . فإنه هو الذي
فتحه في أيامه . عمره الله بالدوام . وجعل اليمين والكثرة فيمن يحويه من الرهبان
بعد أن كان له مدة مستطيلة خراباً لم يقدر أحد على فتحه وعمارة غير هذا الأب .
وضادده عدو الخير عدة مرار في خرابه ، والرب سبحانه لم يتم أمر العدو في ذلك .

وتنبح هذا الأب وهو عامر بالرهبان ، وكان في هذا الدير أكثر الأيام .
الرب الإله سبحانه يصر هذا الدير بطلباته إلى النفس الأخير ، وينبح نفسه في
فردوس النعيم . ويرحم كاتبه بصلاته آمين . والشكر لله دائماً .

كذلك سجل مجمع هذا الدير ذكرى الأنبا غبريال السابع في كتاب رقم ٢٩١
طقس المحفوظ بمكتبته . وقد جاء في هذا الكتاب ما يلي : . . . وكان هذا الأب
طويل القامة ومعتدل الخلقة وروح القدس حال عليه . وكان له إجهاد بليغ في
الصلاة والصوم والتسك الثقل مع الإجهاد البليغ البشر في عمارة الديورة وتشديدها
أتم غاية . وكان له بهم فرحاً زائداً . وقاسى شدايد من قلبها وفرحاً عظيماً من
أجل ثباتها . وفتح في زمانه دير القديس الطاهر العظيم أنبا أنطونيوس بالعربية
وعمره عمارة حنة الروحانية والجسدانية . وكذلك دير القديس العظيم أنبا بولا
فوقاً منه . وعمر دير القديس العظيم أنطونيوس المعروف بدير الجميزة سكن
أنطونيوس أولاً عمارة جديدة تعجز عنها طاقة البشر . . . ويرعانا الرب بطلباته
ويخلصنا من خطايانا بصلاته ويفتح لنا أبواب رحمة . آمين . . .

وهناك لمحة نعرف منها أن أحد الاساقفة المعاصرين للبابا غبريال السابع هو
يونس أسقف طحا . ذلك أنه توجد بالمتحف البريطاني مخطوطة مجلدة تقع في
٢٤٩ ورقة تجدد الكثير من ورفاتها ، وهي مكتوبة بخط منتظم كبير سميك ،
وعناوينها وحروفها الكبيرة بالأحمر والأخضر والأصفر . وتتضمن قطعاً من
الأحاد من توت إلى أمشير . وعلى الورقة ٢٤٨ (وجه) حديث مستفيض بالخط
الأول عن أن المخطوطة كتبت سنة ١٢٥٦ ش على نفقة الانبا يونس الطحاوي .
أما على الورقة ٢٤٧ (ظهر) فقد قيل بأنها تجددت في دير أبي مقار سنة ١٢٥٢ ش
(وأغلب الظن أن التاريخ الأصح للتجدد هو سنة ١٢٥٢ ش) .

وثمة مخطوطة أخرى تتضمن عدة أجزاء تتبين منها قيمتها وندرك مدى
عناية القبط بترائيمهم كلما وجدوا إلى التعبير عنه سبيلاً . والمخطوطة مكتوبة
بالأحمر والأسود ، ومجلدة بالجلد الأحمر المزخرفة زخرفة محفورة . وقد نقلها
ناسخ لانعرف اسمه بناء على طلب الراهب ميخائيل الذي وقفها على كنيسة
مار مرقس بالاسكندرية . أما محتوياتها فهي :

١ - كتاب بعنوان " اعتراف الآباء معلمى الكنيسة الواحدة الوحيدة
الجامعة الرسولية وشرح اعتقاد كل واحد منهم في الأمانة المقدسة وما نطق به
الروح القدس على ألسنتهم في الثالوث المقدس وتجسد الكلمة أحد الأقانيم في
الاتحاد والرد على المخالفين ، .

٢ - (١) كتاب المجامع لساوريس بن المقفّع ، (ب) - مجموعة من النبوات
يقال أنها لفلاسفة وثنيين عن الدين المسيحى مضافاً إليهم - شهادات الانبياء عن
تجسد المسيح له المجد .

(١) سجل المخطوطات القبطية بالمتحف البريطانى س ٣٢١ مخطوطة ٧٦٤ (من النسخة
المحفظة بالمتحف المصرى بـ برلين الغربية) .

٣ - جزء ليس له عنوان خاص يتضمن الشهادات الشرعية الواردة في

المكتب المقدسة والتساؤلات الوضعية وينقسم إلى ستة أقسام (الموجود منها

ثلاثة فقط) .

٤ - مقالة بعنوان : جواب علي الذين يقولون ان سيدنا يسوع المسيح في

زمان تدبيره بالجسد أكل وشرب وكل جميع ما للبشرية واخلأ الخطية ، ١١١ .

وإلى جانبها مخطوطة صحائفها موهبة بالذهب جاء في أولها المباشرة التالية :

والإنجيل الطاهر والمصباح الزاهر وسفينة النجاة للمحاورين الاطهار ، . وقد جاء

في آخرها أنها تمت بمدينة دمشق ، في رياسة المطران أنبا بطرس مطران الأقباط

بالقدس وجميع الشام على يد الحفير جرجس القس أبي الفضل بن لعطف الله غفر

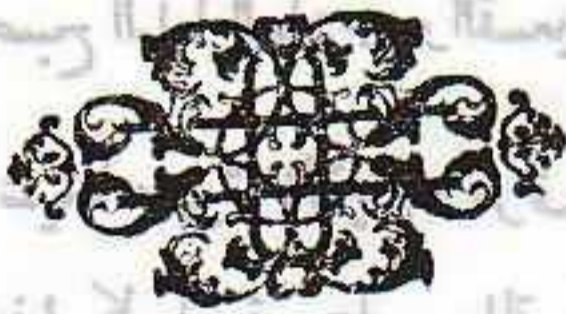
الله ذنوبه ١٢١ . وهذه المخطوطة دليل على أن آباء الكنيسة القبطية كانوا حريصين

على حفظ الإيمان في كل بلد ائتمنهم الله على شعبه ، .

بعضها ، تصنيف قديم (قديم) .

بعضها ، تصنيف قديم ، .

بعضها ، تصنيف قديم ، .



بعضها ، تصنيف قديم ، .

بعضها ، تصنيف قديم ، .

بعضها ، تصنيف قديم ، .

بعضها ، تصنيف قديم ، .

بعضها ، تصنيف قديم ، .

بعضها ، تصنيف قديم ، .

بعضها ، تصنيف قديم ، .

بعضها ، تصنيف قديم ، .

ب - الانبا يونس الرابع عشر

- ١١ - جمع شتات الافكار
١٢ - صلة وثيقة بالله
١٣ - زيارة راعوية
١٤ - ضغط على ضغط
١٥ - معاودة التلاعب الروماني
١٦ - الوصول الى اورشليم السهائمية
١٧ - لمحة تاريخية
١٨ - سطاو على الزوبة
١٩ - كوة من النور
٢٠ - ميهز مفصل

١١ - كانت نياحة الانبا غبريال السابع أثناء الضائقة المسيطرة على البلاد نتيجة لتصرف الترك في وسائلهم لا يتراز الاموال . مما جعل القبط إذ ذاك في حالة من القلق النفسى الذى تضاعف بنياحة باباها . فكان من الطبيعى أن تبقى السيدة المرقسية شاغرة سنتين ونصف . ثم استطاع الاساقفة والاراقنة أن يجمعوا شتات أفكارهم ليركزوها على وجوب التشاور معاً فى أمر انتخاب راعيهم الاعلى . ومن ثم تباحثوا وتفارضوا . وأخيراً اجتمعوا على انتخاب الراهب يوحنا المنفلوطى العسايش فى دير السيدة العذراء (للبرموس) بيرية شيهيت . فذهب وفدهم إلى ذلك المكان المقدس واستصحبوه إلى مصر حيث رسمه بجمع الاساقفة باسم يونس الرابع عشر فأصبح البابا السادس والتسعين .

١٢ - وكان هذا البابا شيخاً صهرته الايام وعرف بالاختبار مدى عنايه الله . فكان يعبر عن اختباره هذا كلما وقع على رسالة أو مرسوم صادر منه بأن يخيف إلى جانب امضائه الجملة التالية : الهدى بالله الهادى ، وتحتها الخلاص للرب يا الله الخلاص .

١٣ - وكالمعتاد فرض السلطان مراد جزية إضافية وألزم البابا الاسكندرى شخصياً بسدادها . فرأى الانبا يونس أن يضرب عصفورين بحجر واحد بأن قام برحلة راعوية . فتلاقى مع شعبه وقضى بينهم أياماً ، وفى الوقت عينه عرفهم بما

فرضه السلطان عليه . فسارع الكل إلى مساندة أبيهم الروحي الأعلى وقدموا له ما أمكنهم تقديمه . وبالتالي نجحوا في حمايته من بطش السلطان .

وكانت هذه الزيارة مقدمة مبروكة إذ مهدت السبيل أمام الأنبا يونس الرابع عشر للانتحاء إلى أولاده في الصعيد مرتين أخرتين . أما الزيارتان التاليتان فقد كان الدافع إليهما تجنب المضايقات المستمرة التي كان يمارسها الولاة الموفدون من السلطان . ومن بين هذه المضايقات التشدد في أن يلبس القبط جميعاً الملابس السوداء ، وحتى عمداتهم يجب أن تكون كلها من اللون الأسود

١٤ - ويبدو أن ظلم المماليك الذي أضّر بالزراعة والتجارة قد أضعف جسوم الناس فلم تعد تقوى على مقاومة الأمراض . فنجد أنه حين تفشى الطاعون سنة ١٥٨٠ أهلك العدد الوفير من الشعب المصري . فكانت النتيجة الحتمية لهذا الموت الجماهيري إرتفاع أسعار الحاجيات لأن الأيدي المنتجة نقصت نقصاً كبيراً مما أدى إلى حصاد شحيح ^(١) .

١٥ - ولم يكن الضغط التركي والوباء والغلاء بالنير الوحيد الضاغط على أعناق القبط إذ أثقل الكاثوليك بدورهم هؤلاء المتعبين . فقد لاحظ الحبر الروماني أن الترك يميزون الروم على القبط فيستخدمونهم ويتعاملون معهم بدلاً من أولاد مصر الأصليين . فزعم أنه يستطيع الصيد في الماء المكر وأرسل بعضاً من الرهبان اليسوعيين ليتقابلوا مع البسايا الاسكندري ويعملوا على اقتناعه بالانضواء تحت رياسة الكرسي الروماني . فلما مثلوا فعلاً بين يدي الأنبا يونس أفهموه بأنهم لن يمرضوا لعقيدته ولن يطالبوه هو أن يحيد عما تسلبه من الآباء السالفين . فقرر أن يعقد مجمعاً لعرض الأمر عليه . وانعقد المجمع في فبراير سنة ١٥٨٢ في مدينة

منف . وبالطبع أدت المناقشات الجمعية إلى وجود فريقين : فريق استهوتته الوعود
الخطابة فرأى أنه لا مانع من الانضمام إلى الكرمى الرومانى ، وفريق عارضه أشد
المعارضة معلناً أن الأفضل هو أن يحتفظوا باستقلالهم ويحصرُوا ولاهم داخل
حدود مصر مـها بلغ بهم الاضطهاد اقتداءً بأجدادهم من أن يسلموا قيادهم لرياسة
أجنبية مذهباً ووطنياً . ومع أن الأنبا يونس الرابع عشر كان أميل إلى الفريق
الأول إلا أنه لم يبت فى الأمر بشكل حاسم احتراماً لرأى الأغلبية .

١٦ - ثم انفض الاجتماع وتفرق أعضاؤه لأن الوالى التركى أخذ يتشدد فى

معاملة البابا المرقسى مما اضطره إلى السفر إلى الاسكندرية وخلال غيابه الشغل
مندوبو رومية فى اعداد المعاهدة التى كانوا يضمرون ابرامها . ثم ظن الأنبا يونس
أن فى مقدروه أن يعود إلى القاهرة ولكنه أحس بالمرض يدب إلى جسمه
ورغم المرض رأى من الأوفق أن يعود حتى لا يمتطّل المندوبين الرومانيين عن
الرجوع إلى بلادهم . فركب مركباً فى النيل قاصداً العودة . إلا أنه بدلاً من
الوصول إلى القاهرة وصل إلى اورشليم السائية . وأشاع المندوبون الكاثوليك
يومذاك بأن المعارضين قد دستوا له السم خوفاً من أن يوقع على المعاهدة معهم .
أما مبعوثو الحبر الرومانى فقد ارتاب الوالى فى أمرهم فقبض عليهم بوصفهم
جواسيس واتهمهم بأنهم يشيرون الفتنة بين رعاياه . ولما أفرج عنهم بعد أيام
نظير فدية قدرها خمسة آلاف قطعة من الذهب فعادوا لساعتهم إلى بلادهم (١) .

ومن الشهادات التى توضح ما بذله الكاثوليك من جهد وما لقوه من رفض
خطاب أرسله سيريل لوكار (٢) إلى سفيرهم فى لاهى رداً على خطاب ذلك السفير

(١) جورج مفار (كاثوليكى) - تاريخ كنيسة الاسكندرية (بالفرنسية) ص ٢٢٢

٢٢٤ ، سلسلة .. الحلقة الرابعة ص ٧٧ - ٨٠ .

(٢) البطريرك الكاثوليكى (الحلقيدونى) للاسكندرية سنة ١٥٩٤ - سنة ١٦١٢ .

يحدثه فيه عن الهرطقة في الشرق ، وقد جاء في ذلك الخطاب ما ترجمته :
... لقد بذل البابا كليمنت الثامن الشيء الكثير كما احتل الشيء الكثير
ليصل إلى اتفاق معهم . وستضحك يا سيدي لو أنك عرفت الدهاء الذي استعمله
القبط في هذا الشأن وإلى أي مدى انطى على البابا ، مع أن بارونيوس المؤرخ
الجديد ، قبل أن يتعرف على واقعية الأمور ، وربما تزامناً منه لكي يثبت تبعاً
للعادة المتبعة في بلاط روما ، كان متعجلاً في أن يمنحه الفخر في كونه حقيقياً
القبط إلى كنيسة روما ، فاختر أن يقدم تقريراً عن هذا التوفيق في سجلاته ،
وقد ثبت بعد ذلك بقليل أن كل ما قاله باطل تماماً (١) .

أما الأنبا يؤنس الرابع عشر فبعد الصلاة الجنائزية حملوا جسده إلى برما
(قرب طنطا) حيث دفنوه في كنيستها . وبعد فترة نقلوه إلى برية شيمت .

١٧ - ومع كل هذه المحن فقد تبقى لنا من هذه النثرة مخطوطة تتألف من
جزئين ، كتبت عناوينها بالمداد الأحمر والأسود ، وهي مكتوبة باللغتين القبطية
والعربية ، وبعض نصوصها العربية مشككة . وقد كتبها فضيل الله ابن تادوس
طوعاً لرجاء الأرخن الشماس الأسعد إبراهيم ناظر كنيسة السيدة المذراء بحارة

(١) قاموس البر المسيحية ج ١ ص ٦٧٩ حيث قيل :

"Pope Clement VIII of Rome both did and bore many things
to come to an arrangement with them; and you would laugh
sir, if you knew what arts the Copts used in the business,
and how much the Pope was imposed upon; although Baronius
the new historian, before he became acquainted with the real
state of things, and perhaps with a view to father Clement,
after the fashion of the court of Rome, was in a hurry to
give the credit of having accomplished by his newly-acquired
industry the conversion of the Copts to the church of Rome,
and chose to give an account of it in his annals, which
proved, not long after, to be entirely false . . ."

زويلة ، والجزء الأول يتضمن شعائر تقديس الماء الخاصة بعيد الغطاس المجيد ،
يتبعها ما تجب قراءته على اللسان يوم الخميس الكبير . أما الجزء الثاني فيشتمل
على قانون وضعه أبونا الأسقف أنبا بطرس أسقف مدينة البهنسي يقرأ على
القصرية في الخامس من أبيب - عيد آباءنا الرسل بطرس وبولس (١) .

١٨ - ولم تقف أوجاع القبط عند هذا الحد بل تضاعفت أضعافاً . ذلك أن
النوبيين كان عليهم أن يدفعوا الجزية لحاكم مصر . وكثيراً ما كانوا يتعاضلون
عن دفعها . وكثيراً ما كانوا يحاربون المصريين في المنطقة المتاخمة لبلدهم فإذا
ما انتصروا استمروا في زحفهم شمالاً . ولكنهم كانوا يرتضون دائماً - في
نهاية الأمر - بالتفاوض ويعودون إلى بلادهم حتى حين ينتصرون . على أن
العثمانيين تمسقوا في حكمهم أكثر من غيرهم وضيّقوا الحناق على النوبيين إلى حد
أن الحكومة النوبية أصبحت في أيدي المسلمين بعد أن كانت منذ نهاية الوثنية في
أيدي المسيحيين . فقد سطا أوزديمر الوالي الشركسي لليمن على النوبة واستولى
على منطقة ابريم التي كانت بمثابة الحصن الراقى للنوبة الجنوبية . وحين سيطر على
المنطقة أقام فيها حاميات من الجنود الشركسية في أسوان و ابريم وصاي (٢) .
وباستقرار الحكام الموفدين من قبل الأتراك في النوبة أصبح التعذيب والارهاب
وابتزاز الاموال وسائل المعتادة . وتنج عن هذه الخطة الفشوم أن المسيحيين
من النوبيين اتخذوا طرقاً ثلاثة (كل حسب تقديره) : الاستشهاد ، الهجرة ،
التحول إلى الاسلام . وبذلك زالت المسيحية من النوبة تماماً (٣) .

(١) مخطوطة ١٦٣ (رقم ١١٥٤) محفوظة بمكتبة المتحف القبطي بمصر عتيقة .

(٢) « مصر والهلل الخصب » (بالانجليزية) لهوت ص ٥٤ .

(٣) يقول بروفيسور بلوملي المستشرق والأستاذ بجامعة كامبردج بأن تاريخ النوبة لا بد
أن تعاد كتابته بعد دراسة المخطوطات التي عثر عليها صدفة خلال الجهود التي كانت مبدولة
لأيقاظ أهر سمبل وغيره من المعابد الفرعونية في النوبة .

١٩ - ولم يقتصر الاستشهاد آنذاك على النوبيين . ومع أن سجلاتنا ضئيلة فإن فيها اشارات أشبه بالسكوى الضيقة التي تسمع لحيط من النور أن يمر . ومن هذه الحيوط الضوئية حادثة استشهاد يوحنا القليوبي الراهب بدير الانبا يشوي . فقد حدث أن اقتنصه أحد الحكام خارج الدير ولم يكتفِ بمنعه من العودة إلى البرية المقدسة بل أراد اقصاءه على انكار المسيح له المجد . ورفض الراهب رفضاً باتاً أن يحدد سيده . فصدر الحكم عليه بغرس السكاكين الحادة في يديه وايقاد مشاعل على كتفيه ووضع على جمل يطوف به شوارع المدينة تحيط به الفوغاء الصاخبة . فتحمل هذا كله في صمت تام . ويبدو أن هدمه زاد الحاكم غضباً فأصدر أمره بربط يوحنا على عود من الخشب . وخلال ضربه وتعذيبه استودع روحه بين يدي الآب السماوي ونال منه الإكليل المعد للذين يصبرون إلى المنتهى . وكان استشهاد الراهب القديس يوحنا القليوبي يوم الأحد المبارك الموافق ٣٠ هاتور سنة ١٢٩٨ ش (١٥٨٢/١٢/٦) . وفي اليوم التالي أنزلوا جثمانه الطاهر عن الخشبة وسلموه للقبط الذين مضوا به إلى كنيسة القديسة الشهيد برباره بمصر القديمة حيث أقاموا عليه الصلوات الكنسية ورفعوا الأصرار المقدسة ثم دفنوه بتلك البيعة المقدسة مشوي الشهداء .^(١)

٢٠ - ومن مخلفات هذا العصر ميمر كتبه ، أحد الآباء^(٢) ، في مدح رئيس جند السمايين الملك ميخائيل . وفي المقدمة التي تلي العنوان مباشرة وردت هذه الكلمات : ان هناك كنيسة كرست في أعلى جبل النقلون ، وأن الهيكل بدير الخندق

(١) أورد هذه السيرة كامل صالح نخله في كتابه سلسلة تاريخ بطاركة الأسكندرية - الحلقة الرابعة - ص ٨١ نقلاً عن كتاب تاريخ الميرون رقم ١٠٦ طمس تأليف الأنبا أنابوس أسقف قوس . وهذا الكتاب محفوظ بمكتبة الدار البابوية بالقاهرة .

(٢) هذا الأب هو أيضاً ضمن الجنود المجهولين .

قد كرسه البابا يوحنا الاسكندري^(١) كما كرس كنيسة الملاك غبريال في
 بلدة دانا .
 والميمر يوضح التكريم الواجب نحو رئيس الملائكة ميخائيل وغبريال ،
 والتكريم الخاص الواجب من المؤمنين نحو السيدة المذراء . وقد وضع هذا
 الميمر في كنيسة الخندق الملاصقة لكنيسة الملاك ميخائيل لكي يُقرأ يوم
 ٢٦ يونيو^(٢) .

والكتاب المتضمن لهذا الميمر يشتمل على ميمر ثان وضعه أرشلاوس أسقف
 ايرا^(٣) في مديح رئيس الملائكة غبريال يوم تذكاره - وهو ٢٢ كيهك .



نبيون وشهداء^(٤) .
 منه تسمى قريته ناعنار^(٥) .

رغمنا : ايضا ناعنار .
 (١) لا تعرف على وجه التحديد من هو هذا البابا لأن الذين يحملون اسم « يونس » في
 هذه الفترة أكثر من واحد والمخطوطة لا تحمل تاريخاً . ولكن الباحثين يرجعون أنها
 كتبت ما بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر .
 (٢) المخطوطة ٦٦ - ٤٨ ، أدب - محفوظة بمكتبة المتحف القبطي بمصر العتيقة .
 (٣) لا يعرف بالضبط مكان هذه الأسقفية .

٢٠- الانبا غريال الثامن

٢٤- معاودة المناورات الرومانية

٢٥- تيقظ الراعي

٢٦- نياحته في رحاب الدير

٢١- ضغوط المحيقة

٢٢- فتك مضاعف

٢٣- الحيط الذهبي

٢١- لم تكن النفوس مستقرة من جراء كل الضغوط المحيقة بها فلا غرابة إذن في أن السدة المرقسية ظلت شاغرة ما يريد على تسعة أشهر . ثم رأى الاساقفة أن يتداركوا الامر فأرسلوا يدعون الأراخنة للتشاور معهم . ومن نعمة الله أن اتفقت كلمتهم فأجمعوا على انتخاب شئوده الراهب بدير الانبا يشوى . وفرحتهم بهذا الانسجام الإجماعي حملوا بخسارهم إلى كنيسة القديس مرقوريوس (أبى السيفين) بمصر العتيقة فوراً حيث أقيمت المراسيم التي ترفع الراهب البسيط إلى كرامة البابوية وتنظمه ضمن خلفاء مار مرقس الرسول . وقد أظفروا عليه اسم غريال الثامن إذ قد تمت الرسامة في يوم الاحتفال بعيد الملاك المبشر غريال ، ورأس الصلوات الانبا زخارياس أسقف القدس .

وقد أقام الانبا غريال الثامن في كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة التي كانت المقر البابوي آنذاك .

٢٢- وحدثت اضطرابات ومشاغبات عديدة في عهد هذا البابا المرقسي

نتيجة لإشتباكات الجند مع الشعب . ذلك أن الضرائب لم يكن لها نظام معين ولا مقدار معين بل كانت موكولة إلى الوالى والمماليك : فالوالى يفرضها كيفما شاء وأينما شاء ، والمماليك بدورهم يضيفون عليها ما يرونه من زيادة لمصلحتهم ، والملازمة الذين كانوا معينين لجمع هذه الضرائب كانوا يستولون عليها بعنف بعد أن يضيفوا عليها ما يسد رغباتهم الخاصة . فسرى الظلم وقتذاك سرعان السموم

الفتاك : ولم يفتك بالناس وبقوام الإنساجية فقط بل تعدّاهم إلى الفتك بالتداولات التجارية والمحاصيل الزراعية . ومرة أخرى أدّى أخطأ إلى تفشي الطاعون الذي حصد الناس حصداً ، وتضاعف الخطب بحدوث زلزال عنيف أسقط عدداً من المنازل والمنارات ، بل وتقلّص من شدته جبل المقطم إلى ثلاث فاق قرب اطفيح ، وتفجر الماء من هذا التفتق (١١)

ويبدو أن هذا القلق النفسى الذى تسرّب إلى الناس قد أدّى بهم إلى اعتياد التدخين الذى ظهر لأول مرة فى مصر فى هذه الفترة من التاريخ لأن المصريين لم يكونوا يعرفون ما هو التدخين قبل ذلك (١٢)

٢٣ - وعلى الرغم من تلبّد الغيوم فقد كان هناك من القبط من استموتهم المثل العليا لجاهدوا لحفظ الإيمان ، بل ولتوصيله الأجيال المقبلة . ومن الأمثلة على هذا الجهاد مخطوطة لا تحمل تاريخاً يرجّح الباحثون أنها ترجع إلى هذه الحقبة . وكاتب هذه المخطوطة اسمه جرجس بن يوسف المنصورى شماس دار الأحباش . وقد كتب العنوان والتفقيط بالأحمر . وقد جاء على ورقة ٢٥ (ظهر) ما يلى : تمت فى ٣ برمات (أغفل ذكر السنة) الذى هو عيد تذكّر استشهاد الشهيد العظيم القمص أبو حديد وقد نال إكليل الشهادة فى سنة (يليها سطر على بياض) للهجرة (١٣)

٢٤ - ووسط كل هذه الضيقات عاود بابا رومية مناورته لهله يظفر حيث

(١) تاريخ مصر من الفتح العثمانى الى قبيل الوقت الحاضر لعمر الاسكندرى وسليم

حسن ص ٧٧

(٢) الشهابى (شرحه) ص ٦٢٢ .

(٣) مخطوطة ٣٨ (٢٧٥٠ تاريخ) مخطوطة مكتبة المتحف القبطى وهذا أيضاً شهيد

لا يعرف غيره اسمه

فشل غيره فأرسل إلى البابا الاسكندري رساله موصياً إياهم بأن يتفاهروا بالتساهل
والتودد وعلى الرغم من كلماتهم الممسولة فقد بدت الحقيقة سافرة : وهي أن
الحبر الروماني هو السيد الأعلى ، وليس على المسيحيين في مختلف الاقطار إلا أن
يقدموا له فروض الولاء . فامتلات نفوس القبط - وعلى رأسهم باباهم - حماسة
على الوديعه التي تسلبوها من أجدادهم وعلى استقلال كنيستهم وكرامتهم ، وعلى
أحاديثهم الوطنية . ومع أن مبعوثي رومية استمروا في مفاوضاتهم أياماً عديدة
إلا أن كل هذه المفاوضات انتهت بالفشل كما انتهت سابقاتها (١) ،

ولكن المطامع الرومانية لم تنشف لهذا الفشل فتركت الام لتجرى وراء إبتها .
فقد غادر المبعوثون الكاثوليك مصر ليذهب زميل لهم إلى الحبشة - هو الراهب
اليسوعي بدروبايز . وكان ذلك في أيام العاهل الحبشي بمقرب ملك سجد الثاني
واسقفية الانبا خرستودوللو الذي تولى مطرانية الحبشة سنة ١٥٩٠ .

على أن الأحباش ما كادوا يجبرون بدروبايز في مصوغ حتى سجنوه .
واكنهم لم يلبثوا أن أطلقوا مراحة ثم سمحوا له بالإقامة في مدينة فريمونا . وحين
وجد نفسه طليقاً ركز جهوده على تعلم لغة البلاد إلى أن أتقنها . وحالما نجح في
هذا بدأ عمله الذي جاء من أجله .

٢٥ - ووصلت أنباء نشاطه إلى الانبا غبريال فبعث برسالة أبوية إلى الملك
وإلى اكليروس الحبشة وشعبها يحذّرهم جميعاً من الانحراف عن العقيدة
الارثوذكسية التي دفع الشهداء دماهم ثمناً لها ، وحافظ الآباء عليها في إصرار
رغم كل اضطهاد . ولقد أطاع الاكليروس والشعب توصيات باباهم . ولكن
الملك زادنجل عسفاف الذي كان قد استهواه بدروبايز اليسوعي رفض نصيح

(١) تاريخ الامة القبطية لمقرب نخله روفيلة ص ٢٥٠ . نقله (٢)

البابا المرقسي . وبالطبع وجد من يتحاز إليه من أمرائه ورجال حكومته . وقد رأى الأتبا خريستودوللو بأزاء هذا الرفض أن يسمى إلى إقناع الملك بطاعة الآب الروحي الأعلى فلم يفلح . فمردده بالحرم إن هو آمن في مسأيرة الراهب الروماني . ولكن الملك ظل صامئاً أذنيه . فلما فشلت كل المحاولات في إرجاع الملك إلى صوابه أعلن المطران القبطي حرمه . وما أن سمع الشعب بهذا الحرم حتى شقَّ عما الطاعة على ملكه وقام بحاربه وانتصر عليه وقتله في المعركة (١) . وهكذا أدى التدخل الروماني إلى إصدار الحرم على بعض أبناء الكتيبة وإلى التمرّد الشعبي وإلى الفتنة الأهلية .

٢٦ - ثم أراد البابا المرقسي أن يستروح غير الآباء ليجد فيه تقوية لروحه وبالتالى تقوية ، لشعبه . فذهب إلى وادى النطرون ليقضى بعض الأيام بين رهبانه ، وبخاصة لأنه كان قد قضى سنى رهبنته بتلك البقعة المقدسة . على أنه ما كاد يصل إلى دير السيدة العذراء (المريبان) حتى طارت روحه إلى العالم العلوي تاركة وراءها مظالم هذا العالم ومآسبه . فأقيمت عليه مراسم الصلوات الجنائزية هناك ، ودفن بالأكرام اللائق في بيعة ذلك الدير المقدس (٢) .

ومرة أخرى نجد خطاباً من سيريل لوكار إلى رئيس أساقفة سيالانثرو يشير فيه إلى البعثة القبطية المزعومة إلى كليمنت الثامن فيصفها بأنها « نصب » و « حيلة » و « مهزلة » . وفي خطاب ثالث إلى السيد دى ويلهم يتحدث عن

(١) يعقوب نخله روفيله : ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

(٢) سلسلة . . . الحلقة الرابعة ص ٨٦ .

المصائب التي يبدوا أنها أصابت القبط على أثر نيساحة باباها فيقول في فسوة :
 و هؤلاء المساكين التمساء يسرون من سوء إلى أسوأ ، ولا يمكن أن تتوقع في
 النهاية غير خرابهم التام لأنهم لا يرضون بأن يضموا أنفسهم تحت حكمنا ، الأمر
 الذي حاول سلفائي على مدى سنين طويلة أن يبلغوه فكانت جهودهم فشلا وعبثاً
 بما جعلني أن أصمم على عدم السير فيه ، (١)



افتتاحاً من أسبوع . فلهذا بالذات في ١١ يونيو ١٦٧٩
 طابع غريب شاذ . فبالله أعلم كيف تقاتلت بتابعيه فلهذا مني
 بيدينا في ذلك وما نعدنا بتغييره في رأينا بل نعدنا بزيادة ذلك
 راجعاً بالذات في هذا اليوم والى ما نعدنا في ذلك . و يقرر ،
 راجعاً من رأينا في ذلك . فلهذا بالذات في ١١ يونيو ١٦٧٩ . فلهذا

(١) قاموس السير المسيحية ج ١ ص ٦٧٩ حيث جاء :
 "In another letter, addressed to the Archbishop of Spalatro,
 he alludes again to the so-called Coptic embassy to Clement
 VIII, and calls it "an imposture", "a trick", "a farce".
 and in a third letter to a M. de Wilhelm, when speaking of
 the troubles which had apparently lately come upon the
 Copts through the death of their patriarch, he has the
 heartlessness to write : "... These poor wretches go on from
 bad to worse, and one can expect no other end but their total
 ruin, because they will not place themselves under our
 government; which as my predecessors tried for many years
 with loss and in vain, I have determined not to undertake".

د- الأنبا مرقس الخامس

٢٧ - الاجماع على انتخاب مرقس المكارى ٢٩ - انحراف مزعج

٢٨ - الدأب على تفقد الشعب ٣٠ - تربص الصقر

٣١ - الصمود فى جبهتين ثم الراحة الكبرى

٢٧ - وظل الكرمى المرقسى شاغراً فترة من الزمن (١١) إذ كيف يستطيع الاساقفة والارائنة أن يجتمعوا ويتشاوروا وسط الفتن والفتائل؟ إلا أن العناية الإلهية دائمة الفعالية لحركت المسئولين إلى وجوب العمل وبالضرورة الموضوعه عليهم . وبهذه الدفعة الإلهية اجتمعوا وتشاوروا فيمن يريدون انتخابه للرياسة العليا .

وكان فى بلدة البياضية رجل يعمل قياساً فى أعمال المساحة . وبعد أن اشتغل بهذه المهنة عدة سنوات اشتاقت نفسه إلى الحياة الرهبانية . فترك وظيفته وأهله وانضم إلى رهبان دير الأنبا مكارى أبى برية شيهيت واتخذ اسم الكاروز الحبيب مرقس . وقد اشتهر بين إخوانه بالصبر والورع وحب الخير والدأب على الخدمة . فلما اجتمع الاساقفة والارائنة للتشاور معاً اتفقوا برأى واحد على مرقس المكارى ، وبتدارسهم مزاياه أجمعوا على أنه الرجل الذى يشغونه . فذهبوا لغورهم إلى الدير واقتادوه إلى القاهرة . وتمت مراسم رسامته فى يوم الأحد الموافق ٢٦ يونيو سنة ١٣٢٧ ش فى كنيسة الشهيد العظيم مرقور يوس

(١) جاء فى بعض الكتب أنها لمدة شهر فقط بينما ذكر البعض الآخر أنها امتدت إلى عدة سنوات ، ولو رجنا إلى سجل الباطوات كما ورد مرقس سمكة فى «دليل المتحف القبطى» (وهو الذى ننبه) ج ٢ ص ١٦٨ لوجدنا أن الأنبا غبريال الثامن تنبع سنة ١٥٩٤ ، وأن الأنبا مرقس الخامس نال الكرامة البابوية سنة ١٦٠٣ - أى أن الفترة ما بين نياحة الواحد ورسامة الآخر بلغت ثمانى سنوات .

(أبي السيفين) . ورأس الصلوات الاحتفالية: أبنا خريشود وولر النقادى محتفظاً
له باسمه الكريم فأصبح الأبا مرقس الخامس البابا الاسكندري الثامن والتسعين .

٢٨ - واقد اشتر هذا البابا بسعة العلم والتضلع في الشرائع . ودأب على
تفقد شعبه فطاف بينهم من الدلتا إلى الصعيد ليقوى عزائمهم ويثبت ايمانهم . بل
لقد امتد اهتمامه بأبنائه إلى السفر للقدس لزيارة شعبه هناك . فتبرك بالمزارات
المقدسة ، وعائن أملاك البابوية ، ثم عين القمص يعقوب رئيساً لكنيسة القيامة
وأهاب بالشعب أن يتعاون معه في صيانة الممتلكات والحرص عليها بكل دقة .

٢٩ - وكان متاعب تلك الفترة لم تكن كافية إذ قد زاد بمصر اولاد الأبا
مرقس الخامس في وجمعه . ذلك أن قبض الدلتا زعموا أنه في الإمكان أنه يتزوج
المسيحي بأكثر من امرأة . فويختمهم وأفهمهم أن من يتزوج بأكثر من امرأة
ينجدي الشريعة المسيحية . ففضبوا لتوبيخه إيامهم وتمادوا في غيهم بأن طلبوا إلى
الوالى ان يسجنه . فلي طلبهم وأمر بحبسه في برج الاسكندرية . والموجع أن
مطران دمياط انحاز لهؤلاء الخاطئين المتمردين زعماً منه أنه بهذا الانحياز يحل
محل البابا المرقس ا وعلى أثر ذلك قام أراخنة القاهرة بواجب البنوة المكرمة
للأبوة فبذلوا كل جهودهم في سبيل الافراج عن بابام . ومن لعمة الله أن نجحت
مساعيمهم . فخرج الأبا مرقس مرفوع الرأس ، وجمع بحمسه وتناقشوا معاً في
الزواج المسيحي وهل هو بين رجل واحد وامرأة واحدة أم يحتمل تعدد
الزوجات . وانتهوا إلى أن السيد المسيح له المجد علم المؤمنين بأن الزوجية سر
مقدس وأنها واحدة لكل من الطرفين . ثم أصعدوا بعد ذلك الحكم بحرم
المطران الذى لسى كرامة الاسقفية وجرى مع من زاغوا .

ومن الواضح أن الله تعالى أنزل بالقبط الخاطئين العقاب على هذا الانحراف

رغم عودة البابا إلى كرسيه : فقد ضيق الولاة عليهم ثم أمروا بإبعادهم عن البلاد ، وبعد ذلك صادروا أموالهم وبددوا أرزاقهم^(١) .

على أن النصارى كان قاصراً على المحيط الكهنسي وحده لأن الشعب المصري إذ ذاك انتفض انتفاضة صريحة ضد التعسف التركي فقامت ثورة بدأت في طنطا وامتدت نحو القاهرة . ولكن جنود الولاة استطاعوا أن يخمّدوها بقسوة في الخانكة^(٢) .

٣٠ - أما الحبشة فقد ظل السلام مستتباً فيها إلى سنة ١٦٠٧ حين آل العرش إلى سوسينيوس . ومرت شهور بعد ذلك استمر فيها السلام فاشترى ألوته . على أن بندروبايز اليسوعي الذي ظل في الحبشة استمر يرقب أمورها بعيني الصقر منتظراً فرصة هوائية . ثم أخذ يعمل على استمالة قلب الملك حتى فاز به إلى حد جعله يعلن انضمامه إلى الكنيسة الكاثوليكية . وسكت الشعب في بادئ الأمر وهماً منه أن هذه نزوة ملكية عابرة وارتكناً إلى أن التجارب الماضية قد عصت الملك . على أنهم لم يلبثوا أن فوجئوا بأن الموضوع خطير لأن الملك أعلن انضمامه إلى كنيسة رومية . وزاد على ذلك بأن رحب بمنديز البطريرك الموفد له منها . فأخذ منديز يعامل الأقباط المحافظين على أنهم وثنيون بأن أغلق كنائسهم . أما من قبلوا الانضواء تحت رعايته فقد حتم عليهم إعادة معموديتهم ، كما حتم إعادة رسامة الكهنة منهم وإعادة تكريس الكنائس التي استولى عليها . فلم يؤد هذا كله إلا إلى قيام ثورة عارمة . وساند المطران القبطي الشعب في ثورته معلناً الحرم على كل من يخرج على العقيدة الأرثوذكسية . وعندها قامت حرب أهلية

(١) السكالي ج ٣ ص ٤٨ .

(٢) مصر والهلل الحصب ص ٧٥ .

مرة أخرى اشمرت ست سنوات راح ضحيتها المئود العديده من الشعب .
فتكررت المأساة : مأساة الحرب بين الإخوة التي أشعلتها الماطامع الرومانية (١١) .

٢٧ - ٢٨ - ٢٩ -

٣٠ - ٣١ - ٣٢ -

٣١ - وبالطبع دعم البابا المرقسي أبناءه المتمسكين بمقيدتهم فازدادوا ثباتاً .
فكان صمود الثابطين على أرثوذكسيتهم في تلك الفترة صموداً على جبهتين : الجبهة
الأولى في مصر في وجه البطش التركي ، والجبهة الثانية في الحبشة في مواجهة
الناورات الكاثوليكية . وفي تلك الفترة بالذات تم النصر لابناء الكنيسة

القبطية على الجبهتين .

وبعد أن نجح الانبا مرقس الخامس في قيادة دفعة الكنيسة بحكمة مدى إحدى
عشرة سنة انتقل إلى بيعة الأبقار . وبعد الصلاة عليه في كنيسة السيدة المذراء
بحارة زويلة - مقرر رياسته - نقلوا جثمانه الظاهر إلى دير الانبا مكاري الكبير
ببرية شيبيت (١٢) .



والا بعد ذلك ...

(١) بمقرب نخله روفيله س ٢٥١ - ٢٥٢ قاموس السير المسيحية ج ١ ص ٦٨٠ .
(٢) سلسلة ... ص ٩٢ .

٥- الأنبا يونس الخامس عشر

٣٥- في الحبشة ولى القدس

٣٢- وفاق روجي

٣٦- رحلتان راعويتان

٣٣- عطف ونزاهة

٣٧- خطبة مزدوجة

٣٤- استبداد تصاعدي

٢٨- مجهولات ضاعت واخرى باقية

٣٢- وكان يعيش في ملوى إذ ذاك رجل اسمه يونس عفيفاً عالمياً بالكتب

الروحية، لم يلبث أن ترك بلده واتجه نحو دير الأنبا أنطوني العظيم حيث تزهد.

وقد عاش عيشة نموذجية إذ عرف فيه اخوته نقارة القلب والمحبة الملتببة للكنيسة

والتقوى والورع. وانتشر عبر فضائله في ربوع مصر. فلا عجب أن اتجهت إليه

الإنتظار يوم أن شغرت السدة المرقسية، ولكن العجب في سرعة تنفيذ الرسامة

فصلته الأساقفة زمام الكنيسة بعد سبعة أيام فقط من نياحة سلفه إذ قدمت

شعائر رسامته يوم الأحد الموافق ١٥ / ٩ / ١٦٢١ م باسمه الرهباني فأصبح بذلك

الأنبا يونس الخامس عشر البابا الاسكندري التاسع والتسعين.

٣٣- ولقد تميّز هذا الأب بعطفه الشديد على الكهنة، وبزاهته التامة.

فلم يكن يحابي انساناً مهما علت منزلته ولم يكن يظلم انساناً مهما بلغت ضعفه.

هذا الانصاف الدقيق جعل شعبه يطلق عليه لقب «القاضي العادل».

٣٤- ومع أن التنظيم المسدني الذي كان موضوعاً للعمل به في مصر كان

شديداً ليضمن تدرجه استقرار الامور إلا أن طريقة تنفيذه أضاعت قيمته

تماماً. لان كل طبقة من المسؤولين كانت بمثابة الجاسوس على الطبقة التي تليها

تتربص بها وتنقض عليها في كل مناسبة. فالصناجق - أو حكام الاقليم - كان

عليهم الاشراف على الري والزراعة وإقامة الجسور الضرورية، كما كان عليهم

حماية الفلاحين من عبث العربان . وكان جميعهم من المماليك الذين لا يدركون معنى المسؤولية ولا يهمهم غير ابتزاز الاموال التي يجمعونها ليستمتعوا بها في القاهرة تاركين الامور لنوابهم - الكششاف . وكان الهم الاكبر للكاشف الاشراف على جمع الاموال الاميرية ومراقبة جامعيتها . وجمع هذه الاموال كان من الواجبات الموضوعة على القبط . وليس من شك في أن الذي وكل إليهم هذا الواجب كان على جانب كبير من الدهاء . لان جامع المال مكروه حتى إن كان سهل المعاملة . واحسن كيف يتأتى له أن يتساهل والسكر باج مسلط فوق ظهره ؟ ثم كيف يستطيع الكاشف المشرف عليه أن يتساح معه وهو بدوره تحت ضغط الصنوج (المملوك) ؟ فكان الحكم إرهابيا لم يكن ممكنا لاحد أن يفك حلقاته المفرغة غير المماليك بأزاء الوالي - الباشا - الموفد من سلطان تركيا . لانهم كثيراً ما كانوا يتكثرون ضده ، بل كثيراً ما تسبوا في عودته إلى بلاده .

ولم تكن الاموال المفروضة على اصحاب الوظائف وعلى المزارعين بالضريبة الوحيدة التي كان يجب على الاقباط اداؤها ، بل كان عليهم دفع الجزية أيضاً (اى ضريبة المظلوم للغالب) . واحيانا كانت تضاف إليها ضريبة خاصة تعرف بالحوالي ، - وهي ضريبة على الفرد (١) .

ومما زاد الطين بلة أن السنوات الاولى من القرن السابع عشر فاضت بالتمرد على الباشوات واحداً بعد الآخر بل لقد تحالف جند الباشا مع المماليك سنة ١٦٠٨ على العصيان لعدم موافقتهم على فرض ضرائب تصفية . إلا أن الوالي (الباشا) تمكن من ردع العصاة يومذاك (٢) .

(١) المجلد . . تاريخ مصر في العهد العثماني لحسن عثمان ص ٢٥٤ .

(٢) النهائي ص ٦٢٥ .

وخلال كل هذه الاضطرابات ذاق القبط ظلماً مضاعفاً : فكثيراً ما كانوا يلزمونهم بالسير على الشمال ليركوا اليمين لغيرهم ، وكثيراً ما كانوا يمنعونهم من ركوب الخيل . وما هو أمرٌ من هذا كله : كثيراً ما كانوا يمنعونهم من إقامة شمامهم الدينية . والتضييق بكل أنواعه في العصر التركي كان لهدف واحد هو جمع المال . فاذا ما استطاع القبط - أفراداً أو جماعات - أن يرضوا جشع الولاة بما يقدمونه من مال انفرجت الضيقة إلى حين (١) .

٢٥ - وخلال هذه الفترة استمر الشعب الحبشي يعاني الأمرين نتيجة لاستمرار نشاط الرهبان اليسوعيين الذين أهتمهم رغبتهم في السيطرة عن وجوب احترام كنيسة وطنية قديمة بناها القبط والاحباش معاً بدمائهم وجهودهم ومحبتهم . وما يجدر ذكره أن القدس كانت آنذاك تابعة لصر الذي كان لواليا السلطة المباشرة على المدينة المقدسة (٢) .

٢٦ - وبما أن قلب الأبا يونس الخامس عشر كان ملتجئاً بحب الكنيسة فقد فاض بحب أولاد الكنيسة وبدافع هذه المحبة الفياضة ، وعلى الرغم من الفتن والسلاقل ، استطاع أن يقوم برحلتين راعويتين خلال بابويته التي قاربت العشر سنوات .

٢٧ - وبعد أن أتم رحلته الثانية ، وكان في طريق العودة رأى أن بيت ليلة في أبنوب في بيت رجل اسمه ابن حويده . وكان هذا الرجل من أثرياء القبط في تلك المنطقة ، ممن زاغوا عن الحق إذ كان يمارس التمسرى . فقصده البابا إلى بيته لينصحه ويردعه .

(١) موجز تاريخ البطارقة ليعقوب جرجس وباشراف زاهر رياض = ٢ ص ٧١ .

(٢) القديس عبر التاريخ لپيغابيل مكسي ص ٦٩ .

ومهما الأبا يولس من لومه في منتصف تلك الليلة لما أحس به من وجع شديد في بطنه . فطلب مراكباً عند مطلع الصبح ركبها قاصداً السفر إلى مصر العتيقة فوراً . ولكن الوجع اشتد عليه في الطريق إلى حد أنه تضى عليه . فذهب به رجاله إلى البياضية حيث صلوا عليه ودفنوه في دير القديس أنبا بيشاي . ويرى المؤرخون أن ابن حوادة أضاف إلى خطيته جريمة القتل إذ دس السم لباباه في شرابه . فبدلاً من أن يتوب عن الخطية التي وبخه عليها باباه ، أوحق بدلاً من التزام الصمت بأزاء وقار الموضع ، اندفع بغريزته الشهوانية إلى قتل خليفة مار مرقس وهذه الجريمة الشنعاء أفقد القبط أبا رحيماً عادلاً محباً (١) . وكانت مدة رياسته تسع سنوات وأحد عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً .

٣٨ - وأحد المعاصرين لهذا البابا الساهر الذي راح شهيداً واجبه ، هو الأبا بطرس مطران البهنسة . ومن مآثره على شعب الكنيسة عبر الأجيال اهتمامه بتدوين القراءات الواجب تلاوتها كل يوم تبعاً للتذكار الذي تحتفى به الكنيسة يومذاك . والطريف أنه كتب هذه القراءات في قالب شعري . ولكن بما يؤسف له أنها ضاعت .

غير أن هناك مخطوطة باقية ترجع إلى هذه الفترة ، وهي ذات طابع خاص وتتضمن مختلف الأجزاء وجزؤها الخامس رسالة الأبا مكاري الكبير أبي بريلا شيهيت جاء فيها : « رسالة من الأب المكرم أنبا مقار (الذي) سمعها من ملاك الرب الموكل بالنفس وهو يوبخها ويكتسبها على فعل الخطايا . يا أحبباء المؤمنين بالله السلام . السلام لكم . ومع كلام ملاك الرب للنفس الانسان الموكل بها لترتدع عن أفعالها الدميعة . »

وفاسخ المخطوطة هو أيضاً رسّام للصور المقدسة واسمه أوريبال ، وهو شماس وابن القس أبو المنا . وفي الورقة ١٤٧ (ظهر) ملحوظة تفيد أن المخطوطة وقف على كنييسة السيدة العذراء المعروفة بالدمشقية . وكاتب الملحوظة هو الايفومانس غريبال كاهن تلك الكنييسة الذي وضع عليها تاريخها وهو سنة ١٤٢٧ ش (١) .

القس يوسف الزير البرماوى : كان خادماً لكنيسة مار جرجس ببرما ، ويؤخذ من كتاباته أنه حاصر الباباوين : الأبا يونس الخامس عشر وخليفته المباشر الأبا متاوس الثالث . والشئ الوحيد الذي نعرفه عنه إلى جانب كهنوته هو أنه كان كاتباً للأمير غيطاس . وقد أخبرنا أنه وضع بعض كتاباته في بيته الخاص وبهجتها في دار الأمير الذي كان حين يراه يكتب يدعه في عملة ولا يتخذه منه . ومن النكيب المتبقية عنه مخطوطة محفوظة بالمنحف القبطى رقم ٣١٢ مكتوبة بالقبطية والغزية والتركية . وهذه المخطوطة - مع كونها أبصالية - تتضمن صلوات البهجة أيضاً . ويذكر كاتبها أنه وضع هذه الصلوات تبعاً للترتيب الذى أتبعه أبنا غريبال بن تريك البابا الاسكندرى السبعون . وثمة مخطوطة أخرى محفوظة بالكنيسة في برما تشتمل على عدة أبصاليات باللغتين القبطية والعربية منها : أبصالية للشهيد العظيم مار جرجس مرتبة على الحروف الأبجدية القبطية توضح لنا إلى أى مدى كان القس يوسف يجيد لغته القومية ، أبصالية توسلية للعزة الإلهية . وقد وضع لها مقدمة فيها شئ من الفكاهة ترغيباً للقارىء في مطالعتها . فقد قال . . . أبصالية أدام ليس لها طالب وليس لها راغب . رتبها من شقاوتى بخصوص كتابتى . . . وما الجانى إلى هذا إلا كثرة فشارى وخفة

(١) مخطوطة ٤٦ (٣٠ أدب) محفوظة بمكتبة المتحف القبطى .

عباري وعدم اعتباري . فأرجو يا قاري تطلب من الله نحو أوزاري ، وله أيضاً كتاب خاص باللغات ضمنه مديحاً لقدمي بريه شبيبت يترنم به زوار هذه البرية عند ذهابهم إليها . وهذه المديحة تبين لنا فصاحة القس يوسف وتفوقه في

اللغة العربية . (١)
 قباغ تسوما ويصعد سالماً - ١٤٧
 قتياء قهالمة يولد وقات - ١٥٠

وللآن لا نعرف إن كان عمله عند الأمير عن اختيار أو اضطرار . ولكننا نعرف أن الظاهر بيبرس أختلى طزف ابن كبر عند رسامته كاهناً على كنيسته السيدة العذراء (المعلقة) . ولكن قد يرفض غيره التخلي عن كاتبه حتى إذا أصبح كاهناً . على أية حال ليس لدينا إجابة قاطعة في هذا الموضوع (١) .



للأمة . تليق بالآراء والسنن في هذا الباب . (١)
 في هذا المقام لابد من الإشارة إلى أن القس يوسف كان من أعلام اللغة العربية .
 (١) قتياء قهالمة يولد وقات - ١٥٠

(١) من مقال للقس أرمانوس حبشي شتا البرماوي لشرة بمجلة المحبة - العدد الرابع من السنة الخامسة - أبريل سنة ١٩٣٩ م - ٢٩٨ - ٣٠٣ بعنوان القس يوسف الزبير البرماوي .

الشباب المتعرجة

١- أنبا متاوس الثالث

- ٣٩- ادراك صحيح للمسئولية
٤٠- سلام عابر لمؤامرة دنيئة
٤١- زيارة مبروكة
٤٢- « راحة السلام » (١)
٤٣- قحط وتخريب
٤٤- حادث غارة في الغرابة
٤٥- استتباب الامن في الحبشة
٤٦- سباحة في غير محلها
٤٧- زيارة رعوية للوجه البحري
٤٨- تطلع نسوي
٤٩- مقيب رائق

٣٩- ووسط القلق والفوضى ، وأمام المباغثة المريرة التي هزّت الشعب من تردّي أحد أبنائه في هوة الخطية السحيقة ، أدرك الجميع بأن الضرورة الموضوعية عليهم هي أن يسارعوا إلى انتخاب الراعي الأعلى الذي يمكن للناس أن يفرغوا إليه في شدتهم فدفعهم هذا الادراك الصحيح لمسئوليتهم إلى الاجتماع والتشاور: فدعا الاساقفة الارباخنة وتبادلوا وإياهم الرأي فيمن يختارونه. وفيما هم يتشاورون أرشدهم الروح القدس إلى راهب اسمه تادرس في دير الانبيا مكارى الكبير . وبالبحث تبين لهم أن هذا الراهب ولد في طوخ النصارى بالمنوفية من أبوين تقيين اشتهرا بخوف الله وبالصلاح ، سهر على تربيته فأنشأه على التملكتي بعلوم الكنيسة والحقاہ بكتّاب البلدة (١٢).

ولما بلغ سن الشباب تافت نفسه إلى حياة الخلوة والتأمل في الإلهيات . وكلما ازداد تفكيراً في الموضوع ازدادت نفسه شوقاً إليه . فلما طغى عليه هذا الشوق ترك أهله وبلدته واتجه نحو برية شيهت قاصداً إلى دير الانبيا مكارى الكبير .

(١) تعبير من تعبيرات القديس الإلهي .
(٢) الكتاب اسم المدرسة التي كانت - خلال العصور الوسطى - ملحقه بالكنيسة أو بالجامع . وكانت هذه المدارس هي الشائعة في بلادنا حتى أواخر القرن التاسع عشر .

واتخذ من حياة هذا القديس العظيم نجمة الهادي الذي سار على ضوئه . فدرّب نفسه على التواضع وعلى خدمة الآخرين في وداعة ومحبة . ووجد فيه الرهبان اخاً محباً عطوفاً مثقلاً صلاحاً وملتهباً غيرته فانتخبوه ليكون رئيساً عليهم ، ورجوا من البابا رسالته قسماً فقصصاً . فزاده الكهنوت محبة وتفانياً . فلما استعرض الاماكنة والاراخنة سيرة هذا الراهب القمص اجمعوا على انتخابه . فتمت رسالته يوم الاحد ٨ سبتمبر سنة ١٦٣١ باسم متاوس الثالث . وبذلك أصبح المنه في سلسلة الباباوات المرقسيين .

٤ . وكانت الفترة الاولى لبابويته فترة من تلك الفترات العابرة الممتلئة سلاماً . فنعيم الشعب بالصلاة ونعم البابا بتفقدته شعبه ورعايته .

على أن السلام لم يلبث أن تبخر . ذلك أن نفراً من اخوان السود قابلوا الوالي - خليل باشا - وأوغروا صدره ضد الالبابا متاوس بأن افهموه أن من يقام بطريقاً عليه أن يدفع رسماً معيناً للوالي وبالطبع اخذوا على عاتقهم المبالغة في مقدار هذا الرسم فزعم خليل باشا أن البابا المرقسي تجاهله شخصياً وتجاهل دفع المبلغ المفروض وأرسل يستدعي رجل الله .

وسمع بعض الاراخنة بهذه المؤامرة المدبرة ضد ابيهم الروحي فسارعوا إلى القلعة وطلبوا الاذن في مقابلة الوالي فأذن لهم بالدخول . وتحدث إليهم من غير أن يطلب منهم استحضار الالبابا متاوس - لان بركته ومحبتهم الفائضة بالتواضع جعلت الله تعالى يسدل على ذاكرة الوالي ستاراً من النسيان فاكتفى بالتحدث مع الاراخنة . وبعد اخذ وردٍ فرض عليهم غرامة مقدارها اربعة آلاف قرش وصرّفهم مشدداً عليهم باحضار المبلغ المطلوب على الفور . وامتلاء الاراخنة غمّاً . ومن مراحم القدير على شعبه آنذاك أنه حين قاب رجل يهودي

فأقرضهم المبلغ لساعته على أن يسددوه له في أقرب فرصة (١١). فشكره الأراخنة
وقدموا السبح لله المتحنن الملين القلوب . وصعدوا لساعتهم إلى القلعة وقدموا
لخليل باشا المال الذي طلبه .

٤١ - وبما أن الأبا متاوس الثالث كان ناسكاً زاهداً فإنه لم يكن يملك من المبلغ
المفروض درهماً واحداً . فرأى أن يستعين بأولاده . وعلى ذلك ركب مركباً
سارت به في النيل جنوباً . فكانت زيارة بابوية معروكة للصعيد التي فيها الأب
الروحي الأعلى بأولاده واهتلات القلوب فرحاً بهذا اللقاء . وقدم كل واحد ما
في إمكانه مساندة منه للأبا متاوس الذي رجع إلى القاهرة متمكناً غبطة بأزاء
تلبية أولاده لندائه .

٤٢ - وخلال هذا الانسجام الروحي وجد الموهوبون فرصة للتعبير عن
مواهبهم . ومن مخططات هذه الفترة كتاب مخطوط يتضمن صلوات البسخة المقدسة
- قبطي وعربي - زينت صفحاته بالنقوش الدقيقة الملونة بشق الألوان والموهبة
بالذهب . أما الحوامش فمحللة بأشكال من الطيور والحيوانات الملونة أيضاً .
وقد جاء في آخر هذا المخطوط لمحة عن تاريخ الميرون وردت في آخرها هذه
الكلمات . « ان البطريرك مرقس الواحد بعد المئة وجد في سنة ١٣٧٠ للشهداء
خمس أوعية زجاج ملووة من الميرون بحاصل الكنيسة بعد أن كانت متروكة من
زمن بعيد ونقلت على يد البطريرك أنبا متى الثاني بعد المئة إلى الكنيسة (بحارة
زويلة) ووضعوها بالحائط الشرقى (١٢) .

وبما بلغت النظر أن الشعب حين استمتع بالراحة عبر عن فرحته بهذا الهدوء

(١) يبدو لنا هذا المبلغ ضئيلاً ولكن لا بد أنه كان باهظاً يوم ذاك وإلا لما امتلأوا
غماً ولما احتاجوا إلى أن يقرضهم اليهودي المال المطلوب .

(٢) مخطوطة رقم ٤٠٨ محفوظة بالمتحف القبطي بالخرزانة رقم ٣٠ .

فقال لنا أحد المؤرخين أن مصر زينت خمسة أيام للرخاء وحسن فيضان النيل مما أدى إلى رخص الأسعار^(١). لحق عليها المثل الشائع: والكعكة في يد اليتيم عجة،!

٤٣ - على أنه من الواضح أن أيام الهدوء كانت عابرة إذ لم تلبث أن انتهت، وجاءت في أعقابها أيام من الشح والقحط. ولم يكن فيضان النيل ناقصاً لحسب بل هبطت مياهه فجأة أيضاً^(٢) ومن المؤلم أن هذا الهبوط في منسوب النيل استمر سنتين فارتفعت أسعار الحاجيات ارتفاعاً باهظاً، وعم الجموع بشكل مزعج ففضى على المئات من الناس.

وكان هذه البلايا لم تكن كافية بل زاد عليها أن الوالي قصد إلى المحلة الكبرى فوجد بها كنيسة عظيمة من أنعم العمارات القديمة، كما وجد بها عددًا من الكهنة يؤدون فيها الشعائر كل بدوره. فاستعظمها على القبط وأمر بدمها. ثم زعم أنه يستطيع أن يكفر عن جرمه هذا ببناء مدرسة مكان الكنيسة التي هدمها^(٣). على أن التناغم الذي وضعه الله للحياة المصرية هو تناوب الفيضان والهبوط فعاد النيل إلى وفائه بعد السنتين المريرتين وروى بفيضه الأرض العطشى، فأعطت محاصيلها بوفرة، وأعادت الطمانينة إلى القلوب.

٤٤ - ثم حدث حادث غاية في الغرابة يتلخص في أن السلطان العثماني أرسل إلى واليه في مصر (واسمه أحمد باشا الكورجى) اثني عشر ألف قطار من النحاس ليسكها نقوداً ويدفع له مقابلها ثلاثمائة ألف محبوب^(٤). فأذعن الوالي للأمر وأعد المعامل والعمال وبدأ يسطيهم النحاس شيئاً فشيئاً. ولسكن العمل كان مرهقاً إلى حد أن عدداً وفيراً من العمال مات من الإعياء. وحر الوالي في أمره. فجمع

(١) الشهابي ص ٧١٨ . (٢) التوفيقات الإلهامية ص ٥٢٠ .

(٣) السكالي ج ٣ ص ٦٠ . (٤) كان المحبوب إذ ذاك بمثابة الجنيه الآن .

في القلعة ذوى الشورى من الامراء والقضاة . وعرض عليهم الموضوع . وأشار عليه أحد القضاة بأن يجبر المصريين على شراء النحاس بمواقع ثمانين قرشاً للقنطار وأقره الباقيون على رأيه . وعندها أنزل الوالى وجاله بالنحاس يفرضون شراءه على الجميع : أغنياء وفقراء . فأدى هذا إلى ضرر بالغ إذ قد اضطروا الكثيرون إلى دفع أرزاقهم . وتضاعفت المأساة بارتفاع الاسعار ارتفاعاً فاحشاً . ولكن ما قيمة الشعب وآلامه في نظر من يستهدف ملء جيوبه ! إلا أن العجب العجيب هو أن السلطان حين علم بما حدث غضب على واليه غضبة جامعة فأقاله من ولايته ! ولما مثل بين يديه قال له في حدة : لقد أرسلت النحاس إليك لتسكه عملة يتعامل بها الناس - فما الذى دهاك حتى ألقيت به عليهم فظلمتهم ؟ . وبعد هذا التعنيف أمر بضرب عنقه (١) !

٤٥ - وحدث أن تولى عرش الحبشة الملك فاسيلاوس سنة ١٦٢٢ . وتلفت حوله فوجد أن الرهبان الكاثوليك مازالوا على خطتهم من خطف أولاد الكنيسة الارثوذكسية . وامتلات نفسه غضباً على هؤلاء المارقين ، فأخذ يطاردهم . وأمر بمنع أى أجنبي من دخول بلاده ما عدا الراغبين في التجارة وكسب الرزق . وبهذا الحزم أعاد الملك فاسيلاوس الأمن والوحدة بين صفوف شعبه وانتظمت الصلة القديمة بين الكنيسة الحبشية وأما الكنيسة القبطية .

وما أن استقرت الامور حتى بادر الملك بإرسال خطاب إلى البابا الاسكندري يبلغه فيه بأنه قد نوى بلاده من دسائس الكاثوليك ويرجو منه رسالة مطران قبطي لهم . ولبي البابا متساوس هذا الرجاء ترسم مطراناً باسم مرقس وأرسله إليهم . على أن المطران واجه متاعب شديدة في تلك البلاد رغم ما قام به الملك من جهد في سبيل التنايق الروحي .

ثم نجح الملك فاسيلاوس في وضع حد لهذا التلاعب الروماني بأن وقع على معاهدة مع سلطان تركيا مؤداها أن يمنع الباب العالي مرور أى مبشر داخل سلطنته . وقد جاء في تعليق لودولف (١) على خلاص الأثيوبيين من عبث الجزويت : « قوله لقد نجت خراف أثيوبيا من أولاد آوى الغربين بقوة عقيدة الرسولين القديس مرقس والقديس كيرلس عامودى كنيسة الاسكندرية . ونموا . هملوا . وافرخوا يا خراف أثيوبيا » . وتاريخ الكنيسة الحبشية من ذلك اليوم هو تاريخ كنيسته صحت من جميع الوجوه أن تقاوم المبشرين الأجانب (٢) .

٤٦ - وترامت أنباء الاضطراب والشغب الطاغية على الحبشة إلى المصريين فذكرتهم ببطش الرومان كما ذكرتهم باستبداد الصليبيين . والسبب في الأمر أن القبط رغم هذه الذكريات الموجهة لم يأنفوا من اقامة بعض الرهبان الكاثوليك في مصر وهذه الساحة المصرية وإن تكن فضيلة مسيحية إلا أنها كانت في غير محلها . فوداعة الخمام يجب أن تقترن بحكمة الحيات . لأن هذه الساحة بعينها هي التي أطمعت الكاثوليك وغيرهم من بعدهم في أبناء كنيستنا المريقة

(١) مستشرق ألماني عاش في القرن السابع عشر - وهو أول أوروبي كتب تاريخ أثيوبيا . وقد استشهد في كتابته بالأثينا جريجورى مطران جبلى طام .
(٢) قاموس السير المسيحية ج ١ ص ٦٨٠ حيث جاء :

Ethiopia celebrated the expulsion of the Jesuits by an epigram given by J. Ludolph : " The sheep of Ethiopia have been delivered from the hyenas of the West by the doctrine of the Apostles St. Mark and St. Cyril, the pillars of the Alexandrian Church. Sing, rejoice, and be glad, ye sheep of Ethiopia". The history of the Church of Abyssinia is, from that day, the history of a Church which has, to all intents and purposes, resisted foreign missions . . . a treaty was made between the emperor and the Turks which prevented the missionaries passing into the country .

٤٧ - ثم رأى الابنا متاوس أن يقوم بتفقد أبنائه في الوجه البحرى وبدأ رحلته بذهابه إلى طنطا ومنها إلى برما^(١). ثم قصد إلى طوخ مسقط رأسه. وحين سمع الأهالى باقتراب باباهم خرجوا جميعاً لإستقباله فرحين مستبشرين، والسفوا له موكباً سار أمامه وخلفه: البعض يحملون الشموع الموقدة والبعض الآخر المجامر الملائى بالبخور، بينما حمل الكهنة صليبانهم. وسار الكل وهم يترنمون بالصلوات والتسابيح الروحية. وما أن وصلوا المدينة حتى ذهبوا إلى الكنيسة رأساً. وقد رجا شعب طوخ من باباه أن يبقى في وسطهم. فأقام بينهم ستة كلفة يعلمهم ويوجههم التوجيهات الروحية البناءة.

٤٨ - وحدث أن كان سبت لميازر - ذلك السبت الذى عرف فيه الناس سلطان قاديهم على الموت إذ قد دعا حبيبه من القبر وأعادته إلى أختيه. فأقام الابنا متادين للصلوات. وبعد أن سعد الناس بالصلاة معه وبتناول الأسرار المقدسة من يده، جلس عند باب الكنيسة يستقبل زائريه وطالبي تمسليه الروحية. ثم حانت منه التفاتة إلى ركن من أركان الكنيسة فوجد به بعض النسوة جالسات فى خشوع ووقار. فسأل كهنته: « ما الجافز لمانه النسوة على البقاء داخل الكنيسة حتى الآن؟ » أجابوه: « لقد تناولن من الأسرار المقدسة وهن لذلك يرغبن فى البقاء داخل بيت الله صوناً لكرامة الأسرار، فتشهد بالروح وقال: « حقا إن النسوة يسمين لأن بسبقنا إلى الفردوس،

وما كاد يتفوه بهذه الكلمات حتى جاءه أحد الشمامسة يقول: « يا أبى البطريرك

(١) ما زال هناك مخطوط يتضمن سيرة الشهيد العظيم مار جرجس والآيات والمعجائب التى جرت بواسطته وبناء أول كنيسة على اسمه بمصر فى نواحي برما. ونكريس هذه البيعة فى ٢ يونيو (دون ذكر السنة) - مخطوطة ٤٤٩ رقم ٧٦٧ محفوظة بالمسكنة البابوية بالقاهرة. (٢) هذا النداء « يا أبى » بين لنا أن القبط لم ينادوا على رؤساء رعاتهم إلا بلقب « الأبوة » فهو الدليل على الصلة الوثيقة الدالة على المحبة بينهم وبين باباواتهم. أما « سيدنا » فتعبر دخيل لا نجد إلا فى عصرنا الحاضر.

- لقد اتفق جماعة منا على الذهاب لزيارة الاماكن المقدسة في السنة القادمة بإذن الله ، ونحن نرغب في أن تكون ضيفنا في هذه الرحلة المباركة . . فأجابني البابا بصوت يسمعه كل من حوله : وما هنا يكون قبري - في هذه البيعة المقدسة . ولن أبرح هذا المكان لغيره . ثم قام ليسترخ قليلا كعادته . وصرف الناس بالبركة .

٤٩ - ومن الطبيعي أن المحيطين به تركوه حين دخل غرفته الخاصة . وبعد قليل دخل عليه تلميذه ليري إن كان قد نام أم مازال مستيقظاً . فوجد انه قد نام نومته الأخيرة . وجده رافداً على سريره ووجهه نحو الشرق ويداه على صدره على مشال الصليب . فخرج لساعته وأخبر الكهنة . فدخلوا ليتحققوا الامر ووجدوا أنه فعلا قد تنيح بسلام . وكان وجهه يسطح لامعاً كالشمس (١) . فحملوه إلى البيعة وصلوا عليه ودفنوه بها - وهي على اسم الشهيد العظيم مار جرجس .

وقد تنيح البابا متاوس في شيخوخة صالحة بعد أن قضى حياة مليئة بالبر في عشرة وثيقة مع الله (٢) .



(١) هذه ظاهرة اختبرها كل من تأمل أحد أحبائه الملتصقين بالله تأمناً نومته الأخيرة .
 (٢) كتاب رقم ٤٧ تاريخ بالمكتبة البابوية بالقاهرة من ٣ .

ب - الأنبا مرقس السادس

- | | |
|---------------------|-----------------------------------|
| ٥٠ - حق الحرية | ٥٦ - الظلم يشمل الموتى ايضا |
| ٥١ - تصديق ساذج | ٥٧ - اعطاء ما لله لقيصر |
| ٥٢ - مسلك ساذ | ٥٨ - العثور على آنية ملاي بالمرون |
| ٥٣ - بذل وتضحية | ٥٩ - نياحة البابا |
| ٥٤ - رهبان متهمون | ٦٠ - ابو دقن المنوفى |
| ٥٥ - تعسف من البابا | ٦١ - نصرانى السنجق |
| | ٦٢ - الحيط الذهبى الممتد |

٥٠ - من الأمور ما يستوجب التريث ومحاولة استشفاف النتائج المترتبة عليها. وأهم أمر من هذه الأمور انتخاب البابا المرقسى لأن عليه ستقع أعباء جسام، وعليه يتوقف إلى حد كبير استقرار الشعب القبطى . فهو الراعى الأول الذى يحكى يملا القلوب إيماناً وطمأنينة، وهو الذى بسوء تصرفه يملا النفوس شعوراً بالخيبة. والانتخاب هو القاعدة الممتشية مع أحكام الله . لأنه تعالى قد منع الانسان محلاً يفكر وقلباً يشعر وروحاً تتأمل فى بدائعه . ثم ترك الحرية للالسان فى استعمال هذه القوى . ومعنى هذا أنه وضع أمام الالسان الحق فى أن يختار طريق الخير أو طريق الشر . والانتخاب ممارسة فعلية لهذه المنحة الإلهية . ولو أن المسئولين فى الكنيسة فى فترة الانتخاب خملوا الى عقولهم وقلوبهم وأرواحهم واستلهموا الروح القدس قبل التشاور وبعده وخلال البحث عن الراغب المصالح ، لكان تاريخ كنيسةنا كله طريقاً صاعداً ممتداً من قمة إلى قمة . ولكن من المؤلم أن الانفعالات الساخنة والأغراض الشخصية تطفئ أحياناً على هذه القوى الواعية فتفقدوها وعيها ، وأحياناً تلعب السذاجة وتصديق الآخرين بلا تمحيص دورها . وفى الحالتين تكون النتيجة موجهة للكنيسة كلها، ولو أن الوجدع الناتج عن الحالة الأولى هو ثمرة النزعات الحاطمة فى حين أنه ناجم عن نزعات طيبة فى الحالة الثانية.

والمشولون في الكنيسة ليسوا الناخبين وحدهم بل ان الموضوع يمتد ليشمل
المرشحين فيتناسى البعض منهم فضائل الايثار والتواضع ووجوب تقدمه الآخرين
تبعا لوصية رب المجد إذ يخلبهم بريق الكرامة الملازمة للمكرسى المرقسى . على
أنه من مراحم الله أن مثل هذه النزوات الانتخابية كانت أقل عدداً من الانتخابات
التي تمت في تعقّل واتزان .

٥١ - ولقد كان الانتخاب الذي جرى بعد نياحة الأنبا متاوس الثالث نتيجة
لتصديق ساذج . فقد سمع بعض الأساقفة والأراخنة أن هناك راهباً بهجورى
المولد أنطوني الدير اسمه مرقس فضى سقى رهبنته في الدرس والمطالعة حتى تمكن
من العلوم الدينية والتاريخ الكنى . وكان بين أراخنة الشعب آنذاك رجل اسمه
بشارة ذا كلمة مسموعة لدى الجميع فتلقى مع زملائه الأراخنة وتشاوروا معاً
ورأوا أن يختاروا مرقس البهجورى فذهبوا إلى دير العظيم أنبا أنطوني
وأحضروه إلى القاهرة . ولما وصلوا وافقهم الأساقفة مباشرة على اختيارهم .
وأقاموا صلوات الرسامة في أيام الخمسين المباركة وبعد انقضاء تسعة عشر يوماً
فقط على نياحة البابا الراحل (١) . وقد رأس الاحتفال بالرسامة أنبا خريستودوللو

(١) هنا أيضاً نجد فجوة في التواريخ . فبعض المؤرخين يقولون بأن الأنبا متاوس الثالث
قضى أربع عشرة سنة وستة شهور وثلاثة وعشرين يوماً في رياسته . بينما يرى الآخرون أن
المدة كانت عشر سنين فقط . ولكن حتى لو فرضنا أن مدة رياسته كانت خمس عشر سنة
تكون رسامة الأنبا مرقس السادس قد تمت سنة ١٦٣٨ م ش . ولكن جدال البطارقة
الوارد في دليل المتحف القبطى يسجل رسامته سنة ١٦٤٢ . فكيف تكون رسامته قد تمت
بعد نياحة سلمه بنسح عشرة يوماً وأمامنا أربع سنوات ما بين نياحة الواحد ورسامة الآخر ؟
هذا إذا تفاسشنا عما يقرب من السنوات الخمس الواردة في بعض الكتب والمنسوبة في البعض
الآخر على أن المهم بالنسبة لتاريخ كنيستنا هو أن الباباوات تعاقبوا واحداً بعد الآخر حتى
يومنا هذا سواء أجهت رسامة الواحد منهم بعد نياحة سلفه مباشرة أو بعدها بفترة طالت
أو قصرت .

أسقف بيت المقدس^(١) باسمه الرهباني «مرقس» - فأصبح البابا الواحد بعد المئة .

٥٢ - ومن الغرابة بمكان أن قامت خصومة عنيفة بين الأنبا مرقس السادس وبين المعلم بشارة في مستهل بابويته . ومع أن هذا المعلم هو الذي رأس وفد الأراخنة الذين تسكبدوا مشقة السفر إلى بزية الأنبا أنطوني وقت الرغبة في انتخاب مرقس الأنطوني - بل أنه هو الذي دعا إلى انتخابه قبل ذلك - وتنج عن هذه الخصومة مقاطعة كل منها للآخر ! على أنه من نعمة الله أن أدرك الإثنان وجوب التصالح فتفاهما واسيا خصومتها وعادت المودة تربطهما .

٥٢ - كذلك حدث في السنة الأولى لبابوية الأنبا مرقس السادس أن نزل سبل بجارف على مكة هدم جدران الكعبة . ولما كان عمال مصر لهم الشهرة الواسعة في الشرق كله فقد ذهبوا لترميم الكعبة بجهدهم وعرقهم . ويقول أناورخون ان مصر لم ترسل عمالها فقط بل أنفقت مالها أيضاً في سبيل هذا الترميم . فدفعت ما يساوي اليوم ستة عشر ألفاً من الجنيهات^(٢) . وهذه ظاهرة أخرى جديرة بأن نقف عندها لتأملها قليلا . فصر في ذلك العهد كانت فقيرة يمش فلاسوها على الكفاف رغم كدحهم النهار كله ، ولا يستطيعون حتى التعبير عن آلامهم إذ لم يكن من ينصت إليهم ولا من يهملهم . وكان عمالها يتقاضون الأجور الهزيلة التي بالكاد تسد حاجياتهم ورغم هذا فقد انصرف من مال هؤلاء السكادحين العائشين في شظف وضنك ستة عشر ألفاً من الجنيهات ! ومثل هذا العمل يستثير النقد الساخر اللاذع من البعض الذين يرون فيه اهدار حق شعب مستكين ، بينما هو يستثير الإعجاب من البعض الآخر لأنهم يرون فيه صورة رائعة من النزعة إلى الروحانيات ومن التضحية والايثار .

(١) كتاب البشار الأربعة المحفوظ بمكتبة كنيسة السيدة المذراء بحارة زويلة رقم ٢

(٢) الشهابي ص ٧١٧ .

فنية ٢٤ عمومية لاهوت .

٥٤ - ولم يكذب الأنبا مرقس بشعر بالراحة لتصالحه مع المعلم بشارة حتى تمرد عليه بعض الرهبان بزمامة راهب اسمه « قدسي » (١١) . فقد أصدر البابا أوامره للرهبان بوجوب إقامتهم في أديرتهم وعدم خروجهم منها إطلاقاً إلا للضرورة القصوى . ومثل هذا الأمر يتفق مع القواعد الرهبانية والقوانين الكنسية . ولكن هؤلاء الرهبان الذين تمردوا على بابايم اندفعوا وراء رغبتهم في الخروج متناسين تلك القواعد . ولم يكتفوا بالعصيان بل ذهبوا إلى الوالى وادعوا أمامه بأن البابا يضربهم ضرباً مبرحاً إلى حد أن البعض منهم يموت من جرائه وطبعاً وجدد الوالى الفرصة مواتية لأن يزج بالبابا في السجن . على أن الأب السمارى تدارك كنيسته فأيقظ ضمير الراهب قدسي ودفعه إلى أن يذهب إلى الوالى ويقر أمامه بأن التهم التى وجهها هو وأعوانه إلى البابا المرقسى لا أساس لها من الصحة لذلك يرجو الافراج عنه . ولقد قبل الوالى أن يفرج عن البابا المظلوم واسكنه فرض مقابل ذلك مبالغ ضخمة غرامة على أكابر القبط (١٢) .

٥٥ - وكان من المنتظر من الأنبا مرقس الذى عرف معنى الظلم أن يعمل فى نزاهة وانصاف فيجنب أولاده الشعور بمرارة التعيزات الظالمة . ولكنه سلك مسلكاً مضاداً وكانما استثار فيه الظلم قوى الشر السكامة فى أعماق النفس . فقد قصد إلى الصعيد بعد خروجه من السجن مباشرة وقضى أربع سنوات متنقلاً فى ربوعه . ولو أن تنقله كان افتقاراً ورعاية لكان سبباً فى الفرح والطمأنينة . ولكنه إنما تنقل ليفرض على كل من ينزل عليهم مبالغ من المال يحتم عليهم دفعها . وكان فى تشدده معهم لا يتورع عن تعنيفهم بكلام غير لائق وبخاصة لخروجه من قم

(١) لم يذكر المؤرخون الدبر الذى كان يعيش فيه هذا الراهب . ومما تجب ملاحظته

أن اسم « قدسي » ليس من الأسماء الشائعة الاستعمال لدى القبط - راجع أيضاً ما جاء عنه فى كتاب « الأديرة المصرية العامرة » لصموئيل تاووروس السريانى ص ٨٩ .

(٢) سلسلة . ص ١٠٠ - ١٠٧ - ١٠٨ .

الراعى الاول الذى يحمل للشعب صورة المسيح . فضج الجميع منه : اساقفة وكننة وشعباً . ورغم ما رآه وأحس به من تفنجر عام فقد أمعن فى تعسفه وفى اصراره على أخذ المال الذى يريد .

٥٦ - وإلى جانب هذا الضنك الذى ملا قلوب القبط من باباهم فقد صدرت الأوامر المشددة من الوالى بأنه ممنوع على أى قبطى أن يركب الخيل ، ولا حق لأى منهم أن يلبس طاقية حمراء ولا مرا كيب حمراء ، ولا أحزمة حمراء ، بل تكون هذه كلها زرقاء اللون . ثم أمعن الوالى فى التثقيب على القبط بابطاله حقوق الوراثة واقامته نفسه وريثاً لمن يموت فيستولى بذلك على أموال اليتامى والارامل والشكلى . ولكى يتسنى له أن يستولى على أكبر مقدار من الارث كان يقتل رجلاً أو اثنين يومياً حتى لقد قيل بأن عدد ضحاياه بلغ ألفاً ومائتى رجل (١) !

٥٧ - وبعد انقضاء السنوات الأربع عاد الانبا مرقس السادس من الصعيد دون أن يحاول اصلاح الجفوة التى أحدثها تصرفه بينه وبين اولاده . ولكنه حين علم أن المعلم بشارة انضم إلى المتضجرين سعى إلى مصالحته شخصياً .

ومع أنه كان قد جمع أموالاً طائلة من أهل الصعيد إلا أنه لم ينفع بها شعبه إلا بمقدار مزيل للغاية . فقد اكتفى ببناء قاعة للصلاة والاجتماعات فوق بيعة السيدة العذراء بحارة زويلة . وقد طلب الارمن الارثوذكس من الانبا مرقس أن يسمح لهم بتكريسها وإقامة الشعائر الروحية فيها ريثما ينتهون من بناء بيعتهم فى شارع بين السورين . فأذن لهم بذلك (٢) . وهذه القاعة لا تزال موجودة للآن تستعملها راهبات المقييات بالمدير الملحق بتلك الكنيسة .

(١) الشهابى ص ٧٢٣ .

(٢) كتاب البسجة ٢١٢ طقس المحفوظ بالمنحف القبطى .

٥٨ - وقد عثر هذا الباب على خمس أواني من الزجاج ملأى بالميرون في اندور العلوى من بيعة السيدة العذراء بحارة زويلة ، كما عثر على زقّين يحتويان الميرون أيضاً . فرفع الأواني كلها من مكانها ووضعها على رف واقع فوق مدفن الأنبا يونس الثالث عشر في البيعة المذكورة (١١) .

٥٩ - ولقد تنيح الأنبا مرقس في يوم الجمعة العظيمة من سنة ١٦٥٢ واحتفل الأساقفة بالصلاة عليه في كنيسة الشهيد العظيم مرقوريوس (أبى السيفين) بمصر العتيقة حيث دفنوه إلى جانب بعض من أسلافه في المقبرة الخاصة بهم (١٢) .

٦٠ - ومن كبار الأراخنة في هذا العصر يوسف أبو دقن المنوفى ، وضع كتاباً بعنوان « التاريخ الحقيقى للقبط وليبيا والنوبة والحبشة » ، ضمنه تفصيلات عن حالة القبط الإجتماعية والروحية ، وقدّم دفاعاً منطقياً عن عقيدتهم الأرثوذكسية . ثم قارن بعد ذلك بينهم وبين غيرهم من المسيحيين في مصر . ومع أنه أورد هذه المقارنة إلا أنه وضعها في أسلوب من الأدب واللياقة .

وليس بعجيب أن كتابه هذا موجود الآن بمكتبة جامعة أوكسفورد بإنجلترا شأنه في ذلك شأن العديد من كتبنا الموجودة في مختلف مكتبات العالم ، تشهد بأسلوبها وترتيبها لدقة مؤلفيها وشدة حرصهم على العقيدة وعنايتهم بتوصيلها إلى شعبيهم . وما كان ليخطر على بالهم أنها ستكون رسالة إلى شعوب بعيدة - ولكن هكذا سمح الأب السماوى . ولقد طبع وترجم كتاب أبو دقن إلى اللاتينية سنة ١٦٧٥ ، وإلى الانجليزية سنة ١٦٩٣ ، ثم طبع في هولاندا سنة ١٧٤٠ مع تعليقات المستشرق جان نيكول .

(١) جاء الحديث عن هذه الأواني في سيرة الأنبا متاوس الثالث .

(٢) سيرة . . . من ١١٠ . . .

ومما أورده أبو دقن في كتابه أن القبط الذين كانوا في خدمة الدولة استمتعوا بالأمان على أنفسهم وعلى أولادهم وأموالهم ، وكان الأمراء يعاملونهم بكل تسامح . أما الرهبان الأقباط فأكثر نسكا وتقشفاً من الرهبان الأوربيين وأدق ممارسة للتعليم والشعائر الروحية . وهذا هو الحال بالنسبة للراهبات أيضاً ، فهن متفانيات في العبادة ، ولهن عدد من الأديرة في مختلف المدن على مقربة من الكنائس .

كذلك تكلم عن الوسائل الشائعة في إدارة شئون الكنيسة ، والنظام الذي تقوم عليه شعائرها ، ثم الممارسات الخاصة بالزواج وغيره من الأمور الشخصية . ومختصر دقيق لطقس رفع البخور وتقديم الحمل والقداس .

وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن مهارة القبط في صياغة المجوهرات وفي مختلف الصناعات من الحدادة والنجارة والخياطة وعمل الأحذية ، ومن الحفر على الخشب والحديد والجلد ، إلى جانب حذقهم الهندسة المعمارية والفلك والحساب . وكانوا يهتمون الاهتمام كله بتعليم أولادهم في مدارسهم الخاصة الملحقة بالكنائس حيث كان الأولاد يعملون القراءة والكتابة والحساب والجغرافيا والفتن القبطية والعربية والعلوم الدينية . ومما يشهد لأبو دقن بنزاهته في تسجيل وقائع الحياة في أيامه أنه قال بأن تعليم أولاد الأقباط كان سطحياً إذا قيس بتعليم أولاد الأوربيين .

وقد ذكر أبو دقن أيضاً أن القبط كانوا يميلون إلى زيارة الأراضي المقدسة للثبرك بها رغم ما كان يلزم السفر من مشقات ومخاطر وكان على كل فرد يرغب في هذه الزيارة أن يدفع ضريبتين : الأولى وقدرها ثمانية ريات يدفعها عندما ينوي السفر ، والثانية وقدرها أربعة ريات يدفعها عند دخوله المدينة المقدسة (١)

وكان على باب القيامة محصلون لاخذ الضريبة من المقدسين - وتسمى الخفر -
ياخذ الشخص مقابلها تذكرة محتومة كإيصال يقدمها عند دخوله إلى كنيسة
القيامة . وكان جباة هذه الضريبة حريصين إلى حد أنهم كانوا يدخلون الناس من
باب لا يتسع إلا للدخول واحداً فواحد (١١) .

ومما يؤسف له أن هذا الكتاب الذي وجد من ترجمته إلى كل من اللاتينية
والانجليزية ، ومن ينشره في هولانده ، لم يجد من يبحث عنه ويعمل على نشره
في بلاده وبين مواطنيه لاحقاً أنه « ليس لني كرامة في وطنه » (١٢) .

٦١ - وكان هناك قبلى آخر من عاصر أبو دقن اسمه الماسم عوض القبلى
يمثل كاتباً في ديوان الوالى . وكان مشهوراً بين الجميع بلقب خاص هو « نصرانى
السنجق » . وقد مات هذا الكاتب مسموماً (١٣) لأن النصب التركى الالهى جعلهم
يزعمون أن اضطهاد القبط يؤهلهم للجنة (١٤) .

٦٢ - على أن الخيط الذهبى المنبىء بوجود الشمس خاف السحب القاتمة لم
ينقطع أبداً . فنجد ومضة خاطفة نلح خلالها أن من كانوا مكرسين جهودهم لمجد
الله حتى وسط هذه الملامكة المدلهمه . فى الخزانة حرف A : ١٦٦٥ كتاب
الأربعة أناجيل باللغة العربية وبه صحائف محلاة بنقوش بماء الذهب وبألوان
مختلفة (١٥) .

(١) ديمترى رزق : قصة الأقباط فى القدس ص ٤١ .

(٢) يعقوب نخبة روفيلة ص ٢٥٤ ، دائرة المعارف القبطية لرمزى تادرس ج ١

ص ٥٠ - ٥١ .

(٣) سلسلة . . . ص ١١١ - ١١٢ .

(٤) موجز تاريخ بطاركة الاسكندرية ليعقوب جرجس وأشرف زاهر رياض

ج ٢ ص ٦٧ .

(٥) مرشد المتحف القبطى لوديع شنودة ص ٧٩ - ٨٠ (٥٢) .

٢ - الأنبا متاوس الرابع

- ٦٣ - القوة على الإفاقة
٦٤ - نشأة جرجس
٦٥ - رهبنته بدير البرموس
٦٦ - قنديل مضاء فوق رأسه
٦٧ - القيادة في تودة واتزان
٦٨ - حريق يتبعه وباء
٦٩ - نقل المقر البابوي الى حارة الروم
٧٠ - اهواء ونزوات
٧١ - لبات في وجه الضيق
٧٢ - النفوذ الروحي للبابا
٧٣ - حادث له رهبته
٧٤ - الانطلاق من الجسد
٧٥ - شهادة راهب دوميليكاني
٧٦ - معجزة لأيقونة الملاك ميخائيل

٦٣ - يتميز النصف الثاني من القرن السابع عشر باستعادة المماليك لنفوذهم إذ قد نجحوا في أن يجعلوا الوالي - عميل السلطان التركي - تحت رحمتهم . لأنه رغم كونه مندوب الباب العالي (١) إلا أنهم كانوا يحكمون الأقاليم ، ومقابل كونه الباشا ، كانوا هم والبكوات ، وقد أدى استردادهم للسلطة وتلاعيتهم بالحكم العام إلى إضعاف الخزانة وإلى ازدياد التدهور الزراعي والتجاري والصناعي (٢) . فآسفت الحياة العامة بعدم الاستقرار . فلا عجب إذن أن القبط لم يبادروا إلى الاجتماع والتشاور . ومما ضاعف في تراخيتهم أن الخبيسة التي كانت قد ملأت نفوسهم من مسلك البابا الراحل كانت لا تزال مسيطرة عليهم .

على أن الله في شامل رحمة قد منح الانسان القوة على الإفاقة من كل الصدمات وبالتالي على مواجهة ما في حياته من مسئوليات رغم كل ضيق وكل حزن . وهذا ما حدث للأساقفة في تلك الفترة إذ أنهم اتجهوا إلى وجوب المبادرة إلى انتخاب الراعي الاول بعد أن كانوا قد جاروا الشعب في تراخيه . وحين تنبهوا تبادلوا الرأي مع الأراخنة إلى أن أقنعوهم بضرورة البحث في اتزان والضراعة في حرارة

(١) تعبير للكناية به عن سلطان تركيا .

(٢) « العالم الإسلامي » (بالانجليزية) ج ٣ آخر امبراطورية إسلامية عظيمة لكبيلنج

وباجلي وباربور وترينينجهم ، وبيرون وسيبور وهارتل ص ٥٧ .

كى يرشدهم الآب السمارى إلى الراهب الجدير بهذه الرياسة الروحية السامية .
وهكذا بدأ الأراخنة بدفعة من أساقفتهم يبحثون عن الراهب الذى يتوسمون
فيه الرعاية الرشيدة . وعلى الرغم من أنهم كانوا يبتغون تعويض الوقت إلا أنهم
انقسموا فريقين : فريق ناصر القمص جرجس رئيس دير السيدة العذراء
(البرموس) ، وفريق ناصر أحد رهبان هذا الدير عينه وهو القمص يوحنا .
ومرة أخرى تجلت مراحم الرب الحنون لأن الفريقين لم يلبثوا أن تفاهموا وانفقت
كلتهم على انتخاب القمص جرجس . ففرحوا بهذا الاتفاق .

٦٤ - ولد هذا الراهب من أبوين تقيين يعملان بمقتضى تعاليم الرب فيكثران
من الصدقات ومن المساهمة في الكنائس وأعمالها . وكانا من أغنياء مير الداخلة
ضمن كرسي قسقام - بمنطقة الدير المحرق .

وكان جرجس واحداً من ثلاثة أخوة ذكور . إلا أن أخويه انصرفا إلى
الاشتغال بالزراعة ورعاية المواشى . أما هو فقد توسم فيه والداه الذكاء والرغبة
فى تحصيل العلم فأرسلاه إلى كنيستاب بلدتهم . فتعلم القراءة والكتابة والحساب -
والآم أنه تعلم الألحان الكنسية وتدرّب على قراءة الكتاب المقدس وغيره من
كتب البيعة . وقد وهبه الله بصيرة نافذة فكان يفسر آيات الكتاب المقدس
والطقوس لكل من يسأله عنها .

٦٥ - فلما بلغ أشدة أخذ يفكر فى هذا العالم وأباطيله وسرعة زواله ، وبالتالي
أخذ يفكر فى أن لنا وطناً سماوياً باقياً . فقال لنفسه : لماذا لا أعيش منذ الآن
فى ذلك الوطن السماوى ، ؟ وحين وصل به التفكير إلى هذا الحد قام لفوره وقصد
إلى برية شيبيت حيث ترهبين بدير البرموس . وحاش فى ذلك الدير ست سنوات
وهو يجاهد ويسعى إلى استكمال نفسه وتهذيبها . وامتلات نفسه فرحاً وسكينة .

وبعد هذه السنوات الست رأى والديه في حلم ووجد الحزن مرتسماً على وجهيهما بسببه لأنهما لم يكونا يملكان بترهبه . وانزعجت نفسه لهذا الحلم فاستشار كبار الآباء في الموضوع . وأشاروا عليه بوجوب الذهاب إلى والديه لتطمينها لأن الله أوصى بأكرامها .

فغادر جرجس الدير وذهب إلى بلدته وإلى بيت أبيه . فتهلل الجميع لرؤيته . ثم حاول أبوه أن يثنيه عن الرهينة باقتراحه الزواج . فلما رأى جرجس الخلاج أبيه هرب من مير وعاد مسرعاً إلى الدير دون أن يخبر أحداً . ولما اختفى هذه المرة أدرك أبواه وبقيّة أهله أنه إنما عاد إلى الدير ، فرضوا بذلك . أما الرهبان فحين رأوه تهللوا لعودته .

وعاد جرجس بجهادة الروحي . فمأش بمحبة واختلاص لكل أخوته . ودرب نفسه على خدمتهم روحياً وجسدياً ، وعلى قضاء كل احتياجاتهم فبادلوه محبة بمحبة وانتخبوه ليكون رئيساً عليهم وقساً لهم . فازداد مهراً وتخشياً وسعيّاً نحو الكمال ، وضاعف عنايته بأخوته .

٦٦ - وحين اتجهت إليه الأنظار للرعاية العليا كان مقيماً في طوخ النصارى ليشرق بنفسه على عزبة الدير لتكوين ساكنيه . فذهب إليه مندوبو الأساقفة والأراخنة وكاشفوه برغبتهم . ولما شكرهم معلناً لهم رفضه معتذراً بسمو هذه الكرامة . فوجهوا أنظارهم صوب القمص يوحنا الذي كان مع رئيسه إذ ذاك ، وكان هو أيضاً مشهوداً له بالسعي المتواصل نحو الكمال . على أنهم اختلفوا فيما بينهم فتركوا طوخ النصارى وعادوا إلى القاهرة .

وفي القاهرة أخذوا يستعيدون معاً كل ما جرى بينهم وبين كل من الراهبين
الذين قابلام . وعندها استقر الاجماع على أن جرجس هو الرجل الذي يصلح
لهم . فأوفدوا مندوبين عنهم من كبار الكهنة وأعيان الشعب يصحبهم بعض
الجنود . ولما وصل هؤلاء المندوبون إلى عزبة الدير وجدوا أن جرجس ما زال بها
فالتق الجند القبض عليه لأنه أصرّ على الرفض ، واستصحبوه معهم عنوة واقتداراً
كما اقتادوا القمص يوحنا أيضاً . ولما وصلوا إلى القاهرة أودعوا الراهبين بيت
الوالى حيث ظلا شبه سجينين ثلاثة شهور ، وكان الجند يحرسون الجناح الذى يقمان
فيه . وفي ليلة من الليالى شاهد الجند الذين عليهم نوبة الحراسة كأن قديلاً مضياً
يسطع فوق رأس القمص جرجس . فدهشوا لهذه الظاهرة . وفي الصباح أخبروا
الجميع بما شاهدوه . وعندها استقر الرأى نهائياً على أنه هو المختار من الله .
فاخذوه من بيت الوالى وذهبوا به إلى كنيسة الشهيد العظيم مرقوريوس (أبى
السيوفين) حيث أقيمت عليه صلوات الرسامة فى يوم الأحد ٣ هاتور سنة ١٣٧٦ ش
باسم متاوس الرابع أو متاوس الميرى . فأصبح البابا الاسكندرى الثانى بعد المائة
وكان يوم رسامته يوماً له رنة الفرحة فى كل البلاد المصرية . فقد تهلل القبط لأنهم
وجدوا أخيراً الأب الذى يسهر عليهم ، وفرح مواطنوهم معهم (١) .

٦٧ - وكان المقر البابوى لا يزال فى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة فأقام
فيها الأنبا متاوس . وحالما تسلم مقاليد الكنييسة أخذ ينظر فى الاحكام الشرعية
وأثرها فى أمور الكنييسة، كما أخذ يسوس الشعب ويدبر أحواله فى تودة واتزان
ومن مراحم القدير أن السلام كان سائداً ورفنداك

وقد ظل البابا متاوس على تواضعه الجم فلم يقبل أبداً أن يجلس على الكرسي

البا بوى فى الكنيسة بل كان يكتفى بالوقوف جانبه . كذلك دأب على افتقاد اليتامى والأرامل ، وعلى زيارة المرضى والمسجونين ، وعلى العناية بالرهبان والمنقطين . فوجد الجميع فيه أباً عطوفاً مدركاً لمسؤولياته .

٦٨ - ومع أن السلام ظل مستقباً إلا أن حريقاً هائلاً شب في جهة باب زويلة واستمر أياماً متتالية . فتسبب في قتل المئات من الناس وتخريب عدد كبير من العمارات (١) .

ولم يكد الناس يفلحون في إخماد النار واستخلاص بعض الأشخاص والمتاع من هيبها حتى انتشر وباء ممزوع وصفوه بأنه « الحريق » ، لكثرة ما أهلك من الناس .

٦٩ - وقد رأى الأنبا مناوس الرابع أن ينقل المقر البابوى إلى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة الروم وانتقل إليها بالفعل . فيكون عدد الباباوات الذين أقاموا في كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة إثنا عشر بطريركا : ابتداءً من الأنبا يونس الثامن البابا الاسكندري التسعين إلى الأنبا مرقس السادس البابا الاسكندري الواحد بعد المائة .

٧٠ - وأحسب الحريق والوباء اضطهاد مضاعف . لأن الترك بدأوا يعاملون القبط تبعاً لأهوائهم ونزواتهم الطارئة ، فكانوا يغلزون الكنائس ويمنعون الصلاة فيها ، ثم يغلزون أبواب المنازل الخاصة . فإن أراد قبطى الخروج من بيته فرض عليه الجند المحيطون به مبلغاً من المال ليأذنوا له في الخروج !

ثم حدث أن ذبح الجنود الترك امرأة خليعة في المدينة وألقوا بجثتها بعيداً عن

(١) التوفيقات الإلهامية ص ٥٤١ .

بركة الأزبكية . ورأى كبير حافظة الأمن الفرصة مواتية فأمر بإغلاق جميع بيوت القبط المتاخمة للمنطقة . وفرض غرامة ثقيلة عليهم إن هم شاءوا أن يحصلوا منه على الاذن بفتح أبوابهم والخروج من بيوتهم . فلما سألوا عن السبب في هذه الغرامة أجابهم بأنها ثمن للدم المهدور .

٧١ - كذلك كان القبط كلهم حتى سنة ١٦٦٤ م يدفعون ضريبة موحدة . ولم يكونوا مضطرين إلى أن يدفعوها لخزينة الوالى : فكان البعض منهم يدفعها للمساجد ، والبعض يدفعها للشيخ البكرى (بكرته سليل أبو بكر الصديق) . بينما يدفعها فريق ثالث لبعض المظالم الذين كان يطلق عليهم لقب السادات . والضريبة المدفوعة لمختلف الجهات كان اسمها ، الالتزام الشرعى ، فى حين أن تلك التى يدفعونها لخزينة السلطان كانت تعرف باسم ، التزام السلطان الاعظم . وكان النوع الاول حثيل القيمة فى حين أن الثانى كان ثقيلاً . كذلك كانت الكسوف والضيق المختلفة تشترك فى دفع الضريبة لذلك كانت مختلفة القيمة تبعاً لنسبة القبط العائشين فيها . وكان الملتزم يحدد مقدارها فكان فى العادة يطالب الفقراء بأقل مما يطالب به الاغنياء . فكانت ضريبة فيها شئ من العدالة .

أما فى سنة ١٦٦٤ فقد قرر الوالى توحيد الضريبتين وجعلهما واحدة باسم السلطان محتمها على الفقراء أن يدفعوا ما يدفعه الاغنياء . فبدأ أخذ هو كل المبالغ وبيد منها ما يخص المساجد والسادات ويودع الباقي فى خزينة السلطان ليتصرف هو فيه قبل إرساله إلى ولّيته . وهذه الخطة وضمت فقراء القبط فى موقف شديد البؤس والاضنك - فكانوا كثيراً ما يضطرون إلى الهرب والاعتصام بالجبال وقت حضور الملتزمة لأن الذى لا يستطيع الدفع لا يجد غير السكر باج (١) غير أنه رغم

هذا كله لا بد لنا المؤرخون أن الارتداد في هذه الفترة كثير على عكس ما حدث في بعض الفترات المملوكية ، ويبدو من هذا الواقع العجيب أن الاغراءات أقوى عملاً من الضيقات . فحينما كان سلاطين المماليك يعرضون الجاه والمال والحظوة كان عدد الذين جحدوا لإيمانهم كثيراً . أما الاضطهادات فرغم قسوتها لم تفعل إلا فعلاً ضئيلاً بالقياس إلى ضراوتها وبالقياس إلى العدد الذين هزتهم الرتب العالمية .

٧٢ - على أن وداعة الأنا متاوس وحنانه حفظاً ميزان الأمور وكان لهما أثر بعيد في النفوس وبدأ هذا الأثر في مناسبات عدة : منها أن أحد القبط رغبة منه في التزلف للأولى ذهب إلى بيت الجوالى ووضع على إخوانه المسيحيين مبلغاً ثقيلاً بالاضافة إلى الضريبة المفروضة عليهم ، وفي ضيقهم رفعوا شكواهم إلى باباهم . فأرسل في طلبه وطالبه ثم نهاه عن الشر الذى يعمله . فلم يفد العتاب ولا النهى . وعندما أصدر عليه الحرم ، وبدأ أثر هذا الحرم البابوى إذ لم تمض غير مدة قصيرة حتى مات هذا الرجل شرمية (١) .

كذلك حدث أن ذهبت امرأة إلى الأنا متاوس تشكو إليه من أن زوجها هجرها واتخذ لنفسه زوجة أخرى . فاستحضر البابا الاسكندرى الرجل وزوجته الثانية وأفهمهما بأن زواجهما باطل لأن المسيحية لا تسمح بالطلاق ولا بالزواج الثانى المترتب على هذا الطلاق إلا لسبب واحد هو الزنا . فكيف تجرأ الزوج على أن يسلك هذا المسلك الخاطيء ؟ وبعد هذا التوضيح أمر البابا بالفصل بين الرجل وبين زوجته الثانية فقالت المرأة : وكيف يمكن هذا وأنا حامل منه ؟ أجاب البابا فى هدوء وحزم : وإن السيد المسيح هو الذى يفصل بين الحق والباطل .

(١) تاريخ مصر ١٨٧١ - ١٨٧٢ - ١٨٧٣ - ١٨٧٤ - ١٨٧٥ - ١٨٧٦ - ١٨٧٧ - ١٨٧٨ - ١٨٧٩ - ١٨٨٠ - ١٨٨١ - ١٨٨٢ - ١٨٨٣ - ١٨٨٤ - ١٨٨٥ - ١٨٨٦ - ١٨٨٧ - ١٨٨٨ - ١٨٨٩ - ١٨٩٠ - ١٨٩١ - ١٨٩٢ - ١٨٩٣ - ١٨٩٤ - ١٨٩٥ - ١٨٩٦ - ١٨٩٧ - ١٨٩٨ - ١٨٩٩ - ١٩٠٠ - ١٩٠١ - ١٩٠٢ - ١٩٠٣ - ١٩٠٤ - ١٩٠٥ - ١٩٠٦ - ١٩٠٧ - ١٩٠٨ - ١٩٠٩ - ١٩١٠ - ١٩١١ - ١٩١٢ - ١٩١٣ - ١٩١٤ - ١٩١٥ - ١٩١٦ - ١٩١٧ - ١٩١٨ - ١٩١٩ - ١٩٢٠ - ١٩٢١ - ١٩٢٢ - ١٩٢٣ - ١٩٢٤ - ١٩٢٥ - ١٩٢٦ - ١٩٢٧ - ١٩٢٨ - ١٩٢٩ - ١٩٣٠ - ١٩٣١ - ١٩٣٢ - ١٩٣٣ - ١٩٣٤ - ١٩٣٥ - ١٩٣٦ - ١٩٣٧ - ١٩٣٨ - ١٩٣٩ - ١٩٤٠ - ١٩٤١ - ١٩٤٢ - ١٩٤٣ - ١٩٤٤ - ١٩٤٥ - ١٩٤٦ - ١٩٤٧ - ١٩٤٨ - ١٩٤٩ - ١٩٥٠ - ١٩٥١ - ١٩٥٢ - ١٩٥٣ - ١٩٥٤ - ١٩٥٥ - ١٩٥٦ - ١٩٥٧ - ١٩٥٨ - ١٩٥٩ - ١٩٦٠ - ١٩٦١ - ١٩٦٢ - ١٩٦٣ - ١٩٦٤ - ١٩٦٥ - ١٩٦٦ - ١٩٦٧ - ١٩٦٨ - ١٩٦٩ - ١٩٧٠ - ١٩٧١ - ١٩٧٢ - ١٩٧٣ - ١٩٧٤ - ١٩٧٥ - ١٩٧٦ - ١٩٧٧ - ١٩٧٨ - ١٩٧٩ - ١٩٨٠ - ١٩٨١ - ١٩٨٢ - ١٩٨٣ - ١٩٨٤ - ١٩٨٥ - ١٩٨٦ - ١٩٨٧ - ١٩٨٨ - ١٩٨٩ - ١٩٩٠ - ١٩٩١ - ١٩٩٢ - ١٩٩٣ - ١٩٩٤ - ١٩٩٥ - ١٩٩٦ - ١٩٩٧ - ١٩٩٨ - ١٩٩٩ - ٢٠٠٠ - ٢٠٠١ - ٢٠٠٢ - ٢٠٠٣ - ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦ - ٢٠٠٧ - ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩ - ٢٠١٠ - ٢٠١١ - ٢٠١٢ - ٢٠١٣ - ٢٠١٤ - ٢٠١٥ - ٢٠١٦ - ٢٠١٧ - ٢٠١٨ - ٢٠١٩ - ٢٠٢٠ - ٢٠٢١ - ٢٠٢٢ - ٢٠٢٣ - ٢٠٢٤ - ٢٠٢٥ - ٢٠٢٦ - ٢٠٢٧ - ٢٠٢٨ - ٢٠٢٩ - ٢٠٣٠ - ٢٠٣١ - ٢٠٣٢ - ٢٠٣٣ - ٢٠٣٤ - ٢٠٣٥ - ٢٠٣٦ - ٢٠٣٧ - ٢٠٣٨ - ٢٠٣٩ - ٢٠٤٠ - ٢٠٤١ - ٢٠٤٢ - ٢٠٤٣ - ٢٠٤٤ - ٢٠٤٥ - ٢٠٤٦ - ٢٠٤٧ - ٢٠٤٨ - ٢٠٤٩ - ٢٠٥٠ - ٢٠٥١ - ٢٠٥٢ - ٢٠٥٣ - ٢٠٥٤ - ٢٠٥٥ - ٢٠٥٦ - ٢٠٥٧ - ٢٠٥٨ - ٢٠٥٩ - ٢٠٦٠ - ٢٠٦١ - ٢٠٦٢ - ٢٠٦٣ - ٢٠٦٤ - ٢٠٦٥ - ٢٠٦٦ - ٢٠٦٧ - ٢٠٦٨ - ٢٠٦٩ - ٢٠٧٠ - ٢٠٧١ - ٢٠٧٢ - ٢٠٧٣ - ٢٠٧٤ - ٢٠٧٥ - ٢٠٧٦ - ٢٠٧٧ - ٢٠٧٨ - ٢٠٧٩ - ٢٠٨٠ - ٢٠٨١ - ٢٠٨٢ - ٢٠٨٣ - ٢٠٨٤ - ٢٠٨٥ - ٢٠٨٦ - ٢٠٨٧ - ٢٠٨٨ - ٢٠٨٩ - ٢٠٩٠ - ٢٠٩١ - ٢٠٩٢ - ٢٠٩٣ - ٢٠٩٤ - ٢٠٩٥ - ٢٠٩٦ - ٢٠٩٧ - ٢٠٩٨ - ٢٠٩٩ - ٢١٠٠ - ٢١٠١ - ٢١٠٢ - ٢١٠٣ - ٢١٠٤ - ٢١٠٥ - ٢١٠٦ - ٢١٠٧ - ٢١٠٨ - ٢١٠٩ - ٢١١٠ - ٢١١١ - ٢١١٢ - ٢١١٣ - ٢١١٤ - ٢١١٥ - ٢١١٦ - ٢١١٧ - ٢١١٨ - ٢١١٩ - ٢١٢٠ - ٢١٢١ - ٢١٢٢ - ٢١٢٣ - ٢١٢٤ - ٢١٢٥ - ٢١٢٦ - ٢١٢٧ - ٢١٢٨ - ٢١٢٩ - ٢١٣٠ - ٢١٣١ - ٢١٣٢ - ٢١٣٣ - ٢١٣٤ - ٢١٣٥ - ٢١٣٦ - ٢١٣٧ - ٢١٣٨ - ٢١٣٩ - ٢١٤٠ - ٢١٤١ - ٢١٤٢ - ٢١٤٣ - ٢١٤٤ - ٢١٤٥ - ٢١٤٦ - ٢١٤٧ - ٢١٤٨ - ٢١٤٩ - ٢١٥٠ - ٢١٥١ - ٢١٥٢ - ٢١٥٣ - ٢١٥٤ - ٢١٥٥ - ٢١٥٦ - ٢١٥٧ - ٢١٥٨ - ٢١٥٩ - ٢١٦٠ - ٢١٦١ - ٢١٦٢ - ٢١٦٣ - ٢١٦٤ - ٢١٦٥ - ٢١٦٦ - ٢١٦٧ - ٢١٦٨ - ٢١٦٩ - ٢١٧٠ - ٢١٧١ - ٢١٧٢ - ٢١٧٣ - ٢١٧٤ - ٢١٧٥ - ٢١٧٦ - ٢١٧٧ - ٢١٧٨ - ٢١٧٩ - ٢١٨٠ - ٢١٨١ - ٢١٨٢ - ٢١٨٣ - ٢١٨٤ - ٢١٨٥ - ٢١٨٦ - ٢١٨٧ - ٢١٨٨ - ٢١٨٩ - ٢١٩٠ - ٢١٩١ - ٢١٩٢ - ٢١٩٣ - ٢١٩٤ - ٢١٩٥ - ٢١٩٦ - ٢١٩٧ - ٢١٩٨ - ٢١٩٩ - ٢٢٠٠ - ٢٢٠١ - ٢٢٠٢ - ٢٢٠٣ - ٢٢٠٤ - ٢٢٠٥ - ٢٢٠٦ - ٢٢٠٧ - ٢٢٠٨ - ٢٢٠٩ - ٢٢١٠ - ٢٢١١ - ٢٢١٢ - ٢٢١٣ - ٢٢١٤ - ٢٢١٥ - ٢٢١٦ - ٢٢١٧ - ٢٢١٨ - ٢٢١٩ - ٢٢٢٠ - ٢٢٢١ - ٢٢٢٢ - ٢٢٢٣ - ٢٢٢٤ - ٢٢٢٥ - ٢٢٢٦ - ٢٢٢٧ - ٢٢٢٨ - ٢٢٢٩ - ٢٢٣٠ - ٢٢٣١ - ٢٢٣٢ - ٢٢٣٣ - ٢٢٣٤ - ٢٢٣٥ - ٢٢٣٦ - ٢٢٣٧ - ٢٢٣٨ - ٢٢٣٩ - ٢٢٤٠ - ٢٢٤١ - ٢٢٤٢ - ٢٢٤٣ - ٢٢٤٤ - ٢٢٤٥ - ٢٢٤٦ - ٢٢٤٧ - ٢٢٤٨ - ٢٢٤٩ - ٢٢٥٠ - ٢٢٥١ - ٢٢٥٢ - ٢٢٥٣ - ٢٢٥٤ - ٢٢٥٥ - ٢٢٥٦ - ٢٢٥٧ - ٢٢٥٨ - ٢٢٥٩ - ٢٢٦٠ - ٢٢٦١ - ٢٢٦٢ - ٢٢٦٣ - ٢٢٦٤ - ٢٢٦٥ - ٢٢٦٦ - ٢٢٦٧ - ٢٢٦٨ - ٢٢٦٩ - ٢٢٧٠ - ٢٢٧١ - ٢٢٧٢ - ٢٢٧٣ - ٢٢٧٤ - ٢٢٧٥ - ٢٢٧٦ - ٢٢٧٧ - ٢٢٧٨ - ٢٢٧٩ - ٢٢٨٠ - ٢٢٨١ - ٢٢٨٢ - ٢٢٨٣ - ٢٢٨٤ - ٢٢٨٥ - ٢٢٨٦ - ٢٢٨٧ - ٢٢٨٨ - ٢٢٨٩ - ٢٢٩٠ - ٢٢٩١ - ٢٢٩٢ - ٢٢٩٣ - ٢٢٩٤ - ٢٢٩٥ - ٢٢٩٦ - ٢٢٩٧ - ٢٢٩٨ - ٢٢٩٩ - ٢٣٠٠ - ٢٣٠١ - ٢٣٠٢ - ٢٣٠٣ - ٢٣٠٤ - ٢٣٠٥ - ٢٣٠٦ - ٢٣٠٧ - ٢٣٠٨ - ٢٣٠٩ - ٢٣١٠ - ٢٣١١ - ٢٣١٢ - ٢٣١٣ - ٢٣١٤ - ٢٣١٥ - ٢٣١٦ - ٢٣١٧ - ٢٣١٨ - ٢٣١٩ - ٢٣٢٠ - ٢٣٢١ - ٢٣٢٢ - ٢٣٢٣ - ٢٣٢٤ - ٢٣٢٥ - ٢٣٢٦ - ٢٣٢٧ - ٢٣٢٨ - ٢٣٢٩ - ٢٣٣٠ - ٢٣٣١ - ٢٣٣٢ - ٢٣٣٣ - ٢٣٣٤ - ٢٣٣٥ - ٢٣٣٦ - ٢٣٣٧ - ٢٣٣٨ - ٢٣٣٩ - ٢٣٤٠ - ٢٣٤١ - ٢٣٤٢ - ٢٣٤٣ - ٢٣٤٤ - ٢٣٤٥ - ٢٣٤٦ - ٢٣٤٧ - ٢٣٤٨ - ٢٣٤٩ - ٢٣٥٠ - ٢٣٥١ - ٢٣٥٢ - ٢٣٥٣ - ٢٣٥٤ - ٢٣٥٥ - ٢٣٥٦ - ٢٣٥٧ - ٢٣٥٨ - ٢٣٥٩ - ٢٣٦٠ - ٢٣٦١ - ٢٣٦٢ - ٢٣٦٣ - ٢٣٦٤ - ٢٣٦٥ - ٢٣٦٦ - ٢٣٦٧ - ٢٣٦٨ - ٢٣٦٩ - ٢٣٧٠ - ٢٣٧١ - ٢٣٧٢ - ٢٣٧٣ - ٢٣٧٤ - ٢٣٧٥ - ٢٣٧٦ - ٢٣٧٧ - ٢٣٧٨ - ٢٣٧٩ - ٢٣٨٠ - ٢٣٨١ - ٢٣٨٢ - ٢٣٨٣ - ٢٣٨٤ - ٢٣٨٥ - ٢٣٨٦ - ٢٣٨٧ - ٢٣٨٨ - ٢٣٨٩ - ٢٣٩٠ - ٢٣٩١ - ٢٣٩٢ - ٢٣٩٣ - ٢٣٩٤ - ٢٣٩٥ - ٢٣٩٦ - ٢٣٩٧ - ٢٣٩٨ - ٢٣٩٩ - ٢٤٠٠ - ٢٤٠١ - ٢٤٠٢ - ٢٤٠٣ - ٢٤٠٤ - ٢٤٠٥ - ٢٤٠٦ - ٢٤٠٧ - ٢٤٠٨ - ٢٤٠٩ - ٢٤١٠ - ٢٤١١ - ٢٤١٢ - ٢٤١٣ - ٢٤١٤ - ٢٤١٥ - ٢٤١٦ - ٢٤١٧ - ٢٤١٨ - ٢٤١٩ - ٢٤٢٠ - ٢٤٢١ - ٢٤٢٢ - ٢٤٢٣ - ٢٤٢٤ - ٢٤٢٥ - ٢٤٢٦ - ٢٤٢٧ - ٢٤٢٨ - ٢٤٢٩ - ٢٤٣٠ - ٢٤٣١ - ٢٤٣٢ - ٢٤٣٣ - ٢٤٣٤ - ٢٤٣٥ - ٢٤٣٦ - ٢٤٣٧ - ٢٤٣٨ - ٢٤٣٩ - ٢٤٤٠ - ٢٤٤١ - ٢٤٤٢ - ٢٤٤٣ - ٢٤٤٤ - ٢٤٤٥ - ٢٤٤٦ - ٢٤٤٧ - ٢٤٤٨ - ٢٤٤٩ - ٢٤٥٠ - ٢٤٥١ - ٢٤٥٢ - ٢٤٥٣ - ٢٤٥٤ - ٢٤٥٥ - ٢٤٥٦ - ٢٤٥٧ - ٢٤٥٨ - ٢٤٥٩ - ٢٤٦٠ - ٢٤٦١ - ٢٤٦٢ - ٢٤٦٣ - ٢٤٦٤ - ٢٤٦٥ - ٢٤٦٦ - ٢٤٦٧ - ٢٤٦٨ - ٢٤٦٩ - ٢٤٧٠ - ٢٤٧١ - ٢٤٧٢ - ٢٤٧٣ - ٢٤٧٤ - ٢٤٧٥ - ٢٤٧٦ - ٢٤٧٧ - ٢٤٧٨ - ٢٤٧٩ - ٢٤٨٠ - ٢٤٨١ - ٢٤٨٢ - ٢٤٨٣ - ٢٤٨٤ - ٢٤٨٥ - ٢٤٨٦ - ٢٤٨٧ - ٢٤٨٨ - ٢٤٨٩ - ٢٤٩٠ - ٢٤٩١ - ٢٤٩٢ - ٢٤٩٣ - ٢٤٩٤ - ٢٤٩٥ - ٢٤٩٦ - ٢٤٩٧ - ٢٤٩٨ - ٢٤٩٩ - ٢٥٠٠ - ٢٥٠١ - ٢٥٠٢ - ٢٥٠٣ - ٢٥٠٤ - ٢٥٠٥ - ٢٥٠٦ - ٢٥٠٧ - ٢٥٠٨ - ٢٥٠٩ - ٢٥١٠ - ٢٥١١ - ٢٥١٢ - ٢٥١٣ - ٢٥١٤ - ٢٥١٥ - ٢٥١٦ - ٢٥١٧ - ٢٥١٨ - ٢٥١٩ - ٢٥٢٠ - ٢٥٢١ - ٢٥٢٢ - ٢٥٢٣ - ٢٥٢٤ - ٢٥٢٥ - ٢٥٢٦ - ٢٥٢٧ - ٢٥٢٨ - ٢٥٢٩ - ٢٥٣٠ - ٢٥٣١ - ٢٥٣٢ - ٢٥٣٣ - ٢٥٣٤ - ٢٥٣٥ - ٢٥٣٦ - ٢٥٣٧ - ٢٥٣٨ - ٢٥٣٩ - ٢٥٤٠ - ٢٥٤١ - ٢٥٤٢ - ٢٥٤٣ - ٢٥٤٤ - ٢٥٤٥ - ٢٥٤٦ - ٢٥٤٧ - ٢٥٤٨ - ٢٥٤٩ - ٢٥٥٠ - ٢٥٥١ - ٢٥٥٢ - ٢٥٥٣ - ٢٥٥٤ - ٢٥٥٥ - ٢٥٥٦ - ٢٥٥٧ - ٢٥٥٨ - ٢٥٥٩ - ٢٥٦٠ - ٢٥٦١ - ٢٥٦٢ - ٢٥٦٣ - ٢٥٦٤ - ٢٥٦٥ - ٢٥٦٦ - ٢٥٦٧ - ٢٥٦٨ - ٢٥٦٩ - ٢٥٧٠ - ٢٥٧١ - ٢٥٧٢ - ٢٥٧٣ - ٢٥٧٤ - ٢٥٧٥ - ٢٥٧٦ - ٢٥٧٧ - ٢٥٧٨ - ٢٥٧٩ - ٢٥٨٠ - ٢٥٨١ - ٢٥٨٢ - ٢٥٨٣ - ٢٥٨٤ - ٢٥٨٥ - ٢٥٨٦ - ٢٥٨٧ - ٢٥٨٨ - ٢٥٨٩ - ٢٥٩٠ - ٢٥٩١ - ٢٥٩٢ - ٢٥٩٣ - ٢٥٩٤ - ٢٥٩٥ - ٢٥٩٦ - ٢٥٩٧ - ٢٥٩٨ - ٢٥٩٩ - ٢٦٠٠ - ٢٦٠١ - ٢٦٠٢ - ٢٦٠٣ - ٢٦٠٤ - ٢٦٠٥ - ٢٦٠٦ - ٢٦٠٧ - ٢٦٠٨ - ٢٦٠٩ - ٢٦١٠ - ٢٦١١ - ٢٦١٢ - ٢٦١٣ - ٢٦١٤ - ٢٦١٥ - ٢٦١٦ - ٢٦١٧ - ٢٦١٨ - ٢٦١٩ - ٢٦٢٠ - ٢٦٢١ - ٢٦٢٢ - ٢٦٢٣ - ٢٦٢٤ - ٢٦٢٥ - ٢٦٢٦ - ٢٦٢٧ - ٢٦٢٨ - ٢٦٢٩ - ٢٦٣٠ - ٢٦٣١ - ٢٦٣٢ - ٢٦٣٣ - ٢٦٣٤ - ٢٦٣٥ - ٢٦٣٦ - ٢٦٣٧ - ٢٦٣٨ - ٢٦٣٩ - ٢٦٤٠ - ٢٦٤١ - ٢٦٤٢ - ٢٦٤٣ - ٢٦٤٤ - ٢٦٤٥ - ٢٦٤٦ - ٢٦٤٧ - ٢٦٤٨ - ٢٦٤٩ - ٢٦٥٠ - ٢٦٥١ - ٢٦٥٢ - ٢٦٥٣ - ٢٦٥٤ - ٢٦٥٥ - ٢٦٥٦ - ٢٦٥٧ - ٢٦٥٨ - ٢٦٥٩ - ٢٦٦٠ - ٢٦٦١ - ٢٦٦٢ - ٢٦٦٣ - ٢٦٦٤ - ٢٦٦٥ - ٢٦٦٦ - ٢٦٦٧ - ٢٦٦٨ - ٢٦٦٩ - ٢٦٧٠ - ٢٦٧١ - ٢٦٧٢ - ٢٦٧٣ - ٢٦٧٤ - ٢٦٧٥ - ٢٦٧٦ - ٢٦٧٧ - ٢٦٧٨ - ٢٦٧٩ - ٢٦٨٠ - ٢٦٨١ - ٢٦٨٢ - ٢٦٨٣ - ٢٦٨٤ - ٢٦٨٥ - ٢٦٨٦ - ٢٦٨٧ - ٢٦٨٨ - ٢٦٨٩ - ٢٦٩٠ - ٢٦٩١ - ٢٦٩٢ - ٢٦٩٣ - ٢٦٩٤ - ٢٦٩٥ - ٢٦٩٦ - ٢٦٩٧ - ٢٦٩٨ - ٢٦٩٩ - ٢٧٠٠ - ٢٧٠١ - ٢٧٠٢ - ٢٧٠٣ - ٢٧٠٤ - ٢٧٠٥ - ٢٧٠٦ - ٢٧٠٧ - ٢٧٠٨ - ٢٧٠٩ - ٢٧١٠ - ٢٧١١ - ٢٧١٢ - ٢٧١٣ - ٢٧١٤ - ٢٧١٥ - ٢٧١٦ - ٢٧١٧ - ٢٧١٨ - ٢٧١٩ - ٢٧٢٠ - ٢٧٢١ - ٢٧٢٢ - ٢٧٢٣ - ٢٧٢٤ - ٢٧٢٥ - ٢٧٢٦ - ٢٧٢٧ - ٢٧٢٨ - ٢٧٢٩ - ٢٧٣٠ - ٢٧٣١ - ٢٧٣٢ - ٢٧٣٣ - ٢٧٣٤ - ٢٧٣٥ - ٢٧٣٦ - ٢٧٣٧ - ٢٧٣٨ - ٢٧٣٩ - ٢٧٤٠ - ٢٧٤١ - ٢٧٤٢ - ٢٧٤٣ - ٢٧٤٤ - ٢٧٤٥ - ٢٧٤٦ - ٢٧٤٧ - ٢٧٤٨ - ٢٧٤٩ - ٢٧٥٠ - ٢٧٥١ - ٢٧٥٢ - ٢٧٥٣ - ٢٧٥٤ - ٢٧٥٥ - ٢٧٥٦ - ٢٧٥٧ - ٢٧٥٨ - ٢٧٥٩ - ٢٧٦٠ - ٢٧٦١ - ٢٧٦٢ - ٢٧٦٣ - ٢٧٦٤ - ٢٧٦٥ - ٢٧٦٦ - ٢٧٦٧ - ٢٧٦٨ - ٢٧٦٩ - ٢٧٧٠ - ٢٧٧١ - ٢٧٧٢ - ٢٧٧٣ - ٢٧٧٤ - ٢٧٧٥ - ٢٧٧٦ - ٢٧٧٧ - ٢٧٧٨ - ٢٧٧٩ - ٢٧٨٠ - ٢٧٨١ - ٢٧٨٢ - ٢٧٨٣ - ٢٧٨٤ - ٢٧٨٥ - ٢٧٨٦ - ٢٧٨٧ - ٢٧٨٨ - ٢٧٨٩ - ٢٧٩٠ - ٢٧٩١ - ٢٧٩٢ - ٢٧٩٣ - ٢٧٩٤ - ٢٧٩٥ - ٢٧٩٦ - ٢٧٩٧ - ٢٧٩٨ - ٢٧٩٩ - ٢٨٠٠ - ٢٨٠١ - ٢٨٠٢ - ٢٨٠٣ - ٢٨٠٤ - ٢٨٠٥ - ٢٨٠٦ - ٢٨٠٧ - ٢٨٠٨ - ٢٨٠٩ - ٢٨١٠ - ٢٨١١ - ٢٨١٢ - ٢٨١٣ - ٢٨١٤ - ٢٨١٥ - ٢٨١٦ - ٢٨١٧ - ٢٨١٨ - ٢٨١٩ - ٢٨٢٠ - ٢٨٢١ - ٢٨٢٢ - ٢٨٢٣ - ٢٨٢٤ - ٢٨٢٥ - ٢٨٢٦ - ٢٨٢٧ - ٢٨٢٨ - ٢٨٢٩ - ٢٨٣٠ - ٢٨٣١ - ٢٨٣٢ - ٢٨٣٣ - ٢٨٣٤ - ٢٨٣٥ - ٢٨٣٦ - ٢٨٣٧ - ٢٨٣٨ - ٢٨٣٩ - ٢٨٤٠ - ٢٨٤١ - ٢٨٤٢ - ٢٨٤٣ - ٢٨٤٤ - ٢٨٤٥ - ٢٨٤٦ - ٢٨٤٧ - ٢٨٤٨ - ٢٨٤٩ - ٢٨٥٠ - ٢٨٥١ - ٢٨٥٢ - ٢٨٥٣ - ٢٨٥٤ - ٢٨٥٥ - ٢٨٥٦ - ٢٨٥٧ - ٢٨٥٨ - ٢٨٥٩ - ٢٨٦٠ - ٢٨٦١ - ٢٨٦٢ - ٢٨٦٣ - ٢٨٦٤ - ٢٨٦٥ - ٢٨٦٦ - ٢٨٦٧ - ٢٨٦٨ - ٢٨٦٩ - ٢٨٧٠ - ٢٨٧١ - ٢٨٧٢ - ٢٨٧٣ - ٢٨٧٤ - ٢٨٧٥ - ٢٨٧٦ - ٢٨٧٧ - ٢٨٧٨ - ٢٨٧٩ - ٢٨٨٠ - ٢٨٨١ - ٢٨٨٢ - ٢٨٨٣ - ٢٨٨٤ - ٢٨٨٥ - ٢٨٨٦ - ٢٨٨٧ - ٢٨٨٨ - ٢٨٨٩ - ٢٨٩٠ - ٢٨٩١ - ٢٨٩٢ - ٢٨٩٣ - ٢٨٩٤ - ٢٨٩٥ - ٢٨٩٦ - ٢٨٩٧ - ٢٨٩٨ - ٢٨٩٩ - ٢٩٠٠ - ٢٩٠١ - ٢٩٠٢ - ٢٩٠٣ - ٢٩٠٤ - ٢٩٠٥ - ٢٩٠٦ - ٢٩٠٧ - ٢٩٠٨ - ٢٩٠٩ - ٢٩١٠ - ٢٩١١ - ٢٩١٢ - ٢٩١٣ - ٢٩١٤ - ٢٩١٥ - ٢٩١٦ - ٢٩١٧ - ٢٩١٨ - ٢٩١٩ - ٢٩٢٠ - ٢٩٢١ - ٢٩٢٢ - ٢٩٢٣ - ٢٩٢٤ - ٢٩٢٥ - ٢٩٢٦ - ٢٩٢٧ - ٢٩٢٨ - ٢٩٢٩ - ٢٩٣٠ - ٢٩٣١ - ٢٩٣٢ - ٢٩٣٣ - ٢٩٣٤ - ٢٩٣٥ - ٢٩٣٦ - ٢٩٣٧ - ٢٩٣٨ - ٢٩٣٩ - ٢٩٤٠ - ٢٩٤١ - ٢٩٤٢ - ٢٩٤٣ - ٢٩٤٤ - ٢٩٤٥ - ٢٩٤٦ - ٢٩٤٧ - ٢٩٤٨ - ٢٩٤٩ - ٢٩٥٠ - ٢٩٥١ - ٢٩٥٢ - ٢٩٥٣ - ٢٩٥٤ - ٢٩٥٥ - ٢٩٥٦ - ٢٩٥٧ - ٢٩٥٨ - ٢٩٥٩ - ٢٩٦٠ - ٢٩٦١ - ٢٩٦٢ - ٢٩٦٣ - ٢٩٦٤ - ٢٩٦٥ - ٢٩٦٦ - ٢٩٦٧ - ٢٩٦٨ - ٢٩٦٩ - ٢٩٧٠ - ٢٩٧١ - ٢٩٧٢ - ٢٩٧٣ - ٢٩٧٤ - ٢٩٧٥ - ٢٩٧٦ - ٢٩٧٧ - ٢٩٧٨ - ٢٩٧٩ - ٢٩٨٠ - ٢٩٨١ - ٢٩٨٢ - ٢٩٨٣ - ٢٩٨٤ - ٢٩٨٥ - ٢٩٨٦ - ٢٩٨٧ - ٢٩٨٨ - ٢٩٨٩ - ٢٩٩٠ - ٢٩٩١ - ٢٩٩٢ - ٢٩٩٣ - ٢٩٩٤ - ٢٩٩٥ - ٢٩٩٦ - ٢٩٩٧ - ٢٩٩٨ - ٢٩٩٩ - ٣٠٠٠ - ٣٠٠١ - ٣٠٠٢ - ٣٠٠٣ - ٣٠٠٤ - ٣٠٠٥ - ٣٠٠٦ - ٣٠٠٧ - ٣٠٠٨ - ٣٠٠٩ - ٣٠١٠ - ٣٠١١ - ٣٠١٢ - ٣٠١٣ - ٣٠١٤ - ٣٠١٥ - ٣٠١٦ - ٣٠١٧ - ٣٠١٨ - ٣٠١٩ - ٣٠٢٠ - ٣٠٢١ - ٣٠٢٢ - ٣٠٢٣ - ٣٠٢٤ - ٣٠٢٥ - ٣٠٢٦ - ٣٠٢٧ - ٣٠٢٨ - ٣٠٢٩ - ٣٠٣٠ - ٣٠٣١ - ٣٠٣٢ - ٣٠٣٣ - ٣٠٣٤ - ٣٠٣٥ - ٣٠٣٦ - ٣٠٣٧ - ٣٠٣٨ - ٣٠٣٩ - ٣٠٤٠ - ٣٠٤١ - ٣٠٤٢ - ٣٠٤٣ - ٣٠٤٤ - ٣٠٤٥ - ٣٠٤٦ - ٣٠٤٧ - ٣٠٤٨ - ٣

وتركهما يخرجان من عنده من غير أن يتفوه بكلمة أخرى وفيما هما خارجان فوجئت المرأة بسقوط الجنين من بطنها . فأدرك الاثنان قوة الصلة التي تربط الانبا متاوس بالله لانه تكلم وكن له سلطان ، كما أدركا أيضا مدى الشر الذي اقترفاه وانفصلا عن بعضهما وطاد الرجل إلى زوجته الاصيلة . وأحسن الشعب بالاحاسيس عينها التي كانت تسيطر على الناس أيام أن كان الرسل يعملون بقوه قاديهم : أي أنهم امتلأوا خوفاً ومجدوا الله ^(١) .

٧٣ - وذات مرة سعت الحماقة على بعض الفوغاء فاستثارت فيهم الرغبة في هدم كنيسة الشهيد العظيم مرقوريوس (أبي السيفين) ، ولكي يصفوا على رغبتهم قوة القسانون ذهبوا إلى الديوان وجملوا الوالي بعين لهم أغا ليشرف على عملهم الآثم . وبلغ الانبا متاوس أخبار هذا التآمر فامتلاً قلبه حزناً وقضى ليته ساهراً ضارعاً في حرارة مستهطفاً الأب السماوي ليتدارك شعبه ويحفظ له هذه الكنيسة الفخمة من الخراب . وقد اقترنت ضراعتيه باستشفاعه بالشهيد القديس صاحب الكنيسة . وكان الراغبون في هدمها قد نجحوا في استصحاب الأغا وبعض الجنود وذهبوا جميعاً إلى الكنيسة . ولما وصلوها كان المساء قد أمسى . فرأوا أن يبيتوا إلى جوارها لبدأوا عملهم في الصباح الباكر . وبينما هم نائمون سقط عليهم حائط المنزل المجاور فقتلتهم كلهم . فلما أصبح الصباح ورأى الناس ماجرى امتلات قلوبهم رهبة ولم يحسر أحد أن يتعرض للكنيسة . أما البابا المرقسي فقد رفع صلاة العكر لله الذي يبدد مشورة الحمقى كما يبدد قديماً مشورة أختوفل ^(٢) .

ولم يقف جهاد البابا عند اعلانه المبادئ المسيحية صراحة ولا عند ردعه الخطاة بل أنه قد شاء أن يدعم العقيدة الارثوذكسية في القلوب فمكتب رسالة

(١) شرحه ص ١٣٠ - ١٣١ ، أعمال ١٩ : ١٧ .

(٢) ٢ صوثيل ١٥ : ٢١ - ٢٤ ، سلسلة ... ص ١٢١ .

عن حقيقة الوجود الإلهي في سر الانخارستيا . وقد صاغ رسالته هذه في تعبيرات شرقية صافية توضح الايمان تبعاً للتعليم الارثوذكسي بحيث سيح حولها سياجاً يحفظها من التفسيرات الكاثوليكية من جهة ومن السكالفينية (١) من الجهة الاخرى (٢).

٧٤ - وبعد انقضاء أربع عشرة سنة وثمانى أشهر على بابوية الأنبا مترومس الرابع تاجر خلالها بالوزنات التي تسلمها من ربه مضى إلى مقبرة البابوات بكنيسة أبى السيفين وصلى ثم قال بصوت مسموع : « انفتحى واقبلينى لاسكن مع اخوتى ». وبعد أيام مرض وعلم بالروح انه مرض الموت . فأرسل فى طلب رئيسة دير الراهبات بحارة الروم وسلمها كل ما عنده وقال لها : « احتفظى بهذه الامانة بكل حرص ، وسلميها لمن يأتى بعدى لأنها وقف على الكنيسة » . ثم بعث بعد ذلك بخطاباته إلى الاساقفة يوصيهم برعية المسيح له المجد . وبعد هذه التوصيات انتقل بسلام إلى العالم العلوى . وكانت نياحته فى قلاية ملاصقة لكنيسة الشهيد العظيم أبى السيفين . وتجمع الاساقفة والسكنة والشعب للصلاة عليه . ولكن الوالى لم يأذن لهم بدفنه إلا بعد ان اخذ منهم أموالاً طائلة .

وقد حزن عليه الشعب حزناً عميقاً لأنه كان أباً عطوفاً رحيماً . ودفنوه فى المغارة المخصصة للبابوات تحت هيكل كنيسة أبى السيفين (٣) .

٧٥ - وفى تلك الفترة زار مصر راهب دومينيكانى اسمه فانسلب . وعند عودته كتب كتاباً بعنوان « تاريخ الكنيسة القبطية » . وكتابه شهادة رائعة للقبط ، لذلك وجب اقتباس بعض ما جاء فيه لئلا يرى منه شهادة الذين هم من

(١) هو زميل للوثر تار معه على الكنيسة الكاثوليكية وألف فرهاً من الفروع البروتستانتية .
(٢) قاموس السير المسيحية ج ١ ص ٦٨٠ .
(٣) سلسلة . . ص ١٣٢ ، مخطوطة طفس ٢٨٩ ، وطفس ٢٤٢ ورقة ١٦٠ (وجه) بمكتبة دير الأنبا أنطوني .

خارج، عن جدودنا الذين عاشوا في فترة من أحلك فترات تاريخ مصر العام (١).
وفي رؤيتنا لتصويره يجدر بنا التمسك - فلا نكتفي بقراءة طابرة ولاحق بالاعتزاز
بقوميتنا بل يليق بنا أن نجعل من مطالعتنا حافزاً يدفعنا إلى الأمام، ونقطة
استناد تساعدنا على انطلاقه حماسية نحو ذلك الكمال الذي وضعه أمامنا سيدنا
له المجد.

قال الأب فانسلب: « ان البطريرك القبطي له الرياسة أيضاً على أثيوبيا
والنوبة والمدن الخمس وقبرص كذلك لأن القديس مرقس قد بشر تلك الجزيرة...
والقبط يوقرون الأماكن المقدسة أشد التوقير... وهم يرون أنه من الضروري
أن تكون الكنيسة مزدانة بمختلف وسائل الجمال، ويوقدون الشموع والثريات
أثناء الشعائر الدينية لأن الكنيسة رمز للسماء والنور الموقد بهار من إلى النجوم...
وإن سئلوا لماذا لا يستعملون غير زيت الزيتون في الكنيسة أجابوا أن ذلك
يرجع إلى أن هذه الشجرة هي الوحيدة التي نجت من غضب الله أثناء الطوفان،
وهذه النجاة تتضمن سرّاً عظيماً... كذلك يعتقدون بأنه يجب وضع الأيقونات
في الكنيسة لأن مثل هذه العادة قد تسلبها من المسيحيين الأول. وهم يحتفظون
بها في كنائسهم أمام أعين المؤمنين لكي يستثيروا تعبدتهم ويهبتوا لهم الفرص
ليتذكروا بأكثر جلاء الأشخاص المقدسين الذين تمثلهم تلك الصور. وثمة
صورة هي صورة السيدة العذراء تحمل طفلها الحبيب بين ذراعيها رسمها القديس
لوقا بناء على طلبها شخصياً. وهذه الأيقونات التي عندهم قد وجدت فيها كلها
صفة ممدوحة للغاية هي الوداعة والاحتشام فهم يصورون السيدة العذراء على
رأسها طرحة وعباءة تنظيها كلها بحيث لا يتعري جزء من جسمها ولا من صدرها،
ويصورون ابنها على نفس النمط... وهذا درس لنا معشر المبشرين يجب أن

نعمل به ولا نعرض صوراً للسيدة العذراء يبدو فيها صدرها مكشوفاً وهي
تمسكة بابنها العاري تماماً ، لأن مثل هذا التصوير يعثر المؤمنون والترك أيضاً
الذين كثيراً ما يدخلون كنائسنا ويسخرون من ديننا . والقبط لا يضعون أية
صورة في الكنيسة قبل تكريسها بالميرون وإقامة صلوات خاصة بذلك ... وإليكم
الأسرار التي يعتقدون أن المبخرة تتضمنها : ان السلاسل الثلاث التي تتدلى منها
والمصنوعة من ذات المعدن ترمز إلى أن الأقاليم الثلاثة من جوهر واحد ، وغطاء
المبخرة رمز لقبه السماء ، وطرفه المثني إلى أسفل يرمز إلى نزول ابن الله في سر
التجسد ، واستدارة المبخرة تشير إلى الحشا البتولي الطاهر ، والفهم صورة للجسد
الإنساني الذي اتخذ ابن الله من السيدة العذراء ، في حين أن النار الملتهبة في الفهم
رمز إلى اتحاد الطبيعتين الإلهية والإنسانية في الحكمة المتجسد ... وهم لا يركعون
بعد تناول ولا يقومون بأية انحناءة في ذلك اليوم لأن الركوع والانحناء علامات
الحقارة ، والتناول الذي هو شخص ذلك الذي انتصر على الشيطان وجنم بسبب
البهجة للنفس التي تناولت من الأسرار المقدسة ، فهم يعتبرون أنه غير لائق
بالنفس في ذلك اليوم أن تؤدي أي عمل يدل على الحزن أو على الحقارة ...

وبعد الحديث عن معتقدات القبط وصف بعض الأشخاص الذين رأهم
والأماكن التي زارها . فقال عن أنبا ميخائيل أسقف القيوم أنه رجل شريف
مشهور بالعلم والتقوى وعلى جانب كبير من التواضع إذ قد ارتضى أن يقف معه
في بيته عدة أيام أوضح له خلالها معتقدات الكنيسة القبطية وطقوسها ...

ثم زار فالسلب مدينة سنورس . وبعد أن استراح في بيت العمدة واستمتع
بضيافته ، زار الكنيسة المكرسة على اسم الملك ميخائيل . ومع أن الفقر بدا
عليها إلا أنه لاحظ في ركن منها قطعة من الحجر مربعة الشكل محفور عليها ثلاث
أيقونات صغيرة : الأولى لرئيس جند السمائيين ميخائيل ، والوسطى للسيدة العذراء

حاملة ابنها على ذراعها ، والثالثة لرئيس الملائكة روفائيل . وقد حفر اسم صاحب الصورة : كل تحت صورته .

ثم انتقل فانسلب بعد ذلك إلى منطقة تبعد مسيرة ساعتين عن الفيوم لزيارة دير باسم د دير الخشاب ، - وكان مذاك خرباً لم يبق منه غير كنيسته المكرسة باسم رئيس الملائكة غبريال . وهي كنيسة غاية في الابداع منقوشة كلها بصور تاريخية من الكتاب المقدس أو للقديسين ويرتفع سقف حن الكنيسة على أعمدة مبنية من الحجارة . وتحت هذه الكنيسة كنيسة أخرى لم تعد تستعمل للصلاة . وقصة هذه الكنيسة على جانب من الطرافة : فقد بناها شخص اسمه أور ابن أبرميت الساحر المروفي ، وأم أور هي بنت ملك المشرق . ثم ترك أور الساحر الذي تلقته عن أبيه وآمن بالمسيح له المجد ، وسار في طريق الصلاح والتشف إلى حد أنه أصبح أسقف الفيوم . ولأنه وصل إلى درجة سامية من الروحانية والتقوى بنى الكنيسة التي وضعت أساسها وأساس مذبحها السيدة المذراء بنفسها ، والتي خطط رئيس الملائكة ميخائيل خورسها وباقى أجزائها .

وهي مقربة من هذه الكنيسة - وفي جهتها القبلية - خرائب قرية قديمة كانت متصلة بها قبيل لفانسلب أن سكانها كانوا من عشيرة يعقوب أبي الآباء ، وهي لذلك معروفة باسم د مصلاة يعقوب ، . وفي الجبل الواقع خلف هذه القرية مغاور عديدة كان يسكنها المتوحدون . . .

وتحدث فانسلب بعد ذلك عن دير الست دميانه الذي زاره في أسبوع تذكراها (١٢ - ٢٠ مايو) فقال : « أن كنيسة الست دميانه شهيرة ، وقد أقيمت في سهل منبسط متسع خصب . . . ويحوى بناء هذه الكنيسة على خمس وعشرين قبة تحمل منظرها من بعيد جملاً جداً على الرغم من عدم انتظام وضعها واختلاف

أحجامها . والكنيسة من داخل ليست تامة البناء وليس بها غير هيكل واحد مبيض بالجير وهو الذى يتم فيه الظهور ، الطيفسى ،... والهدف من بناء القباب هو تزين المباني من الخارج واضاءة الكنيسة من الداخل ، لان فى كل قبة كوة أو كوتنين يتسرب منها النور . ويعتقد المصريون - قبطا ومسلمين - أن القديسة دميانة تظهر فى قبة كخيستها مدة أيام العيد الثلاثة ،... ،^(١) .

هذه مقتطفات طابرة لكتاب فانسلب يقدم لنا تقييما مشرفا للقبط فى الفترة التى زار فيها بلادنا الحبيبة .

٧٦ - ومن الحوادث العجيبة التى جرت فى أيام البابا متاوس الرابع المعجزة التى حدثت بخصوص أيقونة لرئيس الملائكة ميخائيل . وتتلخص فى أن القبط يحتفظون بأيقونة لهذا الملاك الجليل فى الكنيسة المرقسية بالاسكندرية . ويقول التقليد أن هذه الأيقونة من رسم القديس لوقا البشير . وقد حدث أن تمكن البندقيون من سرقة هذه الأيقونة وحاولوا الابحار إلى مدينتهم . ولكن كانت تقوم فى سبيلهم المراقيل كلما حاولوا الابحار . فتيقفوا من أن سبب التعطيل ليس سوى هذه الأيقونة المسروقة وبالتالى رأوا وجوب إعادتها إلى مكانها فى كنيسة مار مرقس .

وانتشر خبر هذه المعجزة ، وسمعه عربان المنطقة المتاخمة للاسكندرية . فزعموا أنهم يستطيعون الظفر بهذه الأيقونة وبيعها للفرنجة . فذهب نفر منهم

(١) من كتاب فانسلب من النسخة المحفوظة فى مكتبة نيويورك العامة فى القسم الخاص بالدراسات الشرقية . ويقول الكتاب الفرنسى ديهرين فى كتابه « مصر التركية » على س ١٩٧ بأن فانسلب تمكن من الحصول على ما يقدر بثلاثمائة مخطوطة حملها معه عند عودته إلى بلاده . والاشارة إلى ظهور الست دميانة تبين أن فانسلب رغم كونه راهب ينتمى إلى الكنيسة الكاثوليكية التى تؤمن بظهور القديسين فى مختلف المناسبات - رغم هذا فهو يصف الظهور بكلمة « يعتقد المصريون » كأنه يتشكك فى مثل هذا الظهور .

ذات ليلة وكسروا باب الكنيسة ، ودخلوها ، وانزعوا الأيقونة من مكانها ، وهمّوا بالخروج . وإذ بهم لا يستطيعون حراكا . فامتلات نفوسهم رهبة وأعادوا الأيقونة إلى مكانها وخرجوا مسرعين . وقد رأى فالساب هذه الأيقونة وتحدث عنها بإعجاب إلا أن المؤرخ كامل صالح نخله حين قصد إلى الكنيسة المرقسية بالاسكندرية لرؤيتها سنة ١٩٤٤ لم يجدها وقيل له بأن هناك أيقونة أثرية للملاك ميخائيل في كنيسة مار مرقس برشيد . فلما ذهب إلى الكنيسة المشار إليها وجد بالهيكل القبلي تجويفاً يتضمن أيقونة أثرية عجيبة لرئيس جند السمائيين . تصور النصف الأعلى من جسمه فقط . وهي مثبتة داخل التجويف بطريقة تحول دون سرقتها .

وقد يسأل معترض: وما صلة كنيسة رشيد بكنيسة الاسكندرية ؟ وما الداعي إلى الزعم بأن أيقونة رئيس الملائكة ميخائيل المثبتة في تجويف هيكل الكنيسة المرقسية برشيد هي بعينها التي كانت في الكنيسة المرقسية بالاسكندرية ؟ والاجابة متيسرة وهي أنه حين دخل نابليون بونابرت الاسكندرية هدم كنيسة مار مرقس ومارتيا الحصينتين خشية أن يعتصم فيها الانجليز وهم يطاردونه . ورأى الكهنة الاسراع إلى انقاذ ما يمكن انقاذه لحملوا الأيقونات والوانى والكتب والستائر إلى كنيسة مار مرقس برشيد . وبخاصة لان القبط السكندريين تركوا مدينتهم وذهبوا هم ايضاً إلى رشيد ريثما تستقر الامور .

ومع أن الابا كيرلس الخامس (الابا بالاسكندرية ١١٢٠) قد أعاد الكتب والوانى إلى الكنيسة المرقسية بالاسكندرية إلا أنه ترك أيقونة رئيس جند السمائيين ميخائيل في مكانها حرصاً منه عليها (١) .

لحقاً ما أعجب تاريخ كنيستنا القبطية وما أكثر ما صنع الله من عجائب خلالها

« يتجدد مثل النسر شبابك » (١)

- ٧٧ - الاجتماع على الراهب القس ابراهيم
٧٨ - الانزواء في الدير بهدوء
٧٩ - الرسالة البابوية
٨٠ - زيارة راعوية
٨١ - القحط والجوع
٨٢ - عودة الكاثوليك إلى التلاعب
٨٣ - موجة من الشر
٨٤ - زيارة دير الانبا أنطوني
٨٥ - العمل البنائي
٨٦ - تزلف روماني
٨٧ - محاولة من ملك فرنسا
٨٨ - توجيه السهام للعبثية
٨٩ - ولييت المقدس
٩٠ - وباء مزعج
٩١ - صلوات مثيرة
٩٢ - محرمة ثقيلة
٩٣ - استرواح عبر القديسين
٩٤ - تعمير دير انبا بولا
٩٥ - تقديس الميرون
٩٦ - ظاهرة تحملا القلوب ذعرا
٩٧ - معارك دامية
٩٨ - المواهب الإلهية للبابا
٩٩ - تأمين « الدرب السلطاني »
١٠٠ - زيارة الأراضي المقدسة
١٠١ - حمل الاخيرة المقدسة للمرضى
١٠٢ - أراخنة ممتازون
١٠٣ - أسقفان متيقظان
١٠٤ - جهودات لها قيمتها
١٠٥ - وباء فتاك
١٠٦ - جهود فاسخ
١٠٧ - « قوتى في الضعف تكمل » (٢)

٧٧ - كانت النفوس هادئة مطمئنة رغم ما ملأها من حزن لأن البابا الراحل كان أباً عطوفاً حقاً . وهذا الهدوء النفسى جعلهم يحتمون ويتشاورون من غير إبطاء . ودفعتهم تشاورهم إلى ايفاد جماعة منهم إلى دير كوكب البرية الانبا أنطوني العظيم . ولما وصل هذا الوفد والتقى بالشيوخ من الآباء وأطلعهم على السبب لهذه الزيارة شهد هؤلاء الشيوخ للراهب القس ابراهيم . ففرح الجميع بما سمعوه عنه واستصحبوه معهم إلى القاهرة .

٧٨ - ولقد كان هذا الراهب من أهالى طوخ النصارى واسمه ابراهيم . وكان

(١) مز ١٠٣ : ٥ - هكذا نغنى المرثل في الزمور المئة والثالث ، وهكذا حقق الله هذه الأنشودة الكنيسته القبطية في البابا الاسكندري المئة والثالث .

(٢) ٢ كورنثوس ١٢ : ٩ -

أبواه بارين يعيشان في خوف الله ومحبتة ، فربما التربية المسيحية التي يؤمنان
بأنها الطريق الموصل إلى الحياة الكاملة . فلما بلغ أشده اشتغل صرافاً . وبعد
سنتين أخذ يناقش نفسه عن هذه المهنة التي يشتغل بها . فرأى أن التعامل بالمال
لا يتفق تماماً وسعيه نحو الكمال المسيحي . فقد يظلم غيره عمداً أو سهواً ، أو قد
يضطره رئيسه إلى التضيق على الناس وهو يعرف فقرهم . فإن هو استمر في هذه
المهنة فسيقع حتماً في خطايا كثيرة ولو على الرغم منه . وفي نقاشه مع نفسه بهذا
المنطق استقر رأيه على أن خير طريق ينهجه هو أن يترك هذه الوظيفة ويوزع
كل ما لديه ويذهب إلى الدير ، وبخاصة لأن أبويه كانوا قد انتقل إلى الفردوس
فلن يكون هناك من يعترض طريقه .

وما أن سيطرت عليه هذه الأفكار حتى نفذها لساعته . فقاده الروح القدس
إلى الذهاب إلى دير القديس أنطوني أبي الرهبان . وهناك قضى أيامه في دراسة
الكتب الكنسية وفي ممارسة الفضائل المسيحية ، كما عاش في زهد تام وفي محبة
أخوته . فلما رآه الآباء متحلياً بكل هذه الصفات بادلوه بحبة بمحبة ورجوا من
الأنبا متاوس الرابع أن يرسمه قساً عليهم . وقد تمت رسامته فعلاً في كنيسة
السيدة العذراء بحارة زويلة ، واحتفظ في رهبنته وكنوته باسمه الأول « ابراهيم » .
فازداد نكاً وإتضاعاً وتعبداً مما جعل صيته يشيع خارج أسوار الدير الكبير .
فلما انتقل الأنبا متاوس إلى الأخدان السمانية ذهب وفد الأساقفة والارارنة إلى
دير الأنبا أنطوني كما ذكرنا واستصحبوه إلى القاهرة وقدموه إلى المجمع المقدس
الذي بآرك الاختيار (١) .

(١) يذكر المؤرخ كامل صالح نخلة بأنه حين اقترح شيوخ الآباء القس ابراهيم رأى الوفد
الشهبي أن يختار معه بعضاً من إخوته الرهبان . ثم قرروا وهم في الدير إقامة ثلاثة قداسات
متتالية يمارسون بها القرعة الهيكلية استرشاداً بروح الله . وفيها صلوا قداسات ثلاثة وفي
كل مرة كان اسم « القس ابراهيم » هو الذي تحمله الورقة المسحوبة من بين الأسماء الموضوعات

٧٩ - ولقد تمت رسامته في ٩ برمهات سنة ١٣٩٢ ش باسم يونس السادس

عشر - وامتلات القلوب فرحاً واستبشاراً برسامته ^{١١} .

٨٠ - وبعد الرسامة أقام البابا يونس شعائر القديس الإلهي في كنائس القاهرة

تبعاً لما قضى به التقليد . ثم رأى أن يتفقد شعبه ويعرفه ويعرف أحواله مباشرة

إن هو شاء التوفيق في توجيهه وحسن قيادته . فبدأ برحلته في الصعيد ووصل

لغاية أسنا حيث تبرك بزيارة المكان المحفوظ به أجساد الصديقين هناك . فكانت

زيارة كلها بركة تعرف فيها الشعب براعيه الأول ووقف هذا الراعي على حالة

شعبه وحاجياته . وبعد أن منحهم البركات الرسولية تركهم وقد ازدادت نفوسهم

إيماناً وطمانينة . ثم عاد إلى القاهرة حيث قضى بضعة أيام رأى بعدها أن يستكمل

زيارته الراعية . فأخذ يتنقل في مختلف أقاليم الدلتا إلى أن وصل للاسكندرية .

ففرح بزيارة المدينة التي كانت أول مكان هبط فيه مرقس الرسول فتلقت عنه

بشرى الخلاص - ثم صارت موضع استشهاده ومشوى رفاقته، وما أن وصل البابا

إلى الاسكندرية حتى قصد انفوره إلى الكنيسة المرقسية حيث أقام الصلوات وقال

بركة الكاروز العظيم . وتجمع الشعب كله في الكنيسة متمللاً به . وبعد الصلاة

زود الشعب بنصائحه ومنحه البركة الرسولية ثم قفل واجماً إلى القاهرة .

ثم أخذ نفوذ المماليك يتزايد وسطوتهم تمتد إلى أن أصبحوا هم الحكم

على المذبح . فلما وجدوا أن اسمه هو الذي يبرز بعد كل من الثلاثة قدسات تبينوا أنه هو

المختار من الله . أما الراهب شنودة الصوامسي البراموسي فلم يذكر في النسخة التي خطها بيده

نقلاً من النسخة المنفوظة بديره أنه قد أجريت هذه القرعة ، بل قال أن الوفد الذي وصل إلى

الدير قبل تزكية الآباء من غير تردد ومن غير الالتفات إلى أي راهب آخر . أنظر سلسلة

تاريخ البطاركة (الحلقة الرابعة) لـ كمال صالح نخلة ص ١٣٤ ، تاريخ البطاركة الخطوط الخمس

شنودة البرموسي ج ٢ ص ٢٠٢ .

(١) سنكار دبر القديس أنطوني رقم ٣٤٣ طقس ، التوفيقات الإلهامية ص ٥٤٤ .

الحقيقيين للبلاد ، جعلوا من الوالى الموفد من الباب العالى العربة أشبه بالدمية المتحركة يوجهونها كيف شاموا . على أنهم حافظوا على استتباب الامن فظل المجتمع هادئاً يعمل كل فرد في مهنته أو زراعته .

٨١ - ومن المؤلم أنه وسط هذا الاستقرار الاجتماعى جاء فيضان النيل ناقصاً للغاية (سنة ١٦٨٦ م) . والنتيجة الحتمية لهذا النقص هي القحط والجوع وبالتالي إنتشار الوباء فعمّ الضيق وتضائل عدد السكان (١) .

٨٢ - وبما أن الميوان الاجتماعى والنفسانى قد أختل فقد وجد الغربيون الفرصة سانحة للتدخل في هذه الاراضى المقدسة . لحاولوا التآمر ضد الارثوذكس بالسعى لدى الباب العالى كي يحصلوا على امتيازات تعطيتهم الحق فى السيطرة على بعض المقدسات ، وكرروا مساعيهم ومؤمراتهم عدة مرات . ولكن شيخ الاسلام فى فلسطين أصدر فتوى قل فيها . « انه ليس حقاً مشروعاً ولا من مبادئ السلاطين الشريفة أن تداس فرامانات السلاطين العظام فتعطى مزارات الارثوذكسين للغربيين ... » (٢) .

٨٣ - وما زاد الطين بلة أن طغت على الوالى موجة من الشر فأصدر أوامره بأن يعلق كل قبطنى جلجلين فى رقبتيه عند دخوله إلى الحمام وأن يلبس عمامة سوداء ، وأن لا يرتدى الملابس المصنوعة من الجوخ أو الصوف . أما المرأة القبطية فإن شاءت الخروج فليس مسموحاً لها بأن تأتزر بمنزرة بيضاء بل تستعمل المسآزر السوداء فقط .

واحتمر الضيق الاجتماعى والقحط الزراعى سنتين . فأبدى الانبا يونس

(١) مصر والهلال الخصب لهوات ص ٨٨ .

(٢) « القدس عبر التاريخ » لميخائيل مكسى ص ٧٤ نقلاً مما أورده حارف باشا فى

كتابه « تاريخ القدس » .

السادس عشر عطفه على الفقراء والموزين بالتنقل بينهم لمواساتهم ومعاونتهم .
وفي الوقت عينه ناشد الاغنياء أن يساهموا معه في مساندة اخواتهم الاقل حظاً
منهم فسارعوا إلى تلبية ندائه ، أو على حد تعبير أحد الآباء كان المعلمون
الارباخنة بمصر يتغايرون في الصالحات وفي أعمال الرحمة ، ^(١١) ولما كانت المحنة
الفرصة التي ينتهزها الكاثوليك . فقد بنى الفرنسكان آنذاك ديراً باسم القديسة
كانرين في الاسكندرية ^(١٢) .

٨٤ - فلما انتهى الضيق وحل للفرج رأى الانبا يونس أن يزور اخوته
الذين عاش معهم أيام رهبته في دير الانبا أنطوني . فمضى إلى الدير قبل عيد
الميلاد بأسبوع وعاش السكك في انسجام وروحي بديع إلى ما بعد عيد الفطاس
بخمسة أيام .

٨٥ - وحين عاد البابا المرقس وصحبه إلى القاهرة بدأ عمله البنائي . فقد وجد
أن البيت الملاصق لكنيسة السيدة العذراء بحارة الروم لا يتسع لأن يكون داراً
بابوية وبخاصة لأن الكاهن وعائلته يقيمون به . ولم يكن الانبا متاوس الميري
(سلفه المباشر) فسحة من الوقت لأن يوسعه أو يبني غيره إلى جواره . فرأى
أن يقوم هو بهذا العمل الضروري . فبنى « القلاية » ^(١٣) البابوية وأوقف عليه
المرتبات والأوقاف لأصرف منها على ما يحتاجه المقيمون فيها وعلى المصروفات
اليومية ^(١٤) . وكان عليه أن يدفع مقابل ذلك مبلغاً من الضرائب لبيت المال سنوياً

(١) البرموسى ٢٥ ص ٥٠٤ .

(٢) جرجس سلامة « تاريخ التعليم الاجنبى في مصر » ص ٢٢ .

(٣) هذا هو التعبير في كل المخطوطات القديمة عن الدار البابوية إذ ظل البسا بارت على

تواضعهم الرهباني ولم يبنوا بيوتاً ضخمة فخمة ، بل كانت بسيطة وإن كانت فسحة لتسع

لضيوفهم أو لمن يأتيهم من الاساقفة والرهبان المهيت عنهم .

(٤) سنكسار دير الانبا أنطوني رقم ٣٤٣ طقس .

ثم حدث سنة ١٤٠٥ م (سنة ١٦٨٩ م) أن أراد الشماس المبارك المعلم لطف الله أبو يوسف الذهاب إلى الأستانة (١) مع استاذة الملحق بخدمته . وقبيل سفره أعطاه الأنبا يونس وبعض الأراخنة عدداً من التحف القيمة والهدايا الثمينة ليقدمها إلى سلطان تركيا ويرجو منه رفع بيت المال عن كنيسة السيدة العذراء بحارة الروم وملحقاتها . فحمل المعلم لطف الله الهدايا ، وقدمها إلى السلطان ، ونجح في أن ينال منه الإعفاء المطلوب (٢) .

٨٦ - وحدث سنة ١٦٩٤ م أن تم طبع الترجمة العربية المتضمنة لما جرى في مجمع خلقيدون المشهور . وقد ترجمها الراهب الفرنسيكاني فرانسوا ماريادي سالم الذي كان الحبر الروماني قد عينه رئيساً للرسالية الفرنسيكانية بالصعيد . وقد رأى هذا الحبر أن يقدم لهذا الكتاب بإهداء إلى الأنبا يونس السادس عشر ذكر فيه أن هذا البابا الاسكندري هو خليفة مارمرقس الرسول (٣) . وبما أن هذا الكتاب حمل إهداءً للخليفة المرقسي فقد قدموا له نسخة هدية ، مستهدفين من هذا الإهداء وتلك التقدمة التوصل إلى جعل البابا الاسكندري يعلن ولائه لبابا رومية . لأنه - في تلك السنة عينها - لم يكتب الحبر الروماني بإقامة رسالية فرنسيكانية في الصعيد ، بل أمر بتأسيس الرسالية اليسوعية في مصر . والرساليتان لم يكن لهما من هدف في بلادنا غير التدخل في شئون الكنيسة

(١) هي القسطنطينية قديماً ، والاستاذ كناية عن الأمير المملوكي الذي كان يخدمه .

(٢) كتاب رقم ١٢٨ طقس . المحفوظ بمكتبة المتحف القبطي .

(٣) أنظر الفصل الأول من الكتاب الثاني من « قصة الكنيسة القبطية » جزء ب الخاص بمجمع خلقيدون والواقع أن هذا الكتاب المطبوع في رومية والذي هو ترجمة للنصوص اللاتينية المحفوظة بمكتبة الفاتيكان هو شهادة بديهة لارتوذكسية الكنيسة القبطية وآبائها . ويؤسفني أن أقول أنه لو كان الوهي الكهنسي فينا مشهوراً لسكننا طبعناه بخذافيره في بلادنا ، ولسكننا أهدنا طبعه كما نفذ لأن المثل يقول « والفضل ما شهدت به الأعداء » . وكتاب مجمع خلقيدون شهادة صريحة بفضل الكنيسة القبطية .

القبطية وخطف من يستطيعون خطفه من أبنائها وبناتها ، وما يجب ذكره
بالاعتزاز أن قبط القرن السابع عشر لم يتخذوا ، وظلوا على ولائهم لسكنيسة
الشهداء أجدادهم . وهذا ما قرره قنصل فرنسا - مسيو مايبه - سنة ١٦٩٦ م إذ
كتب يقول : « إن عهد المؤمنين ، ضئيلا لا يتعدى أولئك المولودين من والدين
كاثوليك أو أولئك الذين تغذوا منذ نعومة أظفارهم بالتعاليم الكاثوليكية . . .
وثمار الجهود المبذولة بسخاء وعن سعة من المبشرين الفرنسيسكان واليسوعيين
تنتهى إلى العمل على الاحتفاظ ببعض الكاثوليك القدامى من العدوى الخطيرة
للنماذج العامة . . . » (١) .

٨٧ - ثم سعت السياسة بدورها إلى تدعيم هذا التدخل في أمور الكنيسة
القبطية وذلك بأن أرسل الملك لويس الرابع عشر عن طريق قنصله في مصر
يعرض استعداده لتعليم ثلاثة من أبناء القبط على حسابه الخاص في باريس ،

(١) كتاب تاريخ كنيسة الاسكندرية لجورج مقار (بالفرنسية) ص ٢٢٦ - ولا بد
من القول بأن الاقباط في القرن السابع عشر كانوا أكثر وحيأ بترانهم وأشد تمسكا ببقيدتهم
من سلالتهم في القرن التاسع عشر ! فقد صدوا في وجه الاغراءات ونهم الضيقات والاضطهادات
التي كانت تنصب عليهم باستمرار . بل لقد بلغ بهم الوعى إلى الاستيلاء على الكنيسة التي
أنشأها الفرنسيسكان بمصر العتيقة سنة ١٦٩٨ م وطردوا منها . وبما تجب الإشارة إليه أن
هؤلاء الاجانب رفضوا شكواهم إلى الوالى الذى أقر البابا الاسكندرى على تصرفه وأعلن أنه
هو وحده صاحب الحق في الانفراد بشئون كنيسة . راجع تاريخ الامة القبطية - الحلقة الثانية -
لكامل صالح نخله وفريد كامل ص ١٢٢ - ١٢٣ ، « مقدمة لتاريخ التعليم في مصر
الحديثة (بالانجليزية) لهيوارت دون ص ٨٨ . وهذا ما قاله القنصل الفرنسى :

“ Le nombre des fidèles se réduit à un petit nombre de
Catholiques, nés des parents Catholiques, ou qui avaient été
nourris dès leur enfance dans les sentiments de l' Eglise
Romaine . . . Le fruit de tant des peines (prodiguées par les
missionnaires franciscains et Jesuites) se réduit ordinairement
à préserver quelques anciens Catholiques de la dangereuse
contagion de l'exemple général ” .

ولكن عرضه هذا لم يلق غير الرفض الإجماعي (١١) . وهذا أيضا نسمع بعض
الساخرين يمزأون بالقبط لرفضهم هذه الفرصة الذهبية ، - يمزأون بقولهم إن
الجهلة لا يرغبون في العلم ، فهم رفضوا لأنهم يحبون الجهل الذي هم فيه ، أما
المتعمنون في هذا الرفض - وبخاصة الماطلمين على تاريخ الكنيسة القبطية - فيعرفون
تمام المعرفة أن العلم كان دائما هدفاً أسمى في نظر آباء هذه الكنيسة العريقة يشجعونه
بكل طاقاتهم . فرفض القبط لعرض الملك الفرنسي هو نفس الرد الذي قاله رب
المجد للشيطان حين أجاب ، لا تجرب الرب إلهك ، (١٢) ، فهو ليس رفضاً لفرصة
ذهبية وإنما هو رفض للعرض المضغط الذي لا بد من أن يحدث على من يقبل
هذا العرض ، وللأغراء الذي سيقع تحته بلا هوادة لكي يترك كنيسته القبطية
العريقة وينضم إلى كنيسة غريبة عن مصر قومية وعقيدة .

٨٨ - ولما رأى الكاثوليك أنهم فشلوا هذا الفشل الذريع فيما يتعلق بالقبط

وجموا سهامهم من جديد نحو الحبشة أملوا في أن يصيبوا شيئاً من النجاح . واقترح
اليسوعيون على الملك لويس الرابع عشر أن يرسل إلى تلك البلاد طبيباً اسمه
دورول ليستطيع بخدمته الطبية أن يستميل إليه الملك ومن ورائه الشعب . ونفذ
الملك الفرنسي الاقتراح وبعث بالطبيب المطلوب فأخذ دورول معه ترجماناً
سورياً اسمه الياس . وسافر الاثنان معا حتى وصلوا إلى سنّار بالسودان وهناك
قبض عليهما السلطان . ثم سمح للياس بالسفر ولكنه احتجز دورول عنده
كرهينة . واستطاع الياس أن يقابل الملك تمكلاً لهما نوت ابن الملك سجد . ووافق
هذا الملك الحبشي على بحى دورول إكراماً للملك الذي أرسله . وكتب خطاباً

(١) ملحق القمص ٦١٧ - ٦١٨ .

(٢) لوقا ٤ : ١٢ .

بذلك وأعطاه لآلياس الذي حمله إلى سلطان سنّار ، ولكن هذا السلطان
تشكك في نوايا الطبيب الفرنسي لحبسه ثلاثة شهور ثم قتله (١) .

٨٩ - ولم يكتف لويس الرابع عشر بهذه الأرسالية بل تقدم سفيره في الأستانة
يطلب من السلطان إعطاءه الحق في بعض الكنائس في بيت المقدس ، وكانت
هذه المقدسات في حيازة اليونانيين ، ولكن السلطان التركي رفض هذا الطلب
وأعلن أنها لليونانيين منذ إنشائها (٢) .

ومن هنا ندرك أن النوايا كانت متجهة إلى فرض سيطرة الكاثوليك على هذا
الشرق العريق ، فسعوا إلى التغلغل فيه عن طريق ثلاثة ميادين هي القدس والحبشة
ومصر . ولكنهم في هذه الفترة التي بزعم أنها مظلمة فشلوا في الميادين الثلاثة .
وهكذا تبخرت أحلامهم وضاعت أدراج الرياح .

٩٠ - واستمر الرخاء حتى سنة ١٦٩٥ م ، ثم هبط منسوب النيل فجاء هبوطه
بالمحط وبالفلاء . فكانت النتيجة الحتمية أن انتشر الوباء في أعقابها فمات عدد
كبير من الناس (٣) إلى حد أن المؤرخين ذكروا بأنه حين كان يمر انسان في المساء
في شارع من شوارع القاهرة يجد العدد الكبير منطرحاً على الأرض أو مستنداً

(١) حلة ... من ١٦٦٢ - ١٦٤ .

(٢) دائرة المعارف البريطانية (الطبعة الرابعة عشرة) ص ٤١٢ . وفي هذا الصدد

يقول كومب وبانيفيل ودربو في الجزء الثالث من كتاب « مختصر تاريخ مصر » وهو الجزء

الحاس بالمصر التركي ص ٩٥ مايلي : " Les Européens établis en Egypte :

avaient naturellement de grands avantages sur la population
chrétienne . . . " .

وترجمته مايلي : « ان الأوربيين الذين استقروا في مصر كان لهم طبعاً مزايا كثيرة على الشعب

المسيحي الوطني . . . » .

(٣) إذا ما تعمنا في تاريخ العصر التركي أدركنا لماذا وضع آباؤنا ضمن صلواتهم الضراعة

إلى الله تعالى أن يحميهم من العلاء والوباء والقنار . . .

إلى جدران المنازل ، فاذا ما مرّ في نفس الطريق صباح اليوم التالي يجدهم قد ماتوا ^{١١} .

٩١ - وفي أثناء هذه الضائقة الشديدة أخذ الأنبا يونس عدداً من الكهنة والأراخنة وذهب بهم إلى كنيسة السيدة العذراء بالعدوية . وكان يقيم القداس الإلهي في الصباح الباكر ، وخلالها يصلي على ماجور صغير به ماء . وبعد الانتهاء من الصلوات المقدسة يرشم الماء بالميرون المقدس ويخرج بصحبة كهنته وأراخنته ويصب الماء في النيل . وبعد ذلك يتفقّد الشعب ويوزع عليه ما يستطيع من طعام وملابس . واستمر على ذلك أياماً كثيرة . فاستمع الأب السماوي إلى صلواته وجاء النيل في السنة التالية وافياً . فحسب بوفائه الفحط والجوع وأعاد للبلاد رخاءها .

وقد شاء البابا المرقسي أن يعبر عن شكره لله فقرر أن يذهب إلى دير الأنبا أنطوني ليتسنى له في سكون الصحراء ورحابها أن يخلو إلى نفسه ويرفعها في ضراعة حارة إلى الأب السماوي . وقد صحبه في هذه الزيارة المبروك القس يوحنا البتول خادم كنيسة السيدة العذراء بحجارة الروم ، كما صحبه بعض الأراخنة . فمضوا أسبوعاً هناك ثم عادوا بسلام .

٩٢ - وكانما شاء الله في شامل رحمته ان يهب صفيه هذه الفترة الروحانية الهائلة تقوية له ليستطيع بدوره أن يقوى شعبه . لأن الهدوء الذي كان قد استقر لم يلبث أن تبخر إذ قد ألقى الشيطان في قلوب بعض الناس أن يدعوا أمام الوالي الجديد - أحمد قرة محمد باشا - بأن النصراني قد جددوا كنائسهم . فأرسل واحداً من أغواته ومعه قضاة الشرع وبعض الجنود ليفحصوا حقيقة التجديد . فأبلغوه

(١) التوفيقات الإلهامية ص ٩٥٣ - ٩٥٤ .

أنه تم بالفعل تجديد في بعض الكنائس . على أن مراحم الله قد دفعت ببعض
الأمراء إلى الاستشفاع في القبط لدى الوالي فلم يمس الكنائس بأى ضرر .
ولكنه فرض غرامة على البابا يونس . فجمع أراخته وتفاقم معهم ، واتفق
الجميع على أن غير وسيلة هي أن يزور بيوت أولاده ويطالعهم على حقيقة الموقف
وبذلك تعاون الكل على جمع المبلغ المطلوب ، وحمله الأراخنة إلى الوالي . فظلت
الكنائس مفتوحة كما ظلت التجديدات على ما هي . ففرحت القلوب وارتفع منها
الشكر لله الرحيم لأنه أزرهم ومكثهم من الاحتفاظ ببيعتهم ومن إقامة شعائرهم (١) .
ثم كمل الله مراحمه إذ جاء أمر السلطان بعزل قره باشا من الولاية على مصر -
وهو الذى استمر يشغل على الأقباط بالغرامات لسكل مناسبة (٢) .

٩٣ - ولما اطمأن قلب الأنبا يونس السادس عشر بعد أدائه الغرامة المقررة
أراد أن يستجم ويستروح عبير القديسين لتنتعش روحه . فقصده إلى دير الأنبا
أنطوني مرة ثالثة حيث قضى ما يقرب من أربعة أشهر . وقلق الشعب وأراخته
لهذا الغياب فانتدبوا ثلاثة من كبار أراختهم للذهاب إلى الدير والسؤال عن
سبب هذه الإقامة الطويلة . ولما وصلوا وجدوا باباهم بخير ، وإنما بقى بين اخوته
لما سعد به من هدوء نفس واختلاء إلى الله . واتفق وصول الأراخنة الثلاثة في
يوم عيد القديس مرقوريوس (أبى السيفين) ، فحضروا القداس الإلهي وقالوا
البركات الروحية . وطادوا بعد ذلك إلى القاهرة ومعهم أبوم الروسى . فتلقاه
الجميع بالفرح واحتفلوا بعودته احتفالا كبيرا .

٩٤ - وكان دير الأنبا بولا قد أصابه الخراب بعد أن كان الأبا غبريال
السابع (البابا الـ ٩٥) قد ريمه ولم يكن به راهب واحد فكان رهبان الأنبا

(١) كتاب رقم ٣٩١ طقس بمكتبة دير الأنبا أنطوني ، موجز .. ص ٢٠ ص ٧٠ .

(٢) التوفيقات ... ص ٥٥٨ .

أنطوني يقصدون إليه مرة في السنة ومعهم اللوحة المسكروسة (١) والأواني اللازمة للخدمة فيقيمون به القديس ثم يعودون إلى ديرهم .

واقدمت المراحم الإلهية أن تفتقد الكنيسة فأوحى الروح القدس إلى البابا بولس أن يعمر دير الأنبا بولا بعد انقضاء مئة وتسع عشرة سنة على خرابته . فلما زار دير الأنبا أنطوني للمرة الثالثة تحدث مع الأب المسكروم مرقس رئيس الدير المذكور في وجوب تعمير دير أبي السواح والمتوحد الأول الذي أشعل الطريق أمام جميع الأجيال المتعاقبة . ففي السنة التالية لهذا الحديث (أي سنة ١٤١٨ ش) قصد رئيس الدير الأنطوني إلى القاهرة وأبلغ البابا المرقسي باستعداده هو وبعض رهبانه لتعمير دير الأنبا بولا . فأعطاه البابا بولس بعضاً من الأخشاب اللازمة للعمل . وحالما عاد الأب مرقس استصحب معه القمص تادرس والقس شنودة وجماعة من الرهبان الأشداء ، ومعهم بنساء وعدد من قاطبي الحجارة ، وقصدوا جميعاً إلى مقر الساح القبطي الأول . فبنوا الأسوار والجواريق (٢) ، وأرسلوا إلى البابا يخبرونه بذلك . فبعث لهم بدوره بأحجية الكنيسة وبطاحونة وبالآدوات اللازمة لإستكمال العمارة مع بعض النجارين .

ولما أتموا العمارة جهز البابا المرقسي أواني المذبح وأدوات الكنيسة من كؤوس وأوان وصلبان ، وستور وبخور ، ومفارش وأبسطة ، وناقوس ، وكساوي وآلة التكريس . واستصحب القمص سمعان خادماً بيعة السيدة العذراء بحارة الروم والقمص عبد المسيح كاتب القلاية البابوية ، وأربعة من الأراخنة ، وذهبوا

(١) هي لوحة مربعة من الخشب بنوعها صليب محفور تحيط به أسماء ربنا يسوع المسيح ، تقام عليها صلوات خاصة بتكريسها ، وتعتبر مذبحاً متنقلاً يستطبع من يحملها أن يقيم عليها القديس الإلهي حينما كان .

(٢) أي القصر .

بجميعاً يحملون ما جهزه البابا . فوصلوا دير الانبا أنطوني يوم ٨ بشنس حيث
قضوا ستة أيام . ثم غادروا الدير يصحبهم كهنته ورهبانه ، وتوجهوا جميعاً إلى
دير الانبا بولا ، فوصلوا إليه قبيل غروب الشمس في يوم الخميس ١٦ بشنس .
وفي صباح الجمعة قام البابا بنفسه بفرش الكنيسة وتعليق الستائر والقناديل . ثم
وصل صباح السبت عدد من أراخنة الشعب ليشتروا مع باباهم واخواتهم الرهبان
في الاستمتاع بالصلوات المقدسة وفي المساء - أى في ليلة الاحد المبارك - ابتداء
البابا يونس بالصلاة فأدى شعائر التكريس للكنيسة ، المذامح والهيكل والاولاد
والايقونات . وانتهى من هذه الصلوات القدسية في الساعة الثالثة صباحاً ، أقام
بعدها القداس الإلهي وتناول الجميع من الأمرار المقدسة . وبعد ذلك زاروا
مقبرة الانبا بولا طالبين منه الشفاعة من أجلهم ومن أجل إمتلاء الكنيسة . وفي
عشية الاثنين كرسوا كنيسة ثانية باسم مار مرقس الكاروز العظيم انتهت بالقداس
الإلهي في فجر الاثنين . ولما انتهوا من كل هذه الصلوات الروحية العميقة تفقد
البابا الدير ومعاله . ثم طلب إلى أربعة من رهبان الانبا أنطوني أن يقيموا
بالدير فيكونوا الخيرة التي تخمر العجيز كاه ، وأقام القس بشارة رئيساً عليهم .
وبعدما زودهم بنصائحه الأبوية ومنحهم البركة الرسولية إستودعهم لمراحم الآب
السماوي وتركهم قاصداً إلى دير الانبا أنطوني مع كل من صحبوه . ثم
استراحوا يومين في ضيافة أبي الرهبان . وفي صباح اليوم الثالث أقاموا القداس
الإلهي فرحاً بعيد الصعود . ثم غادروا الدير عائدین إلى القاهرة . ومنذ ذلك
اليوم العظيم عادت الحياة الروحية إلى دير الانبا بولا وارتفعت منه
أصوات المصلين المسيحين ، وتجاوبت الصحراء أصداً هذه الالتهالات
القدسية .

ثم رأى البابا يونس بشاقب بصيرته أن يفصل بين وقف دير الانبا أنطوني

ووقف دير الانبا بولا جسماً لما قد يحدث من منازعات بين مديري هذه الاوقاف في المستقبل (١).

٩٥- ثم أحس الانبا يونس بالحزين إلى إقامة شعائر الميرون المقدس، وشارك هذا الحزين عدد من أساقفته وأراخنته. وكان مقدم الأراخنة جرجس أبو منصور الطوخى . فأخذ على عاتقه استحضار كل ما يلزم لعمل الميرون . وفي أسبوع البسخة لسنة ١٤١٩ ش اجتمع ستة من الأساقفة تلبية لدعوة باباها في كنيسة السيدة العذراء المنيئة بحارة الروم . وحضر معهم الشيوخ والرهبان وجهود الشعب . فصلى البابا وأساقفته وكرسوا الميرون اللازم (٢) . وامتلأ الجميع فرحاً لهذه الفرصة المباركة إذ أن آخر مرة تكرر فيها الميرون كانت في عهد الانبا متاوس الثاني البابا الاسكندري التسعين .

٩٦- ولقد حدث سنة ١٤٢٢ ش حادث غاية في الغرابة يتاخص في أن النيل في موسم الفيضان لم يزد ولم ينقص ، بل كانت مياهه تملو ثم تنقص من منسوبها في نفس اليوم . وظلت على هذا الحال أياماً متوالية . فامتلات القلوب ذعراً حتى أن أحداً لم يستطع أن يباشر زراعته أو صناعته . وفي ذهول الناس التجأوا إلى الله فطالب الانبا يونس الشعب بالصوم الانقطاعي ثلاثة أيام ابتداء من يوم الاثنين ٢٧ مسرى إلى يوم الأربعاء ٢٩ منه . فازدحت الكنائس بالضارعين . وفي الوقت عينه أصدر شيوخ المسلمين أمرهم للشعب بالصوم ، وكذلك فعل

(١) سلسلة . . . ص ١٤٦ - ١٤٨

(٢) من نعم الله أنه توجد الآن أربع نسخ من كتاب عمل الميرون الذي قام به هذا البابا المحبوب . والنسخة الأولى تتضمن شرحاً مفصلاً لما جرى في تلك المناسبة المباركة وتاريخها سنة ١٤٢٠ ش وهي محفوظة بالمسكنة البابوية بالقاهرة ، ونسخة ثانية منقولة عنها لا تحمل تاريخاً ونسخة ثالثة عليها تاريخ سنة ١٤٩٢ ش ، وبدير السيدة العذراء (برموس) نسخة رابعة بتاريخ ١٦٢٧ ش .

حاجات اليهود فكانت أيام صيامها الشعب المصري كله بمختلف أديانه .
وارتفعت هذه الأصوام والصلوات إلى عرش الله . وتألقت منها قوة عظيمة فاستمع
لها خالق الكل . وإذا بالنيل يملو حتى بلغ ستة عشر ذراعاً ونصف . وكان ذلك
في اليوم الثاني عشر من شهر توت المبارك - أي في ليلة عيد الملاك ميخائيل رئيس
جند السمائيين (١) وأكل الله فيضه بأن تلبدت الغيوم وهطل المطر مدراراً إلى حد
أن المياه روت الأماكن العالية . فكثرت الخيرات وامتلت القلوب طمانينة ،
ورفعوا أي الشكر لله الرحيم الذي تداركتهم مراحه بهذا الفيض الغامر . ومن
الطريف أن أحد الرجالين عبر عما ملأ القلوب من فرح بالبيتين التاليين :

النيل في مصر وافي

في توت حادي وعاشر

والناس قد أرخوه

لله جبر الخواطر (٢)

وفي هذه السنة عينها ذهب البابا المرقس إلى الإسكندرية وأقام القداس

الإلهي في كنيسة الكارز المحبوب .

٩٧ - وحدث أيضاً في نفس السنة أن الباب العالي عزل الوالي محمد باشا رامي .

وبعد سنة من عزله تولى حسنين باشا كتهذا . وكان يشغل وظيفة شيخ البلد (٣)

إذ ذاك الأمير قاسم عيواط رئيس المماليك القاسميين . وكان - خلافاً للمعتاد -

حاكماً عادلاً وأباً حنوناً للشعب وكان المماليك في ذلك العصر منقسمين إلى حزبين

متساويين : القاسميين والفقاريين الذين كان يرأسهم ذو الفقار بك . وكان الحزبين

متنافسين يستهدف كل منهما السيطرة على الآخر . ولكنها كان على وفاق تام حين

(١) قطمارس شهر بؤونه المخطوط المحفوظ بمكتبة كنيسة السيدة العذراء الأثرية بمحارة

زويلة ، المسجل برقم ١٥ - ٧٠ ، المؤرخ في ٢١ هاتور سنة ١٤٢٢ ش .

(٢) الكافي ٣٥ ص ١٠٩ .

(٣) هو كبير المماليك الذي بلى الوالي مباشرة في السلطة .

قدم حسين باشا لتولى الحكم فخشى على نفسه من تفاهمها ، وأوقع بينهما الشقاق إلى حد أنهما ظلاً يتقاتلان حوالي ثلاثة شهور (١) فأغابت المحال التجارية ، واختبأ الناس في بيوتهم فلم يخرج منهم إلا الذي اضطرته الضرورة القصوى لأن شوارع القاهرة كانت ميادين القتال . وتسببت هذه المعارك الدامية في قتل العدد الكبير من الناس ، وفي حرق منازل كثيرة ، وفي النهب والسلب .

٩٨ - إلا أن المعجب العجيب في هذه الضيقة الشديدة أن القبط لم يصابوا بأذى . وفي هذا الصدد يقول لنا المخطوط . . . وبعد السبعين يوماً أراد الله تعالى أن يفرج عن العباد . . . فاطمأنت الرعية . . . ولم تحصل أذى لأحد من النصارى بصلاة هذا الأب القديس لأن الرضا . . . والمواهب التي منحها الله لهذا الأب لم تحصل لغيره من الآباء البطارقة من مدة الأب القديس الجليل أنبا متاوس البطريك السابع والثمانين إلى هذا الأب القديس . لأنه كان موقفاً من الله في جميع أيامه وفعاله . (٢)

٩٩ - ولم يقتصر الكرب على القاهرة بل امتد إلى الدرب السلطاني (٣) . الذي أصبح محرفاً بالمخاطر لتمرّد العربان على السلطنة ولجورهم وبطشهم . فظل القبط لا يستطيعون زيارة الأراضى المقدسة مدة اثني عشرة سنة . وحتى التجار لم يستطيعوا المرور من هذه المنطقة . ثم ترامف الله على الناس فاصطلع العربان . وعزل الباب المالي وإلى تلك النواحي ، وأقام عوضاً عنه محمد باشا الغزاوي (وهو من أعيان غزة) الذي كان نافذ الكلمة . فأطاعه كل العربان وبذلك حل الأمن

(١) جاء في « تاريخ بطارقة الاسكندرية » المخطوط بيد القمص شنبودة الصوامسي البرموسي ٢٠ ص ٥٠٦ - ٥٠٧ . أنهما اقتتلا سبعين يوماً ، في حين أن كامل صالح نخلة يقول في كتابه « سلسلة . . . » ص ١٥١ - ١٥٢ أن القتال استمر ثمانين يوماً .

(٢) الصوامسي البرموسي ٢٠ ص ٥٠٧ .

(٣) الطريق البري الممتد عبر الصحراء الشرقية إلى منطقة غزة .

والامان . واصبح الدرب السلطاني مأسوفا لمن يريد السفر . وارسل مندوب
الغزاوي باثنا رسالة يبشر فيها اهل مصر بما حدث . ووصلت هذه البشري الى
ابابا المرقسي ورجاله فامتلاوا فرحاً وأعطوا السبح لله .

١٠٠ - وتعبيراً عن هذه الفرحة التي غمرت القلوب انعقدت النية على أن
يسافر البابا يونس الى الاراضي المقدسة . فبعث برسائله الى جميع أساقفة الصعيد
والدلتا يبشرهم بما حدث ويبلغهم بعزمه على التقديس مع بعض كهنته واراخته .
وكانت هذه الرسائل حافزاً لاستنهاض الهمم . وبدأ قبط الصعيد الذين يتفنون
الزيارة المقدسة يتحركون نحو القاهرة من اول الصوم الكبير . فتجمعوا فيها في
يوم الجمعة الثاني منه . وتحرك الراكب البابوي في يوم الجمعة ٢ برمهات سنة ١٤٢٥ ش
(سنة ١٧٠٩ م) . وكان يصحبه ابا غريبال اسقف القدس وعدد من الكهنة
والشماسة وجمهور الشعب . والتقى هذا الراكب بالآتين من الدلتا عند الصالحية .
فوصلوا الى القدس الشريف يوم الثلاثاء ٣ برمودة ونزلوا في دير السلطان (١) .
وقد احتفى بطريك الروم الارثوذكس ورؤساء الكنائس المختلفة بالبابا المرقسي
وأبدوا نحوه كل تقدير وإكرام .

ولقد وضع القمص عبد المسيح خادم كنيسة السيدة العذراء كتاباً عن هذه
الزيارة المباركة مازال موجوداً بنعمة الله ؛ وهو يصف الرحلة من بدايتها الى
نهايتها ويخبرنا بأن أربعة وعشرين كاهناً صاحبوا باباهم وسعدوا معه ببركة الاماكن
المقدسة . ثم يحدثنا عن مختلف الشعائر الدينية الخاصة بأيام البسخة المقدسة .
ونقتطف هنا حديثه عن صلوات سبت النور : وبعد ذلك قرئت تساييح
ليلة الفرح ورفع بخور باكر والقداس كالعادة ، ووزعت الاصرار المقدسة .

(١) هو الدير الذي وهبه صلاح الدين للقبط - راجع قصة الكنيهة القبطية ص ٢
من ١٩٢ والهامش بنفس الصفحة .

وبعد تناول الشعب في الساعة الأولى من النهار وأطفاء الفناديل بأجمعها والشموع ولم يبق في القيامة أثر للنور بالجملة ، وقفوا باب القبر المقدس بحرز وختموه الجند كالعادة ، وصار جميع الطوائف مبتهلين إلى الله متضرعين إليه ومنظرين ظهور النور من النور الحقيقي السيد الرب الإله الحكمة فيفتحون عليهم برحمته . وفي الساعة السادسة من النهار ظهر النور من القبر المقدس فأنض النعمة ، وشاهدوه من الشقوق وهو يضوى . وعندما شاهدوا ذلك صار ضجيج كثير من كثرة العالم وكانت ساعة رهيبة جداً . وقد أخبر كاتب هذه السيرة الجماعة الواقفين عند المفتسل أن النور هب وقاد الفناديل التي فوقه . . . وفي أثناء ذلك تجم من الأب بطريرك خريستفانوس بطريك الروم وأبدل ملابسه ولبس التاج وسائر كهنته المهارنة والأساقفة والحوارنة والقسوس والشمامسة ورتبوا الدورات الثلاثة ، وداروا حول القبر المقدس . وكان السيد البابا الاسكندري قد لبس التونية القصب والأكمام والبدرشين لا غير من غير برنس ، ولبس طاقية مكللة باللواؤ والفصوص والحجارة الثمينة ، وربط الشمع في يديه بالزفازر ربطاً جيداً ، ووقف من داخل البيعة على الباب ، وعند مرور كل دورة من دورات بطريك الروم أمام أيدينا البابا بطامنا لبعضها ، وفي آخر الدورة الثالثة طامن له ووقف بباب الكنيسة واستدعاه للتوجه إلى القبر . ومن كثرة الزحام من الخلق الكثير لم يستطع الاقتراب من القبر فاخطفوه وحملوه من على الأرض إلى أن أدخلوه إلى قبر المخلص . . . وعندما أوقد البابا الشمع الذي في يديه حملوه وأتوا به إلى بيعته ووقف بالشباك الحديد الذي بالكنيسة وأوقد الشمع الذي بيد أبناء طائفته جميعها . فبالعظم هذا الفرح والسرور والتهليل الروحاني الذي شمل المسيحيين المؤمنين باسم القدوس في تلك الساعة حتى ظن الجمع الواقفون في أورشليم الأرضية كأنهم في أورشليم السماوية وهنأوا بعضهم البعض وسجدوا لله القدوس وباركوه

على أنعامه عليهم وإحسانه إليهم بما عاينوه وشهدوه . إذ أنعم علينا وشرفنا
مشاهدة هذا النور لنعظه مع داود المرتل الفرح القائل من أفواه الاطفال
والرضعان أعددت سبحاً ، ونشكركه مع يعقوب التليذ الحواري ذى البهجة
والمرور القابل كل عطية وموهبة تامة إنما تهبط من فوق من عند أب النور .
فله الحق من إحسانه وإنعامه علينا إلى الأبد آمين ، (١١) .

ويختتم القمص عبد المسيح وصفه بهذه الكلمات : ثم قام الرئيس المولى
جرميس أبو منصور والشعب جميعه بزيارة الأماكن الشريفة وبيت لحم وغيره
بكل هدوء وسلام ، ورفعت القرابين يومياً في الكنائس إلى أن اعتزموا على
الرحيل إلى مصر بعد عمل الأحد الجديد الذى هو أحد توما من أيام القيامة
المقدسة ، وأقام فيه البابا والأسقف والسكينة القديس . وبعد الإتهاء منه دخل
السيد البطريرك ويصحبه الرئيس المولى إلى قبر المخلص وسجدوا لله ، وتباركوا
منه وانصرفوا . وفي الغد أعدوا عدة الرحيل وتركوا القديس الشريف فى اليوم
الثمانى عشر من شهر بشنس بنفس نظام الحجى ، ووصلوا إلى وطنهم فرحين
ومحفوظين بسلامة الله وعنايته (١٢) .

وبعد أن سعد الجميع بزيارة الأماكن المقدسة، وامتلات نفوسهم نشوة بالسير
فوق الأرض التى وطئتها أقدام رب المجد . وبعد أن حلت نفوسهم مع صلوات

(١) مجلة النهضة المرقسية للأقباط الارثوذكس بالقدس : سلسلة من المقالات بعنوان

« تاريخ الكرسى الاورشليمى » لكامل صالح نخلة نقلت عن مخطوط رقم ٢٠٢ مسلسل ١٢٨
طقس محفوظ بمكتبة المتحف القبطى ، والأعداد من يوليو سنة ١٩٥٢ - فبراير سنة ١٩٥٤ .

(٢) تاريخ الكرسى الاورشليمى لكامل صالح نخلة نقره بمجلة النهضة المرقسية - عدد

مارس سنة ١٩٥٤ ص ٨٩ ، وقد أورد فى آخر الصفحة هذه الكلمات : « هذه مقتطفات لم
يبحث بها القلم نقلت كما هى من المخطوط والموسوع بمعرفة القمص المسكرم عبد المسيح خادم
كنيسة السيدة العذراء بمعية سرو بتاريخ ٨ برمهات سنة ١٤٢٦ للشهداء .

أسبوع البسخة وسبت النور وليلة القيامة المجيدة عادوا إلى بلادهم وقد امتلأت نفوسهم نعمة وقوة . فوصلوها في ٢٨ بشنس (١) .

وكانت للزيارة البابوية للقدس بركة مزدوجة : فهو وصحبه قد نالوا السعادة الروحية ، وهو في الوقت عينه قد قوى عزائم أولاده المقيمين في بلاد المقدس وشجعهم على السهر في حماية ممتلكاتهم وتعمير كنائسهم .

١٠١ - ولقد منح الأب السماوي البابا يواص نعمة عظمى هي توفيقه في كل ما كان ينتويه من أعمال لأنه عاش ليراما وقد تمت فقد قام بتكريس عدد وفير من الكنائس في مختلف البلاد المصرية بعد أن رعمها المستولون عنها . ورسم لهذه الكنائس القسوس والشمامسة للخدمة فيها ، واستطاع أيضاً أن يعيد بناء دير الأنبا بولا ويعمره بالرهبان ، ثم أن يزور الأراضي المقدسة إلى جانب زيارته الراحوية . وفوق هذا كله فقد اختط خطة لها روعتها في خدمة شعبه وهي أنه حين رأى أن المرضى والمقعدين والكهول ليست لديهم المقدرة على الذهاب إلى الكنيسة أوصى كهنته بأن يحملوا إليهم الذخيرة المقدسة حتى لا يحرموا من هذا الغذاء الروحي الأقدس (٢) . ومذاك سار الآباء على هذه الخطة التي تدل على التعاطف الوثيق بين الراعي والرعية .

على أن عدو الخير ساءه أن تنعم الكنيسة القبطية بكل هذه النعم الإلهية فاستثار عليها الحرب ممن كان يجب أن يكونوا حلفاءها . ذلك أن عدداً من السوربين والبنسانيين الذين كانوا قد انضموا إلى الكنيسة الكاثوليكية وفدوا إلى مصر واشتغلوا بالتجارة والصناعة ونجحوا فيها . وفي الوقت عينه حضر بعض الأوربيين الكاثوليك الراغبين في المغنم المالية . فشجع حضور هؤلاء وأوائك الرهبان

(١) كتاب رقم ١٢٨ طقس - تاريخ عمل الميرون وظهور أمجوبين محفوظ بمكتبة المتحف القبطي .
(٢) سلسلة . ص ١٥٨ .

الفرانسيسكار على مضاعفة جهادهم ليظفروا ببعض القبط . ونتيجة لهذا الجهد المتزايد اصبح لهم دير وكنيسة بالموسكى . ثم لم يلبثوا ان الحقوا مدرسة بالكنيسة ليكون التعليم واسطتهم التي يتغلغلوا بها الى عقول أبناء القبط . واقد كتب حافظ ابراهيم قصيدة تتضمن شيئاً من العتاب على المصريين منها :

ماذا جنيت وما جناه ابوك اظلمتكم يا مصر أم ظلموك
فسمعت للغرب الطموح واهله ومنحتهم فوق الذى منحوك
وعبست فى وجه الشام وإنما قطر الشام وان عبست اخوك

على أن عبوس مصر فى وجه القطر الشقيق كان تعبيراً عما داخلها من شعور بخصية الامل بأزاء موقفه منها . ولكن بسمتها للغرب كانت فى غير محلها من غير شك (١) .

١٠٢ - ومن الوقائع الجديدة بالتأمل أن العهد الذى بنعم فيه القبط يبابا متيقظ لمسئوليته تلمع فيه شخصيات كبيرة حتى لكانه مغناطيس يجتذب المواهب الكامنة ويبرزها . فنجد أن الاراخنة المساندين للأبنا يؤلس السادس عشر كشيرون ولو أننا لا نجد عن أى واحد ما يشئى الغليل . وإنما نعرف أن أول ما عمله هذا البابا المرقسى الجليل هو اسناد نظارة الكنائس إلى اراخنة معلين ، وكانت قبل ذلك مسندة إلى أصحاب الحرف . ويوصف الاراخنة بأنهم « مسيحيون كادلون فى فعل الخير والمعروف » (٢) .

وأول أرخن جاء ذكره هو المعلم داود الطوخى وابن أخيه جرجس أبو

(١) جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر من ٣٣ - ٣٤ ، وما يؤسف له أن الغرب سار على خطة « فرق تسد » ، فلم يستتر المسلم والقيطى فقط بل استفنار السورى والبنانى ضد المسلم ، ولم يسر على هذه الخطة فى السياسة فقط بل سار عليها فى ما وصفه « بالتبشير - راجع أيضا : دون « مقدمة لتاريخ التعليم فى مصر الحديثة » (بالانجليزية) من ٩٠ .

(٢) الهرموسى ج ٢ ص ٥٠٢ .

منصور الذين كانوا قد نزحوا من بلدتها طوخ النصرارى وسكنوا في حارة الارمن
بدرج الجينة . على أن المعلم جرجس هو الذى يحتل المسكنة الاولى . فنعرف عنه
انه حينما توفي ابنه الوحيد اتخذ له بيتاً في حارة الروم ليكون إلى جوار الكنيسة
وإلى جانب باباه الذى عيّنه ناظراً للكنيسة . ففتح بيته ليكل قاصد وكل محتاج .
أما في أيام الآحاد ، فبعد الانتهاء من القداس الإلهى كان يستصحب البابا والسكينة
إلى بيته كما يحضر الفقراء ويقدم للجميع الافطار والقهوة . وفي الاعياد يقيم الولائم
للفقراء والغرباء . ولم تقتصر غيرته الروحية على أعمال الرحمة بل امتدت إلى إعادة
تعمير كنيسة مار جرجس (الفوقانية) بحارة الروم . ولما رأى البابا تفتأه أسند
إليه أيضاً نظارة كنيسة السيدة العذراء الشهيرة بالمعاقمة . فرمها وزخرفها وأعاد
إليها رونقها الأثرى واستكمل مكتبتها . فكان مجهوداً جباراً بذله هذا الإبن البار
بكنيسته القبطية الارثوذكسية عدّه الشعب أعجوبة (١١) .

وحيثما رغب البابا فى عمل الميرون أحضر له المعلم جرجس كل مستلزماته .
فلما انتهت شعائره المقدسة ، قدم لكل من البابا والاساقفة الذين اشتركوا معه فى
الصلاة - قدم لكل منهم بدلة كهنوتية كاملة وكأساً وصينية للأمرار المقدسة .
وحيث سمعت مراحم القدير بحلول الامان فى الطريق المؤدى إلى القدس ،
وتمكن البابا المرقسى من زيارة الاراضى المقدسة ، كان المعلم جرجس هو الذى
مهد لهذه الزيارة فقد استدعى القمص عبد المسيح كاتب القلاية إلى بيته وعرفه
برغبته فى أن يسعد بسفر البابا يونس ورجاله على نفقته الخاصة فى هذه الرحلة
المباركة ثم كتب رسالة بهذا المعنى سلمها لشمامس المكرم عبد المسيح شميموى الصايغ (١٢)
فقبل البابا الاسكندرى إكرام ابنه له وسافر الجميع فى غمرة من الفرح (١٣) .

(١) كتاب رقم ١٢٨ طقس المحفوظ بمكتبة المتحف القبطى .

(٢) وهنا أيضاً لا نعرف من هذا الخادم السكسى غير اسمه .

(٣) سلسلة . . . ص ١٥٤ .

والحق أن مسلك هذا الارخن - جرجس - مثالي . فهو حين فقد وحيدته - لم يستسلم للحزن ولم يتمرد على الله ، بل كرس حياته وجهوده للخدمة البناءة .

أما باقى الأراخنة المعاصرين له فلا نعرف عنهم غير لمحات خاطفة : فالمعلم يوحنا أبو مصرى كان كبير المباشرين ، وناظر أ على كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة . فقام بصيانة مبانيها وزخرفة منبرها . وزينها بالنقوش الجميلة ، وحصن أسوارها . ثم وجهه اهتمامه إلى مكتبتها : فصرف المال الوفير على تساخة الكتب ووضعها فيها ، كما أقام لها أميناً هو الشماس المعلم نسيم بطرس .

ويوصف هذا الارخن فى آخر كتاب قطمارس شهر طوبة المخطوط القبطى المحفوظ بمكتبة كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة الوصف التالى : « اهتم بهذا الكتاب المبارك أجل وأشرف السادة المخاديم الكرام ، وأنظر طائفة المسيحيين العظام ، السيدى المنخدومى الاخ الحبيب العاقل اللبيب ، المحب . وحيد دهره وأوانه ، وفريد عصره وزمانه ، صاحب المعرفة والعقل والنظام ، النافذة كلمته عند سائر الولاة والمقام ، وأرباب المناصب أجمعين ، وأس الأراخنة والمباشرين ، الشماس المحترم والارخن المبعجل ، الدين الارثوذكسى الشيخ العلم الشمس الأسعد المعلم يوحنا أبو مصرى ، أطال الله حياته وأوجهه العمر الفسيح . ورغم المبالغات الطريفة فإنه يتضح لنا أن هذا الارخن كان من عظماء الدولة ، مسموع الكلمة لدى ولاة مصر المعينين من الباب العالى . فهو إذن قد جمع بين مهام الدولة وبين خدمة الكنيسة كما شهد له بذلك القمص غبريال كبيرة رعاة كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة (١) .

والمعلم ابراهيم أبو عوض ، وسليمان الصراف الشراوى ، ومكرم الله أبو

(١) سجل القمص غبريال شهادته هذه فى النظمارس المذكور ، ويحمل رقم ١٣ - ٥٥ طقس وتاريخه ١٥ مسرى سنة ١٤٢١ ش .

فليفيل ، وغبريال أبو سليمان الأبيساري ، وسعد الغمراوي ، هؤلاء جميعاً يكتفي
المؤرخون بوصفهم أنهم معلمون أفاضل وأراخنة عظام، في حين أنهم اكتفوا
بالقول عن المعلم إبراهيم أبو سعد انه شقيق المعلم جرجس الطوخي (١١).

وإلى جانب هؤلاء الأراخنة يقف عالم كبير ومؤرخ ذو شهرة اسمه شمس
الدين . وتعتبر كتبه للآن مرجعاً موثقاً به لما جرى من الحوادث في النصف
الآخير من القرن السابع عشر (١٢).

١٠٣ - والذي يجب أن نذكره بالاعتزاز أنه كان على رأس هؤلاء الأراخنة
جميعاً أساقفة عرفوا معنى المسؤولية ، فسهروا على سلامة العقيدة الأرثوذكسية
وعلى ترسيخها في القلوب .

ومن أبرز هؤلاء الأساقفة الأنبا أناسيوس أسقف كرسي البهنسا والأشموين
الذي كان ضمن من اشتركوا في إقامة صلوات الميرون المقدس التي أقامها البابا يوتس
السادس عشر . ولقد كان هذا الأسقف من المضلمين في العلوم الكنسية ، فدأب
على تعليم شعبه وعلى إرشاده إلى وجوب الحرص على عقيدة الكنيسة وتقاليدها .
فلهذا ضيق المرسلون الخناق على المؤمني سعيماً وراء اقتناصهم باموا بالفشل لأن
الشعب عمل بتوجيهات أسقفه ورفض أن يجيد قيد أنملة عن العقيدة الأرثوذكسية .
فتجاوبت القلوب إذ برز الأسقف الصالح وسط شعب واعٍ (١٣).

وهناك أسقف يظن على أنه من معاصري هذا البابا هو الأنبا ميخائيل
أسقف مابج وأتريب . ومن نعم الله أنه لا تزال بين أيدينا بعض كتابات هذا

(١) كتاب رقم ٢٩١ طقس محفوظ بمكتبة دير الأنبا أنطوني

(٢) القاهرة ، السيد الرحمن زكي ص ٢٠٧ .

(٣) إقليم المنيا في العصر القبطي للقسس ميخائيل بحر - مقال نُشر في مجلة صوت

الشهداء ، السنة الرابعة العددان السادس والسابع (يونيو ويوليو سنة ١٩٦٢ م) ص ٤٠ .

الأسقف أدلنتسا على مدى اهتمامه بنشر الوعي الكهنسي بين شعبه . ومن هذه
الكتابات منكار رتبة هو شخصياً . وكذلك يوجد له كتاب يتألف من خمسمائة
وستين ورقة . وهو مع ذلك ناقص لأن ورقاته الأخيرة غير موجودة ، ولا يعرف
كم كان عددها . وهذا الكتاب بعنوانه : «الطلب الروحاني» - مجموع من قوانين الآباء
القديسين وأسئلة وأجوبة معلية البيعة ، وقد ترجم المستشرق الألماني فرانز كولن
هذا الكتاب إلى الألمانية ونشره في مجلة «أورينز كريستيانوس» سنة ١٩٠٦^(١) .

١٠٤ - وليس بغير غريب على عصر سادته السلام إلى حد ما ، أن تختلف منسقة
مخطوطات عديدة ، وإنما الغريب أن تعطينا هذه المخطوطات فلا تمتد إليها يد
التخريب . ومن طرائف المخطوطات المتبقية لدينا عن هذه الفترة مخطوطة مكتوبة
في نهرين - قبلي وعربي - تحمل في آخرها تاريخ ٧ بابه سنة ١٣٩٨ ش ، وتتضمن
حياة سيدنا يسوع المسيح مكتوبة بالشر المشهور على نمط المقامات ، وتتمشياً
مع الروح القديمة لم يذكر المؤلف اسمه فهو ينتظم ضمن الجنود الجمهوريين^(٢) .

وتوجد بمجموعة من المخطوطات ضمن مجلد واحد - يرجع جزؤها الأول إلى
٣ مسرى سنة ١٤٠٧ ش ، وجزؤها الأخير إلى ١٢ برمسات سنة ١٤٠٩ ش .
وتشمل موضوعات مختلفة : أهمها ميمر عن مجيئ المسيح له المجد مع أمه السيدة
المدراء ويوسف النجار إلى بلادنا وإقامتهم بجبل فسقام (الدير المحرق) . وأغلب
الظن أن كاتب الميمر هو أنبا زكريا أسقف سخا لأنه كاتب الجزء الأخير من

(1) Franz Coln, dans "Oriens Christianus" VI (1906) pp

70 - 237; VII (1907) pp 1 - 135; VIII (1908) pp 110 - 229 .

وقد سجل المستشرق الألماني حراف في كتابه «ستودي ايه تسق» بأن هذا المخطوط يرجع
إلى القرن السابع عشر لأنه مع كونه لا يحمل تاريخاً معيناً إلا أنه يحمل اسم الأسقف
ميخائيل . وتوجد نسختان من هذا المخطوط ، كلتاها محفوظتان بالـ مكتبة البابوية بالقاهرة ،

رقم الواحدة ٣٩٠ (سنة ٥٠٧) ورقم الثانية ٤٣٧ (سنة ٧٥٣) .

(٢) مخطوطة ٣٢٢ - رقم ٢٧٩ - محفوظة بالـ مكتبة البابوية بالقاهرة .

المخطوطة وموضوعه أيضاً عن مجيء ربنا يسوع المسيح وأمه القديسة مريم ،
والقديس يوسف وسالومي إلى مصر في ٢٤ بشنس ، وقد قرىء هذا الميعر في اليوم
المذكور في الكنيسة الكبرى القائمة وسط المدينة (سخا) حين كان كل الشعب
مجتمعاً بها .^(١)

وهناك مخطوطة بعنوان : وصف الآيات الإلهية والمعجائب الواضحة والعلامات
الصریحة القوية التي صنعها سيدتنا مريم العذراء المختارة في الزمن الذي كانوا
يرعون فيه كنيستها المقدسة المعروفة بالمعلقة - بيد الأخ المحبوب والابن المبارك
والشيخ المسكين الرئيس جرجس أبو منصور في أيام الأب البطريرك يونس بعد
أن قام بعمل الميرون سنة ١٤٢١ ش .

وعنها في نفس المجلد مخطوطة بعنوان : الآيات العظيمة الإلهية التي صنعها
سيدتنا يسوع المسيح لخير أبنينا المنقبوط البطريرك يونس - المئة والثالث في عدد
البطاركة . وبصلواته ليتفضل الرب بأن يطيل حياته ويحفظ شعبه . وذلك قبل أن
يذهب إلى اورشليم ويزور الأماكن المقدسة . وقد كتب هذا التاريخ الابن
المبارك الشيخ المسكين المعلم جرجس أبو منصور في شهر برمات سنة ١٤٢٥ ش^(٢)

كذلك توجد مخطوطة تتضمن صلوات البسخة باللغة القبطية فقط . إلا أنه
وردت في آخرها الكلمات الآتية بالقبطية والعربية : اذكر يا رب الشماس ابن
الشيخ بشارة ابن يوسف المعروف بالفاسح المحلاوى . وكان الفراغ من هذه
البسخة الموقوفة على بيعة العذراء بدرج البحر بحارة البطريرك بمصر القديمة في
يوم الاثنين المبارك ٢٥ مسرى سنة ١٤٢١ ش^(٣) .

(١) مخطوطة ٤٤٥ - رقم ٧٦٣ - محفوظه بالمكتبة البابوية بالقاهرة .

(٢) مخطوطة ٩٩ - ١٢٨ أدب محفوظه بمكتبة المتحف القبطي .

(٣) مخطوطة ١١٨٠ محفوظه بالمتحف القبطي بالخزانة رقم ٤ .

وثمة مخطوطة أخرى جاء في آخرها ما يلي : « تمت في ٢٠ سري سنة ١٤٢١ ش بيد غريال أبو طبل بن سمعان الخوانكي بناء على طلب الشماس إبراهيم ابن بشاره ابن يوسف الكسيح الذي أوقف هذا الكتاب على كنيسة السيدة العذراء ... وقد أصبح فيما بعد ملكا لكنيسة الشهيد العظيم مرقوريوس (أبي السيفين) ورئيس المتوحدين الانبا شنودة اللتين في نفس المدينة (مصر العتيقة) . والمخطوطة تتضمن القراءات الخاصة بأسبوع البسحة المقدسة مكتوبة باللغة القبطية في حين أن العناوين مكتوبة بالقبطية والعربية (١١)

ويبدو أن لهذا النسخ أختاً اشتمل هو أيضاً بنسخة الكتب الكنسية . لأن هناك مخطوطة أخرى جاء فيها أن كاتبها اسمه إبراهيم أبو فضل بن سمعان الخوانكي وتتميز هذه المخطوطة بالزخارف الذهبية والحراء والزرقة . والصفحات الرئيسية مكتوبة داخل إطارات مكونة من زخارف وخطوط مختلفة . وهذه أيضاً تتضمن صلوات البسحة المقدسة ، واسكنها مكتوبة كلها باللغتين القبطية والعربية . والورقة ٣٨٠ (وجه) تابعة لمخطوطة أخرى تحمل رقم ٢٠٤ بعنوان : « ترتيب القصرية في خميس البسحة المقدسة » ، وهي محاطة بإطار متباين الألوان وفي ظهر الورقة ملحوظة القمص صليب عن بناء مسكن البطريرك إلى جانب كنيسة الشهيد مرقوريوس (أبي السيفين) في حارة شنوده . وفي آخرها سنة الشهداء ١٤٠٢ (١٢) . ولهذا النسخ عدة أيقونات محفوظة بالمتحف القبطي كانت أصلاً تزين الكنائس المختلفة . وقد اشترك معه في رسم البعض منها رسام اسمه حنا الأرمني (١٣) .

(١) مخطوطة ١٧١ - (رقم ١١٨٠) محفوظة بمكتبة المتحف القبطي - وقد تكون كنيسة السيدة العذراء التي لا تحمل اسماً في المخطوطة هي « العذراء الدمشقية » لأنها بجوار الكنيستين المذكورتين . أما الشماس والناسخ فلا نعرف غير اسميهما .
(٢) مخطوطة ١٧٨ - رقم ١٦٥٤ - محفوظة بمكتبة المتحف القبطي .
(٣) دائرة المعارف القبطية لرمزي تدرس ج ١ ص ١٦ .

كذلك توجد مخطوطة بالمتحف البريطاني مكتوبة في نهرين : قبطى وعربى بها زخارف باللون الاحمر ، والحروف الكبيرة فيها بالاحمر والاخضر والاصفر وبتوان المخطوطة « كتاب الترتيب » ويشتمل على الصلوات والقدسات والاعباد السيدية والاصوام على مدار السنة وبعض اجزائها ترد فيه رؤوس الموضوعات باللغة العربية في حين ان السطور الاولى والطقسية منها مكتوبة بالقبطية، ويشتمل ايضا على تراجم بأكلها لمختلف المناسبات : كالعرس في قانا الجليل، وانكار بطرس، والهرب إلى أرض مصر ، وميلاد السيدة العذراء ، والاربعة حيوانات غير المتجسدين والاربعة والعشرين قسيماً - وكل منها يقال بلحنه الخاص ويتألف الكتاب من تسع وأربعين ورقة جاء في ورقة ٣٨ (ظهر) منها تاريخ الانتهاء من كتابته وهو سنة ١٤٢٤ ش (سنة ١٧٠٨ م) وهناك نسختان مماثلتان لهذه المخطوطة إحداها في كنيسة السيدة العذراء (المعلقة) وثانيها في كنيسة السيدة العذراء بقصرية الريحان ، يتضمن كل منهما تفسيرات وافيه (١).

ولم يقتصر نشاط الكتاب في هذه الفترة على الكتابات الاصلية بل امتد إلى نقل المخطوطات القديمة التي أدركوا نفعها لشعبهم . وبما نقلوه مخطوطة آية في التنسيق والابداع - صفحتها الاولى مزينة بأربع أيقونات .

١ - في الركن الاعلى من الشمال أيقونة للمسيح مكتوب تحتها « السيد » ، وهى مرسومة داخل مربع محيط به دائرة زخرفية رائية ذات خلفية ذهبية ، والزخرفة التي بها ملونة بالاحمر الغامق والاخضر الفاتح .

٢ - وفي الركن المقابل له أيقونة أم النور مكتوب تحتها « العذرى » مزينة على نفس النمط .

(١) سجل المخطوطات القبطية بالمتحف البريطاني ص ٣٥٢ مخطوطة ٨٤٠ (النسخة المحفوظة بمكتبة المتحف المصرى ببرلين الغربية) .

٣ - أما الركن الأسفل على الشمال فيحتوى على مستطيل بداخله أيقونة ت
لنا تحول بولس بالطريقة التالية : رجلان واقمان على الأرض وإلى جانبها
قد وقع شاول من عليه وفوقهم كلمات : شاورول شاورول لماذا تطاردني ،
أعلا هؤلاء جميعاً يد وسط دائرة ذات لون ليني وفوقها بالذهبي كلمات :
يسوع الناصري ،

٤ - وفي الركن المقابل مستطيل مساحته يساوي مجلس في وسطه بولس على
مكتوب فوقها بولس الرسول ، وفوق رأسه المنتخب ، ويقف ثلاثة
أمام الرسول مكتوب فوقهم تلاميذ بولس ، والكتابة كلها باللون الذهب
وقد جاء على الورقة ١٣٠ وجه أن المخطوطة كتبها الراهب القمص غ
بناءً على طلب الأرخن الشيخ النشو أبو شاكر بن السني الراهب بن المهدي
وهي منقولة عن مخطوطة كتبها أنبا يونس أسقف سمند المعروف بالسمنو
والمعجب أنه مذكور بأن الأصل يرجع إلى مخطوطة جميلة كتبها جرج
سكسيك الناسخ المشهور. كذلك ورد على ورقة ٢١٨ وجه كتابات بخط عر
متناسق باللون الذهبي داخل اطارات سوداء وحمراء وصفراء تقول أن غ
المذكور سابقاً أتم نقلها في ٢٦ طوبه سنة ٩٦٦ ش . وفي آخر المخطوط
ورد بأنها :

١ - أوقفت على كنيسة الشهيد العظيم مرقور يوس (أبي السيفين) في ٧
سنة ١٣٩٢ ش .

٢ - أن الأنبا يونس الطرخي - السادس عشر - قد تمت رسامته يوم الأ
٩ برمهات سنة ١٣٩٢ ش ، أنه في سنة ١٣٩٤ ش حدث غلاء عظيم . والمخطوط
تشمّل رسائل بولس والكاثوليكون والأعمال وهي كلها مكتوبة بالقبلي والمر
(١) مخطوطة ١٥١ رقم ٦٨٩ تفسير بمكتبة المتحف القبطي .

والمخطوطات التي بقيت لنا من هذه الفترة تعطينا صورة رائعة للانتاج الفكري خلال السلام فتملأنا غبطة بالمجموعات التي بذلها آباؤنا وهي في الوقت عينه فتملأنا أسى على ما كان يمكنهم انتاجه لو أنهم كانوا قد تمتعوا بالسلام على فترات أطول ثم - من يدري ؟ قد يكونون أنتجوا حتى في عهد الظلم والاضيق ولكن يد التخريب امتدت إلى انتاجاتهم. وعلى أية حال يجدر بنا أن نرفع الشكر دوماً للكب السماوي لأنه لم يدع نفسه بلا شاهد في كل فترة من تاريخ كنيستنا المجيد المديد .

١٠٥ - وما يوجع القلب أن الأوبئة ظلت تجتاح بلادنا المرة بعد المرة في هذا العصر الذي نحن بصددده. فلا يكاد الناس يطمنون إلى زوال وباء حتى يزعمهم وباء جديد وهكذا حدثت ثلاثة أوبئة في بابوية الابا يونس كان ثالثهم سبياً في انتقال هذا البابا الجليل إلى الأخدار السماوية . فقد انتشر الوباء سنة ١٧١٠ م بشكل شنيع حتى لقد حصد الآلاف من الناس. وتلفتت البابا يونس حوله فوجد أبناءه بين مريض ومات . وامتسلات نفسه حزناً عليهم فأخذ يضرع من أجلهم في حرارة. وكان قد بلغ شيخوخة سالحة ، وحفلت أيامه بالتعمير البناء . فوهنت قواه وهزل جسمه . وزاده هزالاً الصراع الروحي الذي يصارعه فيما يرفعه من ابتهالات من أجل أولاده فزال الوباء ، واسكن البابا انتقل إلى أحضان القديسين بعد أن ساس الكنيسة مدى اثنتين وأربعين سنة وثلاثة شهور . وكان انتقاله في العاشر من شهر يونيو سنة ١٤٢٧ ش فكان يوم حداد عام شمل مصر من شاطئها حتى مرتفعات نيلها . وشارك كل ساكني مصر الشعب القبطي في حزنه . واحتفل الجميع بالصلاة عليه في تكريم ووقار . ثم دفنوه في مقبرة البسا باوات بسكنيسة الشهيد العظيم مرقوريوس (أبي السيفين) بمصر العتيقة .

ومن العجيب أن الأرخبن الروحاني جرجس أبو منصور الطوخي لحق بباباه

بعد انتقاله بمشرفة أيام . فلحق الإبن بأبيه ليكون الاثنان معاً في العالم السامري كما كانا . ما في هذا العالم البائد (١١) .

١٠٦ - على أننا قبل الانتهاء من الحديث عن هذا البابا الجليل ومعاصره يجب أن نذكر أنه قد عاش في أيامه ناسخ اسمه مرقوريوس من منية أبو فيس (بألمانيا) . ومن الكتب التي عني بنقلها . سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي الذي نقله مع التفسير الذي قدمه أنبيا بولس البوشي . ومن العجيب أن مرقوريوس - خلاقاً للمصناد - قد كتب اسمه إلى جانب تاريخ فراغه من النسخة في آخر الكتاب . وقد كتبها بالقبطية فقط . أما التاريخ الذي سجله فهو سنة ١٤١٩ ش (سنة ١٧٠٣ م) (١٢) .

١٠٧ - وليس من شك في أن الأنبا يونس السادس عشر - هو وعصره - دليلٌ ضمن الأدلة التي لا تحصى عن مدى فعالية الروح القدس في الكنيسة القبطية فهو يجدد شبابها ويجدد حيويتها على الدوام ليجعل منها شاهداً صريحاً وشهيداً حياً لوعده الإلهي : « في العالم سيكون لكم ضيق ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم » (١٣) .

ومن حوادث هذه الفترة أن بعض الأجانب تمكنوا من دخول أديرة وادي النطرون ولو أن أول أجنبي دخل بالفعل كان راهباً من رهبان الكابوسين، ودخل دير الأنبا مكاري الكبير . ولما رجع إلى بلاده أخذ يتفق بالمكتبة التي رآها في الدير . فاسترعى حديثه التفاف صديق له مولعاً باقتناء المخطوطات . فبذل قصارى

(١) سنكسار دير القديس أنبا أنطوني .

(٢) من مقال لقمص ميصائيل بحر بعنوان : « إقليم المنيا في العصر القبطي » نشره في مجلة « صوت الشهداء » السنة السادسة العددين ٢ و ٣ (فبراير ومارس سنة ١٩٦٤) ص ٤٧ .

(٣) يوحنا ١٦ : ٣٣ .

جموده في هذا السبيل إلى أن نجح في شراء نسخة نادرة من سفر المزامير مكتوبة
بعدة لغات . ثم توالت بعد ذلك المحاولات للحصول على مخطوطات الأديرة .
وأكثر مجموعة سطا عليها الأجانب هي تلك التي استطاع أن يستحوذ عليها المنسيور
يوسف السمعاني (اللبناني) أمين مكتبة الفاتيكان .

ولقد حدث أن هاش عدد من الرهبان السريان فترة طويلة في الدير الذي
تسمى باسمهم نتيجة لذلك . وخلال إقامتهم فيه وضعوا الكثير من المؤلفات .
ثم اضطروا إلى الرحيل إلى بلادهم فجاءوا الدير بسرعة ولم يستطيعوا معها
حمل كتبهم معهم . ولما سمع الأوربيون بهودتهم المفاجئة سيطرت عليهم شهوة
الاستيلاء على الكتب السريانية وأول من وصل إلى دير السريان لهذا الهدف كان
الراهب اليسوعي الياس السمعاني . ونجح بمسول كلامه أن يستحوذ على أربعين
مجلداً منها حملها إلى مكتبة الفاتيكان فلما رآها ساكن ذلك القصر طمع في المزيد .
فانتدب المنسيور يوسف السمعاني لهذا الغرض . فوصل إلى البرية المقدسة سنة
١٧١٥ م . واستمتع بضيافة الرهبان له مدى ثمانية أيام عاد بعدها يحمل مجموعة
قيمة من المخطوطات السريانية وبعضاً من المخطوطات القبطية والأخيرة أخذها
من دير الآباء مكارى الكبير (١) .



(١) الأديرة ... لصموئيل تاووروس السرياني ص ١٥٩ ، والواقع أنه لا يميز
لمثل هذا النجاح الروماني غير سداجة رهبان القبط بالإضافة إلى جهل ظليتهم آنذاك .

افسياب النهر

- ١٠٨ - توافق روى
١٠٩ - تأليف نقابات عمالية
١١٠ - اشتعال الفتنة
١١١ - زيارة راعوية مثمرة
١١٢ - ونهاية انتهت من غير اذى
١١٣ - تجديد وتعوير
١١٤ - جهود بناءة
١١٥ - طرالة التغيير
١١٦ - ضىء من الاستقرار
١١٧ - وباء يقضى على البابا
١١٨ - اسقف اسنا
١١٩ - اسقف البهنسية والاشمونين

١٠٨ - لم يمض على نياحة البابا يونس السادس عشر غير شهرين وأسبوع واحد حينما تمت رسامة خلفه ذلك أنه في تلك الفترة لم يحدث أى اختلاف في وجهات النظر ، بل لم تكن هناك حاجة إلى الذهاب للأديرة للبحث عن يمكن أن يقام الرئيس الأعلى للكنيسة . لأن المعلم لطف الله (١) كاتب الأمير المملوكى وزوج بنت شقيق البابا الراحل كان يعرف أن في دير الانبا بولا راهباً اسمه بطرس نال كرامة الكهنوت من يد الانبا يونس نفسه فاقترح إقامته خليفة للكرسى المرقسى . ولما كان المعلم لطف الله يستمتع بمكانة خاصة لدى الجميع كما كان معروفاً بمحبته للكنيسة والعمل على خيرها ، فقد وافق الجميع على اقتراحه . وعندها أرسل رسله إلى رئيس وقف دير الانبا بولا ييوش وأعلمه بالاختيار الاجماعى لراهب بطرس فقديده بالسلاسل ، وأرسله لساعته إلى مصر حيث تمت رسامته البابا المئة والرابع للكرسى المرقسى باسمه الرهبانى ، بطرس ، . وهو السادس بين من حملوا هذا الاسم واتفق أن كانت رسامته يوم جبر الخليج (٢) فاستبشر

(١) هو الذى وردت لحة منه ضمن الحديث من الأراخنة في ف ١٠٢ .

(٢) هو اليوم الذى كان يحتق فيه المصريون بنهاية ارتفاع الفيضان عند بداية السنة القبطية - راجع ما جاء من الاحتفالات به خصوصاً في أيام الفاطميين في الجزء الثالث من هذا الكتاب .

الجميع بذلك وامتلأت القلوب بهجة . وأقيمت الشعائر الاحتفالية في كنيسة الشهيد العظيم مرقوريوس (أبي السيفين) بمصر العتيقة - وكان ذلك سنة ١٧١٨ م .

١٠٩ - وفي تلك الآونة اتفقت كلمة الصناع على تكوين نقابات لهم : فكان كل مجموعة من العمال المشتغلين بصناعة واحدة يؤلفون نقابة فيما بينهم تشرف على شئونهم . ولم يكن للنقابة اشراف مهني فقط بل كانت لها فوق ذلك ناحية اجتماعية تهاديبية إذ أقامت صلة من الترابط والتعاون بين الصناع ، كما حرصت على الاحتفاظ بمستوى معين من الحياة ومن الأخلاق . فكانت تعاقب المفصر وتليب المجتهد . إلا أن العجيب أنه على الرغم من هذا الجهد النقابي فقد أدت إلى شوء من الركود الانتاجي . فهبط مستوى الاتقان الصناعي ونقص الانتاج لأن الغالبية العظمى من الصناع كانت تتقاضى أجوراً هزيلة لا تكفي لسد ضرورياتهم مما اضطر نساءهم إلى العمل أيضاً للقيام بأود عائلاتهم (١) .

١١٠ - وحدث في السنة التالية لرئاسة الانبا بطرس السادس (أي في سنة ١٧١٩ م) أن قامت فتنة بلغت من حدتها أنها كانت أشبه بالحرب الأهلية . وانتهز الرطاع الفتنة فأمعنوا في السلب والنهب . وفي أشغال النار في البيوت . وقد نتج عن هذه الفتنة أن الباشاوات الموفدين من الباب العالي لتولى الحكم أصبحوا مجرد الأعيب في أيدي المماليك . بل لقد بلغ بالعامه أنهم تجرأوا على الوالى بالسلب واللعن من غير أن يحاول ردعهم . وكانت هذه الفتنة الشرارة الأولى التي جعلت من السبع وثمانين سنة الممتدة مذاك إلى الحملة الفرنسية فترة مليئة بالمنازعات والقلاقل . فلم تعد الحصومة قائمة بين حزب الوالى وحزب المماليك لحسب بل امتدت إلى الحصومة بين أفراد الحزب الواحد للوصول إلى الرياسة . وبالطبع

(١) المجلد .. تاريخ مصر في العصر العثماني لحسن عثمان ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

كان لهذه الفتن والقلاقل أو ختم العواقب على الزراعة والصناعة معاً (١١) . وليس ذلك لحسب بل أن الأمراء في تماركهم كانوا يطوفون بالبلاد يسلبون وينهبون، وفي الاسكندرية أوجبوا على القبط مائة ألف ريال وهدموا الكنائس واضطر غالبية الناس إلى الهروب من المدينة (حق المسلمين منهم) تجنباً لما قد يصيبهم من ضرب واهانة .

وبعد أن عاثوا فساداً حق لقد ساووا بعض القرى بالأرض عادوا إلى القاهرة . ويبدو أنهم كانوا قد سثموا كل هذه المنازعات وخاف البعض منهم على حياته فاجتمعوا ذات مساء في الغورية وانتهى بهم الحديث إلى أن قال حسين بك (أحد أعوان إبراهيم بك الأمير المملوكي) : « كنا نهابون أنك تنهب ومراد بك ينهب وأنا أنهب كذلك، وعلى هذه الكلمات انفض المجلس وهدأت الفتنة (١٢) .

على أن كل هذه الانتفاضات الشعبية كانت تضيع مباءً منشوراً رغم أنها كانت بقيادة العلماء ومشايخ الحرف والتجار . ذلك لأن القيادات ذاتها لم تكن شعبية صميمية كما أنها لم تكن منظمة (١٣) .

١١١ - وخلال كل هذه السلسلة من الفتن كانت هناك فترات قصيرة من الاستقرار . وهكذا انتهت هذه الفتنة الأولى فتنفس الأنبا بطرس السادس الصعداء ، وقام برحلة راعوية . ومن نعمة الله عليه أن جعله ذا مكانة متميزة في نظر الحكام فسئلوا له هذه الزيارة الأبوية . وهكذا تفقد شعبه وقامت بينه وبينهم صلة المودة والتفاهم . ولم يكتف هذا البابا الساهر بمجرد الألفة والتفاهم

(١) « مصر والهلل الحصب » . . . من ٩٠ ، السكالي من ١١١ - ١١٢ .

(٢) « عجائب الآثار » . . . ج ٢ من ١٠٢ .

(٣) فوزي جرجس : دراسات في تاريخ مصر . . . من ٢٠ - ٢١ .

بين أولاده ، بل سعى لدى الحكام إلى أن نجح في استصدار فرمان باقرار الشريعة المسيحية فيما يتعلق بالزواج والطلاق (١١).

١١٢ - ولم يكفد البابا بطرس ينتهي من زيارته الراحوية حتى سعى بعض الوشاة بالمعلم لطف الله عند الوالى رجب باشا . فقد كان هذا الارخن الفيور بذل جهداً بالغاً في تعمير كنيسة رئيس جند السبائين - ميخائيل - الواقعة في الطرف الجنوبي من القاهرة والمعروفة الآن بالملاك القبلى . ثم دفعه تفانيه إلى تعمير كنيسة مار مينا العجايبى (بقم الخليج) فجعل من الكنيستين آيتين تنطقان بمجد الله وبرغبة الناس فى الجمال . فشدد رجب باشا فى التضييق على المعلم لطف الله لأنه جدد الكنيستين المذكورتين من غير استئذانه . وبعد مفاوضات ، وبعد استشفاع عدد من المحبين رجع الوالى عن هدم الكنيستين ورضى بأربعين كيساً من الفضة دفعها المعلم لطف الله عن طريق مؤلاء الاحياء (١٢) .

١١٣ - وكان هناك ارخن آخر اسمه مرقوريوس كان كاتباً لدى شيخ من أكابر الشيوخ فى مصر . وقد قام هذا الارخن أيضاً بتجديد بيعة السيدة المذراه بالعدوية (١٣) . وكان بهذه الكنيسة دير ملحق بها جرده أيضاً .

ومن مآثر الارخن مرقوريوس أنه كان ناسخاً مجتهداً فترك لنا مخطوطة تتضمن عدداً من الميامر والسير أهمها :

١ - ميمر وضعه الانبا قسطنطين (١٤) أسقف أسبوط تمجيداً للشهيد القديس

(١) كامل صالح نخلة سلسلة . . . الحلقة الخامسة ص ١٣ ، منسى القمص ص ٦٢٢ .

(٢) البرموسى ج ٢ ص ٥١٠ ،

(٣) من السكتانس التى خربت فى عهد المماليك ثم تجددت ولكن لم يبق لها أثر الآن

والمقصود بالعدوية هنا منطقة بولاق .

(٤) هذا أيضاً أسقف لا نعرف عنه إلا أنه كاتب هذه الميامر .

يونس الهرقل الذي تعيد الكنيسة بيوم استشهاده في ٤ بؤونة . وكانت هرقل
احدى مدن اسيوط وقد اصبحت اسمها الآن دحميور ، .

٢ - ميمر الاسقف ذاته تمجيداً للشهيدة القديسة افروسينة التي اطلقت هي
على نفسها اسم زبرجد ، وتعيد الكنيسة يوم استشهادهما في ٤ امشير (١١) .

وثمة مخطوطة تحمل نفس التاريخ واسمها لا تحمل اسم ناسخها ، فلا ندري
ان كان هو الشماس مرقوريوس ام انه ناسخ آخر وهذه ايضا تشمل على عدة
موضوعات اهمها مقال عن السبب في تشييد كنيسة القديسة بربارة وكنيسة
القديسين مرجيوس وواحد (ابي سرجة) فوق المقارة التي عاشت فيها العائلة
المقدسة فترة من الزمن وقد ذكر الناسخ ان الذي انفق على بنائهما هو واحد
اولاد الابع ، (١٢) .

١١٤ - وهناك ناسخ آخر جاء اسمه في نهاية مخطوطة ترجع الى هذا العصر
اسمه سليمان ابن جبرائيل الفرارجي ، لانعرف عنه إلا أنه نقل كتابات القراءات
الخاصة بالآحاد السبعة للصوم الكبير بالقبطية وحدها ولو أنه كتب بعض
العناوين بالمرية وقد جاء في آخر المخطوطة انه كتبها تلبية لطلب القس ميخائيل
كاهن كنيسة السيدة العذراء بابلون ، وانتهى من كتابتها في الثاني والعشرين من
كيهك سنة ١٤٢٨ ش (سنة ١٧١١ م) . ولم يذكر ان كانت الكنيسة المذكورة
هي المعلقة أو الدمشقية: فكلاهما على اسم السيدة العذراء، وكلاهما في بابلون (١٣) .

(١) مخطوطة ٨٨ - ٨٣ أدب - محفوظة بمكتبة المتحف القبطي ، وتحمل في آخر ورقة
منها اسم الشماس مرقوريوس وتاريخ فراغه من كتابتها سنة ١٧١٨ م .
(٢) مخطوطة ٤٧٦ - رقم ٨٠٤ - محفوظة بالمكتبة البابوية بالقاهرة . أما ابن
الايح فقد جاء ذكره في ج ٣ من هذا الكتاب من ٩٥ و ١٩٦ .
(٣) مخطوطة ٧٧ - ٥٤ أدب - محفوظة بمكتبة المتحف القبطي .

ومكتباتنا ليست وحدها في احتوائها لسكنوز الآباء بل نجد شق المتاحف
والمكتبات في مختلف أنحاء العالم تفخر بها . ومن المخطوطات المحفوظة بالمتحف
البريطاني مخطوطة تتضمن طروحات وتذاكيات وذوكصولوجيات والطريف
أن هذه المخطوطة تحمل تاريخ ١٠ هاتور سنة ١٤٣٤ ش (سنة ١٧١٨ م) وهو
تاريخ مولد بشارة ولد مينخائيل ولد كاتبه . - أي أنها تحمل تاريخ ميلاد
حفيد الناسخ (١١)

وبمكتبة المتحف القبطي أيضاً مخطوطة تتضمن السنكسار القبطي . وهذا
السنكسار مختلف عن الشائع قراءته الذي جمعه أنبا مينخائيل أسقف بليج والجزء
الأول من هذه المخطوطة يرجع إلى أواخر القرن الثاني عشر وأوائل الثالث
عشر ، أما أوراقها الأخيرة فقد تم تجديددها في ٢١ أمشير سنة ١٤٥٠ ش
(٢٧ / ٢ / ١٧٣٤ م) . وناقل هذه المخطوطة هو د يوليوس الراهب ابن الحج
يوحنا الأسطناسوى تابع أبونا اخرستوطولوا بابا ص الحيش في دير طابده .
والمخطوطة تتألف من ثلاثة أقسام ، جاء في قسمها الثاني أن الأنبا خرستودوللو
قد ترجمها من اللغة الجفسية إلى اللغة العربية ، ثم طلب من الراهب يوليوس
نسخة الترجمة (١٢) .

١١٥ - وحرى بنا معشر القبط أن ندرك أن عدداً كبيراً من الأساقفة الذين

-
- (١) سجل المخطوطات القبطية بالمتحف البريطاني ص ٣٦٣ مخطوطة ٨٦٥
(٢) من أم الخدمات التي أداها الأساقفة القبط لاولادهم الأقباش ترجمة الكتاب
المقدس وغيره من الكتب الكنسية وسير الشهداء وتمايم الآباء من القبطية أولاً ثم من العربية
إلى الأمهرية والجمزية (وهما أكثر اللغات تداولاً في الحبشة) - راجع الكتاب الثالث من
هذه « القصة » ص ٢٧٧ - ٢٧٨ . والقبط بخدمتهم هذه قد خدموا الكنيسة القبطية أيضاً
لأن بعض الكتب التي ضاعت في الأصل القبطي أو العربي بقيت في الترجمة - فحقاً أن
ما يزرعه الإنسان إياه يحمده - ولو بعد حين والمخطوطة المذكورة رقم ١٢ (١٥٥ أدب)
محفوظة بالمتحف القبطي

رحمهم باباوات الاسكندرية على الحبشة قد اشتغل بالترجمة وبالتأليف لبنيان الشعب الذي اتحنوا على رعايته، والمخطوطات والكتب العديدة الموجودة الآن بالديار الحبشية شاهد على الجهود التي بذلوها . ولكن الدعايات التي روجها خصوم الكنيسة القبطية ابتداءً من القرن السابع عشر اوهمت القبط أنفسهم بأنهم قصروا في أداء واجبهم نحو الكنيسة التي لم تنشأ إلا بجهودات أبناء مصر والتي قامت الصلة بينها وبين الكنيسة القبطية منذ أن رسم الانبيا اثناسيوس الرسول العظيم أول أسقف لها سنة ٣١٨ م ش (سنة ٢٢٦ م غ)

ومن الطريف أن نلاحظ كيف أن صيغة الكتابة تتغير من جيل إلى جيل فهناك دفنار نقرا في آخره ما يلي : وكل هذا الدفنار لشهرى هاتور وكيهك في شهر مصرى سنة ١٤٤٥ ش . (سنة ١٧٢٩ م) نقلا عن نسخة بخرانة الكتب بكنيسة حارة زويلة الكبرى عن نسخة تاريخها ١١٠١ ش (١٢٨٤-١٢٨٥ م) بخط القس بطرس بدير أنبا أنطونيوس بيرية العربية .

والمهم بهذا الكتاب المقدس من ماله وتعبه الاخ الحبيب محب الفسرباه والمساكين الارخن المبجل الذين الارثوذكسى الشماس المكرم المعلم نيروز ابن المتنيح فى الاحضان الابراهيمية نوار . صنع هذا التذكار المقدس برسم كنيسة أبى قير ويوحنا المعروفة باسم الست بربرة بقصر الجمع بفسطاط مصر . وقدمه هدية مع جملة كتب محفوظة بخرانتها وأوقفها عليها ، عمرها الله على الدوام . طالبا بذلك غفران خطاياها ، والوقوف أمامه بغير عيب . الرب الإله يعوض عليه عوض الواحد مائة وستين وثلاثين ويفر خطاياها ، ويسكنه فردوس النعيم بعد التمتع بطول الاجل وذلك على يد العبد المسكين ساروفيم ، وبلى ذلك الآتى : لا يباع ولا يرهن ولا يوهب ولا يخرج من البيعة المذكورة بوجه من وجوه التلف .

وكل من تعدى أو أخذه سلباً أو خفية ولم يعده إليها يكون تحت كلمة الحق الطاغية التي تحدر نفوس المخالفين إلى قاع الجحيم والعياذ بالله من فاعل هذا الفعل (١) .
وعلى بنى الطاعة تحمل البركة آمين ، والشكر لله دائماً .

وإليك خاتمة أخرى كان يكتبها الناصح عن نفسه ، ومن الطريف أنه يفتدق على متولى الصرف على النسخ من ألقاب التبجيل والاحترام بقدر ما يأتي عليه تواضعه إلا أن بنيت لفة بالفاظ التحقير والاتضاع .

(خاتمة كتاب قطهارس الحسين) ، أذكر يارب عبدك الخطاطىء المسكين

الغارق في بحار الخطايا والذنوب الذي لم يستحق ذكر اسمه من أعماله الرديئة وأنت يا سيدي فاعص القلوب وأجشو بهامى الخطاطية تحت أقدام ساداتى الآباء الكرام الكهنة والشمامسة والأراخنة التالين في هذا القطهارس المقدس أن يقولوا بلستان فضيح وقلب جريح : يا سيدي يسوع المسيح أغفر خطاياهم ولو الديه وأقاربهم وأولاد المعمودية بالميرون الشريف كما غفرت إلى الخطاطية قديماً ، (٢) .

١١٦ - ولقد فرح الأنبا بطرس بجهود أبنائه في مختلف الميادين ، وكرسس الكنائس التي جددوها كما رسم لها الكهنة والشمامسة اللازمين للخدمة فيها . كذلك رسم أسقفاً على الكرسى الأورشليمى باسم اثناسيوس وآخر الأقباش باسم خريستودوللو .

ومن مراحم الله أن أيام هذا البابا سادها السلام بعد الفتنة التي اشتعلت في

(١) من المعجب أن مستر ابغلين وايت الذي عثر على الرقوق بدبر أبي مقار ونقلها إلى المتحف القبطى انتهر قبيل التحقيق منه في أمور غرامية وقد ترك خطاباً قال فيه أن لجنة آباء الدير قد عات عليه !

(٢) من مقال ليسى عبد المسيح (أمين مكتبة المتحف القبطى) بعنوان « المكتبات والخطوط القبطية » نشره في مجلة مدارس الأحد بمعددها السابع من السنة الأولى - ١ أكتوبر سنة ١٩٤٧ (بابها سنة ١٦٦٤) ص ٢٠ - ٢١

بداية عهده . كذلك ساد النفاق بينه وبين شعبه فسعد الجميع بالهدوء النفسى . وقد عبر الأراخنة عن فرحتهم بهذا السلام بأن تغايروا فى الاعمال الصالحة وفى إفتقاد اليتامى والأرامل .

ثم اشتاق البابا بطرس إلى التبرك برفات مار مرقس كاروزنا الحبيب . فأخذ معه قنديلا من الفضة وضعه بالكنيسة المرقسية ، كما حمل عشرين أردبا من القمح وزعها على المحتاجين من الشعب السكندرى . وقد قضى فى مدينة الكاروز شهرين أحس خلالها بالغبطة تملأ قلبه . ولم تكن هذه الغبطة لما رآه من محبة الشعب فقط بل أيضاً لأنه وجد عدداً غير قليل من الأراخنة كتبه ومباشرين فى ديوان والى الاسكندرية . وكان هؤلاء الكتبه مرضياً عنهم فى الديوان وكانوا فى الوقت عينه أبناء بررة لباباهم .

ولم يكن الاسكندريون وحدهم بالكتبه الذين خدموا الدولة والكنيسة بل كان لهم نظيرين فى القاهرة ، سجل لنا التاريخ اسم اثنين منهم : أحدهما اسمه مرقوريوس ولكن العجيب أنه اشتهر بين أقرانه بكنية هى ديك أبيض ، وكان كاتباً عند أحد المماليك هو ابراهيم جوربجى عزبان . وقد أقامه الانبا بطرس السادس ناظراً على كنيسة السيدة العذراء المعروفة بالعدوية ، فاهتم بتجديدها وإصلاحها وتزيينها ثم دعا البابا لتكريسها . وانتهم الانبا بطرس السادس هذه الفرصة فكرس عدداً من الكهنة والشمامسة .

وكان هناك أرخن آخر اسمه المعلم جرجس أبو شحاته - نشأ فى أنوب (جنوبى

أسيوط) ثم جاء إلى القاهرة وتزوج من أخت المعلم لطف الله . واشتهر برحمته وصدقاته بين الجمع . وفى أعماله هذه كان يتشبه بباباه الذى قيل عنه بأنه كان

سمح النفس في المأكل والمشرب كثير الرحمة . . . كان الشعب جميعه في أيامه بخير
وطافية وطمانية ، (١١) .

١١٧ - ومن المؤلم أن صفو السلام الذي لم يعكر ضيق أو تعسف قد عكسه
الوباء . ولم يكتفِ الوباء بمحصد الرعية بل حصد الراعي أيضاً . وهكذا انتقل
الأنبا بطرس السادس إلى الأخدار الساوية بعد سبع سنين وستة شهور من
توليهِ رياسة الكهنوت (١٢) .

١١٨ - ومن أعاجيب الله في كنيسته القبطية أنه أكل قوته خسلا لظلة
العصور العثمانية ، فأقام لها رعاة ساهرين متيقظين . ومن الآباء المعاصرين للبابا
بطرس السادس المساندين له في جهاده الروحي ورعايته الساهرة الأنبا بطرس
أسقف أصنا الذي وجه اهتماماً خاصاً إلى القوانين والنظم الكنسية . فوضع فيها
كتاباً على شكل سؤال وجواب ليتلقن عنه الشعب المحرص على هذه التوجيهات
الكنسية (١٣) .

١١٩ - على أن أبرز المطارئة في هذه الفترة كان من غير شك الأنبا مينخائيل
أسقف البهنسا والأشمونين الملقَّب «بالملازمة» . فقد كتب هذا الأسقف شرحاً
واقياً للعقيدة الأرثوذكسية ردّاً به على أضاليل لاون (١٤) . وما قاله الأنبا مينخائيل

(١) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفص أسقف الأشمونين المجلد
الثالث ص ٣٠ - ١٦٥ - ١٦٦ والظاهرة الغربية أن الأسقف الأشموني عاش في القرن العاشر
ولكنه سطر على الفكر القبطي بكتابه « تاريخ بطاركة . . . » إلى حد أنه حتى تاريخ
الباپوات الذين عاشوا بعده بقرون يرجعون إليه ا

(٢) البرموسى ص ٢٠ ص ٥١٢ .

(٣) مخطوطة ٤٣٨ - رقم ٧٥٥ - محفوظة بالمكتبة البابوية بالقاهرة ، وتاريخها
سنة ١٧١٥ م .

(٤) هو الأسقف الروماني الذي عاصر البابا ديستورس (البابا الاسكندري ال ٢٥) ،
وقد لب هذا الأسقف دوراً أسيفاً في مجمع خلقيدون - راجع الفصل الأول من الكتاب
الثاني لقصة الكنيسة القبطية .

في شرحه مايلي : . . . إن إيماننا متسلسل من الرسل والآباء الثلاثة والثمانية عشر بلا زيادة ولا نقصان . . .

أ - إننا نؤمن ونعتقد بالآب والإبن والروح القدس إله واحد وجوهر واحد ، واحد بالذات مثلك بالصفات ، صفاته ثابتة في ذاته الأزلية وهو كlette المولود من ذاته الإلهية الذي هو نطق ذاته ، وروحه المنبثق من ذاته الذي هو حياة ذاته . ثلاثة أقانيم متساوية ، ذات واحدة ذات عقل ونطق وحياة ، حواصراً جوهرية بغير انفصال . . . كلما للآب وللإبن والروح خلواً من الآبوة ، وكلما للإبن للآب والروح خلواً من البنوة ، وكلما للروح للآب والإبن خلواً من الانبثاق ليس أقنوم أكبر وأقنوم أصغر ، أو أقنوم أبدي وأقنوم زمني ، لأن لا ابتداء لهم ولا انتهاء ، متساوون بالقدرة والمجد والجهروت إلى الأبد .

ب - وأيضاً نعترف بتجسد أقنوم الإبن أي كلمة الله الآب المساوي له . . .

ونزل الإبن حسب إرادة أبيه وروحه القدس وحل في أحشاء سيدتنا مريم العذراء . . . شرح تجسده من الروح القدس : أعنى أن الروح القدس هو الذي أبدع القوة النفسانية في أحشاء القديسة مريم من غير نطفة رجل ، وبها تصور ناسوت المسيح . . . والإبن لا يتحد في شيء مالم يسبقه الروح القدس يقده على الشبه . والكاهن في صلاة القداس يسأل حلول الروح القدس فيجعل على المائدة ويقدها ويتحد الإبن بها وتصير جسده ودمه . والذي يروم أن يتناول الإبن المتحد لا يصل لذلك حتى يأخذ المعمودية ويتقدس بالروح القدس ، وإن أخطأ بعد ذلك لا يتقرب حتى يأخذ الغفران من الكاهن بالروح القدس . . . مسيح واحد من لاهوت وناسوت . . . إنه إله وإنه انسان أقنوم لا يُجَرَد من اللاهوت ولا من الناسوت لأن اتحادهم كامل من كل وجه : أقنوم واحد وطبيعة واحدة ومشية واحدة وفعل واحد . وهذا هو إيماننا .

ج - إنا نؤمن بما تحقق في مجمع نيقية : إن الروح القدس منبثق من الآب ،
وأتباع لاون يعوجون ويقولون إن الروح القدس منبثق من الآب والإبن .
وفي هذا القول مخالفة لقول سيدنا ، أرسل لكم البارقليط ذلك الذي ينبثق من
الآب ويأخذ مما لي ويعطيكم . فلو كان حسب ظنهم لقال ، ذلك الذي ينبثق من
الآب ومني ، ويقولون للبسطاء أن سيدنا قال في إنجيله ، أنا في الآب والآب
في . وما دام الإبن في الآب والروح منبثق من الآب فعنى ذلك أنه منبثق من
الآب والإبن . ونرد عليهم ونقول : الروح القدس في الآب أم لا ؟ ومعلوم أن
الروح القدس في الآب . فإذا كان الروح القدس في الآب فيعنى ذلك أن الإبن
مولود من الروح القدس أيضاً كزعمهم لأن الروح القدس في الآب . وبصير
الإبن لأبوين وبصير الروح القدس أب أيضاً وتبليبل خاصياتهم ...

د - إنا نؤمن بالاتحاد السكامل للإبن الذي هو من كل وجه اتحاد بغير
اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير . ولما كان في مجمع خلقيدون أضعوا اتحاد مخلصنا
وأنكروا أن كال اللاهوت أخذ كال الناسوت واتحد به اتحاداً طبيعياً اقنومياً .
ولما تسألهم كيف كان اتحاد سيدنا ؟ فيقولون اتحاد كالزيت والماء أو الرمراس
(الصمغ) في الورق . ولما نقول لهم : أليس الذي قبل الصلب هو المسيح بلاهوته
وناسوته ؟ وأليس اقنوم المسيح بلاهوته وناسوته هو الذي قام من الأموات ؟
يتمشرون ويقولون : إن اقنوم المسيح اللاهوت هو . ونرد عليهم بقول بولس
الرسول في رسالته إلى كورنثوس : فضع الرؤساء والسلاطين وأمرجهم بأقنومه (١) .
وفي الفصل الأول من رسالته إلى العبرانيين يقول : د وبأقنومه صنع تطهير

(١) في ترجمة عربية قديمة ورد النص : « احذروا لتلا بعلبكم أهد بالفلسفة والضلالة
الباطلة حسب تقاليد الناس وحسب استطقسات العالم لا يحب المسيح الذي حل فيه كل ملء
اللاهوت جدياً . وبمرى جسده فضع الرؤساء والسلاطين وأخزاهم علانية » . كورنثوس ٢ : ٨ - ٩ و ١٥

خطايانا . ويقول في الفصل التاسع : وبأفنومه غسل خطايانا الكثيرة . ،
وأبدلوا لفظة أفنومه وقالوا : وبثمنه غفر خطايانا . ثم يقولون إن سيدنا كان
يدعو ذاته تارة ابن الانسان وتارة ابن الله ويفسرون ذلك أن له طبيعتين -
طبيعية إلهية وطبيعية جسدية . ونجاوبهم : إن إلهنا ومخلصنا يسوع لما كان يدعو
ذاته إنساناً وابن البشر كان ذلك لعدم قابلية أولئك المدعوين فإنهم كانوا
كالأطفال الرضع . ومن المعلوم أن الطفل لا يحتمل الغذاء الثقيل . وكان يستدرجهم
قليلاً قليلاً إلى المعرفة . وحينما يرون آياته وعجائبه يتعلقون بالإيمان به فيظن لهم
لاهوته أنه الله وابن الله . سأل مرة تلاميذه فاحصاً لهم : وأنتم ماذا تقولون من
أنا ؟ أجابه بطرس أنت هو المسيح ابن الله الحي . . . يعني أنك أنت المنظور
كإنسان أو من أنك الله وابن الله وكان هذا إيمان كل الرسل . . .

هـ - نقول إن كل ما فعل سيدنا على وجه خلاصنا من عاليات ودينيات (أفعال
إلهية وجسدية) بإرادة واحدة مع أبيه والروح القدس . وهذا ما تعلمناه من
سيدنا إذ يقول : مثل ما علمني أبي هكذا أفعل . . . وأيضاً لا يقدر الابن أن
يعمل شيئاً من تلقاء نفسه . . . وقوله : الآب في وأنا فيه . أنا في الآب والآب في . . .
فالذين يزعمون أن في سيدنا إرادتين وفعالين يرتكبون مخالفة لأقواله الإلهية التي
تبين (أن كل ما فعل بإرادة اللاهوت) ، ويقولهم فعالين - فعل خالق وفعل مخلوق
يترتب عليه (أن اللاهوت أراد أن يصلب الناسوت والناسوت لم يرض بذلك بل
تصلب قهراً) . أقوال تضاد ما تعلمناه من الرسل والقديسين . . .

رد على اعتراضات أخرى

١ - يقول الإنجيل : بعدما صام أربعين يوماً وأربعين ليلة جاع أخيراً . ،
فأعني جاع أخيراً ؟ وهذا بخلاف العادة إذ يجمع الإنسان في أول الصوم .

أما السيد و الجوع أخيراً ، - أى باختياره أخرج ذاته إلى الأكل والشرب (قبل الجوع نفسه) . إن السيد جاع كإنسان ، وأشبع الجوع كأنه إذ أشبع الآلاف في البرية من خبزات قليلة . وقد عطش ولكنه يقول : إن عطش أحد فليقبل إلى ويشرب ، . وقد تعب ومع ذلك يقول للناس : و تعالوا إلى يا جميع المتعبين وأنا أريحكم .

ب - يقولون عن سيدنا - كان يسأل كمن هو عارف وغير عارف ، عارف بلاهوته بما أنه إله وغير عارف بناسوته بما أنه إنسان ، وذلك كقوله لأخى لعازر ، أين وضعتموه ؟ ، ولتلاميذكم عندكم من الخبز ؟ ، ونجيب : إن ربنا يسوع المسيح كان يعلم كل شيء بلاهوته وناسوته . قال يوحنا الإنجيلي : إن يسوع كان عارفاً من قديم بالذين لم يؤمنوا به ، يسوع كان عارفاً وليس اللاهوت فقط كان عارفاً دون الناسوت . بل يسوع كان عارفاً الذى هو من لاهوت وناسوت . أما عن سؤاله لأخى لعازر ليس لكونه لا يعرف الموضوع بل ليحقق صدق الآية . أليس هو الذى عرف موت لعازر وقال لتلاميذه عن ذلك وهو على مسيرة ثلاثة أيام ؟

يقول الكتاب إن يسوع كان يعلم أن ساعته قد أتت ويقول : إن واحداً منكم يسلني ، ويقول لبطرس لا يصيح الديك حتى تنكرني ثلاثة مرات ، وليعقوب ما أسمك ؟ ، ولاهل سدوم وعمورة قد نزلت لارى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتى إلى ، ولموسى : ماذا فى يدك ؟ - فنحن نؤمن أنه فعل كل شيء بالتدبير قبل التجسد وبعد التجسد . (تيموثاوس ٣ : ١٦ ، ١٨ : ٩)

٣٢ : ٢٧ ، ١٨ : ٢١ ، خروج ٤ : ٢) .

ج - يقولون إن سيدنا خاف من الموت وعبس وجهه وقال : يا إبتاه أن

استطاع أن يحوز على هذه الكأس ، ويزعمون أن خوفه كان حقيقياً وليس
بالتدبير . ونقول لهم : إن فزعه وعبس وجهه كان لنوعين - الواحد أنه حزن
بالتدبير لكي لا يحتج اليهود ويقولوا رأينا وجهه فرحاً وراضياً بالصلب فلبنا
مراده . والثاني حزن لأجل اليهود لا لأجل نفسه لأنه أتى لخلاصهم وهم لم يؤمنوا
به لحزن لهلاكهم . والشاهد أنه بعد صلبه توسل لأجلهم قائلاً يا ابتاه اغفر
لهم لأنهم لا يدرون ما يفعلون ، وإلا فكيف الذي يقول للرسل : لا تخافوا
من الذين يقتلون الجسد ، يعمل بخلاف ما يقول ؟ أعني أنه لا يصح أن يوصى
خراصته بعدم خوف الموت ويخاف منه : فلم يكن قدومه على الموت بخوف أو
تحت اضطرار بل بإرادته مطوعاً . أما قوله : يا ابتاه إن استطاع أن يعبر على
هذه الكأس ، فهذه على نوعين أيضاً . الواحد كما قال يوحنا فم الذهب أنه قال
هذا ليخفي صر التدبير عن الشيطان لأن الشيطان لما سمعه يقول ، الذي عمله الآب
يعمله الإبن مثله ، وانا في الآب والآب في ، وانا والآب واحد ، خاف
منه وهرب عنه . وإذا قال سيدنا ، نفسي حزينة جداً حتى الموت يا أبي نجني من
هذه الساعة ، وقوله ، إن استطاع أن يحوز على هذه الكأس ، ظن الشيطان أنه
إنسان ساذج يخاف من الموت . ذلك أنه أخفى عنه سائر أحوال التدبير . والثاني
مثل ما قال كيرلس الينبوع الحلو : ، إذ هو لبس جسد آدم فن المعلوم صار كفيل
دين آدم ، وصلاته على نوعين : الأول لأجل تعليمنا والثاني قانون كان لأجل
خطية آدم . فلما أكل الصلاة لكي تجوز عنه الكأس توسل إلى الآب قائلاً :
يا أبي - آدم بمخالفته وصينك ورفضته ورفضت جنسه (ذريته) وأبعدتهم عنك .
والآن فن أجلى انا ابنك الذي لبست جسده وصرت آدم الثاني بالتدبير ، تجاوز
عن خطية آدم الإنسان الأول من أجلي انا الذي أطعك حتى الموت لاني انا

كفيله وكفيل ذريته ، وهذا هو معنى صلواته أن تجوز عنه الكأس . (١١)

نحوه هذا عصاها - زيد هنا زلا فيجوز . . .

وهنا يجدر بنا أن نقف قليلا لنتمسك في عمل الله العجيب خلال كنيسته

القبطية - فقد كانت تجتاز في ذلك العصر فترة حالكة من الناحيتين السياسية

والاجتماعية حتى لقد ترسخ في أذهان الكثيرين أن حللك الظلام الذي ختم

على مصر ختم على كنيسته مصر أيضا . ولما كنا إذا ما تمسنا في كتابة هذا

الأسقف وهما تركنا لنا هذا العصر من مخطوطات ، وإذا ما تأملنا في جهاد الآباء

المعاصرين له سطع وسط ظلمة القياسات العالمية نور روحاني أوضح لنا في جلاء

أن نعمة الله متى تجاوزت معها القلوب بددت كل ظلمة ، بل جعلت من الظلمة نورا .

وأمام هذه الحقيقة المذهلة ندرك أننا لن نستطيع بعد اليوم أن نقول أن الكنيسته

ماشت في عصر ذهبي ثم في عصور مظلمة . وكل ما نستطيعه هو الاقرار بأن

الكنيسته مرت في عصور من الضيق والظلم ولما كنا ظلمت خلالها مشرقة ، وأن

التاريخ الكنسي مجموعة من عصور ساطعة وعصور أكثر سطوعا حتى لنا أن

تردد مع النبي بأن كنيستنا خيمة لا تنتقل . لا تقلع أو تادها إلى الأبد . وشيء

من أطنابها لا ينقطع ، (١٢) ، ونسمع من خلال هذا التردد صوت كنيستنا

يتمسك : صراجه أضاء على راسي وبنوره سلكت الظلمة ، (١٣) .

نحوه هذا نلاحظه في كتابه لنعمة ربنا : . . .

مخطوطة رقم ١٧١ لاهوت محفوظة بالمكتبة الببوية بالقاهرة ، راجع أيضا

أقليم المنيا في العصر القبطي ، مقال لقمص ميصائيل بجر نقره في مجلة صوت الشهداء السنة

الراية العددان الثامن والتاسع (أغسطس وسبتمبر) سنة ١٩٦٢ من ٤٨ - ٥٦ .

(٢) أهباء ٢٣ : ٢٠ . (٣) أيوب ٢٩ : ٣ .

تعديات مضاعفة

١- أنبا يونس الصابع عشر

ولو كان هماً واحداً لاحتملته ولكن هماً وثانٍ وثالثاً

- | | |
|---------------------------------|----------------------------|
| ١٢٥ - قائد مستميت | ١٢٠ - ظلم مدلهم |
| ١٢٦ - ذود الراعي | ١٢١ - رسالة البابا المرادي |
| ١٢٧ - يوم من الفزع | ١٢٢ - سطو مخطط |
| ١٢٨ - الجنود خلف القائد | ١٢٣ - نظام الامتيازات |
| ١٢٩ - انتقال البابا إلى الفردوس | ١٢٤ - امان في الاغراء |

١٣٠ - الطيب أبو سالم

١٢٥ - وعاد الضيق يهشم على صدر مصر عامة والسكنية القبطية خاصة . فقد طرد المماليك الفتن والقلاقل ضد الترك الذين اعتبروهم أغراباً عن مصر ، حتى لكان المماليك أصبحوا مدسرين في خصوصتهم مع الأتراك على الرغم من أن الجميع استهدفوا مصالحهم الشخصية إلا أن مصالح المماليك كانت أقرب إلى مصلحة مصر من مصالح ولاية الباب العالي وقد اشتد هؤلاء الولاة في المطالبة بالاموال وضاعفوا طلباتهم . وبطبيعة الحال ضاعفوا الجور الذي لم تكن مفروضة إلا على غير المسلمين . ولم يكتبوا بمضاعفتها على الأغنياء بل ضاعفوها حتى على الفقراء . وامتدوا في تعسفهم إلى المقدمين كذلك فرضوها آنذاك على الأساقفة والسكنة والرهبان الذين كانوا معفيين من الضرائب . بل أقدموا من الجزية في فترات عديدة . ولكن في هذه الفترة لم يكن من القبط شخص واحد صانته كرامته من

تعديات الترك . وما زاد الطين بلة أن حياة الجور لم يكونوا عملاء الوالي المسلم

زمام الحكم في مصر ، بل كانوا جماعة معينين من السلطان لهذه المهمة بالذات

يحضرون لإستلام المال ويعودون به إلى الأستانة لساعتهم (١).

١٢١ - وعلى الرغم من هذا الضيق فقد نجح الاساقفة والاراضنة في الإلتقاء مع بعضهم البعض . وقد شاءت رحمة الله أن يجمعوا على راهب من دير القديس البار أنبا بولا اسمه عبد السيد . وكان هذا الراهب من أهالي ملوى ، ثم استجابات روحه لنداء الله فاندفع بقوة هذه الاستجابة إلى ترك أهل بيته والانضمام إلى مجمع رهبان الانبا أنطوني ثم اختاره الانبا يونس السادس عشر ضمن الاربعة الذين شاء لهم أن يعمروا دير الانبا بولا . فمضى بينهم بضعة سنين في تعبد وفي سعي روحى متواصل حتى أن الانبا بطرس السادس البه الاسكيم ورسمه قساً . لذلك اتجهت إليه الأنظار حين خلت السيدة المرقسية . وتمت رسامته في كنيسة الشهيد العظيم القديس مرقوريوس (أبى السيفين) بمصر العتيقة باسم يونس السابع عشر ، فأصبح البابا الاسكندري الخامس بعد المئة وكان ذلك بعد نياحة الانبا بطرس السادس بما يقرب من ستة شهور .

١٢٢ - وكان القلاقل السياسية بالاضافة إلى التعسف في جمع الجوالى لم تكن كافية إذ قد انضم إليها الكاثوليك ا فقد وجدوا في اختلال الميزان الفرصة المواتية لمعاودة تعديهم على الكنيسة المريقة التي ظلت منذ ان أسسها مار مرقس كنييسة مصرية صميمة ارتبط مصيرها بمصير هذا الوادى الذى كان وما زال مطمناً للطامعين . وحين عقد الكاثوليك النية على معاودة التعدى رأى اكليمينضس الثانى عشر الحبر الرومانى آنذاك أن يضع خطة محكمة قبل البدء فيه كي لا يطيش سهمه كما طاشت

(١) يصف القمص شنودة الصوامى البرموتى هؤلاء الناس كما يلى : « وقبضوا الجوالى من الآباء الأساقفة والرهبان والقسوس ولم بكرموا أحداً . وكان المبتون لقبض ذلك جماعة بشتلية يحضرون كل سنة من الروم من طرف السلطنة الشريفة . . . » راجع مخطوطة من تاريخ البطاركة ج ٢ ص ٥١٢ .

سهام سابقه . فألف في الفاتيكان ما يعرف بالمجمع للدعاية ، (١) - وهذا هو في حقيقة الامر مدرسة لقن فيها الطلبة وسائل الدعاية والاعلام إلى جانب دراساتهم اللاهوتية . ثم بعث بخريجي هذا المجمع ، إلى أسبوط وأبوتيج وصدفا وأخيم وجرجا والاقصر وحتى إلى النوبة في آن واحد (٢) . وقبل مغادرتهم روما صدرت إليهم التعليمات بالبحث عن الصبية القبط الاذكيا وادخالهم في المدارس الكاثوليكية التي بدأت تفتح في مختلف هذه المدن تمهيداً لارسالهم إلى رومانية لدراسات عليا وبالطبع كانت الاموال التي رصدت لهذا المشروع طائلة .

١٢٢ - ولم يكن القبط آنذاك يرزحون تحت عبء الضرائب والجواري ووسائل البطش لا يترازها فقط ، بل كان الأجانب الذين يقدون على بلادنا يعيشون تحت النظام المعروف بنظام الامتيازات . ومعنى هذا النظام أن الاجنبي يعيش في بلادنا متنعماً بحرية عجيبة ا فلا يدفع ضريبة للحكومة المحلية حتى إن

(1) Congrégation de la Propagande.

(٢) تاريخ التعليم الأجنبي في مصر لجرجس سلامة ص ٤٤ ، حيث يقول بأن الفرنسيين كانوا أول من فتح المدارس الأجنبية في بلادنا ، كما أنهم هم الذين « هبوا لتباني الارسابات الأجنبية الأخرى التي وفدت إلى مصر سبيل الحضور والبقاء في بداية حضورهم ، وهم الذين كانوا يستقبلونهم » فهم بهذا العمل كانوا القوة التي مكنت مختلف الجماعات الأجنبية من «نأب علينا . ولا يتبادر إلى الذهن أن كلمة « نأب » هي افتئات على الخدمات التي قام بها هؤلاء الأجانب في نشر التعليم لأنهم لو كانوا يستهدفون الخدمة لوجه الله لاستحقوا منا كل شكر وتقدير . ولاكنهم مع الأسف جعلوا من العلم ومن الخدمة الاجتماعية وسائل لفت في عضد الكنيسة القبطية . فاستعانوا بوسائل الحبر للوصول إلى هدف مؤد . وفي الواقع أنهم هم أنفسهم يشهدون بهذه الحقيقة إذ يقول هنري ديهيران في كتابه « مصر التركية » ما ترجمت من ١٩٧ « لقد تعاون رهبان الطابوسين والجزويت على العمل في مصر . وكان هدف الأب سيكار (الجزويتي) أساساً هو تبشير القبط » . وإليك نص قوله :

“ Les Capucins eurent l’Égypte pour domaine d’action ...
Concurremment avec les Capucins”, les Jesuites s’établirent en
Égypte ... Le zèle déployé par le Père Sicard avait surtout
pour objet l’évangélisation des Coptes ” .

اكتسب الآلاف من الجنيتات في هذه الأرض الطيبة . ولا هو يخضع للمحاكم المحلية حتى إن اقترف جريمة القتل في رابعة النهار ! فهو يستغل الأرض وأهلها بل وحكومتها أيضاً دون أى التزام من جانبه نحو هذا البلد وأهله (١) . فكان موقف هؤلاء القوم موقف الانسان الغنى الحر الطليق الغير مقيد بقانون ولا مسئولية أمام المصرى الفقير المكبل بالقيود . والقبطى إذ ذاك لم يكن مكبلاً بقيود موطنه بالإضافة إلى القيود الضاغطة عليه بصفته الشخصية . والى تكمل الصورة يجب أن نذكر أن الكاثوليكى الطليق المستغل لمواردنا كان في الوقت عينه يحد المال المتدفق عليه من الخارج ، والهدف الاوحد امامه هو اقتناص أكبر عدد ممكن من اولاد الكنيسة القبطية ، وفي الوقت عينه كان القبطى مضطراً إلى دفع أمواله للوالى والدماليك واعملائهم .

١٢٤ - وقد نجح بعض المبشرين في استمالة عدد من الشباب الذين درسوا في مدارسهم فمرضوا عليهم السفر إلى رومية بالأسلوب التالى : « أتريد يا ابنى العزيز أن تذهب إلى رومية وتلتحق بكلية أوربان التى للدعاية حيث يتكون الرسل للعالم

(١) كانت هذه الامتيازات نتيجة لمعاهدات أبرمها السلاطين العثمانيون مع مختلف البلاد الأوربية . وأولى هذه المعاهدات انعقدت مع فرنسا سنة ١٥٣٦ م ، وكانت إذ ذاك تنهى بموت السلطان الذى أبرمها . فظل السلاطين المتعاقبون يتحونها : كل بدوره . وامتدت لتشمل كل الدول الاوربية حتى اليونان ثم الولايات المتحدة . على أن المعاهدة التى أبرمت مع فرنسا سنة ١٧٤٠ م أصبحت شاملة مستمرة ممتدة من سلطان إلى سلطان . وقد نص فيها على أنه لا يمكن ادخال أى تعديل عليها إلا برضى فرنسا . وهذه المعاهدة التى اكتسبت صفة «الدوام» امتدت بدورها من فرنسا إلى غيرها من الدول المنتعة بالامتيازات فأصبحت كل دولة أوربية والولايات المتحدة تؤلف في كل طرف من أطراف الامبراطورية العثمانية «حكومتها داخل حكومة» . واستمرت الامتيازات معمولاً بها إلى سنة ١٩٢٦ ! - راجع دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة ج ٤ ص ٨١٢ .

أجمع ١١٤، وأول من نجحوا في اصطياذه شاب اسمه روفائيل الطوخي علوه في مصر ثم أرسلوه إلى رومية حيث استكمل دراساته، وبعدها رسموه أسقفاً على أرسينو (الفيوم حالياً). ولاكن الحبر الروماني لم يلبث أن أرسل في طلبه. فعاد إلى رومية حيث قضى بقية حياته. وخلال إقامته هناك اشتغل بطبع كتب الصلوات القبطية مع إجراء التفسيرات اللازمة لجعلها تتفق والعقيدة الكاثوليكية.

ثم نجحوا بعد ذلك في إرسال إثنى عشر شاباً قبطياً إلى رومية استقبلهم روفائيل الطوخي وكان ضمن أساتذتهم. وهكذا استطاع الكاثوليك - ابتداء من النصف الثاني من القرن الثامن عشر - أن يجتذبوا عدداً من الشباب القبطي، ومن خلالهم بعض عائلاتهم إلى الكنيسة الكاثوليكية الغربية عن مصر عقيدة وقومية.

ولم يكن تباعد هؤلاء القبط عن الكنيسة التي زاد عنها آباؤهم بالمأساة الوحيدة، بل لقد تضاعفت بما دبت من النفور بين أفراد العائلة وما قام بين العائلات من التشاحن والانقسام بسبب الزواج والتركات. وحسباً لسكل هذه البلبلة لم يجد الكتبة القبط بدأ من الشكوى إلى الأمراء الذين يشتغلون في دواوينهم. فاشتكوا من سوء تصرف الكهنة اللاتين ومن تعديهم على حقوق البابا المرفس. وقد أدت هذه الشكوى إلى انعقاد جلسة بالمحكمة الشرعية العليا حضرها الأنبا يونس السابع عشر وقسوس اللاتين وبعد الاستماع إلى أقوال الطرفين تقرر أن لبطريك

(١) وهذا نصها الفرنسي كما أورده جورج مفار الكاثوليكي في كتابه « تاريخ كنيسة

الاسكندرية » ص ٣٢٧ :

“ Veux tu, mon cher enfant, aller à Rome au Collège Urbain de la Propagande où se forment des Apotres pour l' univers entiers ? ”.

ومن الواضح أنه تعبير يحمل الكثير من الإغراء في طياته.

الاقباط الحق في استعمال سلطته على ابناءه والتصرف فيهم بما توجهه قواينسه
المرعية ، كما تقرر عدم التعرض له ولا التعدي على حقوقه . وتحررت بذلك حجة
من المحكمة الشرعية تسليها البابا الاسكندري هذا نصها :

و صورة حجة شرعية صادرة من المحكمة الكبرى بمصر المحمية بتاريخ غرة
محرم سنة ١١٥١ هـ هو أنه بمصر المحروسة لدى سيدنا ومولانا ... الامير ابراهيم
بك الدفتردار بمصر المحروسة حالا (وهنا قائمة بأسماء الامراء الذين انعقدت بهم
الجلسة) - بعد أن رفع كل من المعلم رزق الله والذئ ابراهيم بدرى النصراني
اليقوبى بمخدمة ميرالو الامير ابراهيم بك الدفتردار بمصر المحروسة حالا (يلي
ذلك أسماء الاقباط الارثوذكس الذين رفعوا الشكوى من جور المرسلين
الكاثوايك و عددهم أربعة وعشرون شخصا) وغيرهم من النصارى اليعاقة القبطية
والقسيسين والرهبان يشكون من أن جماعة من النصارى اليعاقة القبطية مخالفون
لملتهم وبطريركهم والقسيسين والرهبان ، وأن المخالفين المرقومين يريدون الذهاب
إلى الافرنج الغير القبطيين ليدخلوا في ملتهم لعدم دفع الجزية . وأن المعلم يوحنا
بطريرك النصارى اليعاقة القبطية ينهى الجماعة القبطيين المرقومين عن ذلك مراراً
فلم ينتهوا ولم يسمعوا لقوله . وان القساون المتعارف بينهم أن كل من خالف
كلام بطريركهم يكون مفسوباً عليه ويلزم الادب اللائق بحاله . وان حصل
التوافق والتراضى بين طائفة النصارى اليعاقة القبطية المرقومين وكبيرهم أن كل
من خالف ملته وكان قبطياً وانتقل من ملة القبطيين إلى ملة الافرنج وثبت ذلك
عليه بالوجه الشرعى يسكون على الامراء المناجقة وأغوات البلكات وكتحذا
البلكات واختياراتهم الخروج من عهدة من ينتقل من النصارى اليعاقة القبطية
المرقومين إلى ملة الافرنج الخروج من حقه وتأديبه بما يليق بحالة زجر له ولا مثاله
باعتراف كل من طائفة النصارى اليعاقة القبطية المرقومين الاعتراف المرعى

كما التوافق والراضى المرعيين ولما تم الحال على هذا المنوال كتب هذا ضبطاً
للوامع ليراجع به عند الاحتياج إليه والاحتجاج به وعلى ماجرى وقع التحرير.
في غرة محرم الحرام افتتاح سنة احدى وخمسين ومائة و ألف .

محمد عبد الرازق

محمد علي حنفي

علي عبد النبي

محمد فواكه

محمد خلافة

حسن علي أحمد (١)

ومن عجب أن مرت بين الناس آنذاك شائعات بأن القيامة ستقوم . فأثرت
هذه الشائعات عليهم تأثيراً متبايناً : فالبعض لجأ إلى الصوم والصلاة واسترحام
الله ، بينما خرج البعض الآخر إلى المنتزهات والحقول مرددين لبعضهم البعض
« دعونا نعمل حظ ونودع الدنيا قبل أن تقوم القيامة » . والاعجب من هذا أن
مصدق تلك الشائعات أرادوا أن يدعموا تصديقهم بارتكابهم إلى أن هذا وقاله...
فلان القبطي وهو من يعرفون في الجفور والزائرات ولا يكذبون في شيء (٢) .
وقد أخبر فلان منهم على خروج الريح الذي خرج في يوم كذا... وكثر فيهم
الهرج والمرج... ومثل هذا من الهذيانات .

١٢٥ - وما يجب ذكره بالاعتزاز أن الانبا يونس السابع عشر جاهد

جهاد الأبطال ليحفظ أولاده داخل حظيرة أمهم القبطية الأرثوذكسية . فلم يتفقد
شعبه بزياراته ورسائله فقط بل وضع عدداً من الكتب دفاعاً عن العقيدة
الأرثوذكسية . فكان قائداً خاض المعركة بنفسه ووقف فيها في الصف الأول (٣) .

(١) منى القمص : « تاريخ الكنيسة القبطية من ٦٢٣ - ٦٢٦ » ، وهذا أيضاً دليل

على بقية المسئولين في الكنيسة القبطية وعلى سميتهم بمختلف الوسائل إلى الدود من رعيتهم
رغم جبروت القوى المتعدية عليهم ، كامل صالح نخلة - الحلقة الخامسة من ٢٣ - ٢٤ .

(٢) عجائب الآثار . ج ١ ص ١٤٧ - ومما تجدر ملاحظته أن الجبرتي شهد أن القبط

ذوو معرفة بالموضوعات الروحانية وأنهم لا يكذبون في شيء .

(٣) موجز... ج ٢ ص ٨٥ .

صحيح أنه لم ينتصر انتصاراً حاسماً ، ولكن -
على المرء أن يسمي إلى الخير جهده وليس عليه أن تتم المقاصد
فهو قد جاهد الجهاد الحسن طيلة أيام بابويته . فإن تذكرنا أنه كان مكبلاً بالقيود
المفروضة عليه من الولاة المشائين ، وإن تذكرنا أنه عاش في فترة كلها قلاقل
سياسية حتى لقد تبدل عليه ثلاثة من الولاة غير الذين فروا هاربين خوفاً على
حياتهم ، وإن تذكرنا أن الشعب القبطي آنذاك عانى الفقر والتعسف - إن تذكرنا
هذا كله أدركنا عنف الجهاد الذي جاهدته الأنبا يوحنا السابع عشر ، وأدركنا
أنه جدير بالوقوف إلى جانب أسلافه العظام من باباوات الاسكندرية الذين
قضوا حياتهم في الذود عن العقيدة الارثوذكسية . فكانت كنيسةنا القبطية
آنذاك شبيهة بسيدها وربها يوم أن قال لرسله : « هوذا يد الذي يسلمني هي معي
على المائة » . ولو أنها لم تتشبه به تعالى في هذا الموقف فقط ، بل طالما
تشبهت به خلال الأجيال في تقبلها الاضطهادات وفي مواجعتها لصنوف المخن وفي
بقائها ثم في انتظارها على كل هذه الظروف والملاسات في النهاية .

١٢٦ - ومن الأدلة على عناية هذا البابا بنشر التعاليم الارثوذكسية أنه توجد
مخطوطة مكتوبة بعناية الدقة ، يحيط بكل صفحة منها إطار من اللون الاحمر وتزين
صفحتها الاولى بزخارف متنوعة وهي تتضمن :

١ - مزامير الاجبية تتبعها توسلات مار أفرام السرياني . ٢ - تجميعات
الارقام القبطية والعربية وتوجيهات وجداول لتسهيل تحويل التاريخ القبطي
إلى العربي . ٣ - موضوعات مختلفة جديدة بتزيين الذاكرة كالوصايا العشر
والاسرار السبعة والنصائح الإيجيلية وأعمال الرحمة . ٤ - توضيح العقيدة المسيحية
والصلاة الربية (١) .

(١) لوقا ٢٢ : ٢١ . (٢) مخطوطة ١٠٣ (١٥٦ أدب) محفوظة بمكتبة المتحف القبطي .

ومن عجب أنه توجد مخطوطة أثيوبية بالمتحف البريطاني مجلدة بمجلد مضبوط
ومكتوبة بخط كبير متناسق عشر عليها في المجلد وتضمن - إلى جانب الصلوات -
بعض المراثي : د سلوة وعزالمن كان حزين القلب ، وعلى ورقة ١٧٢ ب
مذكرة مستفيضة تقول ان الكتاب قد أنفق عليه السكاهن مكرم الله لكنيسة،
التي هي كنيسة السيدة العذراء بحارة الروم . وتكرر سرد هذا الواقع عدة
مرات ، وإلى جانب كل من هذا السرد ختم واسم الحقيير اثناسيوس أسقف
الكرسي الأورشليمي . وعلى الورقة ٢٣٩ تبدأ صلوة أثيوبية . وقد تمت كتابة
هذه المخطوطة سنة ١٤٤٢ ش (١٧٢٦ م) (١) .

وهناك مخطوطة جاء في آخرها ان ناسخها انتهى من كتابتها في ١١ مسرى
سنة ١٤٥٢ ش (١٦ / ٨ / ١٧٢٦ م) . تتضمن ميمراً عن القديس سراباقون
أسقف نيقبوس كتبه البابا الكسندروس الاسكندري بناء على طلب الكنيهة
والشعب وقراء في كنيسة كانت تعرف باسم «قاورا» حيث تجتمع جمهور كبير
من الناس لساعه (٢) .

وإنما لنجد عناية خاصة بالتوجيهات الروحية المؤدية إلى بنيان المؤمن كما
يتضح من مخطوطة لا تحمل اسم كاتبها وإنما جاء في آخرها أنها تمت في ٢٦ يونيو
سنة ١٤٤٧ ش ، وعنوانها هو : «كتاب في الحكمة الروحانية والآثار
للشريعة والتعاليم الحسنة والإنظام المميد والمواظظ النافعة وإقامة الدين الصحيح
من قول سادتنا معلمي البيعة الأرثوذكسية» (٣) . وإلى جانب المخطوطات المتضمنة للصلوات والتعاليم توجد مخطوطة تحتوي

(١) سجل المخطوطات القبطية بالمتحف البريطاني ص ٢٥٥ مخطوطة ٨٤٦ (عن النسخة

المحفوطة بالمتحف المصري ببولين الغربية) . (٢) مخطوطة ٨٠١ (٣) مخطوطة ٤٣٠ (رقم ٤٠٧)

(٢) مخطوطة ٢٧ - ١٠ أدب - محفوظة بمكتبة المتحف القبطي . (٣) مخطوطة ٤٣٠ (رقم ٤٠٧)

(٣) مخطوطة ٤٣٠ (رقم ٤٠٧) محفوظة بالمكتبة البابوية بالقاهرة . (٤)

على ستة وخمسين درساً عن سفر التكوين . والنص الذي ارتكن إليه كاتب هذه
الدروس هو نص الترجمة التي قام بها سعيد الفيومي (من القبطية إلى العربية) " ^(١)
ومرة أخرى لا نعرف من هو واضع هذه الدروس ولا من هو فاسخها ،
أما المترجم لنص القبطي فلا نعرف غير اسمه . فإكثر الجنود المجهولين الذين
انتظموا في سلسلة خدام الكنيسة ، وما أعظم ما بذلوا من جهود في سبيل
الاحتفاظ بالعقيدة خالصة في صفاتها الأولى .

وهناك مخطوطة أخرى كتبها نصر الله فرج الله فينان الطوخي تشمل على
عدة موضوعات مكتوبة على شكل سؤال وجواب ، يبين فيها المعلم ما يجب عمله
لتنخلص النفس من الخطية . والتفسيرات الواردة مأخوذة كلها من الكتاب
المقدس . وهذا الكتاب مطابق لما جاء في كتاب المعلم والتلميذ ، الذي وضعه
أبا كيرلس الثالث ^(٢) .

١٢٧ - ومن عجب أن الطبيعة أيضاً ساهمت في إزعاج المصريين ، فقد حدث
في يوم من أيام الخميس (سنة ١٧٣٥ م) أن غامت الدنيا واصفرت السماء إلى حد
جعل الناس يزعمون أن القيامة ستقوم . وملاهم هذا الزعم خوفاً فتركوا القاهرة
ولجأوا إلى الريف آمليين أن يجدوا في رحابته شيئاً من الوقاية . وودّع كل منهم
أهله وأصحابه ، واندفع يمشي ويضرع . ومر يوم الجمعة كما تمر الأيام . وإذا بهم
يرون الشمس تشرق يوم السبت ، فعاد النارئون وهم ينكتون على ما أصابهم من
ذعر وما اكتنفهم من غباء ^(٣) .

(١) مخطوطة ١٠٨ (١٩٣ لاهوت) محفوظة بمكتبة المتحف القبطي .

(٢) مخطوطة ١٢٣ (٢٠٩ لاهوت) محفوظة بمكتبة المتحف القبطي .

(٣) جيمس ألدريدج . ص ١٠٠ . ١٣٩ .

ثم حدث مساء عيد القيامة سنة ١٧٢٨ أن شب حريق في كنيسة السيدة العذراء بحارة الروم ، وفي صباح الاثنين (شم النسيم) شاع خبر هذا الحريق . فركب الوالي وجنوده خيولهم وذهبوا لمعاينة المكان . ثم أحضروا السقاين والفعلة ليطفئوها إلى أن نجحوا في ذلك ولقد احترق الشيء الكثير منها ومن محتوياتها . كما أن الحريق هيا الفرصة للرعاع لكي ينهبوا ما يستطيعون وضع اليد عليه (١) .

١٢٨ - ومن نعمة الله أن الولاة وكبار المسلمين آنذاك قد جعلوا القبط

موضع ثقتهم إلى حد أنهم سلموهم لإدارة مصالحهم والإشراف على حساباتهم ، وخلال التعامل المتبادل بينهم توثقت الرابطة الوطنية التي تجمعهم . فآلس المسلمون إلى إخوانهم القبط وأودعوا أسرارهم واعتادوا أن يستفيروهم في بعض أمورهم الهامة (٢) . ولقد استجاب القبط لهذه الثقة فبرز منهم عدد من الأراخنة مخلصين بحبة مسيحية خادمين وطنهم وكنيستهم معاً . ومن هؤلاء الأراخنة : المعلم جرجس السروجي الذي أنفق من ماله الخاص على بناء بيعة في دير الأنبا بولا وصحب الأنبا بطرس ومن ذهب معه إلى الدير لتكريس الكنيسة ولرسامة القسوس والشمامسة (٣) ، ثم المعلم نيروز والمعلم رزق الله البدوي والمعلم بانوب الزفتاوي الذين قيل عنهم في المخطوطات إنهم كانوا يشترون الفقراء مشراوى من حبس الجوال ويخلصونهم (٤) ، فأدوا مسئوليتهم في صمت عملاً بقول رب المجد متى صنعت صدقة فلا تصوت قدامك بالبوق . . . (٥) وثمة أراخنة آخر عاش في هذه الحقبة هو المعلم لطفی الطروني ، وكان تاجراً لشطراً راجحاً استطاع أن يقتني ثروة

(١) عجائب الآثار . . . ص ٢٠٠ ص ٢٢٦ .

(٢) كامل صالح نخلة : سلسلة . . الخاتمة ص ٢٢ . ٧٥١ ص ١٠٠ . . .

(٣) شرحه ص ١٨ . . .

(٤) تاريخ البطارقة لشنودة الصوامس البرموسى (مخطوط) ص ٢٠ ص ١٣٠ .

(٥) متى ٦ : ٢٠ . . .

كبيرة . وحدث أنه فقد بصره . وفي ذات ليلة هجم على داره رجلان من جند الملك محمد بك جر كس وقتلاه . وكان معهم أربعة آخرون انتظروا عند الباب . فلما عرفوا أن زميلهم قد قضيأ على المعلم لطنى دخلوا البيت ونهبوا كل ما فيه (١) .
والحق أننا حين نتمعن في سيرة الانبا يونس السابع عشر وفيمن خدموا تحت رعايته يتردد في أسماعنا قول الشاعر :

لا نخدم الهمة الكبرى جوازها
سيان من غلب الايام او غلبا
وكل سعى سيجزى الله ساعته
هيئات يذهب سعى المحسنين هبا (٢)
وم في هذا الجهاد الشاق الذي باء بالفشل شبيهون بالانبا ديسقورس البابا الاسكندري الخامس والعشرين الذي صمد كالطود الراسخ في وجه تكاتلات الحاقيدونيين وانتهى به الأمر إلى النفي (٣) . على أن التاريخ الممتد من مار مرقس إلى اليوم قد أثبت لنا المرة تلو المرة أن الله لا ينسى تعب المحبة .

١٢٩ - وبعد الجهاد العنيف في سبيل عقيدة الآباء والاجداد ، وبعد الصمود المستميت في وجه الضيق والبطش دخل الانبا يونس السابع عشر إلى فرج سيده . وقد قاد دفة الكنيسة خلال ثمانى عشرة سنة وثلاثة شهور .

١٣٠ - وفي فترة من هذه الفترات المليئة بالفتن والقلاقل عاش طيب اسمه أبو سالم النصراني اليمقوبى الملقب يوصف بأنه وكان قليل العلم بالطب إلا أنه كان أملا لمجالسة السلطان لفصاحة لجهته في اللسان الرومى ومعرفته بسير الناس وسير السلاطين (٤) .

(١) حجاب ... ١٥ ص ١٤٧ . ٢٦٠ . قلت : قلت في اوله (٢)
(٢) من قصيدة « مفروع ٢٨ فبراير » لأمير الشعراء - الشوقيات ١٥ ص ٦٨ ،
(٣) الفصل الاول من ٢٥ من هذا الكتاب .
(٤) « معجم الاطباء » للدكتور أحمد عيسى بك ص ٩١ .

ب - أنبا مرقس السابع

١٣١ - البابا الجديد

١٣٤ - جهود مستمرة

١٣٢ - فتنة لسكون

١٣٥ - الراحة الكبرى

١٣٣ - أول اسلاف كاثوليكي

١٣٦ - اكرم الدين بكر مونتس^(١)

١٣٧ - كبير مطارنة الصعيد

١٣١ - لم ينقض غير شهر واحد وأحد عشر يوماً على نياحة البابا المرقس

حين قام الأساقفة بشعائر الرسامة الرائعة التي جعلت من الراهب سمعان الأنبا مرقس السابع - البابا المئة والسادس في سلسلة الباباوات الإسكندرانيين .

وكان هذا البابا من بلدة قلوصنا في منطقة البهنسا ، استهوته الحياة الرهبانية

منذ شبابه الأول فقصده إلى دير الأنبا بولا حيث لبس الإسكيم المقدس . وظل

سنوات يتردد ما بين هذا الدير ودير الأنبا أنطوني . إلا أنه استقر في النهاية في

دير أول المتوحدين حيث رسم قساً بيد الأنبا يونس السابع عشر نفسه . فلما تبيح

هذا البابا اتفقت القلوب على اختيار الراهب القس سمعان الذي تميز بالرحمة وعضوبة

الصوت وفصاحة المنطق^(٢) . فكان هذا الاتفاق سبباً في عدم بقاء السدة المرقسية

شاغراً أكثر من الواحد والأربعين يوماً .

١٣٢ - وكان السلام سائداً ، وظل سائداً سنتين بعد رسامة البابا مرقس .

فكانت فترة هانئة - رغم قصرها - سعد فيها الشعب بباباه والتي السكل في صفاء

روحي . ولكن السلام لم يلبث أن تبدد بسبب فتنة قامت بين العسكر . وقد

بلغت هذه الفتنة حداً اضطر معه عدد كبير من المماليك إلى اللجوء إلى الصعيد

حيث أقاموا ثمانية شهور انتهت بعدها الفتنة . فعاد الأمراء مرة أخرى إلى القاهرة .

(١) انظر (٢) ص ٢٠٠

(١) ١ صموئيل ٢ : ٢٠ .

(٢) انظر (٢) ص ٢٠٠

(٢) البرموسي ج ٢ : الجدول في آخره .

١٢٣ - وما كاد المصريون يتنسمون عبير الهدوء حتى بادر الكاثوليك برسم أول أسقف على الشعب القبطي الكاثوليكي ، في ٤ أغسطس سنة ١٧٤١ م . ومن السخرية بمكان أن هذا الأسقف الذي خرج على عقيدة الكنيسة القبطية الأرثوذكسية قد أطلق عليه اسم أثناسيوس ، وقد ظل هذا الأسقف مقيماً في اورشليم ، وأقام له نائباً تاماً لكل مصر اسمه يسعاس المراغي (١) . وقد جاءت رسالة هذا الأسقف الكاثوليكي في أعقاب نزاع عنيف بين الروم واللاتين حول المقادس في اورشليم سنة ١٧٤١ . وكانت فرنسا حامية اللاتين بينما دافعت روسيا عن الأرثوذكس . على أن النزاع في الأراضي المقدسة انتهى بانتصار الأرثوذكس لتأييد الباب العالي لهم (٢) .

١٢٤ - ولقد بذل المسئولون عن الكنيسة القبطية جهوداً كبيرة تبدو لمحات منها في ما تبقى من مخطوطات : كالمخطوطة المحفوظة لنا من غير اسم كاتبها ، وعنوانها كتاب تزهة النفس ومزيل الخطايا والنكوح . وينقسم إلى سبعة فصول : (١) المعمودية ، (٢) شروط الاعتراف والتوبة ومعها تفسير مفصل لوصايا الله ، (٣) تطهير القلب ، (٤) التوبة والصوم والصلاة ، (٥) فائدة حضور القديس ، (٦) الموت والقيامة ونهاية العالم ، (٧) الجحيم وعذاباته (٣) .

ومما يجدر ذكره أن بالمتحف البريطاني مخطوطة مجلدة مكتوبة في نهرين : قبطي - عربي . والأوراق من ص ١ - ١١٣ . تتضمن القراءات التي تقال عن المرأة بعد أن تلد ابناً وهي : عبرانيين ٨: ١ - ١٢ ، مزمو ١: ٣١ ، لوقا ٢: ٢١ - ٣٥ ، ومن ١٣ ب إلى ٢٤ ب القراءات التي تقال عنها بعد أن تلد بنتاً وهي :

(١) جورج مقار ص ٣٤٤ .

(٢) ديمتري وزق ص ٤٩ .

(٣) مخطوطة رقم ٣٤٢ (٤١٠) محفوظة بمكتبة المتحف القبطي .

١ كورنثوس ٨ : ١٢ - ١٤ ، مزمور ٤٤ : ٩ ، لوقا ١٠ : ٢٨ - ٤٥ ، ومن
٢٤ ب إلى ٢٨ ب صلاة من أجل الموعوظين . تلى ذلك لحنوة . ومن ٥٦ ب إلى
١١١ ب صلوات الصبغة المقدسة (المعمودية) وقراءاتها وهي : تيطس ٢ : ١١ -
٣ - ٧ ، يوحنا ٥ : ٥ - ١٤ ، أعمال ٨ : ٢٦ - ٢٩ ، مزمور ٢١ : ١ - ٢ ،
يوحنا ٣ : ١ - ٢٢ ، من ١١٢ ب إلى آخر الكتاب صلوات تكريس أواني
المدبح . وقد ورد تاريخ الانتهاء من كتابة هذه المخطوطة على ورقة ١١١ ب وهو
سنة ١٤٦٤ ش (سنة ١٧٤٨ م) وهي موقوفة على كنيسة الشهيد العظيم مار جرجس
بأعلى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة (١) .

وإلى جانبها مخطوطة طريفة للغاية إذ تقع تحت عنوان : مجلس لطيف ،
بين عبد عيسو مطران لسطوري (٢) وأبو قررة أسقف ملكاني وأبو رياطة أرخن
يعقوب (٣) وقد اجتمع هذا المجلس اللطيف ، تحت أنظار وزير من وزراء
هذا العهد (لم يذكر اسمه) . ولا نعرف ماذا كانت نتيجة هذه المناقشات التي
دارت بين ثلاثة ينتمى كل منهم إلى عقيدة مغايرة لعقيدة الآخر . لأن الجزء الأخير
من المخطوطة غير موجود ، ولكن تاريخها موضوع عليها وهو ١٧ توت سنة
١٤٥٤ ش (١٧٣٧ / ٩ / ٢٥) (٤) .

كذلك يتضح لنا من سجل المخطوطات بالمكتبة البابوية بالقاهرة أن سيرة
الشهيد صليب التي وردت في الكتاب الثالث من قصة الكنيسة القبطية قد دوت

(١) سجل المخطوطات القبطية بالمتحف البريطاني ص ٢٥٣ ، مخطوطة ٨٤١ .

(٢) نسبة إلى لسطور الذي فرق بين طيمني السيد المسيح .

(٣) أطلق القبط هذه التسمية على أنصار مجمع خلقيدون فردوا عليهم بتسميتهم « ياقبة »

— أنظر الفصل الأول من ج ٢ لهذا الكتاب .

(٤) مخطوطة ٤٨٧ (رقم ٨١٨) بالمكتبة البابوية بالقاهرة .

في سنة ١٧٢٧ أيضاً إذ توجد المخطوطة التي تروى لنا جهاده واستشهاده وعليها تاريخ ١٧ و ١٧ طوبه سنة ١٤٥٢ ش .

وبالمتحف البريطاني أيضاً مخطوطة في نهرين : قبلي - عربي ، بعض حروفها الكبيرة مكتوبة بالأحمر أو الأصفر أو الأخضر ، كما أن بعض صفحاتها مزخرف . وهي تتضمن الصلوات الخاصة بتقديس الزيت (المسحة) وثلاث أوامير : اولها لمن طلب الصلاة من أجله ، وثانيها من أجل الملوك الحاكين ، وثالثها من أجل المرهوظين . وفي آخر صفحة منها اسم كاتبها - صليب ، وتاريخ الانتهاء منها وهو سنة ١٤٥٩ ش .^(١)

وهذه الومضات الخاطفة تمكنتنا من أن نلمح صورة الجهاد الذي جاهدوه ، وأن ندرك أنهم على الرغم من قيودهم ومن امتيازات خصومهم حاولوا قدر استطاعتهم أن يدروا عن كنيستهم الخطر الذي يتهددها .

وبالإضافة إلى هذه الومضات كانت هناك جهود أخرى متوازية لها : فنجد ستائر لتغطية المذابح وأبواب الهياكل لها جمالها و متبقية عن هذه الفترة من بينها ستارة مزيج كتب عليها ما يلي : أعددت مائدة قبالة أعدائي دهنت بالدهن وأصي وكأسك أسكرني كالأصرف . رحمتك وطيبك يطلباني طول أيام حياتي . . وتحتها هذه الكلمات : برسم بيعة ماري مينا العجايبي بمصر القديمة . اذكر يارب عبدك المهم المعلم عوض وزوجته في أروشليم السماوية . سنة ١٤٦١ للشهداء . . وشمعة ستر آخر شبيهة بسابقه في زخرفته وفيها عليه من آيات وفي أسفله هذه الكلمات :

برسم كنيسة مار مينا العجايبي بقم الخليج . اذكر يارب عبدك المهم المعلم أنطوني مشرق في ملاكوتك . سنة ١٤٧٦ للشهداء .^(٢) .

(١) سجل . . . ص ٢٦٠ مخطوطة ٨٥٧ .

(٢) مرشد المتحف القبلي لوديع شنودة ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

١٢٥ - وقد دامت بابوية الانبا مرقس السابع أربعاً وعشرين سنة قاسى خلالها الكثير من الأهوال وصمد في صمود سلفائه الاماجد . تنيح بسلام وهو في كنيسة السيدة العذراء بالعدوية . وكان يوم نياحته الخميس الموافق الثاني عشر من شهر بشنس المبارك . فكان يومذاك تذكار رئيس جند السمايين الملك ميخائيل ، كما كان في الوقت عينه عيد استشهاد القديسة الست دميانة . وقد ظهر ساعة نياحته القديسان المضيئان انبا بولا وانبا أنطوني .

١٢٦ - وأن هذا الراعي الصالح حين علم بالروح عن قرب انتقاله إلى مساكن النور استدعى الأنبا بطرس مطران جرجا وهو كبير مطارنة الوجه القبلي والتكهنه على رعاية الشعب إلى أن يتم اختيار البابا المرقسي التالي . فكان ساهراً على شجبه حتى النفس الأخير ، حريصاً على سلامته حتى بعد النفس الأخير . ولقد تجاوبت القلوب مع هذه الرعاية الآمنة فقل الأراخنة جثمان بابام الظاهر من كنيسته السيدة العذراء بالعدوية إلى كنيسة مار جرجس بيايلون (مصر الفتية) ، وأضجعوه تحت أيقونة الشهيد العظيم بدير الراهبات الملحق بهذه الكنيسة ، حيث قضوا الليل كله إلى جواره وهم يرددون الصلوات والمزامير والبشائر . وفي صبيحة الجمعة تجتمع الأساقفة والكهنة وجمهور الأراخنة والمعلمين والشعب ، وألقوا موكباً رائعاً حول بابام الراحل ، وساروا به إلى كنيسة الشهيد العظيم القديس مرقوريوس (أبي السيفين) حيث أقاموا الصلوات الجنائزية الخاصة بتلك المناسبة الرهيبة ودفنوه إلى جوار أسلافه .

وَمَا تَجْدُرُ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ أَنْ يَوْمَ رَسَامَةِ الْآبَا مَرْكُسِ السَّابِعِ كَانَ عِيدَ تَذْكَارِ دُخُولِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ أَرْضَ مِصْرَ ، فَهُوَ وَالْحَالَةَ هَذِهِ قَدْ تَسَلَّمَ مَسْئُولِيَّةَ الرِّعَايَةِ الْعَمَلِيَّةِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي تَحْتَفِي فِيهِ الْكَنِيسَةُ بِمُقَدِّمِ الرَّاعِي الصَّالِحِ إِلَى بِلَادِنَا . فَيَوْمَ

رسامته ويوم نياحته كانا يومين من أيام أعياد الكنيسة . وهذه بركة نالها هذا
الأب اليقظ - فأكرمه الله تعالى رغم تضيق الناس عليه .
وهناك ذوكصولوجية ، واطس ، كانت تقال وقت حضور هذا البابا الصبور
وهي : « السكوكب المضيء على قطيع المسيح ، العظيم رئيس الكهنة أنبا مرقس
البطريرك ، لانك ثبتت لنا ناموساً بالفضائل الكاملة ، وحفظت الوصايا
المكتوبة في الإنجيل ، أكملت كل الفضائل وشاع اسمك في كل مكان . لانك
صرت طبيباً شافياً لأنفس طالبي المسيح . ظهرت لنا بليعك . وأعظمتنا تهبلاً
عظيماً بالخدمة المقدسة وبالحياء التي ليسوع المسيح تباركك به كل قبائل الأرض
وبلغ كلامك إلى أقطار المسكونة . أوامرك المستقيمة ضربت في قلوب الجراطقة
مثل سيف ذي حدين من قبل قوة الثالوث . فلماذا نمظمك مع المراتل داود قايلين :
إنك أنت هو الكاهن إلى الأبد على طقس ملكيصادق . كل ركبة تجشو للرب وكل
لسان يبارك . ومجد الله قد اتسع وملا وجه المسكونة . فاطلب من الرب عنا أيها
الأب الطاهر رئيس الكهنة الأنبا مرقس السادس والمائة ليففر لنا خطايانا
آمين " .

كبير مطارنة الصعيد

١٢٧ - كان راهب بدير السيدة العذراء الشهير بالسريان اسمه بطرس ، ثم
اختير رئيساً على ديره بالاضافة إلى مطالبته بالاشراف على بقية الأديرة في وادي
النطرون . وحينما شرف كرمي جرجا وأخميم استدعاه الأنبا مرقس السابع (سنة
١٧٤٢ م) ورسمه مطراناً على ذلك الكرمي . ولا يزال ديره محتفظاً له في المكتبة

(١) كامل صالح نخلة « سلسلة . . . الحلقة الخامسة ص ٣٣ نقلاً عن كتاب ترتيب
الأبوفاليسيس والمردات والألقاب بكنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة رقم ١٦٥ هموي
و ١٢٤ طقس .

بمنشورين راعويين قال في آخر كل منها : بطرس عبد عبيد الله المدعو بنعمت
مطراناً على كرسي جرجا والصعيد الاعلى وكافة الشعب المسيحي بكرسي انخيم
وجرجا وقفت وقوص ونقادة واسنا وارمنت وما ينسب اليهما . . . وقد دارت
بينه وبين المعلم جرجس الجوهرى مكاتبات في موضوع ترميم الدير ، وهذه
المكاتبات موجودة ضمن قطارس شهر بابيه المحفوظ بمكتبة دير السريان (١) .

وحينما أحس البابا مرقس السابع بقرب انتقاله من هذا العالم استدعى الانبا
بطرس بوصفه كبير مطارنة الصعيد واثمنه على رعية السيد المسيح إلى أن يختار
الشعب البابا المرقسي التالي . فتحمل المطران ما القاه عليه أخوه الأكبر من
مستولية . لأنه في الواقع كان ضمن الآباء المجاهدين في سبيل العقيدة الأرثوذكسية
ولا يزال للآن كتاب بما وضعه لتعليم شعبه نقطف وريقات منه للدلالة على حرصه
على الإيمان قال : ويجب أن يحرص الكهنة غاية الاحتراس عند قسمة
الجسد المقدس لتوزيعه على المؤمنين وأيضاً الجوهرة إذا كانت صغيرة
وأخذها الانسان بعد صوم واجتهاد وصلوات وبحرق قلب اتحد كثيفاً بجسمه
واطيفها بعقله وقد بلغنا أن بعض الكهنة الجهال بالشرع وبجلالة الجسد
المقدس ينجلون من أن يتناولوا انساناً جوهرة صغيرة لاسيما أرباب الرتب العالية
البسية في العالم ، وأن يختاروا لهم الجوهرة الكبيرة . وهذا غاية الكفر . ومن
يفعل هذا من الكهنة فلا يستحق أن يكون كاهناً ، ومن يقصد هذا من المتقربين
فليس بمسيحي لأن الكاهن لو اعتقد في كل جزء من القربان كبيراً أم صغيراً

أن النعمة الإلهية المتحدة بهم بالسواء لما كان يفضل الكبير على الصغير ولو أن
المتقرب أيضاً يعرف قدر جلالة الجسد وحقارته هو في ذاته لا اعتقد في أصغر

(١) « الأديرة . . . » لصموئيل تاروس السرياني ص ١٦٥ .

الاجزاء من الجسد أنه كثير عليه (١) وأنه غير مستحق لتناوله لكثرة خطاياه.

«... وينبغي على الكهنة أن يذبحوا القمم في كل وقت ويحشروه على نضافة البيعة وغسل قناديلها وأوانيها، لأن البيعة باب السماء كما أن الله سبحانه وتعالى قد زين السماء وجعلها حمنة لناظرين...»

«... وإذ حصل لنا أسباب تعوقنا عن المجيء إليكم أياماً كثيرة وينشغل خاطرنا بسببكم فلماذا احتجنا أن نضمن كتابنا هذه الفصول لتكون كافية مدة سنتكم تستغنوا به عن كتب كثيرة. ومتى أتق أن يعرض لكم شيء في هذا الكتاب فاطلمونا على ذلك ونحن بعمون الله نجابوكم بما يسهله المسيح على أفواهنا. ولا يجب أن يظن أحد الناس بنا أننا قلنا أو كتبنا شيئاً من عندنا. فلم تكن نكتب إلا ما قاله آباؤنا القديسون. المتبوعين والماضين الباقين ليكون السامع والطابع لأقوالهم من أبنائهم ورعيتهن، والمخالف والعاصي من أضدادهم وأعدائهم، لأن السيد المسيح قال من سمع منكم فقد سمع مني...»

«... والله ولي الصلح وباغض السيأة يسحق الشيطان تحت أقدامنا سريعاً ويؤهلنا أن نكون من السامعين الطابعين الصابرين المجاهدين لنكون في يوم الدين من الفائزين القائمين عن اليمين... بقوة يسوع المسيح ربنا الذي له المجد والاكرام والعز والسجود مع أبيه الصالح والروح القدس إلى أبد الأبدين ودهر الدهرين آمين... تم وكل

(١) يقول لنا الآباء الرسوليون أن كل قطعة يتناولها المتقرب من الجسد المقدس بأكله واسكى بوضع ذهبي الفم هذه الحقيقة اللامدركة قال بأننا لو وضمننا أي عدد من الأوعية فيها ماء في الهواء الطلق لا نمكنت الشمس بأكلها في كل وهاء منها. فإن كانت الشمس التي هي مخلوقة تنعكس كلها في الوعاء فسكن بالحري خالق الشمس يكون بأكله في كل جزء من الجسد المقدس. راجع الفصل الخامس بسر التناول في كتاب «الأسرار السبعة» لحبيب جرجس.

و ذلك على يد نائبيه وجامعه من عدة كتب بطرس المدعو بنعمة الله أسقفاً
على مدينة جرجا و تحوّمها . و ذلك في عهد رياسة الحبر الجليل والسيد الممّظم
الأب البطريرك الأنبا مرقس الجالس على الرقبة المرقسية الذي هو السادس والمئة .
و كتب في اليوم الثاني عشر من شهر توت المبارك سنة ألف وأربعمائة خمسة
وسبعين للشهداء . وجامعه وضع علامته فيه لأجل من يقرأ فيه يرحم عليه حياً
وميتاً . ومن قال ميتاً فله أضعاف . ونسأل من الذي تجسد لأجل خلاصنا ان
يثبتنا على الايمان المستقيم . والشكر لله دائماً ابدياً آمين . الله رجاي . بسم الله
الرفوف الرحيم فلا أخاف . المجد لله في الأعالى . . . ختم - ١١١ .

وهناك مخطوطة بعنوان « كتاب البرهان » لا تحمل اسم كاتبها ولكنها في
الواقع موسوعة لاهوتية من مؤلفات أبو شاكر بطرس بن الراهب نقلها أحد
المهتمين بالمعيدة - ولا نعرف إن كان من الكهننة أم لا - وذكر في آخرها أنها
تمت في ٩ طوبة سنة ١٤٦٧ ش (١٥ يناير سنة ١٧٥١ م) (١١١) .



- (١) « من أقوال الأنبا بطرس مطران جرجا » مقال لقمص بطرس جرجس نشره
بمجلة الايمان (عدد ١٠ سنة ٢٤) يونيو سنة ١٩٥٥ ص ٤١٧ - ٤١٩ .
(٢) مخطوطة ٤٣٦ - رقم ٧٥٢ - محفوظه بالمكتبة البابوية بالقاهرة .

تلمذيرات علب بها الانبا مرقس (البابا الـ ١٠٦) على بعض التذاكيات

التي تقال في عشيات حدود شهر كيهك

١- أبدى باسم الله القدوس
له تسبح ساير كل طقوس
خلق آدم وانشأ الفردوس
سكن فيه ساير كل طقوس
وجعل فيه كل شجر مفروس
هذا صنعه الرب القدوس
وخلق له حوا فصار بها مانوس
وقد خلقها من ضلعه الملموس
وأوصاهم من فيه القدوس
كلوا من اشجار الفردوس
احذر عنها دون كل غروس
وتموتوا ارواحاً ونفوس
السلام لك يا ست الابكار
يا من في احشاك قد صار

الخالق كل دهور وأزمان
مخمننا الملك الديان
عالي مرفوع بغير عمدان
من كان يرضيه بأعمال وإيمان
يطرح اثمار أصناف وألوان
لأجل آدم عبده الإنسان
وبها خلص آدم وبقي فرحان
وأخذ من الضلع الأيمن لما كان نسان
وقال لآدم أوصيك يا إنسان
وهذه الشجرة شجرة العصيان
لا تأكل منها تصير عريان
أنت وحواء تصيروا في أحزان .
يا مريم تي بارثينوس
مخلصنا إيسوس بي خريستوس .

٢- تعظمك كل الطغيات
قد نلت كل الكرامات
آدم أوصاه رب القوات
خالف ربه وصنع الزلات
سكن في الحية بمخدرات
وصارت تتكلم بلغات
قالت الإله رب القوات
لا تأكلوا من الشجرة ثمرات
أنا أقول لكم حقاً بثبات

يا مريم تي بارثينوس
وقد فقت رتب تي أنجيلوس
عن شجرة كانت في الفردوس
بفواية شيطان منجوس
كانت في الحاقة كالطاووس
وطذت حوا بحيل وعكوس
أوصاكم من فيه القدوس
وهذا كلام عنكم مديوس
امضو وكلوا من تلك غروس

تصيروا أنت وأدم آلهة
فرحت حوا بهذه الكلمات
ومضت إلى آدم وطفت
السلام لك يا ست الأبرار
يا من في أحشاك قد صار
شيئها بالرب القدوس
من فم الثعبان الملبوس
وأكلوا من الثمرة بشهوة النفوس .
يا مريم تي بارثينوس
مخلصنا إيسوس بي خريستوس .

٣- صرت عروس يا مريم
له كل السلطان والنصرة
آدم خالف وأكل الثمرة
من الفردوس إلى برا
حزيباً بيكي في حرة
قد أخذه ورماه في حرة
وعذاب ألم قاسي بكثرة
ولس له قد صاروا عبرة
ملك المجد الواحداني
أنا بجد إنساني
لخرج مطروداً عرياني
لأرض الشقا صار تعباني
مأسور في رق الشيطاني
في قاع جحيم فيه نيران
صار له وجميع كل إنساني
مدلولين بالأحزان

دبر تدبير رب القدرة
وأرسل غريبال بالبشرى
وأعطاهم سلاماً بمسرة
قال الرب معك يا عذرا
جاوته مريم في الحضرة
غريبال أعطاهم الخبرة
السلام لك يا ست الأبرار
يا من في أحشاك قد صار
ليرده للفردوس ثاني
لمريم شجر التوائني
خاطبها بضم وثاني
تقبلني حبلاً روحاني
قالت لست أعرف إنساني
بحلول الإبن الواحداني .
يا مريم تي بارثينوس
مخلصنا إيسوس بي خريستوس .

٤- أنت هي الجنس المختار
بوجودك يا طهر الأطهار
سكن فيك الأزلي الجبار
من بيت داود الطوباني
آدم بك صار فرحاني
الإبن الكلمة الواحداني

وحملته يا ست الابكار
وولده في بيت لحم جهار
ورضعتيه في مذود ابقار
بمضور سالومي والنجار
واتوا اليه بمضوع ووقار
وظهر نجمة يشمل كالنار
وقد نظره في تلك الاقطار
وجابوا مدايا بالقنطار
والنجم يسير ليلا ونهار
الى حيث كان عالم الامرار
وسجدوا له بفرح ووقار
السلام لك يا ست الابكار
يا من في احشاك قد صار

تسعة اشهر من غير نقصاني
كالطفل صغيراً عرياني
ملفوف بمخرق كالإنساني
الشيخ يوسف الطوباني
وسجدوا اليه الرعياني
في المشرق زاهي نوراني
بحوس قصدوا اليه بالعاني
ذهباً مع مرا ولباني
معهم يرشدم عياني
المولود خالق الأزمان
ونالوا منه الغفراني .
يا مريم تي بارثينوس
مخلصنا ايسوس بي خريستوس .

٥ - صرت سماء حقاً ثاني
يا مريم نحر النسواني
وظهر منك شبه إنساني
ورضع ابن الثدياني
وهيرودس صار حيراني
لجميع الاطفال الصياني
وملاك الرب الروحاني
في النوم قابل له يا الساني
خذ الطفل وصر هرباني
من هيرودس الملك الخواني
امض إلى تلك البلدان

حملت الرب الصباوث
سكن فيك حقاً بثبوت
اقنوماً واحداً من ثلوث
وعن الشيطان اخفي اللاهوت
ومن أجله قد أمر بالموت
سكان بيت لحم بكل بيوت
مضى ليوسف ناداه بالصوت
قم بسرعة لما الليل يفوت
انت وامه تنجوا من الموت
وكن في ارض مصر مبعوث
لما يقى ملكه وبموت

لما يهلك ذاك المقنوت
بسرعه جاب أتان كان مربوط
ومعها من له الخلق يقوت .
يا مريم تي بارثينوس
مخلصنا ايسوس بي خريستوس .

تعالى وارجع بالتانى
ويوسف كان غير كسلانى
وركب نحر النسوانى
السلام لك يا ست الابكار
يامن فى أحشاك قد صار

زينها موسى بكل الوان
ووضع فيها سرج ينيرون
مكتوبة بأصبع الديان
وقسط الذهب فيه المن بيان
شهادة يوم نصب الميزان
عليك يا هيكل منصان
قد صرت قبة للفقران
الله منشى كل الأكران
مضى بك يوسف الانسان
طفلا محمولا بين الوديان
من قدامه فى كل مكان
زالت عنها عبادة الاوثان .
يا مريم تي بارثينوس
مخلصنا ايسوس بي خريستوس .

٦- القبة النبوية
جعلها بذهب مطلية
والالواح العهدية
وجعل فيها منارة مضية
وهذه على بنى الاسرائيلية
وذلك اشارة رمزية
يا مريم بكر نقية
زينك بأنوار مضية
والى الديار المصرية
ومعك خالق كل البرية
بادت الأصنام بالكلية
وصارت أرض مصر محمية
السلام لك يا ست الابكار
يامن فى أحشاك قد صار

يا مريم زلافة ابنة زحل صهيون
من أسرار الشيطان الأراكون
إلحنا فى عالم ما العيش سيكون
من لبنك شبه المخلوقين
وضع فى أفعال البشرين

٧- دعيت أم الله خالقنا
تجسد ذلك منك وعقنا
ممانوئيل ذلك هو صار معنا
ورضعتيه يا شفيعتنا
لأنه أتى ليخلصنا

أوربي أورو إن ابورانيون
ويجعلنا له شعباً وبين
تعمد وأعطانا العربون
ويخلص كل من كان مسجون
وصلب عند الإقرايون
وصاروا به مستهزئين
جنس اليهود الجاحدين
وصار دمه لآدم ميرون
وأحيانا وصرفنا به فرحين .
يا مريم تي بارثينوس
مخلصنا يسوس ني خريستوس .

في الرؤيا حقاً بثبات
فوق وجه الأرض إلى السموات
نازلين عليه ألوف مع ربوات
وعليه جالس رب القوات
وهذا رمز وإشارات
بكل أقوال ونبوات
وإليه تسجد كل الطغفات
ودفن في قبر مع الأموات
قام سيدنا صاحب الهيئات
في نار جهيم يبكا وحسرات
وخلصوا من تلك الرجفات
موضعهم في تلك الظلمات .
يا مريم تي بارثينوس
مخلصنا يسوس ني خريستوس .

وليس افعل الخطية دنا
وتواضع لكي يعلننا
وفي الأردن مع يوحنا
أراد أن يصب عنا
فأخذ شكل طبيعتنا
من شعب قد قبل اللعنة
وجعلوا في جنبه الطعنة
وأسلم روحه لسيدهنا
وهو الآن كائن معنا
السلام لك يا ست الأبرار
يا من في أحشاك قد صار

٨- سلم وآه الأب يعقوب
مرتفعاً عالياً منصوب
وملايكة الرب المرهوب
وصاعدين للمرس المحجوب
وقد صار من يراه مرعوب
عن مريم قديم المكتوب
هي حلت غافر كل ذنوب
بتدبيره قد صار مصلوب
وفي ثالث يوم محسوب
ويخلص من قد كان متموب
آدم وبنيه بلغوا المطلوب
والشيطان صار مشجون مغلوب
السلام لك يا ست الأبرار
يا من في أحشاك قد صار

٩- هوذا الرب قد ظهر منك
 واختار حسن طهارتك
 طوباك يا من قد صرت
 خلاص آدم قد كان بك
 أخذ جسداً كاملاً منك
 في قاع جحيم كان فيه يبكي
 بسفكته عنه دماً زكياً
 في أحشاك يا مريم شاق
 السلام لك يا من أكلت
 في بني إرفاي جابوه لك
 أسأل وأطلب شفاعتك
 وعن الشعب المشترك
 يكونون محفوظين بك
 والبيعة تكون في طمانتك
 السلام لك يا ست الأبرار
 يا من في أحشاك قد صار

يا مريم تي بارثينوس
 بن سوتير إن اغاثوس
 أما للإله القديس
 بحملك في بن شويس ايسوس
 خلص به آدم بعد أن كان محبوس
 مسيياً مع بني ديافولوس
 صار منه برينسا بيلاطوس
 خلاص ني خريستيانوس
 خيراً من يد ني انجيلوس
 يا مريم بكر وعروس
 أنا الخاطي عبدك ماركوس
 في الايمان بالإبن القديس
 أجساداً وأرواحاً ونفوس
 وخدامها شمامسة وقسوس.
 يا مريم تي بارثينوس
 مخلصنا ايسوس في خريستوس (١)



(١) ٧٧٢ ربه رحمة رحمة (١)

(١) من كتاب صلوات مخطوطة (قبلي - عربي) وجدته بين مخططات أبي (٦)

شدة على شدة

- | | |
|-------------------------|------------------------------------|
| ١٣٨ - شبيهه بالملائكة | ١٤٥ - مناورة رومانية جديدة |
| ١٣٩ - ثقافة المالوف | ١٤٦ - على بك الكبير |
| ١٤٠ - ازدهار التصوف | ١٤٧ - عودة الفلام |
| ١٤١ - تضاعف الصراع | ١٤٨ - فوضى شاملة |
| ١٤٢ - الاهتمام بالتجارة | ١٤٩ - المعلم وزق |
| ١٤٣ - غير بالعهد | ١٥٠ - اراخنة مجهولون |
| ١٤٤ - الاستبداد والذل | ١٥١ - انبا يوساب ابن الابع وكتابات |

١٥٢ - امانة التربة المصرية

١٣٨ - وفي غمرة المواقف الجياشة تجمعت القلوب فأدت إلى اجماع الرأي ، وتركز هذا الاجماع على الراهب يوسف الأنطوني . فتمت رسامته في هدوء من غير حاجة إلى مشاورات أو مفاوضات . وقد أقيمت الشعائر المقدسة التي رفعت إلى الخلافة المرقسية بعد ستة شهور تقريبا من نياحة سلفه باسم الانبا يونس الثامن عشر . فأصبح البابا الاسكندري السابع بعد المئة سنة ١٧٧٠ ولقد وصفه معاصروه بأنه « طلق اللسان . عذب الصوت . محبوب . محسن . ممدوح السيرة . شبيه بالملائكة » (١) .

١٣٩ - وكانت القاهرة آنذاك قد هبطت إلى مجرد مدينة ريفية فقدت زخرفها ورواءها . على أنه رغم ذلك شيدت فيها البيوت المنيفة والحدائق الفسيحة حتى سكنان ساكنيها رفضوا الاستسلام للركود . ولكن أبنيتهم وحدائقهم لم تعد تلك القصور الفخمة التي ابتدعها الخيال الجاسح ، بل كانت كبيرة الحجم سمبكية الجدران لا تعبر إلا عن حياة خلت من تذوق الفن (٢) .

(١) منسى القمص ص ٦٢٧ .

(٢) جيمس دريدج : القاهرة ص ١٢٨ .

١٤٠ - على أن المدقق في تاريخ مصر عامة وتاريخ الكنيسة المصرية خاصة يعرفه الذهرل أمام حقيقة ساطعة هي أنه في دجى العصور الحالية يمتد خيط من النور . وقد وضع هذا الخيط المضيء في نمو المذاهب الصوفية آنذاك . وقد اجتذبت هذه المذاهب العدد الوفير من الناس يقومون بعبادات مختلفة على أنغام الطبول والنمايات . وهذا الذفارك الشعبى أقام بين الناس رابطة من التعاون والتآزر ، ومن الخدب على الفقير والضايء بالمنكوب . كذلك اشترت هذه العبادات نوعاً من الثقة العامة بما كانت تستلزمه من تعليم دينى ومن حفظ الأشعار والأذكار لترديدها معاً . ويجب الإشارة هنا إلى أن كل حركة دينية قامت في مصرنا الحبيبة أدت دائماً إلى شىء من الازدهار الأدبى والفنى . وهذه الحركة (التصوفية) أدت إلى رواج الأدب الشعبى مثل قصص أبى زيد الهلالى وخضرة الشريفة والمواويل التى تصف الريف المصرى . وظهرت إلى جانبه بعض المؤلفات التى لها قيمة كبرى رغم ضآلة عددها كبدايع الزهور لابن أباس وكتاربخ ابن زبل الذى وصف لنا الصراع الذى قام بين آخر سلاطين المماليك وبين سليم الفاتح . بل لقد امتد أثر التعبدات (الصوفية) إلى إيجاد فرق تمثيلية ؟ متنقلة تعرض فنونها أيام الأعياد . وقد ظهر لأول مرة ما وصفوه بالقرعة كوز ، وهو عبارة عن دمسى يحركها رجل من خلف ستار ، وتجرى على ألسنتها التناكات الهزلية وقد الحكام بشكل يجمع بين التسلية والوعظ .^(١)

وليس بغريب والحالة هذه أن يحول المجاهدين العصر التركى القباصل الذى ضاعت فى قفره معالم الحضارة - ليس بغريب أن يحولوه إلى حديقة مشمرة بالانتاج الروحى فهم إنما ينتظمون ضمن صفوف من سبقوم من معمرى الصحراء بالحياة الرهبانية وجعلوا من قفارها قطعة من الفردوس .

١٤١ - ومقابل هذا المنحرج الروحى الفنى الذى نفّس الشعب من خلاله عما يضيق به صدره تضاعف الصراع بين عسكر الوالى وبين المماليك. وقد قويت شوكة الفريق الاخير ونجحوا فى التغلغل داخل الحامية التركية ذاتها . ولكن على الرغم من اصطفاقيهم فى صفوف المصريين فقد سطوا على الاراضى والعقارات دون مراعاة لمصر ولا لاهل مصر . فأصبحت الوجبة ، اليومية لسكان القاهرة بالذات القتل فى الشوارع والسلب والنهب والاعتداء حتى على حرمة البيوت . ولما كانت الانفعالات لها فعل العدوى فقد كانت الحصومات الحزبية تنتقل من الوالد إلى ابنته ومن المخدوم إلى خادمه (١) . وهذا التصارع للسيطرة وللاستحواذ على المال والاستيلاء على العقارات ملا كل عاقل حسرة ويأساً من أن تجد مصر آية راحة أو طمأنينة تحت نير الحكم العثمانى (٢) .

١٤٢ - ومع أن غالبية التجار فى ذلك العصر كانوا من المسلمين إلا أنه كان بينهم عدد غير قليل من القبط واليهود ، وأبرزهم قبط قوص ونقادة وأسيوط وأخميم . وقد اهتم التجار القبط من أهالى هذه المدن بالتجارة مع السودان . وكان للذاهبين والآيبين طريقان بريّان : أحدهما يتبع النيل ويسير بمحاذاته تقريباً ، بينما يخترق ثانيهما الصحراء إلى دارفور على الطريق المسمى « بدرب

(١) ألدريدج .. ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٢) شرحه ص ١٤٠ ، وفى هذا الصدد يقول صبغى وحيدة فى كتبه « أصول المسألة المصرية » ما بلى : « ما كادت تبدأ العمليات الحربية التى مكنت العثمانيين من دخول مصر ... وما كاد الاجناد العثمانيون الذين دخلوا القاهرة والمدن المصرية الكبيرة الاخرى يشتهون من اشباع غرائزهم الهدامة ، وما كادت تسكن الاضطرابات المتوالية بين الفرق العثمانية المختلفة داخل أسوار المدن على الارزاق والمراتب والامتيازات العديدة ، حتى انفجر بركان غرائز هؤلاء البكوات ومماليكهم وظل يرسل حممه لى غير هواده أو كل إلى أن دخل الفرنسيون ... حتى يكاد ليقوم لى روع من يتبع حوادث مصر فى هذه الحقبة من تاريخها النص أنه فى نهاية متوحشة تقتل داخلها وحوش ضوار يفقرس بعضها البعض وتفقرس جميعا ما تلقاه بهذه الغاية من خلائق وادعة » - ص ٨٢ .

الأربعين ، وأبرز تجار الصعيد آنذاك كان المعلم غريبال شنودة الذي قامت بينه وبين سلطان دارفور صلة من المودة متينة حتى لقد أصبح وكيله ومن الواجبات التي أقامها هذا السلطان على المعلم غريبال شنودة تجهيز المحمل والكسوة الشريفة التي كان يرسلها السلطان سنويا إلى مكة . وقبل هذا الواجب يبين لنا المسكناة التي استمتع بها هذا الأرخن والثروة الواسعة التي استطاع أن يكسبها (١١) .

١٤٣ - كذلك ظل عدد من الكتبة القبط يعمل في دواوين الوالي التركي ورجاله . وأكبر هؤلاء الكتبة المعلم نيروز كاتب رضوان كتنخدا (١٢) . وقد استغل هذا الأرخن مكانته ليتقدم إلى الشيخ عبد الله الشبراوي (شيخ الاسلام) ويرجو منه السماح له ولقومه بزيارة القدس - وكان ذلك سنة ١٧٦٤ م ش . وبالطبع سار على الخطة الواجبة بأن قدم للشيخ هدية سنوية بالاضافة إلى ألف دينار . وعندها سلمه فتوى مكتوبة مرهقة بخطاب يقول فيه بأن أهل الذمة لهم الحق في القيام بشعائرهم الدينية وزياراتهم المشروعة . ففرح المعلم نيروز بهذه الفتوى وهذا الجواب وأبلغ كل من يعرفهم بإمكانية زيارة الأراضي المقدسة . وانتهم عدد كبير هذه الفرصة لجمعوا عائلاتهم وما يحتاجون إليه من المال والمؤونة للسفر ، كما أحضروا العدد اللازم من العربان لحفارتهم . ونصب المعلم نيروز الخيام خارج القاهرة جهة الغرب ليتجمع فيها كل العازمين على السفر . وحدث خلال انتظارهم بعضهم لبعض أن قام الشيخ عبد الله الشبراوي بزيارة للشيخ البكري الذي قال له في تهكم : « أهكذا تكون الفتوى يا شيخ الاسلام ؟

(١) موجز ... ج ٢ ص ٧٣ - ٧٤ .

(٢) بلغ ولع هذا الملوك بالبذخ أنه قبل من قصوره أنه « عقد على قاعاتها العساية قبايا عجبية الصنعة منقوشة بالذهب المهلول واللازورد والزجاج الملون . وكانت الأنوار تنطع في هذه القباب أثناء الليل فيكاد يخطف بهاؤها ورواؤها الأبحار » - القاهرة لجد الرحمن زكي ص ٢١٢ .

هل لانهم هادوك وارضوك تاذن لهم بالسفر على هذه الصورة من الابنة ؟
فأنكر الشيخ الشبراوى أنهم قدموا له أية هدية . فعاد البكرى يقول : بل قدموا
لك ألف دينار مع هدية فاخرة . وبذلك هيأت لهم الفرصة لان يعاودوا الطلب
موسم بعد موسم ، فتصبح هذه الزيارة عاداتهم السنوية . فمما تلات نفس الشيخ
الشبراوى غضباً لهذه الكلمات وخرج من عند الشيخ البكرى واستشار العامة بدوره
فخرجوا إلى المعلم نبروز وجماعته وسطروا عليهم وضربوهم بالعصى ، ورجعوا
بالحجارة ، وسرقوا أموالهم . ثم استكملوا كل هذه الاعتداءات بالسطو على
الكنيسة القريية من دمرداش (١) . كذلك طواب القبط بأن يدفعوا مئة ألف
ريال ، وضيق عليهم على بك حسن أغا إلى حد أنه أخذ منهم المبلغ في أسرع
وقت (٢) .

١٤٤ - كذلك امتد التعسف إلى جعل ركوب الخيل قاصراً على المسلمين ،
أما القبط وبقية غير المسلمين فكانوا لا يركبون غير الخير . فإن مر عليهم أصغر
ملوك كان عليهم الترجل وتقديم التحية الواجبة . وكان يجرى أمام المملوك سائرين
ليهد الطريق لسيدته ، ومن لم يسرع في التنفيذ كان نصيبه الضرب بالعصا (٣) .
وفي تلك الآونة جاء إلى القاهر فرنسى اسمه فوانى . وبعد زيارته وضع كتاباً
عما شاهده قال فيه إن الغريب نصيبه الدهشة لم رأى البؤس والفقر في كل مكان .
فالجمهور الذى يمشى الطرق والميادين ليس سوى قطع من الملابس القذرة المهلهلة
والعري الفاضح . وكل ما يراه وما يسمعه يذكره بأنه في بلد الاستبداد والذل .

(١) أغلب الظن أنها كنيسة من الكنائس التى كانت قائمة على أرض الأتبا رويس -

راجع السكاف ج ٣ ص ١٤٠ ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للجبرتى ج ١ ص ١٨٨ .

(٢) عجائب الآثار . . . ج ١ ص ٣٥١ .

(٣) الدرر بدج . . . ص ١٤٦ .

وليس من حديث يترامى إلى السمع غير الكلام عن القتل والضرب والمنازعات .
وليس هناك أى ضمان للحياة والدمتلكات . والعدالة نفسها تنفذ الحكم من غير
رسميات ، لأن الضابط المنوط به الحراسة الليلية أو التفقد النهارى يحكم ويقضى
وينفذ فى طرفه عين ، فيسقط رأس الفريسة البائسة فى الشنطة الجلد المعدة لذلك
كى لا توسخ الطريق^(١) .

١٤٥ - ولقد جاء فى تلك الفترة إلى البابا خصيصاً راهب اسمه برتلاوس مؤلفاً
من لدن الحبر الرومانى ليطلب إلى خليفة مار مرقس أن يعلن اتحاده مع كنيسة
رومية وانضوائه تحت لواء بطريركها^(٢) . فقابله الانبا يونس بمتمنى الأدب
وحسن اللياقة ولكنه أفهمه فى صراحة تامة أنه لن يجيد عن عقيدة آباءه
وأجداده قيد أنملة ثم أرسل رسولا إلى الانبا يوساب ابن الأبح أسقف جرجا
يرجو منه أن يكتب الرد على رسالة الفاتيكان بالرفض فى صياغة من الأدب
الرفيع . فاستجاب الأسقف لرغبة أبيه الروحى وكتب الرسالة المطلوبة .

١٤٦ - ووسط هذا الذل وهذا الفقر ومضت ومضت خائفة حتى لقد بدأ كأن
مصر انتفضت لتنفذ عنها هذا الغبار الكثيف الذى تراكم فوقها . فقد ظهر على
بك الكبير سنة ١٧٦٩ . وكان هذا الرجل مملوكاً أصله من مسيحي جورجيا^(٣)
خطف وبيع فى القسطنطينية ، ثم اشتراه ابراهيم كتحدا وجاء به إلى مصر . وقد

(١) شرحه ص ١٤٨ - ١٤٩ ، وما أبعد هذا الوصف عما قاله ناصر المحسرو وغيره ممن
جاءوا إلى مصر فى العصور السابقة على هذا العصر التركى القائم ، الدرديدج ص ١٤٢ .

(٢) ومن أغرب الفرائب أن برتلاوس هذا جاء بخطاب كتبه الحبر الرومانى إدهام منه
أنه على لسان البابا المرقسى طالباً إليه التوقيع عليه اراجع كامل صالح بنخله « سلسلة ... »
الحلقة الخامسة ص ٤٠ - ٤٢ .

(٣) ولاية ذات سيادة مستقلة ، يقع البحر الأسود غربيها . وهى الآن إحدى ولايات
الاتحاد السوفيتى ، لكنها كانت مستقلة أيام على بك الكبير .

تميز بقوة الشخصية والرغبة في السيطرة . واحتقار اللهو والعبث ، كما كان طموحاً
بميد النظر واسع الأفق . وقد بدأ نفوذه يمتد في تلك السنة حين رفض أن يرضخ
لهرمان المزل الذي أصدره السلطان عبد الحميد الأول ضده . ولم يكن خروجه عن
طاعة السلطان مجرد منافسة عادية بين المماليك بل كان حركة انفصالية استهدفت منها
الإستقلال بمصر . وحينما نجح في ثورته على السلطان التركي ازداد في بسط نفوذه
خارج حدود مصر . فأرسل حملة ضد الحجاز بقيادة ملوكه أبي الذهب سنة ١٧٧٠
وانتصر فاستولى على مكة . وفي السنة التالية استولى على دمشق . وحفزته انتصاراته
إلى الاتصال بالروس لسكونهم خصوم العثمانيين . وعقد تحالفاً مع حكومة البندقية
وفتح موانئ مصر للتجارة الخارجية . فهو قد اتجه اتجاهاً دولياً لسببته مصر منذ
عهد عميد . وبالطبع حنق الترك عليه فاستمالوا أبا الذهب إليهم الذي استمال بعضاً
من زملائه . وتقاتل على بك ورجاله مع أبي الذهب ومن انضم إليه عند الصالحية
فأصيب الأول بجراح مات على أثرها - وكان ذلك في مايو سنة ١٨٧٢ . ويرى
بعض المؤرخين أن على بك الكبير فشل في حركته لأنه لم يستغل طاقة الشعب
المصري الذي كان يكره حكمه العثمانيين ، فلم يعتمد في معاركه إلا على حربه الخاص
من المماليك (١) . على أنه رغم هزيمة هذه الحركة فقد أثبتت أن لمصر شخصيتها
البارزة ، وأنها في حالة حسن القيادة والتنظيم تستطيع أن تكون دولة مستقلة
قوية (٢) . فكان عهد على بك الكبير أشبه بالومضة الخاطفة التي - وإن قطعت
للظلام - ترد في لحظات وخلال هذه الومضة الخاطفة استقرت الأمور وأستتب
الامن وأحس الناس بالهدوء النفسى ، لقد بدت مصر فجأة كدولة مستقلة داخل

(١) دراسات في تاريخ مصر السيامي . . . لفوزى جرجس ص ٢٧ ، في أصول

المسألة المصرية . لصبحى وجيدة ص ١٠٨ .

(٢) المجلد . . . ص ٢٨٠ - ٢٨٢ .

الإمبراطورية العثمانية (١) . بل لقد بلغ بها الاستقلال أن سلك على بك نقوداً باسمه وعليها علامته وائتمن المعلم رزق على سكتها (٢) . ويصفه الجبرتي بقوله : « ولو لم يخنه مملوكه محمد بك لرد الأمور إلى أصولها . وكان لا يجالس إلا أهل الوفاق والحشمة والمسنين . . . وارتفع شأن النصارى في أيامه بكتابه المعلم رزق والمعلم إبراهيم الجوهري ، (٣) .

١٤٧ - وقبض أبو الذهب على زمام الحكم وسعى إلى استرضاء الترك . ولكن الحكم لم يستتب له إلا ثلاث سنين توفي بعدها فجأة . وعندها تولى إبراهيم بك ومراد بك الحكم معاً دون الاذعان للوالى المعين من الباب العالى . ولما كتمها فوجئنا بحملة عسكرية أرسلها عبد الحميد الأول بقيادة حسن باشا الجزائرلى الذى انتصر عليهما . ورغم انتصاره فقد اتفق مع إبراهيم بك ومراد بك على إعطائهما المنطقة الواقعة ما بين برديس (قرب سوهاج) وشلال أسوان . على أن المماليك

(١) يصف الكاتب الانجليزى جيمس ألدريدج فترة حكم على بك الكبير بهذه الكلمات :
" There was a brief moment before Napoleon arrived when it seemed as if Egypt was about to emerge from this Turkish cocoon under its own steam, and re-establish itself once more as an independent Mameluke power . . . the people of Egypt were in revolt against the Turks, demanding that something be done to relieve their misery, and cut them free from the dead weight of Ottoman taxes and unbearable economic bondage " .

وترجمتها ما يلى : كانت هناك لحظة قصيرة قبل وصول نابليون بدت فيها كأن مصر على وشك الخروج من تلك الشرنقة التركية بقوتها الذاتية ، وترسيخ نفسها مرة أخرى كقوة مملوكية مستقلة . . . فقد قام أهل مصر بشورة ضد الأتراك مطالبين بوجوب عمل ينجدهم من يؤسهم ويقطع عنهم رباطات النقل الميت الذى هو الضرائب المفروضة ويحررهم من العبودية الاقتصادية اللاحقة . راجع كتابه « القاهرة » ص ١٥٣ .

(٢) عجائب الآثار . . . للجبرتي ج ١ ص ٢٧١ .

(٣) شرحه ج ١ ص ٢٨١ و ج ٢ ص ٩١ .

عادوا تنافسهم ومناوشاتهم فبدأوا الفرصة لابراهيم بك ومراد بك للعودة إلى القاهرة . فعادا وسيطرا مرة أخرى على البلاد .

١٤٨ - كل هذه المصادمات ضاعفت الضيق والضعف ، فلم تفتك بالاشخاص فقط بل استولت أيضاً على كدهم وتعبهم . وقد بلغ البطش درجة ثار معها قبط الصعيد ورفضوا أن يدفعوا الجزية . ويبدو أن الفوضى كانت شاملة حتى أن أحداً لم يجرؤ على جمع الجزية من هؤلاء الثائرين (١) . وقد أدت الفوضى أيضاً إلى إهمال الأمور الصحية فكثرت المستنقعات مما جعل البلاد مرتعاً خصياً للأمراض والأوبئة .

ولقد اشتد حزن باشا على القبط أكثر من سلفائه أضعافاً ، فسلب منهم الكثير من الأموال ، وأمر بعدم ركوبهم الخيل ، وعدم استخدامهم مسلحاً ، كما أمر أن لا يقسمى أحد منهم بأى مشترك كسليمان مثلاً ، ولا تكون لهم بيوت نفحة ، ولا يلبسون ملابس زاهية . وبما ضاعف الغمة أن انتشر وباء بين المواشى فازداد الفقر . وزاد على ذلك أن صدر الأمر بعدم خروج النساء مع عائلاتهم في يوم شم النسيم (٢) . وتلا هذا الأمر قرار بأن يحضر القبط جميع من عندهم من العبيد والجوارى . فإن لم يخلصوا طوعاً واختياراً وقع التفتيش على كل ما فى بيوتهم واستيبح نهبها . فذهب كبارهم وتفاهموا مع الأمراء بالمسال فسمحوا لهم ببيع العبيد والجوارى والاحتفاظ بأثمانهم . ولقد نفذ القبط هذا البيع ولكنهم خافوا أن يستولى الباشا على ما قبضوا من مال فاستودعوه عند أصدقائهم المسلمين ريثما تمر الضيقة . وقد صح تخوف القبط لأن جنود الباشا هجموا على بيوتهم بحشاً عن تبقى فيها من الجوارى والعبيد . وفى هجومهم سرقوا ونهبوا الشيء الكثير (٣) .

(١) الدبريدج . . . ص ١٥١ .

(٢) عجائب الآثار . . . ص ١٢٩ .

(٣) شرحه ص ١١٩ - ١٢٠ .

ومع أن ولاية حسن باشا لم تدم غير سنتين إلا أنها رغم قصرها كانت مليئة
بالأوجاع للقبط خاصة والمصريين عامة (١).
ووسط هذه الأوجاع نلح امتداداً للجهاد الروحي ، ويتبدى لنا هذا الجهاد
خلال عدد من الأشياء . فالجدار القبلي من ناحية الشرق لكنيسة السيدة العذراء
(المعلقة) أيقونة لرئيس الملائكة ميخائيل يحمل ميزاناً في يده وصليباً في الأخرى .
وفي أسفل الأيقونة تاريخها : ١٤٩٢ ش = ١١٩٤ هـ . والأيقونات السبع التي
تزين حجاب الهيكل تحمل هذا التاريخ عينه كما تحمل اسم الفنان الذي رسمها وهو
حنا الأرميني . وفي أعلا الحجاب سبع عشرة أيقونة : خمس عشرة منها للشهيد
العظيم مار جرجس في مناظر مختلفة خلال صراعه ضد دقلديانوس وأهوانه ،
والبعض منها يصور الآيات التي أجراها الشهيد أثناء اضطهاده والأيقونة السابعة
عشرة الملك غبريال . ويبدو أن الأولى تلفت أو ضاعت ووضعت مكانها أيقونة
جديدة بعد ذلك بما يقرب من قرن . كما أن حجاب المكان المحتوي لجرن المعمودية
بنفس الكنيسة يحتوي على اثنتي عشرة حشوة مسددة مزينة بالعاج غير المنقوش
وهي مزينة على شكل نجوم تتوسطها صلبان . أما الباب فقد كتب في أعلاه بالعاج
(قبلى وعربى) السلام لهيكل الله الأب ، ، وتمنيتها : وعمل هذا الحجاب المبارك
برسم هيكل الشهيد العظيم مار جرجس بالمعلقة . أذكر يارب عبدك عبيد أبو
خزام وولديه وأهل بيته وبنته المرحومة مريم في ملكوتك . وكان ذلك سنة
١٤٩٢ للشهداء .

بل إن هناك ما هو ادعى إلى العجب من وجود أيقونات وأحجية وهو أنه
توجد بالمتحف القبطي شوكة ذات حدين مزخرفة بأشكال نباتية ومعها سكينه

من الصلب ذات مقبض مذهب . وللاثنين غطاء . حفرت عليه الجملة التالية : ووقف
القلاية البطريركية . عمل الانبا يونس السابع بعد المئة سنة ١٤٩٣ للشهداء .
وهذه الجملة تفيد أن البابا نفسه هو الصانع لهذه الادوات وإلا لكان قيل برسم
فلان ، أو المهتم فلان ، أو بناءً على طلب فلان ، ولما كنا لا نجد هنا أيًا من
هذه التعبيرات (١) .

١٤٩ - ومن كبار الشخصيات في هذا العصر المعلم رزق (أو رزق أغا) .
فقد كان متضلعا من علمي الحساب والفلك بالإضافة إلى التعامل الكونية . وكان
نزيباً ، صادق الوعود ، خادماً لكل الناس . فاعتمد عليه على بك الكبير ورفقاه
إلى درجة مدير حسابات الضربخانه المصرية (٢) . وزادت ثقته فيه لجمعه وزيره .
ولما كان المعلم رزق واسع القلب فقد وضع معرفته الفلكية في خدمة رحالة
انجليزي اسمه بروس جاء إلى مصر في طريقه إلى الحبشة لدراسة مخلف الأقطار
الافريقية . وكان يحمل ما يستند إليه في دراسته من أدوات جغرافية وفلكية .
فلما رست الباخرة التي تقله في ميناء الاسكندرية ظن المسؤولون عن الميناء أن
هذه الأدوات عسكرية فاحتجزوها عندهم . وحين عرف المعلم رزق بما جرى
أصدر أمره بالافراج عن الأدوات المحتجزة . فلما تسلمها مستر بروس عدت خدمة
المعلم رزق جميلاً عليه وأراد أن يعبر له عن شكره فأرسل له هدايا قيّمة . ولكن
القبطي الخدوم رفض الهدايا وأعرب للرحالة الانجليزي عن رغبته في رؤية
الأدوات الفلكية ومعرفة كيفية استعمالها . فلبى طلبه ، والطريف أن المعلم رزق
هو الذي قدم الهدايا للمستر بروس فقبلها منه ، كما أنزله في منزل خاص يقع في

(١) « مرشد المنعم القبطي » لوديع شنوده ص ٤٣ و ٤٥ و ٥٥ و ٥٦ و ١٢٩ .

(٢) هي إدارة سك النقود .

بابلون حيث أدعى له واجب الضيافة (١).

وكان المعلم رزق منوطاً به المحافظة على النظام في مديرية الشرقية . وكان الأشقياء بتلك الجهة قد اعتادوا السطو على قافلة المحمل ذهاباً وإياباً ، كما اعتادوا بقية السنة أن يقلقوا أهالي القليوبية بسلبهم الاموال ونهبهم ما يستطيعون الاستيلاء عليه من ماشية أو حصاد . فحصر المعلم رزق على تأدية واجبه إلى أن نجح في القضاء على هؤلاء الأشرار وفي اقرار الامن . وبالإضافة إلى كل هذه الاعمال فقد كان كاتباً للشيخ الحاقى (أحد أئمة الاسلام الاربعة) ، فبلغ من العظمة ما لم يبلغه قبلى فيما رأينا . ومن مسقاته كرع ابراهيم الجوهري . . . ، بل لقد قيل عنه ولما انتهت رئاسة مصر إلى علي بك الكبير ارتفع شأن النصارى في أيامه بكاتبه المعلم رزق ومساعدته المعلم ابراهيم (٢) . فخدم سنوات طويلة بأمانة ووقار ولكن رغم خدماته الجليلة اغتاله ابو الذهب الذى خان علي بك الكبير . ولم يكتف باغتياله بل علقه على باب زويلة حيث ظل معلقاً يومين قبل أن يجسر أحد أن ينزله ويدفنه .

١٥٠ - وقد برز إلى جانب هذا الأرخن الكبير المعلم لطف الله أبو شاكر

الذى كان كاتباً لاسماعيل بك خصم مراد بك و ابراهيم بك . وقد اشتهر بالصلاح وبحب الخير فعينه البابا يونس ناظراً على دير كوكب البرية أنبا أنطوني . واستجاب المعلم لطف الله لشقة أبيه الروحى فبنى بالدير كنيسة الآباء الرسل وكنيسة أنبا مرقس ولما أتمها ذهب البابا إلى الدير وأدعى شعائر تكريسها في جمهور من رهبانه وشعبه (٣) .

(١) المالبيك في مصر لأنور زقله من ١١١ ، تاريخ الأئمة القبطية لكامل صالح نخلة وفريد كامل ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) مجانب الآثار ... الجبروتى ج ١ ص ٣٨١ وج ٢ ص ٩١ .

(٣) كامل صالح نخلة « سلسلة ... » الحلقة الخامسة ص ٣٩ - ٤٠ .

والمعلم فرج كاشف^(١) منطقة دير مواس ، والمعلم تسكلا سيداروس كاشف منطقة بهجورة ، والمعلم عبود كاتب الخزانة^(٢) . غير أننا لا نعرف عن ثلاثتهم إلا أسمائهم والوظائف التي كانوا يشغلونها . كذلك نعرف اسم اثنين ممن كانوا كسبة في دواوين المماليك وهما المعلم ميخائيل فرحات الذي قيل عنه أنه قريب للشيخ الموهدي ابن أبي فانوس . وهذه الكلمات هي الوحيدة التي تعطينا لمحة عن وجود كسبة قبط ظلوا يعملون في الدواوين^(٣) في هذه الفترة .

١٥١ - على أن أبرز شخصية ساندت البابا يونس في هذه الفترة هي شخصية الأنبا يوساب المعروف بابن الأبح^(٤) أسقف جرجا وأخيم - ومن نعمة الله أن التاريخ حفظ لنا بعض المعلومات عنه . فقد ولد في النخيلة - جنوبي أبو تيج - وأطلق عليه أبواه اسم يوسف . فلما بلغ حوالي السابعة التحق بكتاب البلدة كما كانت عادة القبط على مدى أجيال . لأن الكتاب كان دائماً ملحقاً بالسكنية أو الدير . وكان التلاميذ فيه يتعلمون المزامير والقسبة وغيرها من الصلوات الكنسية ، كما كانوا يتعلمون القراءة والكتابة والحساب . وهذه الوسيلة كانوا ينشأون عارفين بتعاليم الكنيسة وطقوسها . وكان يوسف ممن استهوته هذه التعاليم الروحية فكان يتغنى بها في غدواته ورواحه . ودفعه التغنى بها إلى التعمق في معانيها . فتشبعت بها نفسه وملأته رغبة في أن يعيش عيشة النسك والتبتل . فلما بلغ الخامسة والعشرين من عمره نفذ رغبته ، فترك أهله وعشيرته وقصد إلى بوش^(٥)

(١) الكاشف هو المراقب لجمع الضرائب . (٢) موجز . . . ج ٢ ص ٨٩ .

(٣) تاريخ الأمة المصرية . . . (بالفرنسية) ج ٥ ص ٨١ .

(٤) سبق أن التقينا يونس ابن الأبح الذي كان وزيراً للخليفة المستنصر بالله والذي بنى كنيسة أبي سرجه والتي بربارة - راجع ما جاء عنه في ج ٣ من هذا الكتاب ولنا ندرى إن كان الرجلان من عائلة واحدة أم أنه مجرد تشابه اسمي ولكن الذي ندرسه هو أن كليهما خدم كنيسة القبطية في صدق وولاء .

(٥) شمالي بني سويف وبها حديقة تقوم عليها كنيسة وعدد من القلاي للرهبان .

حيث كان يقم رئيس دير الانبا أنطوني كوكب البرية . وحين وقف أمامه أطلعه على رغبة قلبه . ففرح به رئيس الدير وأعادته البركة . ثم وضعه تحت رعاية شيوخ الدير ليملوه ويرقبوه فيعرفون إن كان يصلح للحياة الديرية . وبعد أن راقبه هؤلاء الشيوخ عرفوا صدق عزمته ومدى تطلعه نحو الروحانيات . فزكوه لرئيسهم . وبعدها أرسله إلى دير العقليم أنبا أنطوني في الصحراء الشرقية حيث وضعه الآباء تحت الرقابة مرة أخرى . وقد فرحوا بما رأوه من القناعة والاضطلاع والاستعداد للتعلم والحياة بمقتضى قوانين الرهبنة . فصلوا عليه الصلوات التي جعلت منه راهباً واحتفظوا له باسمه الأصلي « يوسف » .

وامتلات ووجهه بالنعمة الإلهية فمكف على البحث وتفتيش الكتب والمخطوطات . وبعداومته على الاطلاع والتمن فيما يقرأ تطلع من التعاليم الكنسية وسير الآباء وأقوالهم ، فأصبح كالواحة المنعشة وسط العصر الجذب الذي طاش فيه . وحين رأى الشيوخ تعمقه في الدراسات الأبوية وشحوه للكهنوت ، فرسم قسماً فتمصاً . وزاده فيض الروح القدس نعمة ووداعة فجعل من نفسه خادماً لإخوته ساعياً إلى استرضائهم .

وكان الانبا يونس الثامن عشر قد اختير من دير الانبا أنطوني ، وظل طيلة حياته يشمر بجاذبية الحياة الرهبانية وبخنين إلى من كانوا إخوته في رهبنته ، فاعتاد أن يسأل عنهم ليعرف أحوالهم . وحين علم أن بين الكهنة منهم واحداً اسمه يوسف انشرح صدره لأنه كان يحمل نفس الاسم أيام أن كان عائشاً بالدير وازداد قلبه فرحاً لما سمعه عن القمص يوسف من دأب على البحث ، وتعمق في الروحانيات ، وتفان في خدمة إخوته ، فرغب في أن يراه وأرسل بطلبه . ولما تقابل الاثنان أخذ البابا يتحدث مع ابنه بالروح في مختلف الموضوعات، وتبين

له من هذا الحديث المتشعب عقليته النيرة وحنن تبصره . فمقد النية على رسامته
اسقفاً . ولكنه كتم نيته واستبقاه في الدار البابوية . ثم عهد إليه ببعض الامور
الإدارية وارتاح لتصرفه فيها . وعندها تشاور مع اساقفته وأبلغهم بكل ما دار
بينه وبين الراهب القمص يوسف وبحسن تصريفه الامور . وبعدها اقترح امامهم
رسامته لإيبارشية أخيم وجرجا ، فوافق السكل بالاجماع ، وامتلأت نفس البابا
المرقسي ارتياحاً لهذا الاجماع فرسمه اسقفاً سنة ١٤٩٩ ش باسم الانبا يوساب .
ويوساب هو الشكل القبطي لاسمه العربي « يوسف » .

ولقد أبدى البابا يوليس كل هذه العناية في اختيار الانبا يوساب لأنه كان قد
رسم الانبا انطونيوس فليفيل قبل ذلك بست سنوات فلم يلبث هذا الاسقف أن
انحاز إلى الكاثوليك بغواية دعاياتهم وأساليبهم الإغرائية . فكان انضمامه إلى
الكاثوليك سبباً في بلبلة الافكار واشاعة المهرج مما جعل القبط يشورون عليه
ويرفضون اقامته في وسطهم ، كذلك امتلأ المسلمون حنقاً عليه . وقد دفع هذا
الغضب الشعبي بوالى المنطقة إلى مراقبته في تشكك وريبة . ثم استدعاه وسأله عما
جعله يتنكر لكنيسته الوطنية ووجد إجاباته غير مقنعة فألقى به في السجن . على
أن الوالى العام أصدر الامر بالافراج عنه . وقد أشيع أن قنصل فرنسا هو الذى
تشفع فيه إلى أن نجح في استصدار أمر العفو . فلما خرج هذا الاسقف من السجن
لم يستطع الإقامة بين مواطنيه لما رآه منهم من مجانبة . ففساد مصر وذهب إلى
رومية حيث قضى بقية حياته دون أن يركن إليه بأية خدمة راعوية . وبأزاء
هذه المساسة الموجهة رأى البابا يوليس وجوب التدقيق في حرص في اختيار
الاساقفة واختبار عقيدتهم إذ وجد أن إغراءات رجال الفاتيكان قد بلغت درجة
من النفاذ إلى حد استمالة رجل قضى شطراً من حياته داخل دير من أديرة الآباء
القبط الذين غمرت روحانيتهم الأرجاء (١) .

(١) وإن دهشنا لهذا المسلك فلنذكر أن يهوذا الاسخريوطى كان ضمن الإثنى عشر .

ولقد قضى الأنبا يوساب بضعة أيام في الدار البابوية بعد رسامته تبعاً
للعادات التقليدية التي جرى عليها الآباء. ثم قصد إلى أخيم التي كانت إذ ذاك مقرراً
للكرسي الاسقفي. وفيها أيضاً قضى الأسقف بضعة أيام رأى بعدها أن يتفقد
للشعب ليعرف بنفسه إلى أي مدى أثر تحويله إلى الكثلكة في النفوس.
فابتدأ الزيارة الراعية من مدينته جرجا (١) عاصمة الأقليم.

ولقد امتلأت نفس الأنبا يوساب حزناً حين وقف على ما أصاب شعبه من
تبليبل في فكره. فأخذ منذ اللقاء الأول مع شعبه يوضح العقيدة الارثوذكسية
توضيحاً صافياً، ويثبتها في القلوب والعقول معاً. وبوعظه وتوجيهاته استقرت
القلوب وامتلات غبطة بعقيدتها الارثوذكسية. ولو أن بعض المارقين لم يتوبوا
بل ظلوا على انتمائهم للكنيسة الخلقيدونية، وانشأوا أولادهم على الولاة لهذه
الكنيسة الغربية عن مصر.

وبعد هذه الزيارة المليئة بالبركة جاءت رسالة الأنبا يونس الثامن عشر تحمل
إليه الرجاء بأن يرد على خطاب الحبر الروماني رداً منطقياً حقيقياً. فبعد أن اطلع
على الرسالة التي يحملها الراهب برتلموس وضع رداً مفصلاً ناقش فيه أهم القضايا
المختلف عليها والتي تسببت في أن يدب ديب الانقسام الأول في صف الكنيسة
الواحدة الوحيدة الجامعة الرسولية نتيجة لاجتماع مجمع خلقيدون المشهور سنة
٤٥١ م. وتتلخص رسالة الأسقف الاخيمي في أن الانقسام الثاني كلمة الله
الازلي المولود من الأب قبل كل الدهور تجسد وتأنس من الروح القدس ومن

(١) ذكر ياقوت في كتابه «معجم البلدان» ان اسمها الأول «جرجا» ثم أصبحت
جرجا نسبة إلى جورجوس الكبادوكي الأريوسي الدخيل الذي فرضه الامبراطور
قسطنطوس على الكرسي الاسكندري امعاًناً منه في اضطهاد بطر الارثوذكسية أنثاسيوس
الرسولي - راجع ما جاء عن البابا الرسولي في ج ١ من هذا الكتاب.

مريم العذراء بطبيعة واحدة ومشية واحدة خلوا من الاختلاط والامتزاج والتغير فهو ليس لها وإنساناً بل هو الإله المتأنس كما قال البشير والكلمة صار جسداً^(١) ، ... والروح القدس منبثق من الآب فقط حسب قول البشير أيضاً . وقد نوره المجمع النيقاوى ارتكناً إلى ما أعلنه رب المجد^(٢) . فالله ذات موجود ، ذات ونطق وحياة ، والنطق مولود من الذات وليس بوالد ولا يباعث ، والذات والد النطق وباعث الحياة وليس بمولود والحياة مبعوثة من الذات وليست بوالدة ولا يباعث ، والذات قائم بذاته ناطق بخاصية النطق حتى بخاصية الحياة ، والنطق قائم بالذات الوالدة له ، ناطق بخاصية أى بخاصية الحياة ، والحياة قائم بالذات الباعث لها فاعلمة بخاصية النطق ، حية بخاصيتها الذى هو الآب والإبن والروح القدس الإله الواحد الذى له المجد دائماً . آمين ، . وهننا يحق لنا أن نهتف مع الشعراء بقولنا :

إن الذى جعل الحقيقة علماً لم يُخلِ من أهل الحقيقة جيلاً^(٣)

لنخل الراهب بوقلباوس هذه الرسالة إلى الفاتيكان . ولما اطلع عليها الخبر الروحاني وجد في منطقتها قوة جعلته يتوقف بعض الوقت عن إرسال بشرين من لدنه للعمل في مصر بين صفوف كنيسة أنجبت مثل هذا الاسقف المتمسك في الروحانيات . على أنه لم يلبث أن تناسى هذه الحجج الدائمة التي سجلها الانبا يوساب وطاود معيه لاقتناص القبط .

وقد رأى هذا الاسقف الساهر أن تثبيت العقيدة يستلزم الكتابة ليجد المؤمنون بين أيديهم الأدلة التي يستطيعون بها الرد على معانديهم . فوضع كتاباً

(١) يوحنا ١ : ١٤ .

(٢) يوحنا ١٥ : ٢٦ .

(٣) من قصيدة لأحمد هوق أمير الشعراء تكريماً للعلمين ، مطلعها :

نف العلم وفدى النبجيلة كاد المعلم أن يكون رسولا

دعاه ، سلاح المؤمنين ، ^(١) ضمنه أهم التعاليم الأرثوذكسية . ثم بين بالتفصيل الاختلافات التي نشأت عن جمع خلقيدون . كذلك وضع عدداً من الرسائل والكتب نسب البعض منها إلى الأنبا يونس تقديراً لباباه وامهائناً في نكران ذاته . وبالمسكبة البابوية بالقاهرة مخطوطة تتضمن إحدى وثلاثين مقالة للأنبا يوساب ، وموضوعاتها كما يلي : ١ - وجود الخالق المثلث الأقانيم ، ٢ - تجسد المسيح ، ٣ - عن متى ١٨ : ٧ ، ٤ - عن متى ١٨ : ٩ ، ٥ - عن رومية ٩ : ٦ ، ٦ - عن ١ كورنثوس ٣ : ١٥ حتى آخر الإصحاح ، ٧ - عن الجامعة ١٤ : ٢٤ ، ٨ - حديث موجه إلى القبط الذين تركوا كنيستهم لانبياع كنيسة الفرنجة ، ٩ - الدينونة ، ١٠ - إلى أولئك الذين ينكرون قيامة الأبرار ، ١١ - إلى أولئك الذين سقطوا في خطايا كبيرة عن غير علم ، ١٢ - إلى بعض الأحباش الذين يزعمون أن الروح القدس دهن المسيح وأنه لهذا السبب دُعي المسيح ابن النعمة ، ١٣ - مجادلة مع فقيه مسلم ، ١٤ - إلى أولئك الذين يقيمون دولايم الشهداء ، أي ولايم في أعياد الشهداء ويستعينون فيها بالمغنين والشعراء والطبول . وهم مع ذلك لا يجمعون الفقراء والمعوزين ، ١٥ - عن المشاجرات والصنخ في الكنائس (بيوت الله) ، ١٦ - عن صوم يوم الأربعاء والجمعة وعن تشاجر الكهنة بسبب الاعتراف ، ١٧ - مرثية عن البابا يونس المئنة والسابع يوم نياحته ومعها مرثية عن إبراهيم الجوهري ، ١٨ - عن الفرور الذي يظهر في نفوسنا وعن علامات التواضع ، ١٩ - عن الاعتراف وعمما يجب أن يعمله أبو الاعتراف مع التائبين ، ٢٠ - عن الأيقونات رداً على سؤال وجهه واصف ابن الياس البرماوى ، ٢١ - عن تيوس

(١) في سنة ١٩٥٥ نشر القس مرقس شنودة راعي كنيسة القبط الأرثوذكس بطهطا في مجلة شهرية كان يصدرها باسم « مجلة مار مرقس » سلسلة من المقالات تتضمن أجزاء من كتاب « سلاح المؤمنين » ، وكان يستهدف نشر الكتاب كله تباعاً ثم إصداره ككتاب . ولكن المنبة فاجلت هذا الكاهن الشاب النشط فلم تفسح أمامه الفرصة لتنفيذ هدفه .

الماعز المشار إليها في لاويين ١٦ : ٥ - ١٠ ، ٢٢ - عن متى ١٥ : ١٣ ، ويوحنا
١٧ : ١٢ ، و ١٤ : ٦ ، ٢٣ - عن الصوم ، ٢٤ - عن سلطان الظلمة ، ٢٥ - عن
صلاة سيدنا ليله آلامه ، ٢٦ - كيف أمكن أن روح صموئيل تظهر بأمر العرافة
أمام شاول ، ٢٧ - التوبة والحل ، ٢٨ - الكبرياء وحب السيطرة والتشامخ ،
٢٩ - الصبر والمثابرة وقت التجربة والضيقات ، ٣٠ - عن القيامة وعن معتقد
أشياع بجمع خلقيدون بأن القديسين والشهداء سيكلون قبل قيامة الأجساد ،
٣١ - عن سقوط الشيطان وعصيان آدم وحواء .^(١)

وإذا ألقينا نظرة - ولو كانت طابرة - على مختلف الموضوعات التي طالها
الأسقف الأخيمني لوجدنا غالبيتها مما يمكن الانتفاع به في هذا العصر ،
ولأدراكنا سعة الدراسات التي يقدمها والهدف الواحد الذي ترمى إليه رغم
تباينها . ففي دليل على أنه من الآباء الذين أدركوا عظم مسئوليتهم فسعوا إلى
الاضطلاع بها . ورسائله هي في الوقت عينه دفاع عن كرامة الكهنوت القبطي
الذي حاول المبشرون الغربيون أن يقتنعونا عن طريق دعاياتهم بالعكس منها .

وبالإضافة إلى كتابات هذا الأسقف اليقظ توجد مخطوطة بخط كبير سميك ،
بعض كلماتها مشكل ، والنقط وعلامات الفصل فيها بالأحمر ، وعلى ورقة منها تاريخ
٢ برمهات سنة ١٤٨١ ش ، وفي آخرها تاريخ ١٠ بابه سنة ١٤٨٢ ش . نقلها
الأيغومالس مشرق الشطون في لكنيسة الشهيد العظيم مرقوريوس (أبي السيفين) .
والجزء الثاني من هذه المخطوطة يتضمن قراءات الصوم الأربعيني المقدس من
العهدين القديم والجديد ابتداء من يوم الإثنين للأسبوع الرابع وامتداداً إلى يوم
أحد الشعانين .^(٢)

(١) مخطوطة ٣٣٠ - ٣٩٠ مسلسل محفوظه بالمسكينة البابوية تشتت على ١٩٧ ورقة .

(٢) مخطوطة ١٧٢ - رقم ١١٨٤ - محفوظه بمكتبة المتحف القبطي .

وبعد جهاد مستمر لا ينقطع ، وبعد توضيح العقيدة في صراحة بلسانه وقلبه ،
خلال بابوية ثلاثة من الآباء المرقسيين ، أحس الأنا يوساب بضغف الشيخوخة
يدب ديبه داخل جسمه . فبقى في الدار البابوية بضعة أيام ، ثم قصد إلى دير الأنا
أنطوني حيث استقبله الرهبان بالفرح والتهليل لأنهم كانوا يرون فيه أباً حنوناً
وزميلاً ودبماً . ولكنه لم يقض بينهم غير أيام قليلة انتقل بعدها إلى فردوس
النهم - في ١٧ طوبة سنة ١٥٤٢ ش . فأقام الرهبان صلوات التجنيز عليه ، ودفنوه
في هدوء وبساطة . وقد عرفت الكنيسة فضله وأكرمه لجمعت من يوم نياحته
عيداً تذكاريّاً (١) .

ومن مخططات هذه الفترة أيضاً مخطوطة في حالة جيدة كتبها يوحنا أيوب ابن
أخي المعلم الكاتب ابراهيم القاطن بحارة الروم بناء على طلب المعلم بقطار ابن المعلم
حنانه يوحنا لطف الله . وقد انتهت النسخ من كتابتها في أول هاتور سنة
١٤٧٥ ش ، وتتضمن : ١ - أبصلودية كيهكية ، ٢ - أجزاء من صلوات مختلفة
باللغة القبطية (٢) .

كما أن هناك مخطوطة أخرى مكتوبة بخط متناسق وبعضها مشكل ، والكلمات
الأولى لكل فقرة مكتوبة بالأحمر ، وكذلك النقط والفصلات . وهي لا تحمل
اسم كاتبها . وتتضمن تعليقا على بشارة القديس متى وضعه أبو الفرج بن الطيب
المشريقي . وقد عنى المرابي يوسف منقريوس بنشره سنة ١٩٠٨ بعنوان « تفسير
المشريقي (٣) » .

(١) عن مقال لقمص سموئيل تاروسوس السرباني بعنوان « الأنا يوساب بن الأبيج »
نشره في مجلة الهبة عدد نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٦٨ ص ٣٢٢ - ٣٢٩ .

(٢) مخطوطة رقم ١٠٠ (١٣٧ أدب) بمخطوطة بمكتبة المتحف القبطي .

(٣) مخطوطة رقم ١١٠ (١٩٥ لاهوت) بمخطوطة بمكتبة المتحف القبطي .

ومن آيات هذه الفترة أيضاً عجايب هيكل كنيسة الرسل بدير القديس العظيم
أنبا أنطوني المصنوع من الخشب المطعم بالعاج وكذلك خوارس الكنيسة
المصنوعة من الخشب المخروط . ويقول رهبان الدير أن هذه كلها قد صنعت في
مدينة أخميم بناء على طلب الأرخن المعلم لطف الله شاكر الذي أنفق على صنعها
ونقلها إلى الدير كما جدد الكنيسة كلها سنة ١٤٨٧ ش . ولقد أتم هذا المعلم
الجليل بترميم كنيسة الأب الروحاني مرقس (١) القائمة في الدير عينه (٢) .

١٥٢ - واثن كانت الأيام لم تحتفظ لنا بغير هذه السكتابات فهذا لا يعنى أنه
لا يوجد غيرها . ولكننا لا نعرف الآن إن كانت هناك مخطوطات أخرى
صاعت نهائياً ، أو أن هناك بعضاً منها مازال مخفياً في ركن من أركان بلادنا التي
احتفظت بالكثير من مخلفات القرون الماضية . إنها احتفظت بما كان في أعماقها .
أما ما كان ظاهراً للعيان فقد ضاع معظمه . حتى دونه التربة المصرية كانت أمينة
على الأسرار التي استودعت في داخلها .

• • • • •

نص الرسالة التي كتبها الأنبا يوساب رداً على مزاعم البابا الروماني :
د من يؤس عبد يسوع المسيح . المدعو بنعمة الله ومراحته إلى رئاسة
الكهنوت تليد مار مرقس وخادم كرازته
د السلام منى إلى حضرة الأب الفاضل الراهب برتولوماوس اللاتيفى الذى
يدعى مرسولا بل رسولا من قبل بابا الرومانية إلى بلادنا الاسكندرية .

د بعد إهداء مزيد السلام إلى حضرتكم نعرفكم انكم ارسلتم لنا صورة جواب

(١) راجع سيرته في ج ٢ من هذا الكتاب .

(٢) الأديرة المصرية القاهرة لصوتيل تاروس السريانى ص ٢٦ - ٢٧ ، كتاب

رقم ٢٦ المحفوظ بمكتبة دير الأنبا أنطونيوس .

نكتبها إلى البابا الروماني وضمونها أن نتبع رأي البابا وتصير كنيسةنا مع كنيسة
واحدة باعتماد واحد لكي تكون أنت السبب في اصطلاح الطوائف .

وانسا لنعجب غاية العجب من كثرة زكارة عقولكم ودقة فهمكم الرفيع الذي
لم نره في أحد قط من مدة كبيرة وما ينيف عن ألف وما يقى سنة . وما سمعنا بأن
أحدًا من المرسلين من قبل البابا الروماني كتب من عنده صورة رسالة إلى آباء
البطارقة الذين سلفوا قبلنا ويعرفه فيها أن يكتبها للبابا الروماني ويخضع له
ويصير تحت اعتقاده كما صنعتم الآن . أو يكون فعلتم ذلك من مراحم الفايضة
من قلوبكم لكي تجمعوا كامل الطوائف إلى الكنيسة الرومانية . أو يكون تحرك
فيكم الروح البارقليط لكي تجمعوا الخراف إلى حضير واحد . أو تكون إيليا
المزمع أن يظهر كما قال ملاخيا النبي : زعم أن يرد قلوب الآباء على البنين والابناء
إلى آباؤهم وبعد للرب شعباً مستقيماً . لانكم لما أرسلتم لنا صورة الرسالة التي
نكتبها إلى البابا الروماني قد تهيأ لي في رسالتكم تلك أنك تريد أن ترد مسائل
الخليقة إلى ما أنت عليه .

وقد انقسم عندي رأيكم أو عرضكم هذا إلى نوعين :
النوع الأول هو أن القديسين الذين تحرك فيهم الروح القدس وهلام من
كل أثمار الفضائل من أجل أفعالهم وجهادهم الذي صنعوه ، كانوا يريدون أن
كافة الناس تتبع رأيهم فيمشون في طريقهم ليصيروا مثلام ويحصلوا على ما
يصلوه من النعم السماوية .

النوع الثاني هو الناس الانجاس الذين يسعون في الرذائل وذوى البدع
والشياطين أنفسهم يريدون أن يجذبوا الناس إلى طريقهم ليصيروا معهم في حالة
واحدة فيما هم عليه .

ولم اعرف في أى نوع هو ضميركم فى الاول أم الثانى ؟ حماكم الله من ذلك
وهداكم إلى الحق لأنه قادر أن يفتح عيني قلوبكم لتعرفوا الاعتقاد وتهبوا
إلى الصواب .

وفى رسالتكم لنا هل يا ترى درستى سائر الكتب وفهمت دقيقتات غوامضها
وحققتى أن الاعتقاد الحقيقى هو عندكم حتى أردتم أن تجذبونا إليه . أو يكون
بواسطة وحى من السماء أخبركم عن ذلك حتى الجأكم الأمر إلى أن تصلحوا بين
طوائف المسيحيين . لاننا نحن اطلعنا على اعتقادكم فوجدناكم تقرون باتحاد
الطبايع أن الطبايع اتحدوا ، وتنقضون قولكم هذا بقولكم فى المسيح طبيعتين
ومشيئين وفاعلين ، وقد نقضتم معنى الاتحاد لأن الاتحاد معناه الوجدانية . وقد
تبتم لسطور الملحد لأن ذلك قال ان فى المسيح اقنوهين . وقال لاون مرشدكم
بالصورتين . وهو وليس أنا . إن إناء واحدة موضوعة للجسد والكرامة
والاخرى ملقية للسب والهوان . وقد بنى لكم بناء جديداً واعتقاداً محدثاً وهدم
ما قد بناه وعقده المجمع النيقاوى حيث قال : د من يزيد على هذه الأمانة أو ينقص
شيئاً منها فليكن محروماً ، لأن باعتقاده فى الصورتين قد صير فى المسيح الواحد
من بعد الاتحاد عبداً ومعبوداً خالفاً ومخلوقاً . وقد نقض قول الاب كيرلس
الكبير صاحب كرمى الاسكندرية حيث قال : د من قسم المسيح الواحد إلى
فعلين أو إلى اقنومين ولم يحسن أن يتحدهما اتحاداً طبيعياً فليكن محروماً . وقال
أيضاً الاب كيرلس : د من فرق أصوات المسيح المذكورة فى الإنجيل المقدس
وفى الكتب المقدسة ونسب بعضها للاهوت وبعضها للناسوت كما تعتقدون الآن
فليكن محروماً .

ونسألكم عن اعتقادكم بالصورتين واقراركم بهما . ولما تقرون وتعتقدون .
فإن الصورة هى القسيام والخاصة . والخاصة هى الاقنوم لأن معنى الاقنوم عين

مخاص وغير ممكن أن نقوم صورة بغير أقنوم . وأنتم تعتقدن بصورتين ثم بأقنوم واحد . فإن كانت المقدمة صادقة تصير الثانية كاذبة وكذلك بالعكس .

ثم لسألكم عن اعتقادكم في المسيح الواحد انه إله تام والسان تام . ولسألكم أيضاً عن الأقنوم الواحد هل تنسبونه للإله أم للسان . فلا بد أن تقولوا أن الأقنوم الإله بمخاصة فعرفونا هل هذا الانسان ذو أقنوم أم بغير أقنوم . فلا بد أن تحاولونا قائلين بنقص الأقنومية . فأجيبكم انه أولا عرفتمونا عن انسان كامل ثم قلتم ثانياً لنا ينقص الأقنومية وصيرتم الثانية ناقصة الأولى . لأن الكامل غير الناقص والناقص لم يدع كاملاً . وصارت السالبة نافية للواجبة . ونقصتم اعتقادكم وحدكم . وهذا محال .

ثم لسألكم أيضاً عن الانسان الذي اتحدت به الطبيعة الإلهية هل هو انسان تام أم ينقصه شيء . من الانسانية فلا بد أن تقولوا لنا انساناً كاملاً في كل الأنحاء ما خلا الخطية كما قال بولس الرسول . فأجيبك يا من تريد أن تدخل كافة الخليقة إلى معتقدك وأقول لك : عرفني هل هذا الانسان التام له أقنوم أو ينقص الأقنومية ؟ ففسر عوا لنا قائلين : ينقص الأقنومية وأبطلتم ما اعتقدتموه بقولكم انه انسان كامل ما خلا الخطية . وقد قررتم واعتقدتم أن الأقنوم للأصوت وحده ولسيتم الناسوت بغير أقنوم . فلنحضر الآن بيتنا كاروز الامم تلميذ يسوع المسيح . تعال الآن يا بولس الإلهي وهات معك درج رسالة العبرانيين وخبرنا ماذا تقول عن المسيح الواحد . زعم انه قال بأقنوم تولى تطهير خطايانا . فعرفني يا رسول البابا . ما هو معنى تولية تطهير خطايانا وبأى نوع طهرنا منها ؟ فلا بد أن تجيبنا قائلاً لنا : إنه ما طهر خطايانا إلا بصلبه وآلامه وموته . فسن جوابك هذا وإفراكك بذلك قد أدخلت الألم على اللاهوت وحده باعتقادك أن الأقنوم ينسب

إلى اللاهوت وحده بقولكم إن الناسوت بغير اقنوم وأبطلتم منفعة التجسد لأن صار على رأيكم هذا أن جميع أعمال المسيح التي فعلها لأجل خطايانا مثل الألم والصلب والموت والقيامة إنما كان ذلك جميعه بأقنوم اللاهوت بقولك إن الناسوت بغير اقنوم . وهذا من أعظم اعتقادات المحال .

ثم أسألكم عن الإنسان العام من كافة الطبيعة البشرية وما منها موجود في العالم فخص فلاس . هل يوجد منها شخص خاص بغير اقنوم فلا بد أن تقولوا لا . فأسألكم عن الإنسان الذي أتحدث به الطبيعة الإلهية هل له اقنوم أم لا . فتجيبون قائلين : ينقص الاقنومية . فقد أبطلتم ساير الكتب التي تشهد أنه أخذ ما للبشرية ما خلا الخطيئة ويكون مثل قولكم : إن الإله لم يتحد بطبيعتنا كاملة . بل أخذ منها شيئاً وأبقى منها شيئاً مثلنا تعتقدون أنتم إنه أخذ الطبيعة بغير اقنوم . وهذه الأقاويل يضحك منها ذور العقول السامية والفلاسفة وذوو النطق .

ونسألكم أيضاً : عرفونا ما معنى الطبيعة . فلا بد أن تقولوا الطبيعة هي الجوهر . فأجيبكم ما معنى الجوهر ؟ فلا بد أن تقولوا إن الجوهر هو جنس لذاته والجوهر والجنس ما كان فوقه جنس وتحتة جنس وما كان يعم ويخص ما كان منه كلي وجزئي . فأسألكم عن الطبيعة الإلهية بمن أتحدث ؟ بالجوهر العام أم بالخاص ؟ إن قلتم بالعام فقد أوجبتم أن التجسد كان بكافة الطبيعة البشرية . وكذلك الطبيعة البشرية يشترك معها ساير الحيوان بالجنسية ويكون مثل قولكم . لأن الاتحاد وقع بالجنس وتجنس الجنس . وإن قلتم إن الاتحاد كان بجوهر خاص من عام . وذاكرتم الخاصة فقد اعترفتم بالإقنوم لأن الخاصة هي الاقنوم كقولنا في جوهر اللاهوت : إذا قلنا جوهر الإله فقد عممنا الثالوث المقدس وإن قلنا خاصية الآبوة فقد عممنا اقنوم الآب وإن قلنا خاصية الحياة فقد عممنا اقنوم الروح . لأن معنى الخواص

هم الأقسام ومن الحق الواضح أن الجواهر وإن شئت الطبايع فهي تحوى الأقسام
وليس الأقسام يحوى طبايع لأن الأقسام عين خاص لا يتكثر . فبطل قولكم
إن الأقسام حاوى طبيعتين وبطل قولكم أيضاً إن الطبيعة التي أحدها اللاهوت
بغير أقنوم لأن الطبيعة إذا كانت عامة فهي تحوى عدة أقانيم وإن كانت الطبيعة
خاصة من طبيعة عامة فقد تحوى أقنوماً واحداً ولا يمكن أن تقوم طبيعة بغير
أقنوم أو أقانيم . ولا يمكن أن تقوم طبايع كشهدة في أقنوم واحد لأنه حيث
الأقسام هناك طبيعة واحدة جزئية . لأن الجزئى غير الكلى لأن الكلى يحوى
أقانيم عدة .

ونسألكم أيضاً عن الذى صلب وقبل الحربة وجرى منه الدم والماء فهل ذلك
من الإله أم من الإنسان ؟ فلا بد أن تقولوا إن الدم الذى جرى على الصليب هو من
الإنسان وحده وتعارضون بولس الرسول القائل إنه بأقنوم تولى تطهير خطايانا
وقولهم إنهم صلبوا رب المجد . وقوله أيضاً إنه قدم ذاته عنا لله الآب ذبيحة كاملة
بل وأبطلتم اعتقادكم بقولكم إن الأقسام ينسب إلى اللاهوت وحده والأقسام
هو المتولى تطهير خطايانا وصار كقولكم إن الدم الذى قطر على الصليب لا منقمة
به لأنه دم إنسان ساذج . حاشا من ذلك وأن على هذه العقيدة الفاسدة البعيدة عن
الحق الموضوع على الباطل .

وأما دعواكم علينا بأننا تابعون لأوطاننا وممتقدون باعتقاده . فهو باطل
لأننا نحرمه ونحرم كل من يقول بقوله لأنه أدخل على طبايع المسيح الاختلاط
والامتزاج ولم يحسن اتحاد الطبايع لأن معنى الاتحاد غير الخلط فنحن نفرزه
من كنيسةنا .

وأما دعواكم على الكوكب المنير ضياء كورة مصر والاسكندرية الرجل

الجبار الذي سل سيف الروح وحارب أعداء الحق وقائل الامانة المستقيمة
 وضرب بحرم شفتيه طومس الاعداء. اعنى ذلك الاب الفاضل انبا ديسقورس
 الذي مات عن الحق تدعون عليه انه هو الذي حالل أوطاخى وهذه دعواكم
 باطلة لانه عندكم مكتوب في أعمال المجمع الافسى الثانى انه لما قام أوطاخى الملاحد
 امام المجمع ليقول اعتقاده اقره فدام المجمع بلسانه انه معتقد بالامانة الصحيحة كما
 قررها الآباء الثلثاية وثمانية عشر بنيقية وحرموا كل من يخالف قوطم ويحيد
 عن معتقدم فيصير مثل سيمون الساحر ودقلا الكافر فأول من حاله من أعضاء
 المجمع أستفانوس أسقف افسس وبعده أسقف سالى وبعده فلان وفلان وآخرم
 جميعهم حاله ابونا ديسقورس . ومن أجل ان كلام المذكور كان بمكر واخذ
 الحل سرقة فن أجل هذا بطل ذكر المجمع الافسى الثانى .

واما دعواكم على الاب الفاضل انبا ديسقورس انه كان موافقاً لأوطاخى
 الملاحد ليس ذلك بصحيح لان ادعاءكم عليه باطل لانك إذا تصفحت في الباب
 الحادى والعشرين من أعمال المجمع الخلقيدونى حيث قال أساقفة الشرق : هذا هو
 قول أوطاخى وهكذا يقول ديسقورس ، اجاب ديسقورس وقال : : إننا نقول
 بلا اختلاط ولا امتزاج ولا بالاستحالة . لان قولنا فى المسيح وقول الاب
 ديسقورس ، طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد ، مثلما قال الاب كيرلس . لانك
 إذا تصفحت هذه الكلمة أو قلتها بالعكس فيظهر لك الحق جهاراً . يعنى تقول إن
 الله الكلمة المتجسد طبيعة واحدة .

فقد اتضح لك الحق الآن من كلام الاب كيرلس لان ذلك المذكور ذا
 الذكر الجميل اعنى الاب كيرلس ينفى ويبعد كل من يقول بالطبيعتين بعد التجسد
 لتلا يبطل معنى الاتحاد .

وسألك أيضا يا من تظن في نفسك أنك تردّ الضالين أن تعرفني كم طبيعة
في الانسان الساذج لان الانسان قائم من جزء مائت وهو الجسد ومن جزء حتى
وهو النفس الحساسة ومن جزء ناطق وهو الروح العقلية . فهو حتى ميت ناطق
وكل حتى ميت ناطق انسان وبالعكس . فهل الجزء المائت جوهر أم عرض
فلا بد أن تقول لنا أنه جوهر لأنه من المفهوم أن جسم الانسان ليس بصرّض .
وماذا تقول عن جزئي الحى والناطق فلا بد أن كان لكم عقل سليم من حوادث
أمراض الهوى أن تقرّوا أنهم ليسوا بأعراض مثل شبه . وكل من ليس بصرّض
فهو جوهر . فقد ظهر لنا في الانسان ثلاثة جواهر فهل يجب أن يقال كل انسان
بثلاثة جواهر ؟ ان كان ذلك كذلك يجب أن يقال في المسيح أربعة جواهر وهذا
من أعظم المحال . وكذلك الانسان قائم من نفس ناقلة وجسم مائت . وقد شهد
بوالس الرسول وهو أصدق الشاهدين قابلا عن إقامة الروح مع الجسم أن كل
واحد منها ضد صاحبه والروح يفعل ما يضر الجسم والجسد يفعل ما يضر الروح
فهل هما جوهر أو جوهران ؟ إن قلتم أنها جوهران فقد ظهر لنا الآن أن في
الانسان جوهرين ثم زيد عليهما جوهر ثالث أعني الإله الكلمة . يكون كقولكم
أن في المسيح ثلاثة جواهر وبطل قولكم ان في المسيح جوهرين . وان رجعتم للحق
وقلتم إن الروح باتحادها بالجسد صار منها جوهر واحد أعني الانسان فهذا هو
قولنا أن الطبائع إذا اتحدت في موضع واحد صار منها جوهر واحد . لأن معنى
الاتحاد أى الوجدانية وصحيت صارت الوجدانية أبطلت الكثرة والعدد . لاننا
نرى جسم الانسان مكونا من أربع طبائع أعني النار والهواء والماء والتراب .
ومع اختلاف كيفياتهم يقام منها جسم الانسان لان النار بالكيفية حارة وبالكمية
حارة ورطبة وطبيعة الماء بالكيفية باردة وبالكمية باردة ورطبة وطبيعة الارض
بالكيفية يابسة وبالكمية باردة يابسة فصارت الخاصيات ثمانية فأخذنا الحرارة

من النار وتركنا اليبوسة ثم الحرارة من الهواء فتركبا ، ثم أخذنا البرودة من الماء مع البرودة من الأرض فتركبا ثم أخذنا الرطوبة من الهواء مع الرطوبة من الماء فتركبا . ثم أخذنا اليبوسة من النار التي تركناها أولا فتركبا . لخاصية النار الصفرة وخاصية الهواء الدم وخاصية الماء البلغم وخاصية الأرض السواد . وهذه الخواص متحركة وفي جسم الانسان مادام حيا . تعرف حركاتها المتفلسفون وحكماء الجسد . وكل طبيعة تعرف بحركاتها وحدها دون غيرها . ثم ببعض الاحيان تمتاز حركات الطبائع بعضها ببعض لان الكشيف بالكشيف يمازجان ثم إننا بعد أن عددنا الجزء الملائم نقول في الجزء الحى هل هو جوهر أم عرض مثلما قلنا أولا . فنقول الآن إن كان هو عرض فليس بثابت لكن نراه أعنى الجزء الحى في الحيوان الناطق والغير ثابت دائما لحد الموت . فمن الحق الواجب أن لا يقال إنه عرض بل هو جوهر . ثم نقول عن الجزء الناطق هل هو جوهر أم عرض . فإن كان يقال فيه انه عرض كان يمكن أن يقال على الانسان في وقت انه حيوان ناطق وفي وقت آخر حيوان ناطق لان الأعراض لا تثبت لها بل يجب أن يقال انه جوهر دائم للبقاء والحياة صار معنا في هذا الحيوان الناطق أعنى الانسان ستة جواهر ثم اتانا زيادة على ذلك جوهر سابع أعنى الإله الكلمة فصار من هذه الجهة المتعددة أن في المسيح سبع طبائع وبهذا القول فسد عليكم اعتقادكم بقولكم إن في المسيح طبيعتين . وأما نحن إذا أقررنا بالوحدانية . أبطلنا كثرة الاعداد . لان معنى الوحدانية أو الاتعداد تصير الاشياء المتعددة واحد كاجتماع الطبائع التي عددناها في الانسان وواجتماعها في موضع واحد صار منها جوهر واحد وهو الانسان . وكذلك قولنا في المسيح الواحد المتألف من الطبائع المتعددة إنه جوهر واحد لان اتحاد البسيط بالكشيف غير اتحاد الجواهر الكشيفة أو الجواهر السالبة المعزجة . لان اتحاد البسيط بالكشيف كاتحاد النفس العقلية

بالجسد الكشيف والاتحاد النار بالحديد كما قال مار ديسقورس ومار كيرلس .
وكذلك قد نرى أشياء كثيرة تتفاضل عن بعضها بعض بالزيادة ولم نر فيها
زيادة جواهر مع زيادتها على بعضها بعض ومع تضاعفها بعضها على بعض فلا
يظهر منها زيادة جواهر كقولنا في الحجر الواحد إنه جوهر واحد قائم بذاته
مستغنى عن غيره من جهة قيام وجوده . كذلك نرى الشجرة متضاعفة عن الحجر
بالقوة النامية ويجوز عليها القول إنها كبرت وطولت وحملت وأثمرت وضمفت
وماتت ومع ذلك جميعه لا يقال عليها أكثر من جوهر واحد مع كثرة ما رأينا
فيها مما شرحناه . وليس ذلك موجوداً في الحجر بل يقال عنها إنها جوهر واحد
لا يكثر . وكذلك الحيوان الغير ناطق نرى فيه قوة متضاعفة مما نراه في الشجرة
أعني القوة الحساسة وهي حياة الحيوان . لاننا في هذا الحيوان نجد أنه يأكل
ويشرب وينجوع ويعطش ويصرخ من الجوع ويعرف قانيه ومزود صاحبه ويألف
من يوده ويهرب ممن يؤذيه . ومع كثرة هذه الأشياء المتضاعفة عما في الشجرة
فلا يقال أكثر من جوهر واحد مثل قولنا في الشجرة وكذلك في الحجر . وهكذا
في الحيوان الناطق نرى فيه قوة متضاعفة غير ما نراه في الحيوان الغير ناطق أعني
القوة الناطقة لاننا نرى في الانسان إنه يميز الزمان ويتعاقب في العواقب ويفهم
الأوقات ويتفطن في الحساب ويحسب المستقبل ويتعاقب في الصناعات . ومع هذه
الأشياء المتضاعفة عما في الحيوان الغير ناطق فليس أنه أكثر من جوهر واحد
بل هو جوهر واحد مثلاً قلنا في الحيوان الغير ناطق إنه جوهر واحد وكذلك
الشجرة والحجر وكل منها جوهر واحد . وكذلك نرى في المسيح إلهنا لذكوره
السجود أن فيه قوة متضاعفة عما نراه في الانسان أي كلمة الله الازلي المتحد
بالانسان اتحاداً طبيعياً لاننا نرى أن المسيح وُلد من البتول وخاتم البتولية لم
ينفك . وأخرج الشياطين من المشيطين . وأنه فتح عينى المولود وأقام

الموتى بعد أن أنقوا، ومشى على سطح المياه فمن هو على اليابس، وزجر عواصف
الرياح فأسكنها، وبارك على قليل خبز فأشبع منه آلافا كثيرة وبما فضل منهم
أضعافاً كثيرة متضاعفة عما كان أولاً. وقتل الموت بحسبة وأمانته وكسر أبواب
الجحيم وسجن الشيطان وفتح باب الفردوس الذى كان قفله الآب فى وجه آدم
من أجل أكله من الشجرة. ومع هذه الأشياء المتضاعفة التى لم نرها فى الانسان
السادج فلا يقال فى المسيح انه أكثر من جوهر واحد حيث انه صار فى موضع
واحد. وإذا كان يقال فى المسيح انه أكثر من جوهر واحد كان يجب أن نجد
فيه كامل الصفات التى حددناها كالجسمية والنمو والحياة والناطقة والإهية وفى هذه
المفردات يظهر لنا انه فى المسيح خمسة جواهر. وقد سبقنا وقلنا من أجل تركيب
الطبايع نقول الآن من أجل اتحادها لأن الاتحاد غير التركيب حيث يصير الانسان
شيئين أو أكثر من اثنين شيئاً واحداً لأننا قد سبقنا وقلنا إن الانسان قائم من
أربع طبايع وهى النار والهواء والماء والتراب. وكل طبيعة من المذكورات
ذات طرفين فاتحدت كل طبيعة بالأخرى بالجهة المنسوبة المناسبة لها أعنى الحرارة
بالحرارة لأن الحرارتين إذا صارتا فى موضع واحد صار منها شيء واحد.
وكذلك اتحدت الرطوبة بالرطوبة والبرودة بالبرودة واليبوسة باليبوسة وصارت
الطبايع الأربعة متحدة اتحاداً طبيعياً كل واحدة بالأخرى من جهة المنسوبة
المناسبة لها. وكل طبيعة من الأربع المذكورة لها خاصية تعرف بها باقية دائرة
متحركة كفى الجسم أعنى الصفرة والدم والبلغم والسوددة وقد صارت الطبايع الأربعة
جوهراً واحداً وإن شئت طبيعة واحدة ذات جرم لأن كل جرم جوهر
ولا ينكس أعنى ليس كل جوهر جرماً. ثم نقول عن نفس الحياة أعنى النفس
الحساسة الحيوانية إنها ذات طرفين الأول أنها دم متحرك جرم يسال والطرف
الثانى أنه قوة حساسة قريبة من العقل تعرف بالطفافة من هذه الوجهة الأولى والطرف

الأول أعنى الدم وافق في الجسم في الغرب والجنسية وقد اتحد بمخوامس الطبايع التي ذكرناها دايرة متحركة في الجسم . وهذا الجزء هو أحد طرفي النفس الحية وهو المحرك لها وهو حياة الجسم جميعه وتبقى من النفس الحية الطرف الحساس اللطيف القريب من العقل لأنه ليس في الجسم كيفية توافقه يتحد بها من أجل هذا صارت هذه باقية في الحيوان رئيسية عنه وهي المديرة لكامل الحيوان .

ثم إننا نرى في النفس الناطقة خاصيتين وإن شئت نوعين أعنى اللطافة والبساطة لأن النفس لطيفة روحانية كالملائكة والعقل بسيط لأنه هو صورة الله ومن أجل هذا النوع وهو العقل قال الله نريد أن نخلق انساناً كصورتنا ومثالنا ويتسلط على جميع الوحوش وطير السماء وسماك البحر . أما النفس من جهة لطافتها فقد وافقت أحد طرفي النفس الحيوانية التي هي القوة الحساسة واتحدت بها وبهذا النوع سمى حيواناً ناطقاً . أعنى الانسان صار في موضوع واحد جوهر واحد وإن شئت طبيعة واحدة من جهة كل اتحاد طبيعة للأخرى بالطرف الموافق لها منها وصار الشكل موضوعاً واحداً حتى أننا نرى أن يصدر عن الجسم انفعالات روحانية كالوقوف في الصلاة والركوع والسجود والتضرع بل وبالأكثر الصوم والسر الزايد الذي يفوق طبع الجسد وهذا كله يصدر من أفعال الجسم . وإن قلت لي لماذا ؟ فأجيبك إنه ما يصدر عنه هذا بالفعل إلا من أجل الروح المتحددة بها اتحاداً طبيعياً أعنى اتحاد الطبيعة بالطبيعة الأخرى بالطرف الموافق لها كما قلنا أولاً .

وقد نرى أفعالاً تصدر عن الروح من جهة جوهر العقل لأننا نرى الانسان في حالة نومه تمطل حركات حواسه أعنى النظر والسمع والشم والذوق واللمس وتصير انفعالاتهم غير ظاهرة . ثم إذا تحرك أحد من المزاجات الأربعة أعنى الصفرة والدم والبلغم والسودة بواسطة النفس الحية فيرى في نومه الحركات المختلفة

والصور المتغايرة ثم يرى العقل البسيط في بعض الأحيان أنه يأكل الأكل ثم بعد
الليظة يرى في الجسم علامة الأكل ظاهرة ويطلبها من عجب عجيب واتحاد طبيعي .
إن العقل البسيط يأكل الأكل ويدخل تحت الانفعالات الجسدية . فها هنا يجب أن
يقال أن الروح للعقل صار جسماً والجسم الكثيف في وقت يصير روحاً .
والكتاب المقدس يقول عن أهل عصر نوح لما أنصبت عقولهم في الانفعالات
الجسدية أن هؤلاء القوم صاروا لحمًا ياترى كانت الروح العقلية فارقتهم ؟ كلا .
لكن لما أنصبت عقولهم في أفعال الجسد صاروا جسداً . وكذلك إذا انجذبت
الأفعال الجسدية إلى أغراض الروح فصار الجسم روحاً لأن الآباء المتقدمين الذين
تمموا الفضائل دعوا رجالاتاً روحانيين . ولماذا قول ذلك والكتاب المقدس يقول
إنكم آلهة وبنى العلى تدعون .

فلنرجع الآن إلى ما كنا فيه ونقول كما قلنا أولاً إن كل طبيعة تتحد بالأخرى
من جهة الطرف الذى يوافقها فتحدث الروح العقلية بالقوة الحسية الحيوانية من
جهة الطاقة التى فى النفس الروحانية وصارت النفس نفساً واحدة . ومن أجل
هذا قال الكتاب : من أهلك نفسه أحيها ومن أحيها أهلكها . ولم يقل
من أهلك نفسه الحيوانية أحيها نفسه الروحانية لأنها لما اتحدتا نفساً واحدة
وبقى معنا من نوعى النفس جوهر العقل باقياً ليس فى الإنسان وليس فى النوع
شيئاً يوافقهما حتى يتحد به من أجل هذا صار رئيساً ومترئساً على الإنسان بل وكافة
المخلوقات التى تحت السماء كقول الله لأدم : إنك تسود وتسلط على كافة البرايا .
أعنى بالعقل الذى هو أحد نوعى النفس العاقلة . ومع هذا جميعه الذى عددناه فى
الإنسان فإنه جوهر واحد وإن شئت طبيعة واحدة . وإن خاصية نطاق اللاهوت
الذى هو كلمة الله الآب أعنى أقنوم الابن لما أراد أن يتحد بالطبيعة البشرية اتحد
بالعقل الذى هو صورة الله . اتحد الإله البسيط بالعقل البسيط . اتحد أقنوم الإله

بأقنوم الانسان . اتحدنا اتحاداً طبيعياً لأنه حيث اتحد الأقنوم بالأقنوم اتحد
الجوهر بالجوهر حيث اتحد الإله البسيط بالعقل البسيط اتحد بالإنسان والجسد معاً
اتحاداً يفرق طبع البشر . حينئذ لا نغلط في شيء إذا قلنا إن الإله صار انساناً
والانسان صار إلهاً . هكذا قال الإنجيل المقدس : « إن الكلمة صار لحماً ، ويقول
بولس الرسول أيضاً ، إن كنا عرفنا المسيح بالجسد فلننا الآن نعرفه جسدياً ،
ومن أجل هذا فلا يقال إن المسيح بعد الاتحاد طبيعة وطبيعة وندخل في التجسد
الكلمة ولا نقول بالاختلاط والامتزاج كأوطاخى ولا نفرق ولا نفصل مثل
نسطور واسكتنا نعترف بطبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد مثلما قال الأب الكبير
أبنا كيرلس . وقد بين لنا أيضاً معنى الاتحاد في الحرم الثالث حيث قال : « من
فرق بعد الاتحاد المسيح الواحد إلى أقنومين وطبق بعضهما ببعض بالصحابة فقط
أم بالعظمة أم بالقدرة أم بالمطمان وليس يتحدما بوحداً طبيعية طبيعية فليكن
محروماً ، .

وقال أيضاً في الحرم الرابع : « من منا ميز تلك الأصوات المذكورة في كتب
الإنجيليين أم في رسائل الرسل أم نطق بها الآباء القديسون أم قالها المسيح عن
ذاته وفرزها إلى أقنومين أم إلى اثنين كل قائم بذاته ويصدق البعض منها لا يفة
لإنسان وحده فقط كأنه غريب عن كلمة الله والبعض منها هي ملايم الله فهو
يخصها إلى كلمة الآب وحده فقط فليكن محروماً ، .

واسألك أيها الأب الفاضل الذي يريد أن يصير كافة المسيحيين تحت رئاسة
البابا الروماني لماذا قال الإنجيل إنى أنا هو خبز الحياة الذى نزل من السماء الذى
يا كل منه يعيش إلى الأبد . فأى طبيعة من اللتين تنسبهما للمسيح بعد التجسد
تسمى الخبز المحيى الذى نزل من السماء . إن قلت إنها طبيعة اللاهوت الذى نزل

من السماء . فقد كبرت وعاندت المسيح القابل : وإن الخبز الذي أعطيه هو جسدى . . .
والخبز المعطى منه لنا وحقيقة جسده لم ينزل من السماء . وإن قلت لا بل هي طبيعة
الناسوت فقد كفرت وعاندت الحق لأن الآباء المؤيدين بنعمة روح القدس قالوا :
د كل من قال إن طبيعة الناسوت نزلت من السماء فليكن محروماً . من أجل هذا
لا نقول إن في المسيح بعد الاتحاد طبيعتين أو اقنومين أو فعلين بل طبيعة واحدة
وفعل واحد يصدر عن المسيح الواحد . ونسألك أيضاً عن قولك وعقيدتك في
المسيح إنه طبيعتان ويصدر عنهما فعلان وتقول إن كل طبيعة تفعل ما يخص بها
وحدها . فمرفى أى طبيعة من الطبيعتين ولدتها مريم وهي بتول . فإن قلت هي
طبيعة اللاهوت فقد كفرت ويكون مثل قولك أن المسيح لم يولد من مريم بالجسد
ويكون المولود منها شبه خيال وأبطلت سائر الكتب التي تشهد أنه أخذ طبيعتنا
كاملة . وإن قلت لا بل هي طبيعة الناسوت المولود من مريم فقد عاندت لأن
مريم ولدت وهي بتول وهذا بخلاف ميلاد الطبايع البشرية لأنك قلت لنا أولاً
إن كل طبيعة تفعل ما يخص بها وهذا العقل ليس مختصاً بفعل طبيعة جسمانية
لأنه لو كان فعل طبيعة جسمانية لم تكن مريم بتولا بعد الميلاد وبطل قولكم إن
في المسيح طبيعتين وفعلين . لكن نحن نعترف إنه مسيح واحد جوهر واحد
فعل واحد .

ونسألكم أيضاً عرفونا اعتقادكم في الروح القدس كيف تعتقدون أنه ينبثق
من الإبن وخالفتم قول المسيح القابل عن الروح القدس البارقليط : وإنه من
الآب ينبثق . . .
ونسألكم أيضاً عن الإله هل له ذات موجودة . لا بد أن تقولوا نعم . فهل
هذه الذات الموجودة ذات حياة ؟ لا بد من نعم . وهل هذه الذات الموجودة ذات

نطق؟ لا بد من نعم . فعرفوني أيضاً هل النطق مولود من الذات أو من الحياة أو من الذات والحياة؟ لا بد أن تقولوا مولود من الذات . لأن الذات علة للنطق ، والنطق والحياة معلولان عن الذات . لأن النطق مولود منها والحياة منبعثة منها . وأيضاً عرفونا عن الحياة هل هي منبعثة من الذات أم من النطق؟ فلا بد أن تقولوا منبعثة من الذات والنطق . فأجييبكم إنكم لو قلتم لنا أن النطق مولود من الذات ثم الآن قلتم لنا أن الحياة منبعثة من الذات والنطق فصيرتم من قولكم هذا أن النطق ذاتاً أخرى وصيرتم في اللاهوت ذاتين أو يكون مثل قولكم أن الحياة ابن للذات لأنكم تقولون أن الحياة مبعوثة من النطق والنطق مولود من الذات ويكون على هذا الرأي الفاسد أن الذات جسد للحياة أو يكون في اللاهوت ذاتين وجوهرين . فإنا الله وإياكم من هذه العقيدة الفاسدة . أما نحن فنعتقد : أن الله ذات موجودة ذات نطق وحياة . وأن النطق مولود من الذات وليس بوالد ولا باعث . وأن الذات والد للنطق وباعث للحياة وليس بمولود . وأن الحياة مبعوثة من الذات وليست بوالدة ولا باعثة . وأن الذات قائم بذاته ناطق بخاصية النطق حتى بخاصية الحياة . وأن النطق قائم بالذات الوالدة له ناطق بخاصيته حتى بخاصية الحياة . وأن الحياة قائمة بالذات الباعثة لها ناطقة بخاصية النطق حتى بخاصيتها الذي هو الأب والإبن والروح القدس الإله الواحد الذي له المجد دائماً . وعلينا نعمة ورحمة وبركة من الآن وإلى الأبد الآبدين ودهر الدهرين . آمين .



الأنبا بطرس : كان راهباً بدير السيدة العذراء (الشهير بالسريان) ، ثم رصمه الأنبا يونس الثامن عشر أسقفياً على منفلوط باسم بطرس . وبالدير المذكور كتاب خاص بتكريس الكنائس جاء فيه : عمل برسم واضح العلامة فيه وقفاً

أحداث لها العجب

١- أنبا مرقس الثامن

- | | |
|-----------------------------------|--------------------------------|
| ١٥٣- تشارك الآباء والأبناء. | ١٦٥- تضاعف البلبا |
| ١٥٤- رسالة البابا المرقسي | ١٦٦- طبعة بأمر الوالي |
| ١٥٥- الملوكان ابراهيم بك ومراد بك | ١٦٧- تدخل الانجليز في صف الترك |
| ١٥٦- بطش الطبيعة ايضا | ١٦٨- موت وخراب ديار |
| ١٥٧- البطش حتى بالوتى | ١٦٩- كفايم الخطب |
| ١٥٨- زحف نابليون | ١٧٠- صورة قائمة كسيمة |
| ١٥٩- بعض من المكتبة القبط | ١٧١- حكم مينو |
| ١٦٠- ملكية الأرض | ١٧٢- تضاعف الأرزاء |
| ١٦١- الاستيلاء على البهائم | ١٧٣- صوت من الحق |
| ١٦٢- منتهى الفقر والفضنك | ١٧٤- الصراع الروحي |
| ١٦٣- ضغط الفرنسيين على القبط | ١٧٥- فرصة لمعاودة البناء |
| ١٦٤- محزوا الشام | ١٧٦- تقييم الحملة الفرنسية |

١٥٣- ... وأروع ما في تاريخنا سلسلة باباوات الاسكندرية الذين كانوا يمثلون الشخصية المعنوية للأقباط - لقد كان أراخنة الشعب يأتون بهم مكبلين بالسلاسل ليجلسوا على عرش مار مرقس . لم يكن هناك تنافس على المراكز الكنسية لأنهم كانوا يقدرون خطورة مسئوليتهم . والواقع أن كنيستنا القبطية بتقاليدنا وطقوسنا التي احتفظت بها حتى الوقت الحاضر تعتبر متحفاً حياً للسيحية الأولى . وهي في ذلك تختلف عن الكنائس في الدول الغربية التي دخلتها تغييرات عدة . والواجب علينا أن نحفظ هذه الصورة ونزيل عنها كل شائبة ... (١)

والواقع أن هؤلاء الباباوات لم يمثلوا الشخصية المعنوية للأقباط لحسب بل كانوا الآباء الحانين على أبنائهم، فوقفوا في الصف الأول ليدودوا عنهم، وشاركوهم

(١) من محاضرة للدكتور عزيز عطية أستاذ تاريخ المصور الوسطى لشرتها له بمجلة خادوس

كل ما جازوا من أهوال ، كما شاركوهم كل أهوالهم المتباينة وهذه الحقيقة تبدو لنا في روعتها إذا ما عرفنا أن من باباواتنا من نال إكليل الشهادة ، ومنهم من راح ضحية الرعب وهو يتفقد شحمه ، بل إن منهم من ضرب وأمين وزج به في

غياهب السجون .

ولعل في هذا التشارك الذي ربط الآباء بالأبناء سبباً في الحفاظ على كنيستنا خلال ما جازت من ضيق وآلام . فثلا يروى لنا الخطوط أن الابا مرقس الثامن الذي خلف الابا يونس الثامن عشر قد وقسم المؤمنين مصائب ذلك الجيل المشثوم وتفطرت أحشائه حزناً وقامى بسمع الأذن ونظر العين تلك الظروف التي أبهت ظهور المسيحيين^(١) .

١٥٤ - ولقد كان هذا البابا قبل ارتقائه السدة المرقسية راهباً بدير الابا انطوني اسمه يونس . وحينما أحس الشعب وآبائه بحاجتهم إلى الراعي الأول ليسوس أمورهم ، اتجهوا جميعاً برأى واحد إلى هذا الراهب الانطوني . فتمت رسامته بعدما يقرب من أربعة شهور من نيافة سلفه . واختاروا له اسم الكاروز ، فشابهه في كونه ، يوحنا الملقب مرقس^(٢) . وتمت شعائر رسامته سنة ١٧٩٧ م .

١٥٥ - وخلال هذه الفترة كان المملوكان ابراهيم بك ومراد بك مازالوا مسيطرين على البلاد بعد عودتها من العميد . وقد ظللا يتناوشان الولاية الموقدين من سلطان تركيا ، ويضطرانهم إلى الإذعان لهما . وهذا التنافس المستمر على السلطة جعل الحياة المصرية في قلق واضطراب . والغريب أن ابراهيم بك

(١) البرموسى . . . ج ٢ ص ٥٢٠ .

(٢) فهو كان . يونس ، فأصبح مرقس .

ومراد بك ظلا على وفاق طيلة حياتها ، فلم يخن أحدهما الآخر ولم يستهدف قتله
وهما في هذا قد خالفا جميع سابقها من المماليك . ولكنها سارا على خطتهم في
كونها أحاطا نفسيهما بشق أنواع البذخ التي كانت متيسرة آنذاك . فظلت مصر
أيام سيطرتها تن تحت نير الفوضى والضرائب الباهظة ، وتحت نير الظلم
والظلمين .

١٥٦ - ومع المزم أن الطبيعة تضافرت مع طفيلان الانسان إذ قد حدث في
نفس سنة ١٧٨٩ أن هطت الأمطار مراراً بطريقة غير معهودة في مصر ، حتى
لقد انحدر سيل المياه من الجبال وملا الشوارع والبيوت والوكالات إلى حد أن
عدداً من البيوت في حي الحسينية سقط . وقد صعب هذه السيول رعد قاصف
وبروق تخطف الأبصار فامتلات القلوب فرعاً . ثم تفشى الوباء في أعقاب هذه
السيول تفشياً مزعجاً حتى لقد كان الناس يرددون في ذهابهم وإيابهم كلمة : يا خفي
اللطاف نجنا مما نخاف (١) .

١٥٧ - وعلى الرغم من السيول ومن الوباء استمر إبراهيم بك ومراد بك
يناوشان قوات حسن باشا المعين من الباب العالي . على أن الشغال حسن باشا
بمقاتلة المماليك لم يعقه عن الابتعاد بالقبط . فأصدر الأوامر الصارمة بعدم
وهي أوامر تحتم عليهم دفع مبالغ باهظة له ، كما تحتم عدم ركوبهم الخيل وعدم
ارتدائهم الملابس الفاخرة وعدم استخدامهم المسلمين (٢) . بل لقد كانت الصرامة
بالغة إلى حد أن من لا يلبس الملابس الخاصة التي أوجبها الوالي التركي يرمونه
ويحتسبون عليه التراب (٣) وحتى القضاء الشرعي أصبح تابعاً للاستشارة إذ كان

(١) السكان ج ٣ ص ٢٠٥ .

(٢) مصر والحلال المصعب ص ١٠٠ .

(٣) منى القمص ص ٦٤٦ .

السلطان المسماني يرسل من عنده قاضى القضاة الذى كان يطلق عليه لقب قاضى
عسكر أفندى . . . وكان من بين اختصاصات هذا القاضى تقسيم التركات . وبهذه
الطريقة ابتز الترك مال الاحياء ثم استولوا على الجزء الاكبر من مال المواتى ا

الملك . . . فصل بالاعمال . . .
١٥٨ - ثم زحف نابليون وجنوده على مصر . وفى الفترة التى ظهرت فيها

طلائع الفرنسيين عند الشاطئ المصرى تضاعفت وطأة الظلم فتجاسر الامامة
ودخلوا بيوت القبط وكنائسهم وأديرتهم بحشاً عن الاسلحة . على أن الله معين
من ليس له معين ، قد جعل الامراء آنذاك يمنعون الامامة من الفتك بالقبط ومن
تخريب كنائسهم . . .

وغير بنا أن نتأمل وصف المعركة التى دارت بين الفرنسيين وأهل مصر ،
فتبين مدى اندفاع المصريين ذوداً عن ارضهم ورغم فقرهم وعدم حيازتهم الاسلحة
المناسبة ووقوفهم فى وجه عدو يزيد عنهم عدداً وعدة . فيقول لنا جيمس الدرديدج
ما ترجمته : وحالم رأى المصريون الجيش الفرنسى رموا بأنفسهم عليه فى عنف .

وكانت معركة حامية الوطيس سالت فيها الدماء غزيرة من الجانبين . ولكن
الفرنسيين كانوا سريعى التنقل فاطلقت نيرانهم من الاربع جهات ، فى حين أن
اضباط المماليك رهبوا فى مكانهم وكان ذلك فى شهر يوليو فى يوم شديد
الحرارة ، وزادت شدته عاصفه رملية . فراقب القاهريون دخان المعركة والرمال
تعلو فوق مدينتهم . . . وفى النهاية هرب المماليك . . . وسارع مراد بك نفسه إلى
قمرة بالجيزة ، وجمع كل ما يمكنه من ثروته فى خمس عشرة دقيقة ، وأمر جنوده

باحتراق المخازن العسكرية والبارود والمراكب الحربية الراسية عند الجيزة ، ثم

(١) مجانب الآثار . . . ج ٣ ص ٧ .

هرب إلى الصعيد (١)

ودخل نابليون القاهرة في ٢٥ يوليو سنة ١٧٩٨ واستولى على قصر عثم كان قد بناه محمد بك الالاني ، ولم يكن قد سكن فيه بعد . وكانت تحيط بالقصر حديقة مترامية الأطراف . والقصر بحديقته كان قائماً على المكان الذي أصبح فيما بعد فندق شبرد . وهذه واقعة بها شيء من الطرافة المسرحية ، لأن الاحتلال الأوربي بدأ من تلك الليلة وانتهى عندها حينما أحرق فندق شبرد سنة ١٩٥٢ (١) .

وخلال الأيام الأولى بدأ كان الاحتلال الفرنسي فيه شيء من الهدوء والتأخر فقد أخذ الجند يطوفون شوارع القاهرة وهم عزول من السلاح ، وكانوا يتضاחקون مع الشعب ، ويدفعون فيما يشترونه مبالغ باهظة . فبدأت الطمانينة تنسرب إلى القلوب وانفتحت الدكاكين . وكانها في ليلة أو نحوها انفتح معظم

(١) في كتابه « القاهرة » ص ١٥٥ حيث يقول :

“As soon as the Egyptians saw the French army, they hurled themselves at it with fury . The battle was bloody on both sides . But the French manœuvred all over the place, and the Mameluke officers didn't, so that the Egyptians were caught in a terrible crossfire. It was a hot windy day, and the citizens of Cairo watched the dust and smoke of the battle rising over their city . . . at the end, the Mamelukes fled . . . Murad Bey himself rushed to his palace at Giza, collected what he could of his fortune in fifteen minutes, told his soldiers to burn all the Military stores, & gunpowder, & gunboat along the river at Giza, then fled to the said . . . ”

على أن وصف الجبرتي لأسباب هزيمة المماليك بمطبا صورة عجيبة ، فيعد أن حدثنا عن عدم همتهم وسوء تدبيرهم وأهمالهم يقول : « ... حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم محتالون في وبتهم مفقرون بجمعهم محتفرون شأن هدمهم مرتبكون في رؤيتهم مضورون في هفتهم ... » من « مجانب الآثار . . . » ج ٣ ص ٧ - ٨ .

(٢) « القاهرة ... » ص ١٥٩ .

فرلسى ملا القاهريين مرحباً إذ رأوا قوائم الطعام بأسعار محدودة والناس يأكلون بالشوك والملاعق والسكاكين . وهكذا سار الفرنسيون بخطى خفيفة فكادت بداية غاية في المهارة .

ثم أصدرت رسالة وجهوها إلى المصريين ليستميلوهم إلى جانبهم ، ورغم الهدف المقصود منها ففيها فقرات جديرة بالتمعن ، فقد جاء فيها : . . . فإن كانت الأرض المصرية إلزاماً للمهايك فليرونا المحجة التي كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رزوف وطادل وحليم ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعداً لا يياس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الامور وبذلك يصلح حال الأمة كلها وسابقاً كان في الاراضي المصرية المدن العظيمة والحلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المهايك . . . " .

وخلال الأسابيع الأولى من دخوله القاهرة أنشأ نابليون ، المعهد العلمى المصرى ، لكي يبدأ علاقه المنة الذين استحضروهم معه عملهم مباشرة . وكان يحضر مناقشاتهم بنفسه ، ويتقدم إليهم بأسئلته .

وبهذه البداية الفائضة بالالفة والعناية زعم القبط أن هؤلاء الزاحفين قد يكونون أخف وطأة وأنهم قد ينقذونهم على الأقل من الفساد والتعسف الملازمين للحكم التركى . ولكن زعمهم لم يلبث أن تبدد لأن نابليون أخذ يتماق المشايخ ، ثم أعلن في منشور أرسله إليهم بأنه ، سلم وأنه صديق للباب العالى . وقد استهل هذا المنشور بالعبارة التالية : . بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك فى ملكه . . . إلى أن قال : . . . وبأبيها الشرباجية وأعيان البلد

قولوا لامتكم أن فرنساوية هم أيضاً مسلمون خالصين . وإثباتاً لذلك قد نزلوا في رومية الكبرى و ضربوا فيها كرسي البابا الذي كان يحث دائماً النصارى على محاربة الإسلام .^(١) على أن هذا المنشور لم يفعل فعله لأن المسلمين لم يصدقوه ونادوا بالمبادرة إلى القتال . وقد استجاب الشعب لهذا النداء ، بحيث أن جميع الناس بذلوا كل ما في وسعهم وفعلوا ما في قوتهم وطاقاتهم وسمحت نفوسهم يذل أمواهم .^(٢) ومن المؤلم أن جميع المنشورات التي أعلنها نابليون كان يستهلبها بهذه الصورة . ورغم قصورها عن توصيله إلى هدفه فقد كان يضيف إليها أحياناً كلمة «المحب لليلة المحمدية» .

على أن نابليون لم يلبث أن كشف عن ريائه إذ قد ضم عدداً من القبط إلى الديوان الذي ألفه . ولكن عمله هذا لم يكن تودداً للقبط إنما كان انتقاماً من العلماء لتشجيعهم الثورة التي قام بها القاهريون في وجه الفرنسيين بعد شهر واحد من دخولهم^(٣) . وخلال هذا القتال سيطرت الفوضى . فقام الناس في الريف يقتلون بعضهم البعض مما أدى إلى أن يسقط العدد العديد من الأقباط شهداء ، لأن الاعتداءات وقعت عليهم بطبيعة الحال . كذلك تفشى السلب والنهب . أما في القاهرة فقد سطا الأمرء على بيوت القبط وأديرتهم ، وعلى بيوت مختلف المسيحيين بحثاً عن الأسلحة .

ولسكى يتدارك الفرنسيون الموقف رأوا وجوب التصالح مع الشعب - المسلمين والقبط على السواء - فقام عدد كبير من نصارى الشوام والافرنج البلديين^(٤) ، بدور الوسطاء ، وانتفعوا بالمال الذي فرضوه ثمناً لوساطتهم . على

(١) « مظهر النفديس بذهاب الفرنسيين » أو يوميات الجبرتي ج ١ ص ٢٧ - ٢٩ .

(٢) شرحه ج ١ ص ٤٨ .

(٣) الأديدج . . . ص ١٦١ .

(٤) الجبرتي ج ١ ص ٦١ .

أنه رغم هذا التصالح استمر التوتر ولم يندق الفرنسيون والمصريون طعم الراحة
مذاك إلى نهاية الحملة الفرنسية .

١٥٩ - وفي وسط هذه الغمة ظل بعض القبط في مراكزهم ، فيحدثنا أحد
الفرنسيين عن أن كل قرية كان لها كاتب وصراف من القبط فكان الصراف يتلقى
المال والضرائب العينية بينما يسجلها الكاتب في الدفتر الخاص بها . وكان الكتبة
بالذات يستمتعون بمحظوة خاصة لدى الأمراء المماليك لما يقومون به من خدمة
لا يستطيع غيرهم تأديتها .

١٦٠ - وفي منتصف شهر سبتمبر سنة ١٧٩٨ (أى بعد دخولهم بشهرين)
أصدر الفرنسيون قانوناً بتجديد الانتفاع بالأرض وبحق المتقنين في توريثها
لأولادهم في حدود انتفاعهم بها . ومع أن هذا القانون لم ينفذ جدياً إلا أنه كان
الشرارة التي أيقظت الوعي بتجديد الملكية الفردية للأرض^(١) . إذ أن السلطان
التركي كان يعتبر كل الأراضى المصرية ملكاً له ، والعاملين بها مجرد عبيد يورثون
ويفلحون ويتجون ليقدموا له في النهاية ثمرة جهودهم المفضية .

١٦١ - وحدث في السنة الأولى من دخول الفرنسيين أنهم حاصروا نواحي
الخانكة و ضربوا العرب المقيمين فيها ، وبعد القتال نهبوا البيوت ونسلبوها . ثم
قبضوا على من استطاعوا إلقاء الأيدي عليه من الرجال والنساء ، وأحضروهم إلى
القاهرة حيث حبسهم في القلعة . وفي طريقهم إلى المردة استولوا على كل ما
وجدوه من البهائم وباعوها في القاهرة . و فصاروا يبيعون البقرة بريالين وثلاثة
والنمجة وابنها بريال . فاشترى غالب ذلك نصارى القبط^(٢) .

(١) دراسات في تاريخ مصر السياسي . . . لفوزي جرجس ص ٢٩ .

(٢) الجبرتي ج ١ ص ١٢٨ .

١٦٢ - ثم أعقب ذلك فترة من الركود ، إذ أطلق الفرنسيون الحرية للتصريين . إلا أن هذه الحرية وقتذاك لم تأتِ بشمر لكساد الأسواق وحصار البوارج الإنجليزية للموانئ المصرية ، ومنعها الصادرات والواردات . فالشغل الشعب الذي بلغ حالة يرثى لها من الفقر والاضنك بالحرف الدينية كقلى السمك وبيع الفطير والأشربة المسكرة ، كما أن عدداً كبيراً منهم اشتغل خماراً لكثرة استعمال الجنود الفرنسيين لهذه الدابة ، حتى لقد عبر أحد شعراء الفترة عن هذه الحالة بقوله : « إن الفرنسيين قد ضاعت دراهمهم فى مصر بين خمار وخنثار . »

ونما يوجع القلب أن رطاع القبط انضموا إذ ذاك إلى الشوام والأروام واليهود فى الظهور بمظاهر العظمة والترف : فركبوا الخيول وتقلدوا السيوف ، ولم يتعففوا عن لحش الكلام ولا عن الاستبداد بالمسلمين . وليس بغريب على هؤلاء الرعاع أن يسلكوا مثل هذا المسلك لأنهم كانوا من الساخرين بالدين وبرجال الدين كذلك اشتركوا فى احتفالات رأس السنة التى أقامها الفرنسيون (١) .

١٦٣ - على أنه ماكادت السنة الثانية من الحملة الفرنسية تبدأ حتى طالبوا القبط بمائة وخمسين ألف ريال فرلسي قالوا إنها متبقية من الضريبة التى كانت مفروضة عليهم من السنة الأولى وتأخروا عن دفعها . فاضطر الأراخنة إلى التعاون لدفع هذا المبلغ ذوداً منهم عن شميم (٢) .

١٦٤ - ثم رأى نابليون أن يفزو الشام فهاجمها بيهض جيشه مستبقياً ليهض الآخر فى مصر واصطدمت قواته بالقوات العثمانية فى عكا والرميلة واسكنه فشل

(١) شرحه ج ١ ص ١٣٢ - ١٣٤ و ١٥٢ .

(٢) شرحه ج ١ ص ٢٠٢ .

في الحالتين . والواقع أن الجنود البحارة الانجليز هم الذين هزموا لانهم سارعوا إلى مساندة الترك ^(١) . على أنه رغم فشله فقد نجح في تحطيم الحامية العثمانية التي كان ينوي السلطان التركي محاربة مصر بها . ثم اضطر نابليون إلى الانسحاب من الشام والعودة إلى مصر لأن المهدي كان قد ظهر وبدأ يحض على قتل الفرنسيين . ولسكنه لم يبق في مصر غير شهر واحد عاد بعده إلى فرنسا سرّاً تجنباً لوقوعه في أسر الانجليز ^(٢) .

١٦٥ - وقد كان لإشغال نابليون بالحرب في الشام ، وظهور المهدي ، أثرهما على الحياة المصرية إذ قد ازدادت حدة التوتر كما سقط كثير من الضحايا . ويبدو أن البلايا تجتذب البلايا - فلم يكن الترك وتعايرك الفرنسيين معهم ومع المماليك بالبلايا الوحيدة التي رزح تحتها المصريون ، بل زاد عليها انتشار الطاعون الذي وصفوه آنذاك « بالسكة » لشدة فتكه بهم . وهنا سارع الفرنسيون إلى اتخاذ كل الوسائل الوقائية للحد من امتداد الطاعون . فأعلنوا منشوراً به الأوامر المشددة على وجوب التبليغ عن أي شخص مريض ، وحالما يصل البلاغ تقام كارنتينة حول المنطقة التي ظهرت فيها الحالة ، وينقل الطبيب لإجراء كل ما يلزم من الاحتياطات دفماً للعدوى . وبهذه الوسائل نجح الفرنسيون في التغلب على الطاعون ^(٣) . صحيح إنهم في ذلك كانوا يستهدفون الحرص على حياة جنودهم ، ولكنهم من غير شك حووا العدد الكبير من المصريين ، وفتحوا أذنانهم إلى امكانية الوقاية من هذا المرض الفتال .

١٦٦ - ثم حدث أن أرسل السلطان التركي جيشاً بقيادة ناصيف باشا ، فدارت

(١) الدريدج . . . ص ١٦٥ .

(٢) « تاريخ مصر من الحملة الفرنسية إلى نهاية عصر اسماعيل » لأحمد عزت عبد

(٣) الجيرتي ج ١ ص ٨٣ و ١٥٣ .

المكريم ص ٢٩٣ .

المعارك بينه وبين الفرنسيين . ومع أن أحداً لم يحرز نصراً حاسماً إلا أن ناصيف باشا دخل العاصمة وأمر بقتل النصارى دون تفریق بين أجنبي وسورى وقبطى . فقد أراد القائد التركى أن يغطى فشله بتوجيه غضب الشعب ضد غيره . ولم يجد من يستثير الغضب الشعبى ضده غير المسيحيين . فأصدر هذا الأمر الوحش الذى لم يتفذه إلبطش وحده بل شاركه فيه العامة أيضاً . وليس من شك فى أنه قد سقط العدد الكبير من الشهداء واكتنا لن نستطيع تحديده ولا معرفة أسماء من استشهدوا . على أن مراحم الله تداركت شعبه . فذهب ضابط تركى اسمه عثمان بك إلى ناصيف باشا وقال له : « ليس من العدالة أن تهرقوا دماء رعايا الدولة فإن ذلك مخالف للأرادة السنية . وعندما صدر الأمر بالكف عن هذه المذبحة » . وهكذا نجد أن الأب السامارى يقيم لأولاده من يدافع عنهم حتى من صفوف الباطشين بهم !

١٦٧ - وتضاعف البطش والفلق لان الانجليز أرسلوا مركبين إلى بحر القلزم (الأحمر) وأطلقوا مدافعهم على منطقة السويس كذلك استولوا على ما كان يحمله التجار المصريون من البن ومختلف الحاجيات التى كانوا متجهين بها إلى العاصمة . ففر جمهور الناس هرباً من هذه الاعتداءات ولجأوا إلى القاهرة وأشاعوا ما حدث مما زاد القلوب اضطراباً .

وكان وصول المركبتين الانجليزيتين البادرة الاولى للتدخل الانجليزى الفعلى إلى جانب الترك (بعد تدخلهم فى الشام) لإخراج الفرنسيين من مصر ، إذ قد رست المراكب الانجليزية فى المياه المصرية تحت قيادة سيدنى سميث . وأدرك كبير (الذى أقامه نابليون قائداً للحملة عند مغادرته مصر) أنه لن يتصر فوافق على

التوقيع على معاهدة مؤداها الخروج من البلاد وعندها قدم إلى القاهرة ومعه محمد
أغا موفداً من الباب العالي ، واجتمع بالناس الذين توافدوا للسلام على الأغا
العثماني . وفي اليوم التالي ألف كبير ديوانا من العلماء والأعيان وكبار النصارى
من الأقباط والشوام وكبار التجار ، مطالباً الكل بتحصيل ثلاثة آلاف كيس
من المال لتمكين الفرنسيين من الرحيل .

١٦٨ - وفي هذه الفترة برز الراجح : فقد وقف للبترق يقبون الفرنسيين
تأهباً الساعة التي يحملون فيها عن البلاد ، واقرب مراد بك وغيره من المماليك
من القاهرة واتخذوا وقفة الضياع التي تبين عن القتال فتربص بسبب أن تظهر
بفريسة يقتلها غيرها . وبين هؤلاء وأولئك أخذ الراجح يقتلون الفرنسيين الذين
كانوا هم وقائدهم كبير أشبه بمن وقع في المصيدة . فقد أغرق الإنجليز مرأ كيهم ولم
تكن لديهم وسيلة للخروج . ورأى كبير أن الوقوف بها كئيباً ليس مطابفاً لقرور
أن يضرب ضربته . ومن ثم جمع جيشه وخرج إلى عين شمس (هليوبوليس)
وقاتل الترك بكل ما أوتي من عجب . ففر الترك من أمامه منذ البضربة الأولى ،
وفرَّ معهم المماليك . ورأى القاهريون الفارين وسحموا دوى البارود ، فخرجوا
يحملون عصيم وهرأواتهم إذ لم يكن لديهم غيرها . ولكنهم في الوقت عينه
أدركوا أنهم في خطر من الترك . وتسجيلاً للواقع أن المصارك ضد الفرنسيين لم
يخضها الترك ولا حتى المماليك . وإنما خاضها الشعب المصري منذ البداية وخاصة
سكان القاهرة (١) . كذلك أدرك الترك والمماليك معاً أن الفرنسيين رغم
انتصارهم لن يستطيعوا الصمود فاتخذت كل جماعة منهم منطقة خاصة في القاهرة .
وإراد الترك أن يتسلوا خلال انتظارهم فلم يجدوا من تسلية تشغلهم غير قتل
القبط إذ قد نادى نصوح باشا وسط السوق : «قاتلوا النصارى وجاهدوا فيهم» .

فلما سمع العامة هذا النداء هاجروا واندفعوا إلى الحارات يقتلون من يجدونه فيها، ثم هجموا على بيوت القبط التي بناحية بين السوزين وباب الشرية وجبهة الموسكى^(١). ثم رأى عثمان كنهدها أن اكتناز المال أنفع له من قتل الناس فأعلن أن كل من يقبض على نصراني أو يهودي يحضره إليه . وحين يقع هؤلاء في قبضته يطالبهم بمبلغ معين من المال مقابل إطلاق سراحهم^(٢) . ورأى القبط أن خير وسيلة أمامهم هي الهرب من القاهرة . فكانوا يأخذون نساءهم وأولادهم ويتسلقون الجدران والأسوار ويذهبون إلى مصر العتيقة أو إلى الجزيرة .

أما الفرنسيون فقلوا بقورهم بأشغال الحرائق في بعض أحياء القاهرة وأهملوا بولاق . وفي وجه هذه القوى المتعادية ثار القاهريون ثورتهم الثانية التي استمرت سبعة وثلاثين يوماً ولكنها باءت بالفشل في النهاية

١٦٩ - واشتد التوتر كما تضاعف الحقد والبغضاء فانتهى هذا كله بمقتل كبير بيد سليمان الحلبي في ١٧ يونيو سنة ١٨٠٠ . وحبس الجميع أنفاسهم متوقعين أن ينتقم الفرنسيون انتقاماً مروعاً . إلا أن الفرنسيين رأوا من الحكمة الاكتفاء بإعدام القاتل واثني آخرين كانوا شركاءه في التآمر على الجريمة . كذلك أجروا تفتيشاً دقيقاً للأزهر ليعرفوا إن كان قد اختبأ بداخله غريب أو أفساق، وإن كان أخفى فيه أحد شيئاً من السلاح . لأن سليمان الحلبي القاتل كان يدرس بالأزهر . وبازاء هذا البحث رأى المشايخ إخلاء الجامع من المجاورين وبخاصة الترك منهم . ثم حملوا الكتب الخاصة والمرفوفة والامتعة خارجه . ثم توجه المشايخ إلى كبير الفرنسيين - مينو - واحتأذونه في اغلاق الأزهر وتسميره كي لا يجد فيه أي شخص ملجأ يهرب إليه فعارضهم بعض القبط الحاضرين معهم . ولكن المشايخ

(١) الجبرتي ج ٢ ص ٢٨ .

(٢) شرحه ج ٢ ص ٢٦ .

أسكتوم وحصلوا على الإذن باغلاقه . فسمروا أبوابه من كل الجهات^(١)
ويقدم لنا الجبرتي صورة تمسكتنا من أن ندرك مدى الاضطرابات والفتن
فيقول : وتعدي القوى على الضعيف ، واستمرت أسواق المدينة بجفرة
والطرق مقفرة ، والحوانيت مقفولة والمعقول مخبولة ، والوكايل مفلوكة والنفوس
مطبوقة ، والغرامات هائلة والأرزاق عاطلة وإذا أراد الانسان أن يفر
إلى أبعده مكان ، وينجو بنفسه ويرضى بغير أبناء جنسه ، لا يجد طريقاً للذهاب ،
وخصوصاً من أشرار الأعراب ، الذين هم أقبح الأجناس^(٢) . وبهذه
الكلمات التي هي جزء مما خطه مفكر مصري عاش خلال تلك الأحداث نرى ما كان
يقاسيه المصريون جميعاً من بؤس وقلق .

١٧٠ - وما زاد العطين بلة أن الفرنسيين كانوا مازالوا في حاجة ملحة إلى
المال ليستطيعوا الرحيل . فصاروا يجوبون المدن والقرى يطلبون مبالغ محددة
من كل منها ، ويحددون لتقديمها وقتاً . فإن لم يستطع الناس تقديم المال المفروض
في الوقت المحدد ضربوهم بالمفارع والكسارات على ركبهم ومفاصلهم
وبالطبع كان المشاهدون لهذه الفظائع يمتثلون فرحاً : فيصانعونهم وأتباعهم
بالبراطيل والرشوات ، وانضم إليهم الأسافل من القبط والآراذل من المناقبين^(٣) .
ومن المومج أن أحد الذين عينهم الفرنسيون للبطالة بالمسال كان قبطياً اسمه
شكر الله ، فنزل بالناس منه ما لا يوصف فكان يدخل إلى دار أي شخص كان لطلب
المال ومعه العسكر من الفرنسيين والفعلة فيأمرهم بهدم الدار إن لم يدفعوا
المقرر . . . ثم ازدادت الأمور نازماً إذ صدرت الأوامر بفرض مبالغ باهظة

(١) شرحه ج ٢ ص ٧٤ .
(٢) شرحه ج ٢ ص ٦٣ .
(٣) الجبرتي ج ٢ ص ٦٩ .

على الصنائع والحرف فاضطرب الجميع ، وزادت وساوسهم وأشيع أن يعقوب
القبطي تكفل بقبض ذلك وبقلد في ذلك شكر الله واضرا به من شياطين
القبطة . . . (١) ، آية من كتابه

ومقابل هؤلاء ، والشياطين ، نجد أن الشيخ السادات حين ضاق به الأمر لرهن
حصه أرسل إلى كبار القبط لكي يسعوا في قضيته (٢) .

وهذه من غير شك صورة قائمة كسيفه لا تملأ النفس حسرة فقط بل تملأها
دهشة أيضاً . إذ كيف تسنى لهذا الشعب الذي ضاقت به السبل إلى هذا الحد أن
يمرّ منها ويعاود الحياة ؟ - بل ويجاهد إلى أن يرفع رأسه من جديد ؟ وليس
من شك في أن كل هذه البلايا التي جازها الشعب المصري وظل باقياً - ليس من
شك في أنها توضح لنا حقيقة ذلك الوعد الإلهي الكريم ، « مبارك شهي مصر » .

١٧١ - وكان القائد الفرنسي مينو قد أشهر إسلامه قبل مقتل كبير بقليل
وأطلق على نفسه اسم « عبد الله » ، ولبس ملابس الشيوخ المسلمين وتزوج بمسلة
أنجب منها ولداً . فآلت إليه السلطة العليا بعد كبير . ولكن إسلامه لم يفده شيئاً
لأن المسلمين في مصر يتشككون فيمن بشر إسلامه من الأوربيين . ولهذا ظلوا
يعتبرون « عبد الله » فرنسياً كغيره من مواطنيه الذين ظلوا على مسيحياتهم . وعلى
آية حال لم يكن أمامه مخرج من المأزق الذي كان فيه ، ولم يحاول أن يقوم بأي
عمل يستطيع به أن يكسب به ود المصريين من جديد . فانغمس في إقامة الحفلات
في الحدائق العامة . ولكن حتى هذه الحفلات ضاعت قيمتها لاضطرار من يريد
حضورها إلى دفع ثمن الدخول (٣) .

(١) عجائب الآثار . . . ج ٣ ص ١٣٥ و ١٣٦ .

(٢) شرح ج ٣ ص ١١٥ .

(٣) الدرديدج . . . ص ١٦٨ .

ثم رأى أن يعيد تنسيق الديوان الذى كان قد أنشأه نابليون منذ وصوله
القاهرة . فأخرج منه القبط واليوريين المسيحيين والعناصر المدنية الإسلامية ،
وقصر المضوية فيه على تسعة من المشايخ . كذلك رقت عدداً من الكتبة القبط
من وظائفهم بدواوين الحكومة . وفى اثرت عينه رأى الجنرال بليار (الذى
تسلم قيادة الجيش) أن يحاول تدارك الموقف وتخفيف حدة التوتر فأقام وليمة
عشاء دعا إليها مشايخ اديوان وأعيان التجار وأكابر نصارى القبط والشوام (١) .

١٧٢ - على أن هذه المحاولة من جانب بليار جاءت بعد فوات الأوان لأن
الجيش الانجليزى نزل فى أبو قير فى ٧ مارس سنة ١٨٠١ ، وفى الوقت عينه وصل
الجيش التركى إلى العريش . ولما وصلت الآباء بوصول الجيشين سرى الفرع فى
الغلوب - وفى هذه المرة فرغ الفرانسيسون كما فرغ المصريون وزاد الهم أضعافاً
بتمرد المصريين من جهة وبتفتش الطاعون من الجهة الأخرى . وكان الطاعون فى
هذه المرة رهيباً لم يعده له مثل حتى بين من اعتادوا فتكهم مراراً وتكراراً .
فحصد الآلاف بل ومئات الآلاف إذ يقدر البعض أن ثلثى السكان ماتوا به (٢) .
وبما أن المرض لا يفرق بين حاكم ومحكوم ، وبين مصرى وتركى ، فقد مات
عدد وفير من المسيطرين على مصر آنذاك من بينهم مراد بك . وتضاعفت الأوزاء
بزحف الانجليز والترك الذين وصلوا مشارف القاهرة وحاصروها فأجاءوا
شعبها المنهوك . وهكذا تضاعفت كل قوى الشر والظلم على المصريين .

١٧٣ - وفى وسط كل هذا الظلام والظلم سلم الفرانسيسون . وأركبهم الانجليز
على مراكبهم وأعادوهم إلى فرنسا . وبانحباب الفرانسيسين دخل الترك القاهرة
مرة أخرى . وكعادتهم قتلوا ونهبوا وأحرقوا وانتهكوا كل الحرمات . فازدادت

(١) الجبرتي م ٢ ص ٨٦ .

(٢) شرحه ص ١٢٧ .

الظلة المظلمة حاكم . ولم يبق الانجليز في مصر إلا الوقت الكافي لإعادة الترك إلى السيطرة عليها ، ولا لتطبيع أن تصور الأحوال التي اجتاحت المصريين إذ ذاك . ولكن كلمة قصيرة قلها أحد الانجليز الذين دخلوا القاهرة مع الترك تعطينا صورة مزعجة لما يصيب الانسان من عسى نتيجة لأغراضه السياسية . فقد قال حين رأى الترك يذبحون اليهود والمسيحيين والقبط : « يا لحظنا ! في أن لنا حلفاء مباركين ! »^(١) ، ويازاه هذا الانحدار الروحي اكتفى غيره بأن يقرر الواقع الموجه فقال : « لقد أعاد الانجليز مصر إلى أمان الظلمة والجحيم »^(٢) . على أن الحق لا يعدم له نصير رغم كل ظلم ، فيكتب انجليزي ثالث كلمات فيها الآسى والندم إذ يقول : « مهما كان الهدف ، ومهما بلغ الثمن النهائي ، فإن مصر مدينة لليونابرت دين الاعتراف بالجحيم لأنه أعطاهما لحظة طابرة من إضعاف لأثر الباب العالي . أما انجلترا فتعاقب بها وصحة في كونها السبب لإعادة وضع مصر سنة ١٨٠١ تحت النير التركي مرة أخرى . فصر - موضوع التصارع بين أكبر امبراطوريتين في العالم - قد سلموها بلا شرط يضمن لها خير المستقبل إلى الترك »^(٣) .

(1) " What blessed allies we have ! "

(2) " ... the tottering Ottoman Empire and the Mamelukes were restored to, once again, hold Egypt in the safety of darkness and ignorance " .

والمحوظتان أوردتها جيس ألدرينج في كتابه « القاهرة » ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٣) عن كتاب مويرلي بل « من فرعون إلى الفلاح » ص ١٨١ حيث يقول :

" ... whatever may have been the motive, whatever may have been the ultimate cost, Egypt owes to Bonaparte a debt of gratitude for having, even for a moment, lessened the influence of the Porte . And to England must remain the disgrace of having, in 1801, replaced her under that yoke . Egypt, the cause of contention of the two greatest empires of the world, was handed over to the Turk without one single stipulation for her future welfare " .

١٧٤ - نرى من خلال كل هذه الانقلابات والاهوال أن بابوية الانبا مرقس الثامن كانت وجماعاً على وجع . فاذا عمل خلال كل هذه الخطوب ؟ لقد كان متعذراً عليه أن يتنقل بين شعبه لخطورة مثل هذا التنقل . فهو - من غير شك - قد انصرف إلى الزراعة والتوسل لأن هذا الباب كان الباب الوحيد المفتوح أمامه . فكانت حياته تنفيذاً فعلياً لذلك البيت الشعري الذي كتبه أمير الشعراء بعد ذلك بقرن من الزمان حين هتف :

سُدَّتْ عَلَى مَذَاهِي وَمَسَالِكِي إِلَّا إِلَيْكَ فَمَا عَسَى أَصْنَعُ

كذلك انصرف إلى الكتابة لتكون وسيلة لتعزية القلوب السكينة فوضع مواظ عديدة لقراءتها في الكنائس . وهذه المواظ تتناول مختلف الموضوعات ولو أنها تهدف إلى غاية واحدة هي بيان المؤمنين . ومن نعمة الله أن بقيت هذه المواظ للآن ، وهي مجموعة ضمن كتاب واحد محفوظ بالمكتبة البابوية بالقاهرة (١) . والموضوعات التي عالجهما للبابا مرقس الثامن هي : ١ - في الرحمة ، ٢ - من أجل الذين يتكلمون في الكنيسة من غير أدب ، ٣ - من أجل دورة الفقراء في الكنيسة - وقد قال في الدرَج (٢) : أنا أسألكم بلبين المسيح وتواضعه أن تبطلوا دورة الأطباق ولا يدور الفقراء فالأطباق يقفون بها في الخورس التحتاني وذلك وقت التسريح . ومثل ذلك يقف الفقراء بجانبهم بأدب ووقار (٣) . ٤ - من أجل الأشابين - قال : وحينما تعمدون أطفالكم تحملونهم إلى البيعة بغير أشابين لأجل حمل الميرون ، ويحملهم الصبيان والشبان والكبار وليس لأحد منكم

(١) مخطوطة رقم ١٨١٥ . (٢) أي السفر .

(٣) يبدو عطف البابا على الفقراء من هذا التنبؤ كما يبدو منه أيضاً حرصه على نظام الكنيسة وهدورها لأن وقت التسريح هو الوقت الذي يصرف فيه الكاهن الثوب بالبركة - أي بعد الانتهاء من الصلوات . أما الموضوع التالي فيبين لنا حرص البابا على القيم الروحية في التعامل الاجتماعي .

إشبين لحص لأجل الاعتراف عن الطفل وحمل الميرون . فياترى إذا كان الطفل
حمل طفلة في الميرون وكبرت وتزوج بها الطفل الحامل لها في الميرون تناولها خطية
عظمى لأنها أخته في الحقيقة . كذلك إذا حمل رجل طفلاً كبيراً وتزوج بنته من
هنا يحصل التمدي على ناموس الكنيسة ، ، ٥ - من أجل الذين يشربون الخمر في
الكنيسة : ، ... هذه عادة من عوايد عبادة الاوثان لأن أولئك كانوا يستعملون
الملاهي عند أكلهم وشربهم أمام أصنامهم وقد شهد بذلك الرسول بولس في
كورنثية ، ، ٦ - من أجل الذين كانوا يزوجون بناتهم إلى الأمم الغير مسيحيين ،
٧ - من أجل تربية الأولاد وتعطيل بعض الكنائس من عدم خدمة الشهامة ،
٨ - من أجل الذين يقصدون السحرة في مضرة الناس ، ، ٩ - من أجل الذين
يتهاونون في تعويد أولادهم ، ، ١٠ - من أجل الشفقة وعمل الخير ، ، ١١ - من أجل
الذين يعترضون على الله في أحكامه ، ، ١٢ - من أجل الكثرة والتزام راعي النفوس
بتعليم رعيته ما يجب للخلاص ، ، ١٣ - من أجل النجاسة ، ، ١٤ - من أجل المنافقين ،
١٥ - من أجل التناول من السراير المقدسة ، ، ١٦ - من أجل المنافقين المبغضين
لإخوتهم ، ، ١٧ - من أجل ما صار لنا من التعب ، ، ١٨ - من أجل الانذار الإلهي
لمن ارتكبوا المماهي ويطلقون نساءهم بغير سبب ، ، ١٩ - تعزية في الشدائد ،
٢٠ - ثم صورة جواب إلى الوزراء والقضاة والمدبرين والشبان والحكام القانتين
بسياسة أهل الحبشة وما نحويه من الأقاليم ، ، ٢١ - ثم صورة جواب منه إلى ملك
الحبشة ... (١) ، ، ٢٢ - رسالة إلى انسان كان في شدة وخاص منها (نسخة في سنة
١٥٢٠ ش) ، ، ٢٣ - رسالة مرتبة نسخت في سنة ألف وخمسمائة اثنين وعشرين قبطية
وهي استغاثة بطلب المعونة وتشجيعاً للشعب على احتمال ضيقاته ... ، ، ٢٤ - رسالة
تأمل وتعجب في غرور هذه الدنيا ومن يشق بها ... ، ، ٢٥ - رسالة تعزية إلى

(١) هنا أيضاً توضع عنابة الببارات الاكثريين بأبنائهم الأقباش

السان كان في شدة وخلص منها يقول فيها : « إن المكتب الشرعية يابني الحبيب
هزى الله قلبك بعزاء الروح القدس المزمى تدعونا إلى تعزية بعضنا بعضاً والحل
والأدب والمحبة والعادة بحجة على ذلك فقد صار مستحجاً وفرضاً. وما هذا إلا لأن
المباشر بذاته الألم والحزن قد يعدم الرأي الصائب عند حلول المصائب أو ينسى
الأمر الواجب لاستيلاء الاكتئاب عليه فيحتاج إلى من يذكره . لذلك اكتب
إليك . . . ٢٦٠ - رسالة من أجل انان شلح الرهبة في سنة ١٥١٥ واسمه
الرهب حنا أبو طازر ، ٢٧٠ - رسالة أخرى إلى راهب شلح الرهبة وأحب هذا
العالم ، ٢٨٠ - أسماء الآباء من أول الخليقة وعدد سن كل واحد منهم تقلا من
النسخة النبعينية وهي توافق ما نشرته جمعية المنشأة القبطية في تقيتها سنة
١٦٢١ ش ١١ .

وهذه الموضوعات تبين لنا بوضوح سعة أفق الآباء مرقس الثامن ومدى
حرصه على شعبه وسهره على رعايته . ولا يسعنا إلا الأسف على أن هذه
الكتابات البابوية الهادفة محبوسة داخل الدواليب ولا يسمع عنها إلا الباحث
الساعي نحو المعرفة . وما يزيد الأسف أضماً أن جهل القبط بكتابات آباءهم
(وبخاصة فيما توصف بالعصور المظلمة) دفعهم إلى الزعم بتفصيل هؤلاء الآباء
الساشرين . ثم ضاعفت الدعايات الأجنبية هذا الزعم . فكثرت القبطية ليست
كنيسة الجنود المجهولين لحسب بل إنها هي نفسها فوق ذلك الجندى المجهول الأكبر :
إنها مجهولة حتى من أبنائها رغم بسالتها على مدى القرون .

وإلى جانب ما كتبه البابا بنفسه توجد مخطوطة يزعمها صليب شبيكة متعدد
الألوان على الورقة ٢٢٨ (وجه) منها ، وفي كل من ركنيها السفليين شجرة ليمون .

(١) منى القمص . . . ص ٦٢٩ - ٦٣٠ ، تاريخ الأمة القبطية . . . ص ١٢٣ ،
« نوابغ الأقباط ومشاهيرهم في القرن التاسع عشر » لتوليف أسكاروس ١٦ ص ٤٩ - ٥٣ ،

كذلك تحمل ورقها ٢٢١ (وجهه) صورة للقديس متى البشير ، وفي أسفلها وردت هذه الجملة : و رسم الحقير يوحنا أحمر الشمامسة خدام بيعة العذرى بحارة الروم همر ما الله . . .

والجزء الثاني من هذه المخطوطة هو انجيل القديس متى . يحيط بهفحة الأولى إطار بديع . والورقة ٨٢ (وجه) يزينا رسم لنجمة داود مزدوجة وموضوعة داخل دائرة . وفي أسفل الورقة طبق تزخرفه دوائر من أوراق الشجر المتشابكة . والسكل ملون بالأوان متعددة . أما ورقة ٧٩ (وجه) فعبارة عن أيقونة لمار مرقس البشير على خلفيته من الذهب . والانجيل مكتوب بالقبطية والعربية ^(١) . ومن هذه المخطوطة نفهم أن الشماس سار على خطة البابا في العناية بكتابة الكتب البيعية ولو أن البابا - بحكم أبوتته - انصرف إلى كتابة ما يبنى شعبه .

ومناك مخطوطة أخرى جاء في آخرها أن كاتبها هو الايفومانس جرجس ميخائيل كاهن كنيسة الام دولاجى والقديس ميخائيل (الملاك) بمدينة أسنا . والمخطوطة تتضمن قراءات أسبوع البسخنة . وقد تمت كتابتها في ١١ صرى سنة ١٥١٤ ش ^(٢) .

وثمة مخطوطة ثالثة تتضمن أمثال سليمان الحكيم (أربعة عشر أمحاحاً منها فقط) وسفر أيوب في نهرين : قبطى وعربى بخط ابراهيم أبو طبل ابن سمعان الحوانكى وبرسم الانبا كيراس أسقف البهنسا . والمخطوطة محلاة بالمداد الاحمر المتناثر على كل صفحاتها . وفي أولها صليب متعدد الألوان . وهى مجلدة بمجلدة

(١) مخطوطة ١٩١ - رقم ٣١ محفوظة بالمكتبة البابوية بالقاهرة ومؤرخة ٧٠ بؤونة سنة ١٥١١ ش .

(٢) مخطوطة ٧١ - ٢٢ أدب - محفوظة بمكتبة المتحف القبطى .

مصحوفة منقوشة لها لسان ليستعمله القارىء علامة أثناء قراءته . والتاريخ في آخر
المخطوطة هو ٢٦ طوبة سنة ١٥١٠ ش^(١) . ويبدو أن هذا الناسخ قد كتب
نسخة أخرى للكتاب عينه مخطوطة الآن بالمتحف البريطاني . وقد أضاف إلى
سفر أيوب تمهيداً قبل البدء فيه سماه « مقدمة » وإبراهيم أبو طبل هذا كان
مكتحفاً بخدمة كنيحة أبي السيفين بمصر القديمة . وقد كتب نسخة الثانية على
نفقة الشاس والأرخن العالم يوسف بن الياس البرماوى . والتاريخ الوارد على
الجزء الأول من المخطوطة هو ٢٤ بابه سنة ١٥١٢ ، وعلى الجزء الثانى هو ١١
هاتور سنة ١٥١٢ ش^(٢) .

ويمكن أن نستنج أن هناك مخطوطات أخرى ترجع إلى هذا العصر ولكنها
ضاعت أو ما زالت في ركن ما - إذ ليس من المعقول أن تكون مخطوطة من
القاهرة وأخرى من أسنا وثالثة من منطقة اليمنى من غير أن يكون للبدن الأخرى
نصيب في مثل هذا العمل .

١٧٥ - وبعد الجلاء الفرنسى بشهور قليلة حين حل شيء من الهدوء الاجتماعى
نودى بعدم التعرض لليهودى أو نصرانى قبطياً كان أو شامياً أو رومياً لأن الجميع
رعابا السلطان ، كما نودى على الجميع بأن ينسوا ما فات ، لأن الماضى لا يعاد^(٣) .
وفى الوقت عينه قال عابدى باشا فى ديوانه حيث اجتمع الأمراء والمشايخ : « إنا

(١) من مقال لقمص ميصائيل بجر بعنوان « أفليم النيا فى العصر القبطى » نشره فى
مجلة « صوت النهداء » السنة الرابعة العدد الحادى عشر (نوفمبر سنة ١٩٦٢) ص ٢٤ .
(٢) من سجل المخطوطات القبطية بالمتحف البريطانى للدكتور كروم ص ٣١٨ : مخطوطة
٧٢٤ . ويبدو أن الأرخن يوسف الذى أنفق على كتابة هذه المخطوطة شقيق للأرخن واصف
الذى وجه سؤالاً إلى الأبا يوساب بن الأبح لأن كليهما يوصف بأنه ابن الياس البرماوى .
(٣) الجبرى . . . ج ٢ ص ١٨٢ .

وأبنا النصرى إذا تعافدوا على شئ لا ينتصروه ولا يختلوا عنه بدقيقة ١١١ .
وعندهما وجد البابا فرصة للمعمل فقام بإصلاح الكنائس والأديرة التي وجدها
متصدعة (١٢) . وبما استلقت النظر أن هناك « بدرشيل » بابوى قد زين كه الايمن
بالآية القائلة : « يمين الرب رفعتنى . يمين الرب قوتنى » . بيدنا كتب على السك
الأيسر « يدك صنعتانى وجبلتانى فأفهمنى » . و « المجد لله فى الملا وعلى الأرض
السلام » . وجاء عن هذا البدرشيل : « بما اهتم به السيد الأب المكرم أبنا مرقس
الثامن بعد المئة (١٣) . كذلك حصل (فى هذه الفترة) المهلم ابرهيم الجوهرى على
الاذن ببناء كاتدرائية جديدة بحى الأزبكية . فبدأت عمارتها فى ظل هذا البابا
الصبور . على أن العمر لم يمتد به ليرى تمام بنائها ، كما لم يمتد به لينعم بالهدوء
الذى أعقب المواصف المورجاء التي مرت عليه . لأنه تبيح فى السنة التالية لالسحاب
الفرنسين ، فانتقل إلى العالم الذى لا يززع سلامه طاصف ولا تغير ظلمة على
أنواره . وكانت مدة رياسته ثلاث عشرة سنة وشهرين . ولقد دفن فى الكنيسة
الجديدة التي دعيت باسم الكاروز الحبيب والتي أصبحت فى عهد خليفته المباشر
(أبنا بطرس الجاوى) المقر البابوى (١٤) .

(١) عجائب الآثار . . . ج ٢ ص ١٧٤ .

(٢) منى القمص . . . ص ٦٣٢ .

(٣) « دليل المتحف القبطى » لمرقس سمكة ج ١ ص ١٦١ ، وكلمة « بدرشيل »

ماخوذة عن اليونانية ومصاتها ما يحيط بالرقبة وهو أحد الملابس الكهنوتية وفى الكثير من
الملابس المتبقية نجده القطعة المشغولة المزركشة منسوجة على انفراد ومخاطة بعد ذلك على الثوب .
على أنها كانت أحياناً تكون ضمن النسيج الأصيل ثم تغطى بطبقة من الشمع قبل صنع الثوب .
وبعد أن تم صباغته ينزع الشمع فتكون الزركشة بلون السكتان الأصيل على أرضية ملونة .

(٤) كان الكرسي المرقسى فى الاسكندرية لأنها المدينة التي نلت البشارة من مار مرقس

وفىها نال إكمال الشهادة . ثم نقل الأبنا خريستودولس (البابا الاسكندرى الـ ٦٦) الامر
البابوى إلى القاهرة سنة ١٠٢٩ بكنيسة السيدة العذراء (المعلقة) . فلما آتت الادة المرقبية
إلى الأبنا غبريال ابن تريك (البابا الاسكندرى الـ ٧٠) اتخذ من كنيسة أبى اليبين «

ولما يجدر ذكره أن هناك رسالة راعوية مازالت باقية للأبنا مرقس الثامن
بعث بها لشعبه حين احتفرت الأمور وزالت المن والضيقات مستهدفاً تثبيت
القلوب بتوجيهها إلى أن العناية الإلهية ساهرة على الكنيسة . وهذا هو نص
الرسالة : « باسم الله الرؤوف الرحيم »

« يا الله الخلاص »

« البركة الكاملة . والنعمة الشاملة . على ذات الأبناء المباركين . الأحبة
العطائين . القمامة المدبرين . والسكنة المؤمنين . الشمامسة المكرمين . والأراخنة
المبجلين . وكافة الشعب المسيحي بارك الله عليهم بالبركات الروحانية الحاملة على
رسله وأنبيائه وصانعي إرادته ووصاياه بشفاعة العذراء في كل حين . آمين .

« بعد تجديد البركات إليهم وإهداء السلام الروحاني عليهم الموجب لإصدار
هذه الرسالة إليهم - نعلم وندم أننا نريد أن نشرح لكم بعض الأمور السائرة في
هذه الأيام . وإن كانت محزنة لكن الله قادر أن يبدها بفرح وابتهاج . إلا أن
الضرورة الجأتنا أن نورد لكم السبب الذي من أجله صارت هذه الأمور . لأن
كل شيء موضوع له محمول . وكل موضوع ومحمول له نتيجة . والحال أننا إذا
استعملنا الأمور المنهى عنها . وابتدأنا أن نتعلم عادات الأمم الغربية ولازمنا

« (بمصر القديمة) مقراً بابوياً ، ثم أطرها الأنا مرقس الثالث (البابا الـ ٧٣) إلى المعلقة
مرة أخرى . وفي سنة ١٢٩٢ اتخذ الأنا يونس الثامن (البابا الـ ٨٠) مقراً بابوياً في
كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة . ثم اضطرت الأحداث السياسية البابا مانوس الرابع (البابا
المرقس الـ ١٠٢) إلى جعل كنيسة السيدة العذراء المنهضة بحارة الروم مقراً بابوياً . واستمر
الباباوات يقيمون هذه الكنيسة إلى أن تم بناء الكاتدرائية المرقسية بالأزبكية فأصبحت هي
المقر البابوياً في أواخر بابوية الأنا مرقس الثامن إلى نهاية بابوية الأنا كيرلس السادس
(البابا المرقس الـ ١١٦) . فلما اعتلى الأنا شنودة الثالث الكرسي المرقسي في ١٤ نوفمبر
سنة ١٩٧١ جل من الأنا رويس المقر البابوياً وبخاصة لقيام كاتدرائية عظمى باسم مار مرقس
فوق هذه الأرض تضم المزار الذي يحوى رفات النكاروز الحبيب .

معاشرة فاعلى الشر . وابدلنا حب بعضنا بعضاً بالعداوة . ورحمة المساكين
ومواساتهم التي تملو كل فضيلة بدلنا ما بالقساوة وعدم الالتفات إليهم وبدلنا
الطهارة بفسادها . والتواضع بالرياء والصلف . واستعملنا أشياء كثيرة نستحي
من ذكرها . وليس قولي هذا بقصد شتمكم لانى أنا مثلكم فى البشرية والطبع .
ولست أتزكى قدام الله . وإنما قولى هذا أن اذكركم بالاسباب الموجبة لحلول
الغضب والسخط . ونتيجة هذا حصول الغلاء والوباء وتسلط الحكام الذى هو
امر كل شئ . وأمور أخرى غير ذلك . وما يطول فيه الشرح منى . ما باشرناه
جميعنا وكابدناه . كل ذلك ونحن لا نرجع عن فعلنا الردى . ولا نميل بقلوبنا
نحو التعطف الإلهى ليرد عنا بسخطه ونرجع عن ردىء أفعالنا . لانا لو فعلنا ذلك
لرفع الغضب ليس عنا فقط بل وعن الناس أجمعين . لانه لو وجد فى أرض سدوم
وعامورة عشرة أبرار لما أهلكها الرب . أما نحن الآن فثابرون ليس على الأعمال
الصالحة بل على ضد ذلك . عكنا المقدمات كلها وأضعا تدبير حياتنا فيما لا ينفع
ولا يبنى . فلا الشيخ يستحي من شيخوخته . ولا الأب يحسن تدبير أولاده بأن
ينظر كيف يرضون الرب . ولا الشاب يشفق على شابة . ولا النساء تستحي من
يهوهن . ولا العذارى من بتوليتها . وأعاذنا الله وإياكم من ذلك من أن يكمل
علينا القول النبوى : ليس بار ولا متفهم ولا مرید الله لانهم جميعاً زاغوا
وطغوا . ليس من يعمل صلاحاً ولا واحداً . (مزمو ١٤ : ١ - ٢٠ : ٥٢) .
فلا يكون هذا يا رب بل لتدركنا مراحمك لتلا يقال فى الأمم أين إلههم .
قد سمتم ما ذكرناه لكم من المحن والتجارب التى حلت بنا فى هذه السنين
فهلوا الآن يا أحبائى لتسامل أعمالنا القبيحة . ونفحص أعمالنا الردية . تعالوا
نفحص قلوبنا ونفث ضمائرنا ونظر هل لنا نية خالصة على عمل الصلاح من الآن
وماعداً . وهل نبدأ سيرة التوبة أم لا . وهل نعتزم الصوم والصلاة والرحمة

والصدقة على أخوتنا المساكين أم لا . وتهبأنا لحفظ الوصايا ، وإلتزام سنن الرب
التي إذا ما خالفها قوم نزل غضب الله عليهم . لقد تعدينا وصاياہ . وعملنا ما لا
يرضى صلاحہ . فن أجل هذا نزلت بنا هذه التجارب ونحن لا نرجع عن قبيح
أفعالنا . فأى عين لا تبكى . وأى قلب لا يحزن . وأى فم لا يتدب . وأى ضمير
لا يذوب . فن لنا بنائح تولول على ما أصابنا . ومع ذلك فإننا إلى الآن ونحن
لا نرجع عن سوء أفعالنا ونتمتع بامبال الله علينا .

• فإن كان يا أخوتي الجزاء في العالم شديدة حوادثه بهذا المقدار . فإذا يكون
جوابنا يوم مجلس الديان العظيم على كرمى مجده . يوم تنكشف فيه خفايا الظلمات .
يوم تضطرب فيه قوات السموات . يوم تقساقط فيه السكواكب . يوم تنحل فيه
السماء والأرض تطوى كالرداء . يوم يجرى قدامه طوفان النار . يوم يظهر فيه
الصديقون متلائين مثل الشمس . يكون فيه الخلسة ماقين بملائكة لا ترحم .
مقيدين بالقيود الجهنمية إلى السجن الجحيمي الذي لا انفكاك منه .

• فأسالكم يا أخوتي بلين المسيح ووداعته أن لا يثقل عليكم كلامي . لأنني
نطقت به من مرارة نفسى بصفتى أبوك الشفيق . وأنا مثل الوالدة كثيرة الحنان
على أولادها . والذي أرجوه من الرب وأتمناه دائماً . وأطلبه من رحمته أن
لا يكون من هذا الحال حاله . بل تكونوا جميعاً كجسد واحد . وواف من أعضاء
كثيرة . شفقين . رحيمين . محبين . غيورين على فعل الخير . طاهرين عظمين
لله والناس . مقدسى النفس والجسد والروح . وهذا إكليلى ونخري . وهذا نياحى
وراحى وفردوسى . أن تكون رعيق بلا لوم قدام الله لأنكم جميعاً جسدى
وروحى . وثمره أحشائى . وجرحكم كلها فى ضميرى .

• فالمطلوب من هذا جميعه . ونتيجة خطايانا لكم . تقوموا جميعكم معنا بنفس
واحدة وغيرة مرة . وقلب ممتلىء من خشية الله كلكم . الأغنياء والفقراء . الرجال

والنساء . الشيوخ والشبان . الكهنة والرهبان والعلمانيون . فترجعون عما يفضب
الله إلحنا . ونزاع الفسادة من قلوبنا . ولعالم بفضنا بعضاً . ونقطع العادات الرديئة
عنا . ونلازم الطهارة التي بدونها لا يعاين أحد مجد الله .

ومن كان ناقصاً في شيء من ذلك فلنصل كلنا من أجله . ونقول يا رب لا بغضبك
تبكتنا . ولا برجزك تؤدبنا . بل برحمتك دبرنا . وارحنا يا رب فإننا ضمقاء
ومساكين . وأشفق يا إلحنا على شعبك . وغنم رعيتك . لأننا صرنا كمثل الخراف
وسط الذئاب . ومثل الغنم التي لا راعي لها . فلتدركنا مراحمك يا رب . فإننا
نأتي إليك بنية صالحة وقلب مستقيم . فليرفع ربنا عنا هذه التجارب في هذا الدهر
الفاني . وفي الدهر الآتي . ويمتنعنا بملكوته الأبدية بما لم تره عين . ولم تسمع به
أذن ولم يخطر على قلب بشر . ويسمعنا وإياكم صوته الفرح القايل : تعالوا يا مباركي
أبي رثوا الملك المعد لكم قبل إنشاء العالم فليكن لنا جميعاً بنعمة ربنا يسوع المسيح .

كونوا محالين مباركين من فم الله القدوس . ومن فم الواحدة الوحيدة
الجامعة الرسولية الكنيسة . ومن أفواه الآباء وأصحاب الجامعات الثلاثماية والثمانية
عشر بنيقية والمائة والخمسين بالقسطنطينية . والمائتين بأفسس . ومن فمي أنا الحقير
ومرقس ، خادم بنعمة الله الرقب المرقسية . التي لا تحدد ولا تدرك بسلام الرب
يحل عليكم والبركة والنعمة تحوط بكم مدى الليالي والأيام . والشكر لله دائماً .
(طبق الدرج الاصلى المحفوظ بالقصر البطريركي) (١) .

ومن نعمة الله أن الشعب استجاب لنداء باباه الفاضل بالمحبة فاستقامت
أموره .

ب - تقييم الحملة الفرنسية

١٧٦ - بين التعمر والتدمير

١٧٦ - قبل متابعة سير التاريخ في منعرجاته وانفراجاته ، بل حتى قبل الحديث عن أراخنة القبط في هذه الفترة المصيبة - قبل هذا وذاك نقف قليلاً لنستعرض السنوات الثلاث (والواحد وعشرين يوماً) التي عاشها الجنود الفرنسيون على أرضنا المشتبهة . فقد جاءنا نابليون ليفزو مصر . وكم من غزاة داسوا بأقدامهم الغليظة هذه الأرض الطيبة . ولكن نابليون لم يكن رجل حرب وحب ، بل كان رجلاً يسعى إلى فتح آفاق العلم أيضاً . فقد استحضر معه مئة عالم في شتى ميادين العلوم والآداب ، منهم المؤرخين والفنانين والجغرافيين ، ومنهم الأطباء ورجال العلم والبحث . ولم يستحضرهم بأشخاصهم فقط بل استحضرهم بكافة الأدوات والآلات اللازمة لتأدية عملهم أيضاً . وقد انتشر هؤلاء جميعاً في مختلف بلاد مصر من البحر الأبيض إلى أسوان . وما زال بين أيدينا المؤلف الضخم الذي كان إحدى ثمرات الجهود التي قام بها هؤلاء العلماء ، ويقع في أربعة وعشرين مجلداً : كل مجلد منها كبير الحجم ضخم المحتويات ، واسمه « وصف مصر » . وهذه الموسوعة هي أعظم مجهود علمي بذل حتى بداية القرن التاسع عشر ، وقد قسمت إلى ثلاثة أقسام رئيسية : الآثار ، الحالة الحديثة والمعاصرة إلى وقت الحملة الفرنسية ، الخواص الطبيعية لمصر .

كذلك استحضر نابليون ثلاث مطابع معه : عربية وفرنسية ويونانية ، ولو أن وصف مصر لم يطبع في مصر لأن العلماء قضوا وقتهم في جمع المعلومات والصور والحرائط أثناء إقامتهم في بلادنا . فلما طادوا اشتغل ستون عالماً بتنسيق

كل هذه المعلومات والصور والخرائط ، ورتبها لتأتي بالفائدة المرجوة منها^(١).

ثم شاءت المراحل الإلهية أن يعثروا على حجر رشيد . وحالما عثروا عليه أحضروه إلى القاهرة . فأمر نابليون لتوّه بعمل نموذجين لهذا الحجر . وواحد من هذين النموذجين هو الذي استعمله شمبليون في الكشف عن سر الكتابة الهيروغليفية ففتح للعالم معرفة الحضارة الفرعونية . وهذا العمل وحده يكفي لأن يحملنا نحس بالعرفان نحو هؤلاء العلماء الفرنسيين الذين جاءوا مع الحملة . وقد اضطر شمبليون إلى استعمال نموذج دون الحجر الأصلي الذي استولى عليه الانجليز يوم أدخلوا الترك إلى مصر تحقيقاً لأغراضهم من إبعاد فرنسا عنها . ولا يزال هذا الحجر الأصيل يتوسط مدخل الجناح المصري بالمتحف البريطاني بلندن .

ومن أم ما نشره الفرنسيون الوسائل الطبية . فقد علم الأطباء المرافقون للحملة الشعب المصري معنى تبليغ الطبيب عن المريض حالما تبدو عليه علامات المرض ليصارع الطبيب إلى معرفة نوع المرض ومعالجته . ومن هذا التبليغ علموا الناس أيضاً وجوب تبخير الملابس والأثاث وتعريضها للشمس على الأسطح ، كما علموا وجوب عزل المرضى عن الأصحاء . إذ أقاموا السكرتيرات كلما سمعوا بالوباء أو بالطاعون . فأفادوا الشعب المصري بتعليمه كل هذه الوسائل^(٢) . كذلك وضع كبير الأطباء منهم رسالة عن الجدري وكيفية علاجه ، وأرسل نسخة منها لكل عضو من أرباب الديوان كي ينشروها على الشعب ويستعملوا ما أشار به من أدوية لتغلب على هذا المرض^(٣) .

(١) « تاريخ مصر الحديث » لمحمد عبد الرحيم مصطفى ص ٧٤ .

(٢) الجبرتي ص ١٤٣ و ٨٢ و ٧٤ ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٣) الجبرتي ص ٢٤ ص ٩٠ .

ومن أهم التنظيمات الاجتماعية التي أوجبوها تسجيل المواليد والزواج والوفيات، واستتبع هذا التسجيل ضبط الموارث والأموال، ومن ثم تمكن القاضي الشرعي من الحكم العادل في هذه المسائل (١).

ولقد كان المعهد العلمي المصري، (٢) وسيلة لتفتيح الأذهان. كما أن الديوان الذي أنشأه نابليون قد مهيا الفرصة أمام المصريين لأن يقوموا بدور إيجابي في مجتمعهم ويتبادلوا الرأي معاً. فكان هذا الديوان البذرة الصغيرة التي لم يتم نموها وقتذاك والتي رغم ذلك كانت أساس مجلس الشورى الذي تألف أيام الخديوي اسماعيل، ثم بعد سنين طويلة قامت الحياة النيابية البرلمانية كامتداد له.

وبالإضافة إلى هذا كله فالحملة الفرنسية قد أيقظت الشعب المصري كشعب، وجعلته يحس بكيانه. وإليك مقاله أحد الكتاب المعاصرين: «ولقد ظلت انقومية المصرية في ذلك الركود البشع حتى كانت الحملة الفرنسية الوافدة من بلاد لا هي عربية ولا تركية... فهزّت الشعب المصري هزاً عنيفاً... كانت كل القوى المتصارعة التي لها مصلحة في طرد الحملة الفرنسية تسعى إلى استمالة الشعب المصري إلى جانبها... لحمل السلاح بشكل واسع لأول مرة منذ أجيال طويلة، فحمر بذاته وبقوته وتحددت قوميته، ونبع من صفوفه أبطال وقادة مثل البشتيلي والحضري وحامل العلم الجماهيري الخوصاقي عمر مكرم (٣).

من هذا كله يتضح لنا أنه رغم الأحوال والخطوب، ورغم القلق النفساني الذي ملأ القلوب. فإن مصر - والعالم كله - قد انتفع من مجيء نابليون ورجاله إلى البلاد المصرية. فالأوجاع والضيق قد زالت، أما النتائج العلية والديمقراطية

(١) الجبرتي ج ٢ ص ٩٣ - ٩٤.

(٢) Institut d'Egypte.

(٣) «دراسات في تاريخ مصر...» لفوزي جرجس ص ٢٥ - ٣٠.

والاجتماعية والفنية فلا تزال باقية . ولنسجل هنا شهادة رجل ينتمى الى الامبراطورية التي كانت تناوى فرنسا اذ ذاك وهي : " لقد أخذ بوناپرت معه بعثة من العلماء ، والعمل المذهل الذي قام به هؤلاء العلماء خلال إقامتهم القصيرة قد كشف لمصر عن نفسها كما كشف عنها للعالم الغربي . لقد كان لجزءاً لحياة جديدة لها . . . ثم جاء أمريكي في وقتنا الحاضر وقدم بدوره شهادة عن هذه الحملة فقال : " رغم قصر مدتها وفشلها فالحملة الفرنسية كانت فترة مليئة بالنتائج الحاسمة لمصر . لحملة بوناپرت اظهرت الشرق الاوسط وعلى الاخص مصر كنطقة غاية في الأهمية الاستراتيجية للقوى العظمى . . . أما في مصر فقد هيأت الطريق لتغييرات كانت السبب - خلال قرن - في تطوير البلاد (١) .

وتؤكد هذه الحقائق يستهدف ثلاثة دروس على غاية من الأهمية : الاول هو أن الفشل أو النجاح ليس مقياساً لقيمة العمل . فالعمل البناء سيؤتي ثماره إن عاجلاً أو آجلاً رغم كل مظاهر الفشل . فالعبرة هي فيما يجتنيه الانسان من هذا العمل ، والانسان هنا قد يكون ضمن الجيل الثالث أو الرابع .

(١) قالتاين تشبول : « الغرب والشرق » ص ٧٢ حيث قال ما نصه :

" He (Bonaparte) took with him a French Scientific Mission whose amazing work during the brief years of French occupation revealed Egypt to herself as well as to the western world, It was the dawn of a new life for her ... "

(٢) ب . م هوك : « مصر والحلال الحبيب » ص ١٥٩ - ١٦٠ حيث قال ما نصه :

" Brief and unsuccessful though the French occupation had been , it was an episode fraught with consequences for Egypt . . . with Bonaparte's expedition . . . the near East, Egypt in particular, was revealed as an area of immense strategic importance to the great powers . . . Within Egypt, the French occupation prepared the way for changes which, in a Century, were to transform the Country " :

والدرس الثاني هو الإمكانيات والحيوية وقوة الاحتمال التي أودعها الله داخل
شعب مصر . وهذه القوى هي التي مكنته من البقاء رغم الغزوات والبطش
والضيق . فكم من شعوب تلاشت أمام اضطهادات أقبل قسوة . ولكن هذا
الشعب الصبور الصامد قد عرف أن يتصر على عوادي الزمن . وكلما سنحت له
الفرصة برزت قواه وثبتت حيويته . وهذه نعمة من النعم الإلهية التي خص بها
شعبه الذي وعد ببركته .

أما الدرس الثالث فهو أن الترك الذين طالما تفتى الكتّاب بشجاعتهم
الحرية ، والمماليك الذين كانت أبرز صفاتهم الحرب والطمان - هؤلاء وأولئك
تراجعوا ، بل وفرّوا أمام الفرنسيين . في حين أن الشعب المصري الذي لا يحد
غير السخرية من غالب الكتّاب لاستكاثته وعجزه عن القتال هو الذي حارب
الفرنسيين بمزينة ماضية .

ومن المناسب أن نورد هنا مقتطفات مما جاء في وصف مصر ، فقد قيل
في الفصل الخاص بالأدوية مايلي : ان معظم الأدوية التي حافظ المصريون على
استعمالها مستخرج من الخضراوات . . . وكل منهم يعرف الدواء المناسب له
ولا يستشير الطبيب إلا للأمراض الخطيرة أو في حالات خاصة . والأدوية
متوفرة بكثرة في الاجزاخانات العديدة في القاهرة وفي كل مدن مصر . وفي
الاجزاخانات أيضاً تتوافر المشروبات المرطبة كالتحروب والتمر هندي والعرقسوس
والليمون والبرتقال مضافاً إليها أحياناً رائحة الورد أو الزهر أو البنفسج وسكان
الريف يستعملون مشربة سائلة يحضرونها من الخنظل (العجور) المزوج بالبن
الخمر (الرائب) أو الماء . كما أنهم يغسلون بعض النباتات ويجعلون منها ماء
يستخدمونه لتطهير الجروح والحرايح التي يعصونها بعد ذلك بشاش جاف سبق

لهم نفعه في هذا السائل . . . ولدى المصريين أنواع من القطرة كلها في شكل مسحوق ، وهي تتكون من أملاح (طبيعية أو صناعية) مجففة ومعها الشاش الذي نفع لفترة غير قصيرة في سوائل قابضة . . . وهناك تركيبات يعتبرونها أدوية كالعليوب المليئة للبشرة أو كالمشروبات التي تعطى شيئاً من الدفء والاسهترخاء أو كالأكولات المقوية . . . كذلك يستعمل المصريون العدد العديد من وسائل التجميل ويحبون المطور . . . (١) .

أما عن القبط فقد جاء عنهم : « أنهم من غير شك سلالة المصريين القدماء ، فقد احتفظوا بشكلهم الجسمي وبعاداتهم ولغتهم . ويبدو أن أصولهم ضائعة في عهود سحيقة . ولون بشرتهم أشبه بلون بشرة الأحباش ، ووجوههم ممتلئة من غير انتفاخ ، وعيونهم جميلة سوداء صافية على شكل اللوزة وهي ذات نظرات ناعسة ، وشعورهم سوداء مجمّدة (٢) . . . وبما أنهم لا يستطيعون الوصول إلى الوظائف الإدارية الكبرى فهم يحتفظون بسر المهنة التي يزاوونها . . . ولكل بك ملازم متصل به مباشرة يقضو معه جزء من السنة في عاصمة المنطقة المنوط به حكمها . كذلك لكل كاشف كاتب قبلي له مساعد أو أكثر من بني جنسه وليس للكاتب ولا لمساعديه مرتب خاص محدد . على أن لرئيس الكتبة فقط سب بارات يومية بالإضافة إلى طعامه وإقامته . أما الباقون فرتباتهم مرهونة بما يجمعون من الضرائب . . . مما دفع بالبعض منهم إلى محاولة الكسب غير المشروع بمختلف الوسائل (٣) .

(١) « وصف مصر » الكتاب الأول « الدولة الحديثة » لروبيه ص ٢١٨ - ٢٢٢ .

(٢) « وصف مصر » الكتاب الثاني الدولة الحديثة لروبيه ص ٣ .

(٣) « وصف مصر » الكتاب الثاني « مذكرة عن الزراعة والصناعة والتجارة » لجرار

٢ - أراخنة هذا العصر

- ١٧٧ - هدير وهنوء
١٧٨ - شهادة سوري
١٧٩ - أسماء اعلام
١٨٠ - الجنرال يعقوب وفيلقه
١٨١ - المعلم ملاهي
١٨٢ - انطون ابو طاقية
١٨٣ - ابراهيم الجوهري
١٨٤ - جرجس الجوهري

١٧٧ - اثن كان تاريخ مصر يتشابه مع نيل مصر فالشبه في اكثر من ناحية ، ومن يتتبع قصة هذا الوادي يجدها تسير هادئة أحياناً هادئة أخرى ، مناسبة في استرخاء أحياناً ، متكسرة على الصخور الصلدة أخرى . فهي تشبه إلسياب النيل في هذا كله . وهناك تشابه آخر كنا نجد قبل الشاء السد العالي حين كان النيل يعلو في موسم الفيضان وتفور مياهه المحمرة المليئة بالطمي ، ثم يهبط منسوبها تدريجاً وتصبح هادئة ذات لون على شيء خاص من الاخضرار يطلق عليه الاجانب « أخضر نيل » (١) . ففي موسم الفيضان تتكاثر مياه النيل وكأنها تنزاحم ، ثم إذ بها تتناقص وتهدأ . هكذا أيضاً قصة الكندية بصفة خاصة وتاريخ مصر بصفة عامة . فوجد فترة مليئة بالشخصيات هادئة بالأحداث ، وولتني بأخرى هادئة مناسبة . والفترة التي بدأت بشورة على بك الكبير وامتدت لتشمل الحملة الفرلسية من تلك الفترات الكشيفة : فهي لم تزخر بالحوادث الجسام فقط بل زخرت أيضاً بالرجال البارزين : منهم الجنود المجهولين ومنهم القادة الذين أوصل لنا التاريخ قصتهم . وهؤلاء وأولئك قد قدموا لنا مثلاً يجب أن نتمز به هو أنهم خلال العواصف والأنواء ، ووسط الأجناس المتباينة التي سطت على مصر ، نجحوا في الاحتفاظ بالقومية المصرية كما نجحوا في ابرازها كلها . سبحت لهم الفرصة . كانوا أوفياء لهذه الأرض الطيبة وركزوا ولاهم عليها على مدى العصور . فوجد مثلاً أنه حين ثار على بك الكبير ونجح في الاستقلال بمصر كان المعلم رزق من ورائه يخدمه ويوازره . وليس من

(1) Nile Green .

شك في أن المعلم رزق لم يكن وحده - فاليد لا تصفق وحدها - ولو أنه كان أبرز المجاهدين إلى جانب المملوك الثائر (١).

١٧٨ - وثمة مثل آخر يؤكد هذا الاعتزاز بالقومية مدعماً بالاعتزاز بالكنيسة يقدمه لنا كاتب سوري إذ يقول : « أن كنيسة أقباط مصر قد قامت استجابة للمواطف القومية . فهي على مدى خمسة عشر قرناً قد حافظت على الإيمان في وجه سطوة الحكام المتشائمين والاضطهادات المتوالية ... فأعظم من أية جروح أرقعها بها الاضطهاد أو البدع هي تلك الجروح التي تحملتها البقية من الأوفياء طوعاً من أجل جمالة الدعوة العليا (٢) . . . » (٣).

١٧٩ - وفي هذه الفترة التي تكشفت فيها الحوادث إزداد فيها وضوحاً هذا الوفاء القومي وهذا التمسك العقيدى . فكتب البابا مرقس الثامن ما كتب وسار على هديه الأبناء . ومن الأراحنة الذين لم يقدم لنا التاريخ غير كلمات قصيرة عنهم : المعلم لطف الله المصرى أحد الأعضاء الستين الذين تألف منهم الديوان العام الذى أنشأه نابليون . وشاركه هذه العضوية المعلمون إبراهيم جر العايط والشيخ إبراهيم مقار والشيخ إبراهيم كاتب الصرة . على أنه حين قضت ثورة القاهريين على هذا الديوان العام تشكل بدلا منه ديوان خاص يتألف من أربعة عشر عضواً فقط كان

(١) الموجز . . . ج ٢ ص ٧٥ . تاريخ الكنيسة في مصر منذ القرن (١)

(٢) فيلبى ٣ : ١٤ .

(٣) أدوارد جبر - جورجى . « الشرق الأوسط » ، دينة وثقافته « (بالانجليزية)

ص ٧٥ حيث يقول ما نصه : « . . . »

« . . . the Copts of Egypt whose church arose in response to the national sentiment. For fifteen centuries it guarded the faith against odds of arrogant rulers & recurrent persecutions . . . Greater than any scar that heresy might have caused them to carry, were the wounds that the loyal remnant willingly endured for the prize of the high calling . . . » .

المعلم لطف الله المصري أحدم^(١). أما إبراهيم جر العايط الذي جاء اسمه على رأس قائمة الاعضاء فقد كان من كبار تجار مصر وأعيانها. فلما أصبح عضواً بالديوان العام وضع تقريراً مدعماً بالبيانات والاحصاءات عن حالة مصر الاقتصادية والتجارية. ولا تزال نسخة من هذا التقرير محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس^(٢).

الفنس ووقائيل المذى يوصف باستمرار و بالترجم الكبير،^(٣) . المعلمان نصر الله

ويوحنا روكه اللذان اشتغلا بالترجمة أيضاً^(٤) . المعلم عبد الله الذى طولب بجمع

العمال لاقامة المتاريس أثناء الممارك التى دارت بين الفرنسيس والانجليز^(٥) . المعلمون

سدرة الشماع وبانوب الجيزاوى وجرجس سرا بامون وملطى ساروفيم ويوحنا

الصولى الذين عينهم نابليون رؤساء للبلدية فى بعض المديريات^(٦) . حنا ينو المتولى

على بحر بولاق بجمع المراكب وشحنها^(٧) .

١٨٠ - هؤلاء الرجال لانعرف عنهم غير ما تحمله هذه الكلمات القليلة .

إلا أنها رغم قلتها تمسكتنا من أن نلح أهميتهم فى المجتمع الذى عملوا من أجله .

وبما أن هذا اللوحة عابرة يمكننا اعتبارهم ضمن الجنود المجهولين . أما للدعروفون

فقد تواترت أسماؤهم على الأسماع فى مختلف المناسبات . وانبدأ بمعقوب حنا

لان سيرته مشار للجدل : فالبعض يرون فيه رائداً مقداماً سبق جيله فى تفكيره ،

(١) من مقال لفنص سوئيل تاو وروس السريانى نشره فى مجلة الهبة عدد ٧ سنة ٢٠ (يوليو سنة ١٩٦٩) ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .
(٢) دائرة المعارف القبطية لرضى تادرس ج ١ ص ١٣ - ١٤ .
(٣) « مجانب الآثار ... » ص ١٣٧ و ١٣٨ و ١٤٢ و ١٧٩ .
(٤) الجبرتى ج ٢ ص ١١١ و ١٨١ ، « مجانب الآثار فى التراجم والأخبار » ج ٢ ص ١١٩ .
(٥) الجبرتى ج ٢ ص ١٥٨ .
(٦) « الجنرال جنوب » تأليف لجنة التاريخ القبطى ص ١٦ .
(٧) « مجانب الآثار ... » ج ٣ ص ٧٥ .

بينما يسمه البعض الآخر بأن انضم إلى الفرنسيين لمنفعته الشخصية .
ولد يعقوب حنا في ملوى . وتعلم في الكتّاب تبعاً للعادة . وكان ذكياً
طموحاً ، لجمع كل ما يستطيعه من المعلومات . ولما بلغ العشرين من عمره ألحقه
أبوه بخدمة كاتب عند أحد أقاربه المشغولين عن جباية الضرائب لأحد المماليك .
وهنا أيضاً دأب يعقوب على تحصيل ما يمكنه من المعلومات الادارية والحسابية .
ثم برز بشكل واضح في تيار على بك الكبير وسياسة الدينية السمحة ، وتمكن
خلال العمل لدى سليمان بك (من أبرز مماليك على الكبير) من أن يقتنع أحوال
مصر السياسة والمالية والعسكرية فاكْتَسَب خبرة واسعة كما نجح بما أبداه من
المهارة والدقة والامانة من أن يكتسب ثقة هذا المملوك الذي جعله مديراً عاماً
لماليته . ولم يكتف يعقوب باكتساب المهارات العقلية بل تعلم من المماليك
ركوب الخيل واستعمال السيف .

ثم تزوج من ابنة عمه وأنجب منها ولداً . ولكن الولد مات في طفولته
ولحقت به أمه في نوبة من نوبات الطاعون . وبعد موت زوجته الأولى بأثني
عشرة سنة تزوج من فتاة سورية (من حلب) (١) .

وحدث حين استقر المقام بنايلون بونايرت في القاهرة أنه طلب إلى المعلم
جرجس الجوهري - عميد القبط آنذاك - أن يقدم إليه بعضاً من رجال القبط
الذين يمكن الاستناد إليهم في إدارة الامور . فقدم إليه يعقوب مع الخنة الذين
سبق الحديث عنهم بأن نابليون قد عينهم رؤساء . فهو قد عين الخنة لذلك العمل
ولكنه استبق يعقوب وعيّن مديراً عاماً للعملة الفرنسية . وكان يعقوب قد
أحرز لقب « معلم » كما نجح في اقتناء ثروة ضخمة . فلم ينهض بأعباء تموين

(١) جاء في كُتَابِي يعقوب نخلة روفيلة والجبرتى انه لم يتزوجها بما لطقس القبطى .

الجيش الفرنسي المنتشر على طول النيل لحسب بل انه قام أيضاً بإدارة مالية الوجه القبلي من توزيع الضرائب وجبايتها بالإضافة إلى تنفيذ الأوامر الإدارية التي كان يصدرها الجنرال ديزيه . نفذ هذا كله بدقة فائقة حتى أطلق عليه شريف مكة لقب «عظيم حملة ديزيه في الوجه القبلي» .

وحدث أن تأخر أهل قرية من قرى بني سويف عن دفع الضرائب فأمر الجنرال بليار باحتجاز مشايخها رهينة عنده . فلما علم المعلم يعقوب بذلك احتج ونصح الجنرال المذكور بعدم إرهاب الأهاليين . فوافق ديزيه على ذلك وتم الإفراج عن الرهائن .

ولما نجح الجيش الفرنسي في إخضاع الصعيد كله حتى أسوان ، رجا الجنرال ديزيه من المعلم يعقوب أن يفكر في وسيلة يتمكن بها من الاتصال بجنوده المتناثرين في الوادي . وبعد التفكير اهتدى إلى الحل الوحيد يومذاك وهو تنظيم فرقة من الهجانة تتولى أعمال البريد . فنالت هذه الفكرة إعجاب ديزيه .

وباشتراك مع الحملة الفرنسية ، ومن خلال تجاربه السابقة ، أخذ المعلم يعقوب يفكر في أنه يجب على أبناء مصر أن يقوموا هم أنفسهم بحمايتهم حتى استدعى الأمر . فتفاهم في الموضوع مع ديزيه الذي أصبح صديقه . ونتيجة لهذا التفاهم جمع المعلم يعقوب ألفين من شبان الصعيد الذين كانوا يشتغلون مع الجيش الفرنسي كصناع وعمال ، ووضعهم تحت التدريب العسكري بأمره ضباط انتظام كليبر القائد العام بنفسه . فتألف بذلك الفيلق القبلي بقيادة يعقوب الذي منحته الفرنسيون لقب «جنرال» وهبوه سيفاً . كذلك منحوا ابن أخيه لقب «كولونيل» . واعتاد الجنرال يعقوب أن يقيم الحفلات لتكريم القائد ديزيه وضباطه . ويصف لنا أحدهم حفلة من تلك الحفلات كما يلي : «حسب عادة البلاد كانت

الفاغات التي استقبلنا فيها مفروشة بالحصر والسجاد والارائك وعلى جوانبها
المساند . وقدم لنا الخدم الماء البارد الممزج بالروائح العطرية فالقهوة ... وبعد
نصف ساعة مدت مائدة كبيرة عليها أنواع من الكعك والفطير وأصناف الفاكهة
والمرليات والألبان . وكان معظما لذيذا وله رائحة زكية ... وبعد ساعتين
مدت على المائدة (التي أزيل كل ما كان عليها) الخبز وطواجن الأرز اللذيذ
الممزوج باللبن وأصناف الخراف المشوية وأرباع المجول، ورقوس هذه الأنعام
مسلوقة ، وإلى جوانبها أكثر من ستين طبقاً تحوى أنواعاً من الخضر والفاصولج
(البالوظة) والفطائر والحصل النقي . فلما انتهينا من الأكل غسل الخدم أيدينا ،
وطيبرها بماء الورد ، ثم شربنا القهوة ثانية ... وبعدنا جلس الأكل ضيوف
يعقوب وحين فرغ هؤلاء جاء دور الخدم ...

وبترسل الفرنسي إلى وصف الخدم والحشم والجواري السودانيات
والحبشيات . ثم ينتهي إلى القول : ويطول بنا الكلام إذا وصفنا كل ما كان
يحيط بالمعلم يعقوب من مظاهر الأبهة والمجد ...

وحينما اضطر الفرنسيون إلى التسليم واستمر الجيش التركي بمساونة الانجليز
يتقدم في زحفه على القاهرة ضاقت الدنيا في وجوه المصريين أشد الضيق لأن :
العساكر الذين مع الناس بالبلد صاروا يخطفون ما يجدونه بأيدي الناس من
المأكل والمشرب وغلاسر الماء ... فاعتصم الكبراء في بيوتهم إذ امتلأت
الشوارع والأزقة بالرطاع من طالبي السلب والنهب والقتل . أما يعقوب فإنه
كرنك في داره بالدرب الواسع واستعد استعداداً كبيراً بالسلاح والعسكر
المحاربين . وتمحضر بقلعه التي كان قد شيدها بعد الواقعة الأولى ... والمناداة

(١) يبدو من هذا الوصف أن يعقوب سار على خطة المهالك فيما أحاط به نفسه من وسائل
الترف والبذخ . فلقد استأدت القاهرة رونقها من جديد رغم القلاقل والفتن . (١)

في كل وقت بالعربي والتركي على الناس بالجهاد والمحافظة على المزاريس... (١١) .
ثم لما انتهى أمر الحملة الفرنسية بالهزيمة أمام الانجليز حرم الجنرال يعقوب على
السفر إلى فرنسا . وخرج بمتاعه وعازقه وهدى إلى الروضة وكذلك جمع إليه
عساكر القبط وهرب الكثير منهم واختفى واجتمعت لساقم وأهلهم وذهبوا
إلى قاتمخام وبكوا وولولوا وترجوه في ابقائهم عند عيالهم وأولادهم فإنهم فقراء
وأصحاب صنائع ما بين نجار وبناء وصانع وغير ذلك فرودم أنه يرسل إلى
يعقوب أنه لا يقهر منهم من لا يريد الذهاب والسفر معه . . وكان يعقوب
يستهدف من سفره السعي إلى اقناع حكومة انجلترا بوجوب انشاء جيش مصري
صميم للذود عن وطنه . وقد رجا قبطان باشا حسن (الوالي التركي) من بليار
أن يقنع الجنرال يعقوب بالبقاء في مصر الانتفاع بمواهبه . ولكن يعقوب صمم
على السفر . وقد سافر معه أمه وزوجته وابنته وأخوه حنين وابن أخيه
الكولونيل غبريال سيداروس وبعض الأقارب منهم الياس بقطر الذي كان قد
وضع قاموساً فرنسياً عربياً . والمظنون أنه هو أيضاً ابن لأحد إخوة يعقوب .
أما كبار الأراخنة كجرجس الجوهري فقد أعطاهم ابراهيم بك الأمان
فخرجوا معاً وسلوا على قبطان باشا ثم رجعوا إلى دورم (١٢) .
ولما أبحرت الباخرة في ١٠ أغسطس سنة ١٨٠١ وقف يعقوب على ظهرها
يتطلع إلى شواطئ وطنه إلى أن غابت عن نظاره .
على أن المنية عاجلته بعد ذلك بستة أيام فقط . وكانت آخر وصية له همسها
في أذن بليار وهو يختصر هي رجاؤه بأن يدفن إلى جانب الجنرال ديزيه .
وبالفعل نفذوا له وصيته .

(١) مجانب الآثار . . . ج ٢ ص ١٦٦ . (٢) شرحه ج ٢ ص ١٨٦ - ١٨٧ .

وقد قال عنه محمد صبرى فى مؤلفه « تاريخ مصر الحديث » ما يلى : « إن يعقوب فى بداية الاحتلال الفرنساوى التحق بخدمة الفرنسويين الذين دخلوا مصر أصدقاء يحملون راية جديدة هى راية الحرية ، وبارح مصر على رأس وفد مصرى مؤلف من أعيان القبط . وكانت فكرته الاساسية مخاطبة انكلترا فى أمر استقلال مصر . ولكن وفاته العاجلة فى الطريق قضت لجأه على مشروع مفارضة دول أوروبا فى ذلك الاستقلال . »

بينما يقول عنه دكتور شفيق غربال ما يلى : « أول ما فى تأييد يعقوب للتدخل الغربى تخلص وطنه من حكم لا هو عثمانى ولا هو مملوكى ، وإنما هو مزيج من مساوىء الفوضى والعنف والاسراف ، ولا خير فيه للمحكومين ولا للمحاكين إذا اعتبرناهم دولة قائمة مستمرة . . . وثانى ما فى تأييده هو إنشاء قوة حربية مصرية (قبطية فى ذلك الوقت) مدربة على النظم العسكرية الغربية . . . ثم انتهى إلى القول : « والذى نروم أن نذكره وننبه إليه هنا على ضوء الوثائق التى وجدت حديثاً فى محفوظات وزارة الخارجية الانكليزية هو أن فكرة الاستقلال المصرى التى نشأت فى ظل حملة بوناپرت كانت قد خطرت منذ فجر القرن التاسع عشر المصريين . فإن واحداً منهم وهو المعلم يعقوب القبطى أعرب عنها بلسانهم . إلا أن موته قبل الأوان حال بينه وبين عرض هذه القضية والدفاع عنها أمام وزارات أوروبا ، (١) » .

كذلك نقرأ فى كتاب « أصول المسألة المصرية » ما يلى : « وقد أخفقت الحملة الفرنسية عسكرياً واسكنها أفلحت فى توجيه أضواء العلم الحديث إلى ماضى مصر

(١) وردت تفاصيل حياته فى كتاب « الجنرال يعقوب واستقلال مصر » للجنة التاريخ القبطى ، وصف الجبرتى فى كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ج ٣ ص ١٦٢ تفاصيل حركة يعقوب القبطى موضعاً فى الوقت حين أنه هدم الأماكن المجاورة لحارة النصرى وهى مكانها قلعة ذات سور وأبراج اتخذها سكناً له وأقام عليها حراساً من شباب القبط الذى ألفه .

البعيد ولقت نظر الدول لفتاً عنيماً إلى أهميتها مركزها السياسي ثم فتح نفوس
بعض أبنائها للتيارات الغربية الحديثة . ونحن نجد أول صدى هذه التيارات في
مشروع المعلم يعقوب لتحرير مصر من الحكم العثماني . ويعقوب من الأقباط الذين
لازموا الفرنسيين منذ بدأت حملتهم فتمثل آراءهم السياسية . . . وقد اتجه الآتي
بعد يعقوب إلى الانجليز واستعان بهم في محاولة استعادة الحكم في مصر . . . ولكنه
لم يكن في ذلك أكثر من حاكم معزول يلتمس السبيل إلى استرداد حكمه فلم يرتفع
إلى الوعي الذي بلغه يعقوب (١) .

ومقابل هذا الثناء والتقدير يقول لنا يعقوب نخلة روفيلة : « إن يعقوب حنا سار في
خطة تخالف ما كان عليه أبناء جنسه . . . فإنه فضلاً عن مخالفته لهم في الرى والحركات
اتخذ له امرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية . كما أن رجال الدين ولا سيما
البطريك لم يكونوا راضين عن تصرفاته وأحواله . . . وسمعت من بعض شبوخ
الأقباط المسنين أن البطريك نصحه المرات العديدة بالعدول عن هذه الخطة فلم
يقبل . وعادته بالنصيحة مرة أخرى فجأوبه جواباً عنيفاً . . . وسمعت من آخر أن
ما كان بينه وبين البطريك من المنازعة والمشاحنة دفعه إلى التجرد على الدخول في
الكنيسة مرة ركباً جواده وشاهراً سلاحه . . . » (٢) .

ويعلق وليم سليمان على هذا الكلام بقوله : « يقف البطريك والكنيسة هذا
الموقف من يعقوب في وقت لم تكن القومية بالمعنى الحديث قد ظهرت في مصر ،
وفي ظل حكم المماليك ومواقفاتهم المتواصلة للتمفرقة بين جماهير الشعب تمكيناً
لسلطانهم ، ومع وجود الحملة الفرنسية في البلاد وهي التي استمالت الكثيرين ومن

(١) مؤلفه صبحي وحيد ص ١٢٩ - ١٣١ .

(٢) في كتابه تاريخ الأمة القبطية ص ٢٨٩ - ٢٩٠ ، راجع أيضاً يوميات الجبرتي

ص ١ ص ٦٧ و ٦٨ ص ٢٧ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٦٣ ، ١٣٤ ، ١٨٤ .

بينهم بعض رجال الأزهر وراضح أن هذا كله لا يمس القيمة التي أبشها
الدارسون لمشروع الاستقلال الذي تبناه يعقوب وصحبه (١) .

والذي يتضح لنا من تتبع سيره الجبرال يعقوب أنه - وان تطلع نحو استقلال
الوطن ونحو تأليف جيش وطني - لم يكن خادماً للكنية اطلاقاً . بل لقد اتخذ
أحياناً موقفاً معادياً منها . فلم يقل عنه أحد - حق مادحوه - انه بنى كنية أو
ربما أو وقف عليها شيئاً من أمواله الطائلة ، ولا انه صرف على لائحة الكتب
الكنية أو سأم في أي مشروع كنسي .

أما أشهر رجال الفيلق القبطي فهم :

١ - الكولونيل غبريال سیداروس الذي كان يشتغل في دائرة ابراهيم بك

وقت دخول الفرنسيين مصر ، ثم تولى أعمال محمد بك الالبي مدة سنتين . وبعد
ذلك اشتغل دليلاً فترجماً فو كيلاً للقائد كبير ، ثم أصبح وكيلاً في فرقة الجنرال
ديزيه . اشترك في القتال مع عمه في موقعة جرجا التي انهزم فيها الماليك والبدو
شر هزيمة . كذلك حارب في معركة أسوان وعين بعدها وكيلاً للفيلق القبطي .

٢ - حنّا هرقل من مواليد منفلوط ، عبد الله منصور من مواليد القاهرة .

وقد سافر ثلاثتهم مع يعقوب إلى فرنسا ، وانضموا إلى جيشها حين حارب
الروس في موقعة راجوز سنة ١٨٠٦ . وقد اعترف امبراطور فرنسا ببسالتهم
ومنحهم وسام « جوقه الشرف » (٢) . أما الفيلق القبطي فقد صدر الأمر بتسريحه
من وزارة الحربية الفرنسية في ٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٤ (٣) .

(١) في كتابه « الكنية القبطية نواجه الأستعمار والصهيونية الصادر عن وزارة الثقافة

الهامش على ص ١٧ ، راجع أيضاً مقالا للأستاذ فرنسيس المترنفره في مجلة « الحق »
العدد الثالث من السنة الرابعة (نوفمبر سنة ١٩٥٣) ص ٢٠ - ٢٣ .

(2) Légion d'Honneur

(٣) الجنرال يعقوب للجنة التاريخ القبطي ص ٧٧ - ٧٩ .

١٨١ - المعلم مطلى يوسف - كان من مواليد حارة السقاين (١)، تلقى تعليمه في الكتاب كغيره من أبناء القبط . وكان متفتق الذهن فاستوعب كل ما أمكده أستيعابه من تعليم . وقد بلغ سن الرجولة حين كان محمد أبو الذهب مسيطراً على البلاد ، وكان بين أكابر رجاله الدفردار (٢) أيوب بك الذي رأى أن يعين المعلم مطلى في ديوانه لثقتة في دقته وأمانته . فاستمر يؤدي هذا العمل إلى أن دخل الفرنسيون مصر . ولقد سقط أيوب بك في المعركة الأولى التي شنّها الفرنسيون . ووجد المعلم مطلى نفسه من غير عمل إذ ذاك فاعتكف في داره في صمت وهدوء يرقب الحوادث . ورأى كيف أن نابليون هدم الكنيسة المرقسية بالاسكندرية وبنارتيها الخصيتين بحجة أن الانجليز قد يعتصمون فيها ليقاتلوه من عليها .

ولما استقر الأمر بالفرنسيين لاحظوا أن المحاكم الوحيدة الموجودة في مصر هي المحاكم الشرعية : وأراد نابليون بأزاء هذا الواقع أن يقوم ببعض التشريعات استرضاء للأهالي وسعيًا إلى تحسين حال القضاء . ولتنفيذ رغبته أنشأ ديواناً عاماً يتألف من ستين عضواً برئاسة الشرفاوي شيخ الجامع الأزهر . وكان من بين أعضائه أربعة من القبط (٣) . على أن ثورة القاهريين التي اندلعت بعد مجيء الفرنسيين بشهر أطاحت بهذا الديوان . فلما هدأت الثورة رأى الفرنسيون أن يستبدلوا الديوان العام بديوان خاص لا يضم غير أربعة عشر شخصاً يستمر الشيخ الشرفاوي في رئاسته . ثم جعلوا المعلم مطلى قاضيه الكبير ورئيس مجلسه التجاري وفوضوا إلى هذا الديوان أمور التجارة والمواريث والدعوى المختلفة . ثم رأوا أن يعقدوا جمعية عمومية لهذا الديوان فاستقدموا مشايخ البلاد وأعيانها ،

(١) حي قديم من أحياء القاهرة مجاور لقصر طابدين ، تقوم في وسطه كنيسة منبذة باسم الملك المبعثر فخريال .

(٢) منصب الدفردار يعادل منصب وزير الخزانة الآن .

(٣) سبق ذكرهم قبل الحديث عن الجنرال بنفوب .

وانضم اليهم اعيان التجار وكبار القبط والشوام ومديروا الديوان من الفرنسيين .
فلما اتسأمتهم شرع المعلم ملطى في قراءة فرمان الشروط ثم بدأ في المناقشة .
وكان من واجباته في كل جلسة افتتاحها واستهلال مناقشاتها . فكان ذلك دليلاً
على تقدير المشايخ وكبار التجار والمزارعين له (١) .

وحدث أن رأى المستولون في هذا الديوان وجوب كتابة حجج الاملاك ،
فمن كان لديه الحجة مكتوبة يحضرها إلى الديوان ، ومن لم يكن في يده حجة أعطوه
ثلاثين يوماً مهلةً لكتابتها واحضارها . واجتمع أعضاء الديوان بعد هذا الموعد
المقرر ولما تكامل الجمع شرع ملطى في قراءة المنشور وتعداد ما به من الشروط
مسطور وذكر من ذلك أشياء : منها أمر المحاكم والقضايا الشرعية وحجج
العقارات وأمر الموارد ، وتناقشوا في ذلك حصةً من الزمن ، وكتب هذه
الأربعة أشياء أرباب ديوان الخاصة وهم يدبرون رأيهم في ذلك وينظرون
المناسب والأحسن وما فيه الراحة لهم والرعية (٢) .

وكان المعلم ملطى نزيهاً محباً لمواطنيه القبط والمسلمين ، كما كان وطنياً لم يقبل
عضوية الديوان إلا حين رأى أنه سيكون مع غيره من مواطنيه وعلى رأسهم
الشيخ عبد الله الشرقاوى . وقد حدث في إحدى الجلسات أن بدأ الفرنسيون
يسألون عن تقسيم الموارد في مصر ويقترحون تنفيذ القانون الفرنسى . فألهم
المعلم ملطى : وما حكمكم فيه ، ؟ أجابوا : نحن لا نورث الولد بل نورث
ابنت وحدها لأن الولد أقدر على اكتساب الرزق ، نخشى إذ ذاك من أن تكون
غايتهم فرض قانونهم هذا . فنادى على المشايخ وسألهم عما يصنعونه في قسمة

(١) الجبرتي (يوميات) ج ١ ص ٧٩ و ٨٧ وعجائب الآثار في التراجم والأخبار ج ١

ص ١٩ و ٢٢ .

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ٩٠ .

المواريث أجابوا بأنهم يملكون بمقتضى الشرع . فألهم : « ومن أين لكم ذلك ؟ » فردوا عليه بأنه من القرآن ، وذكروا الآيات القرآنية المؤيدة لكلامهم . فقال ميخائيل كحيل العضو الشامي بالديوان إذ قد استشف ما يستهدفه ملطى من أسئلته : « نحن والقبط يقسم لنا مواريتنا المسلمون (١) » . وبهذه البقاة اتفقت كللة المواطنين ومعهم الشوام على مجاية أى تشريع يفرضه عليهم المستعمر . لأن ملطى وكحيل طلبا لغورهما إلى المشايخ أن يكتبوا لها كيفية القصة ودليلها . فسايرهما المشايخ وكتبوا لها ما طلباه .

وظل المعلم ملطى وزملاؤه القبط والشوام فى هذا الديوان الخاص حتى قيل انسحاب الفرنسيين . وكان عبد الله مينو معارضاً فى الانسحاب بعد اشهاره اسلامه . وأراد أن يتودد إلى المسلمين فأخرج المسيحيين من الديوان كما رقت عدداً منهم من وظائفهم فى الحكومة . وبذلك فقد المعلم ملطى وظيفته للمرة الثانية . فلما أجلى الفرنسيون عن البلاد ودخلها الترك دخل معهم الدمار والبطش . وكان المعلم ملطى ضمن من قبضوا عليهم ، فقطعوا رأسه ورموهما عند باب زويلة حيث بقيت ملقاة يومين قبل أن يجرؤ أحد على الخروج لحملها ودفنها مع جسده . فهو شهيد معروف بين الآلاف من الشهداء المجواين . ثم استولى الترك على داره وأمواله . وجميع من كتبوا عن هذه الحقبة أجمعوا على أنه كان خادماً أميناً لوطنه ولمواطنيه (٢) .

١٨٢ - المعلم أنطون أبو طافية - هو سليل عائلة عريقة غنية : نما نفوذها

فى عصر المماليك وازداد هذا النفوذ أيام الفرنسيين . اشتغل بالتجارة ونجح

(١) شرحه ج ٢ ص ٩٢ .

(٢) مقال لقمص صموئيل تاو ضرورس السرباني نشره فى مجلة الهبة عدد ٧ سنة ٢٥ ،

فيها إلى حد مكنه من جمع ثروة طائلة فبنى داراً ضخمة في حارة السقاين لا تزال آثارها باقية للآن^(١) على مقربة من كنيسة الملاك خريبال التي بنيت فيما بعد في عصر الأنبا كيرلس الرابع (أبي الإصلاح). وحينما استقر الأمر للفرنسيين عينوه عضواً في مجلس التجارة، ولما وجدوه أميناً نزيهاً أقاموه نائباً لحاكم مدينة بلبس، ثم لم يلبثوا أن جعلوه محاسباً لمصروفات الحكومة. وحدث أن عجز المصريون عامة عن دفع الأموال الطائلة المفروضة عليهم. فقبض عليه الفرنسيون وطالبوه بتسديدها عنهم. فدفعها ونال لنفسه الإفراج وللشعب الراحة النفسية. وفي مثل هذا العمل دليل على أن ثروة المعلم أنطون كانت طائلة، إذ كيف استطاع تسديد ديون شعب بأكمله؟ وعلى ذلك قرّبه الفرنسيون وأعادوه إلى وظيفته محاسباً.

وفي سنة ١٧٩٩ وجد الفرنسيون أنفسهم في حاجة إلى المال، فزار نابليون نفسه المعلم أنطون، وطلب منه ما يريد على أنه سلفة فقط، فخلع طاقيته من على رأسه وملاها له مالا، وعندما عدّه وجدوه يبلغ مليون وثلاثمائة ألف فرنك. فسكتب له نابليون صكاً بذلك. ولكن الصك لم يكن سوى حجر على ورق لأن الفرنسيين لم يعيدوا من المبلغ فرنكاً واحداً لابناء ذلك الذي خدمهم والذي مات شهيداً.

وقد زعم البعض أن تسميته بأبي طاقية ترجع إلى ما فعله مع نابليون. ولكن التسمية ترجع إلى أن أباه كان يشتغل بتجارة الطواقي.

ثم عاد العثمانيون بمعاونة الانجليز فاستباحوا دم القبط وبالتالي سقط الآلاف من الشهداء. ونقرأ أن قتل الباشا الثلاثة أشخاص من النصارى وهم أنطون

(١) هذا ما جاء في كتاب توليق اسكاروس ج ٢ ص ٢٤٢ - وهذا الكتاب طبع في القاهرة سنة ١٩١٢. ولكن التغييرات التي شملت القاهرة منذ سنة ١٩٥٢ قد امتدت إلى هذا الحي القديم كما امتدت إلى غيره.

أبو طاقية وإبراهيم زيدان وعبد الله بركات معلم الديوان سابقاً . وفي الحال أرسل
الدقردار نختم على دورهم وأملأ كههم وشرعوا في نقل ذلك إلى بيت الدقردار
على الجمال ليبيع في المزاد فبدأوا بإحضار تركه أنطون أبو طاقية فوجد له موجود
كثير من ثياب وأمتعة ومصاغ وجواهر وغيرها وجواري سود وحبوش
وساعات واستمر سوق المزاد في ذلك عدة أيام . وكان استشهادهم في ٨ بؤونة
سنة ١٥١٨ ش^{١١} (سنة ١٨٠٢ م) .

وهذا شهيد آخر نعرف اسمه ونعرف بعض الشيء عنه ولكتنا لا نعرف عن
الشهيدين الآخرين غير ما ذكر .

١٨٣ - أخيراً ، وعلى القصة ، نصل إلى الحديث عن أرخين جليلين مازالا
ملء الأسماع رغم مرور الزمن : هما المعلمان إبراهيم وجرجس الجوهري وقبل
الحديث عنها يجب القول بأنه حدث سنة ١٩٤٢ أن أرادت جمعية اسمها جمعية
السيدات القبطية لتربية الطفولة ، أن تحصل على إذن من المجلس الملي العام^(٢) ببناء
مدرسة على أرض فيحة تقع ما بين كنيسة السيدة العذراء - قصرية الريحان -
وكنيسة مار جرجس بمصر العتيقة . وقد حصلت على الأذن فعلاً . وقد تبين لها
أن الأرض من الأوقاف التي وهبها إبراهيم الجوهري للكنيسة . وقد جاء في
حجة الوقف تعبير رائع عن وجوب استمرار العطية وهو : « نور لا يموت .
وقد يبل لا يطفأ » .

(١) عجائب الآثار ... ج ٣ ص ٢٢٢ ، توفيق اسكاروس ج ٢ ص ٢٤٢ - ٢٤٥ .
(٢) هو مجلس يتألف من أربعة وعشرين عضواً يختارهم الشعب بالانتخاب ، ومدة العضوية
أربع سنين قابلة للتجديد عند الانتخابات التالية . وأول مجلس أنقذ سنة ١٨٨٢ م وسباني
الكلام عنه في حقه يقول أنبا يوساب بن الأبح إن إبراهيم الجوهري تبرع لي ٢٥ بشس
سنة ١٥١١ ش (مايو سنة ١٧٩٦) ، بينما يقول الجبرتي إن نياحته كانت سنة ١٧٩٥ م -
وعلى أية حال فانما ريحان سابقان على الحملة الفرنسية .

والواقع أن المعلم ابراهيم تبيع قبل الحملة الفرنسية ، بينما ظل أخوه المعلم جرجس في الخدمة إلى عهد محمد علي . ولكن بما أنهما شقيقان ، وبما أن اسميهما قد اقترنا معاً في الأذهان ، أرجأنا الحديث عن الأخ الأكبر لنجمع بينهما في الكتابة كما جمع الله بينهما في الانتهاء .

. وأول ما يجب ملاحظته هو أن أبويهما كانا فقيرين متواضعين ، إذ كان أبوهما يوسف يتعیش من صناعة الحياكة . ولكن الذي يرفع الفقير من المازلة ليجلسه مع رؤساء شعبة ^(١) هو الله تعالى . فابراهيم الذي كان أبوه على هذا الفقر بلغ من الجاه والثروة ما دفع الناس إلى اطلاق لقب « سلطان القبط » عليه . وهذا اللقب يتضح لنا من نقش قديم على حجاب أحد الهياكل في كنيسة بدير الانبا بولا الذي عمره هذا الأرخز الكبير من ماله الخاص ، كما يبينه لنا القطع من المحفوظ بذلك الدير .

تعلم ابراهيم في الكتاب كغيره من أولاد القبط في ذلك العصر . وبما أن الله قد حباه عقلاً متفتحاً وبصيرة متطلعة فقد أتقن كل العلوم التي كانت متيسرة له . وكان حتى وهو بعد صغير ينصرف إلى لساخة الكتب المكتنية ، فيصرف ما يعطيه له أبوه من دراهم على هذا العمل البناء . ثم استمر بطبيعة الحال في هذا العمل حين التحق بخدمة أحد المماليك ، واعتاد أن يقدم ما يكتبه إلى البابا المرقسي الانبا يونس الثامن عشر . وابتهج البابا بهذا المجمود ، واستفسر عن المورد الذي يستند إليه في الصرف على عمله . فلما عرف حقيقة الأمر قال له :
« ليرفع الرب اسمك ويبارك عملك وليقم ذكراك إلى الأبد » . وتوثقت المحبة بين البابا وابنه المكافح ، فأوصى به المعلم رزق كاتب على بك الكبير .

(١) مزمور ١١٣ : ٧ (مزمور ١١٢ من صلوات الساعة التاسعة في الأجيّة) .

واستجاب المعلم رزق لتوصية باباه فاتخذ من ابراهيم كاتباً مساعداً له . فلما انتهى الحكم إلى محمد بك أبو الذهب اعتزل المعلم رزق وظيفته وحل المعلم ابراهيم محله . وبانتقال الحكم إلى ابراهيم بك ومراد بك اتخذوا الأول رئيساً لكتابة القطر المصري . وهي وظيفة يمكن تشبيهاً الآن برياسة مجلس الوزراء . فظل موضع ثقة ابراهيم بك إلى آخر لسمه من حياة هذا المملوك .

ومن نعمة الله أن صفت العلاقات بين القبط والمسلمين ، بل بينهم جميعاً وبين الأمراء . وثمة صورة لها روعتها تبين لنا مدى هذا الصفاء نجدها في وصف الجبرتي لعرس ابنة الأمير محمد أغا البارودي (صهر مراد بك) قال : « وحضر ... الأمراء والأعيان ... وكذلك جميع التجار والنصارى وكتاب القبط وشايخ البلدان وبعد تمام أيام العرس ... عملوا للعروس زفة لم يسبق نظيرها . ومشى جميع أرباب الحرف وأرباب الصنائع ومع كل طائفة عربية وفيها هيئة صناعاتهم مثل القهوجى بآلته وكانونه والحلوانى والقطاطرى والقزاز بنوله حق مبيض النحاس والحيطان والمعاجينى ... وكان في مجموعها نيفاً وسبعمين حرفة وذلك خلاف الملاعب والبهالوين والرقاصين ... »^(١)

على أن هذا الفقير الذى بلغ هذه المرتبة من الثروة والجاه والنفوذ لم يتشامخ ولم يستبد بالناس ، لأنه نشأ منذ البداية على خوف الله . فكان متواضعاً عطوفاً ، متفانياً في خدمة الكنيسة والوطن معاً . حتى لقد شبهوا حياته بالدائرة المرسومة التى لا تعرف لها بداية ولا نهاية^(٢) وبما لاشك فيه أن لكل إنسان في هذه الحياة قاذح ومادح - وهذا الرجل كثر مادحوه وقل قاذحوه ... ، فإذا يقال في رجل لم يتقدم أحد بذمه أو بنسبة منقصة إليه ؟ فإن قيل لرفعة مقامه

(١) « مجازب الآثار . » ج ٢ ص ٢٢٤ .

(٢) « نوابغ الاقباط ومشاهيرهم في القرن التاسع عشر » لتوفيق أسكاروس ج ١ ص ٢٠٧ .

وهيبته ، فلم ير أحد يغتابه في غيبته . أو قيل خوفاً من سطوته فقد كانت ترتاح النفوس للتقرب منه لتعرض عليه ظلامه فيعدل فيها أو كربة فيفرجها ، (١) .

ولقد تزوج من إحدى قريباته شاركته مشاعره ووجداناته ، فسار كلاهما في طريق المحبة والخدمة . ورزقهما الله بولد اسمياه يوسف وبابنة اسمياها دميانة ، رياهما في خوف الله وتقواه . ولما بلغ ابنهما من الشباب خطبا له شابة توسما فيها المشاركة الروحية والوجدانية . وهيا له أبوه بيتاً آتته بأفخر الاثاث . على أن المراحم الإلهية لم تسمح بهذا الزواج المرتقب إذ قد نقلت العريس إلى الفردوس قبل آتامه . وبلغ من حزن المعلم إبراهيم أنه سمر باب البيت الذي أعده بالمسامير ، ثم كسر السلام كي لا يدخله أحد . فتداركته المراحم الإلهية بأن ظهر ملاك الرب له ولزوجته في نفس الليلة وأعلن لهما أن الله نقل ابنها حياً فيه وفيها . فامتلا قلباهما عزاءً لهذه السكيات وأستمررا على خدمتهما . وعلى حديهما بالفقراء .

وعندما حدث الانقلاب الذي أحدثه مجيء حسن باشا قبطان المعين من الباب العالي فتر إبراهيم بك ومراد بك إلى الصعيد مستصحبين معهما المعلم إبراهيم وعدداً من رجالهما . وكان قبطان باشا كفيرو من ولادة الترك عشوياً باطشاً ، فقتل ونهب قدر المستطاع . وبالطبع أستولى على بيوت الكبراء ومن بينها بيت المعلم إبراهيم والبيت الذي كان قد أعده ليوسف ابنه . واضطرت زوجته إلى الاختفاء في بيت حسن آغا كتخدا على بك . ولكن ناكري الجميل دلتو الباشا على مكانها ، فاستحضرها واضطرت إلى الاعتراف ببعض الحبايا . ثم استحضر ابنته دميانة أيضاً فطلبت إليه مهلة جمعت خلالها الفقراء والمعوزين وجاءت بهم إليه ، وقالت : إن أموال أبي في بطون هؤلاء وعلى أجسامهم . وبهذا الجواب حتمها المراحم الإلهية من بطش ذلك العاتي (٢) .

ثم طلب حسن باشا قبطان إلى قاضى القضاة إحصاء ما أوقفه المعلم إبراهيم الجوهري عظيم القبط يومئذ على الكنائس والديارات من أطيان وأملاك وغير ذلك . ثم أحس بما وراء ذلك من الفشل وظهور الفتنة لخاف واستدعى إليه المعلم إبراهيم وكله فى الأمر . فصالحه المعلم إبراهيم على مبلغ كبير من المال . فنودى فيهم بالأمان وعدم التعرض لهم بمكروه فعادوا إلى ما كانوا عليه . على أن العساكر السلطانية لم تلبث أن عاودت الخطف - فعزمت الشدة جميع النصارى فضربت عليهم المغارم وطولبوا بخمسة وسبعين ألف ريال نقرة وأمر بإحصاء جميع دورهم وملكهم فأحصيت . فقرر عليها أجرة تدفع إلى خزينة السلطان . ثم ضرب عليهم غرامة أخرى قدرها خمسة آلاف كيس (١) . فضاقت عليهم الدنيا برحبها وباع الكثير منهم جميع ما عندهم حتى ملابسهم وملابس عيالهم . وقرر على كل شخص جزية جديدة قدرها دينار بلا فرق ، وذلك بخلاف الجزية الديوانية المقررة على كل واحد منهم . وتقبض الديارات وأخذ كل ما وجدته فيها من ودائع . وقبض على المعلم واصف أحد عظماء القبط يومئذ ورئيس حسابات الديار المصرية وعليه جمع الأبرادات والمصروفات . لجلده وحبسه وطالبه بالأموال . وكان المعلم واصف كاتباً حاسباً عاقلًا حاد الذهن وقتاد الذاكرة . وكان يعرف التركية حق المعرفة (٢) .

على أن كل هذه المأساة دامت وانتهت حتى لقد تمكن إبراهيم بك ومراد بك

(١) كان الكيس يحوى ما قيمته خمسة جنيهات الآن (راجع أيضا «عجائب الآثار» . . .

ج ٢ ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢) توثيق إسكاروس : « نوابغ ... » ج ١ ص ٢٤٠ - ٢٤١ نقلا عن الكافي ج ٣

ص ١٨٧ - ويبدو أن مؤلف الكافي نقل عن الجبرنى الذى يصف هذا القبطى فى كتابه

« عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ج ٢ ص ١٢٠ بهذه الكلمات : « وواصف هذا أحد

الكتاب المباشرين المشهورين ويعرف الأبراد والمصاريف وعنده نسخ من دفاتر الروزنامة

ويحفظ الكلمات والجزئيات ولا يحن من ذهنه شيء من ذلك ... »

من العودة إلى القاهرة ومن استعادة السلطة . فعاد المعلم إبراهيم معها وانشغل
في تلك الفترة ببناء السور البحري بأكمله لدر كوكب البرية الانبا أنطوني . وهذا
السور يعرف الآن باسم سور الجوهرى كذلك أحضر للدير ساقية . ورسم كنيسته
السيدة العذراء المغيثة بحارة الروم . وشيّد بيعة القديس مرقوريوس (أبي السيفين)
بدير الانبا يولا بالجبل الشرقى ؛ كما شيّد بيعة باسم الانبا ابلو والانبا ايوب
بدير البرصوس حيث أقام فصراً للضيافة أيضاً . وبنى بدير الانبا يونس كاهن
(السرمان) فصراً للضيافة كذلك ، وأضاف له حوزةً خارجاً بالجبهة القبليّة وبنى
حواله سوراً . وأضاف إلى كل هذا التشييد تقدماته من الزيوت والشموع والبخور
والكتب والاوراق إلى الأديرة وإلى مختلف الكنائس في مصر كلها وفي بيت
القدس أيضاً ١١١

ومن الحقائق التي يجب أن نعرفها ونعتز بها ذلك الجهد الشاق الذي بذله القبط
في تلك الفترة صوباً لأولادهم من تعسدى الغربيين . ومن الأدلة على هذا الجهاد
رسالة نشرها مندوب البابا الروماني بالقطر المصري على جماعة الكاثوليك الذين
كانوا كلهم بالوجه القبلي وذلك تنفيذاً للماهدة التي قامت بينه وبين بطريرك الأقباط
سنة ١٧٩٤ م عند معتمد دولة النمسا وفيها يوصى الأقباط المتكسكين بمدن جرجا
وأخميم وفرشوط ونقادة بذلك الاتفاق الذي عقد بينه بصفته كيرلس رئيس عام
رهبان المرسلين الكاثوليك والخوارجة كركوروشى قنصل النمسا والاب اكليمندس
رئيس عام سابقاً وبين بطريرك أنبا يونس والمعلم إبراهيم الجوهرى والمعلم جرجس
أخيه رؤساء طائفة الأقباط بمصر . وكان الاتفاق على ما يأتي : ١ - المتزوجون
من الفريقين لهم حرية اختيار الصلاة بأية كنيسته أرادوا قبطية أو كاثوليكية .
٢ - من الآن فصاعداً لا ينبغي أن يتزوج الأقباط من الكاثوليك ولا الكاثوليك

من الأقباط . ٣ - لا يدخل فسوس الكاثوليك بيوت الأرثوذكس ليكرزوا لهم
ولا فسوس الأرثوذكس بيوت الكاثوليك . ٤ - لا ينبغي إرغام أى أحد ليصل
بكنيسة معينة بل ليترك لكل واحد اختيار الكنيسة التى يحب . ٥ - لا يصح
فيما بعد إذا حدث خلاف أن يرفع الأمر إلى الحكومة بل إلى الرؤساء من
الكنيستين ولهم حق مقاصة المتعدى .

ومناك قصة على جانب من الطرافة تلخص فى أن المعلم ابراهيم الجوهري كان
حاضراً الصلاة فى كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة . وكان يومذاك على شيء من
التعجل . فأرسل إلى القمص ابراهيم عصفورى (١) خادم الكنيسة والتخديم لتلك
الشعائر من يقول له : « المعلم يقول لك أن تسرع قليلاً وتبكر فى الصلاة ليتمكن
من اللحاق بالديوان » . أجابه الكاهن : « المعلم فى السماء واحد . والكنيسة لله
وليس لأحد (٢) . فإن لم يعجبه فليبن كنيسة أخرى » . ولم يفضب الجوهري لهذا
الرد ولم يفعل ما فعله غيره عند الغضب من الكاهن بطاعة غضبهم وهجران كنيسة
آبائهم لكنيسة مقابرة فى العقيدة . بل اتخذ من كلمات القمص ابراهيم عصفور
الترجيه الأبوى وبني بالجهة البحرية لبيعة السيدة العذراء كنيسة لطيفة على اسم
الشهيد العظيم أبى السيفين . فلما تم بناؤها قال الكاهن الذى تسبب فيها : « حمداً لله
الذى جعل استيائك سبباً فى بناء كنيسة أخرى فرادت ميراثك وحسناتك » (٣) .

ومن أروع ما جاء عن هذا الأرخن الذى عرف أن يتاجر بوزناته لمجد
الآب السهارى أنه عاد إلى بيته مرة بعد صلاة ليلة عيد القيامة المجيدة فرأى الأنوار

(١) كان هذا القمص من أهل طه - مصره ، وهو الذى ناظر الشيخ السادات على مشهد
من العلماء والمشايع فشهدوا بجلته . وبما يؤسف له أنه للآن لم يترأد على أى كتاب ألفه هذا
القمص العالم - فلا ندرى أضاءت مؤلفاته نهائياً أم مازالت فى طي الحفاء .

(٢) منسى القمص . . . ص ٦٢٦ - ٦٢٧ .

(٣) توفيق اسكاروس . . . شرحاً ج ١ ص ٢٦٤ .

مطفأة كلها . وحين تلبس طريقه في الظلام إلى الداخل وسأل زوجته عن السبب
قالت له : « كيف تستطيع أن نبتج بالنور ونعيد عيد النور المنبثق من القبر
الفارغ وقد حضرت عندي هذا المساء . زوجة فبطى سجين وهي وأولادها في حاجة
إلى الكسوة والطعام ؟ وقد ساعدني الله فذهبت إلى زوجة المعلم فانوس (١) الذي
نجح في استصدار الأمر بإطلاق سراحه . فذهب المعلم إبراهيم لساعته وأحضر
الرجل وزوجته وأولاده واستضافهم عنده ولما عاد بهم إلى بيته أضيئت الأنوار .
وبعد أيام أوجد للرجل عملاً . على أن الدرس الأعظم روعة هو أن ذلك الذي
طاف السجن والبطالة قال للمعلم إبراهيم بأن هناك من هو أولى منه بالوظيفة لأنه
أكثر احتياجاً وفرح الأرخن الكبير بهذه المحبة الفعالة وأوجد عملاً للثنتين (٢) .

وئمة حادثة أخرى جرت بعد انتقاله من هذا العالم تبين لنا إلى أي حد بلغ
عطفه على الناس حتى بعد تركه لإياهم ، وهي أن رجلاً فقيراً كان معتاداً أن يأخذ
منه مساعدة دورية ذهب إلى منزله في الموعد المحدد فتقبل له إن المعلم إبراهيم قد
رقد في الرب ، فسأله عن مكان مقبرته وذهب إلى كنيسته مارجرس بمصر
العتيقة مشوى الأرخن العظيم وأخذ يبكي بكاء مرأ . وغلبه النعاس فنالم . وعندما
ترامى له الجوهرى في حلم وقال له : « لاتبك . وأنا لى فى ذمة فلان (الزيات
بيولاق) عشرة بنادقة ، فسلم عليه منى واطلبها منه وهو يعطيها لك . » وصحبا
الفقير من نومه واسكنه خجل من تنفيذ الأمر . ونام ثانية فترامى له الأرخن
الجليل مرة أخرى ووجه نفس التوجيه . واسكنه تردد رغم ذلك . فلما نام
للمرة الثالثة رأى الحلم عينه وسمع المعلم إبراهيم يقول له : « لاتقلق أذهب كما قلت

(١) لا نعرف شيئاً عن هذا الرجل الذى كان له من النموذ ما مكنته من استصدار العفو
عن مواطن له .

(٢) منسى القمص ص ٦٢٢ - ٦٢٦ ، توفيق اسكاروس ص ١٥٠ - ٢٥٢ .

لك . وسأخبر فلان بأمرك . فقام الفقير لساعته وقصد إلى ذلك الزيات وسلم عليه من غير أن يفتحه في الموضوع . ففرس فيه الرجل وسأله عما به . وحين سمع ما حدث قال له : و بالحق نطقت لأن المعلم ابراهيم قد تراءى لي أنا أيضاً . وأبلغني الرسالة التي أمرك بها . فأليك ما في ذمتي ومثلها أيضاً عني .

ومن عجب أن هناك أسرة صربانية أرثوذكسية من حلب هي أسرة أنطونيوس لا تزال ترفع القدايس الإلهية أياماً معينة في السنة على اسم المعلم ابراهيم الجوهري . والسبب في هذه التذكارات هو أن السيد نعموم الجد المباشر للعائلة كان من كبار التجار في حلب . وقد حاول الكاثوليك اقتناصه بعيداً من أمه المستقيمة المقيدة فلما ضافوا ذرعاً بهذا الأرثوذكسي المتمسك بإيمانه القويم نهبوا أمواله وتسببوا في طرده من حلب . وكثيره من مختلف الناس لم يجد غير مصر الحنون يأوي إليها . وشاء الله الرحيم أن يتعرف السيد نعموم هذا بالمعلم ابراهيم الجوهري الذي لما عرف ما حدث له أكرمه وأوجد له عملاً في ديوان الحكومة . وبعد أن اشتغل عدة سنوات بجد واجتهاد عاد السيد نعموم إلى حلب ثانية يحمل الثروة التي جمعها من عمله في القاهرة ، واتخذ منها خميرة لمعاودة التجارة . ولم يلبث أن أصبح من كبار الأثرياء . وقد روى لأهل بيته ما فعله مع الأرخن القبطي الجليل فرأوا كلهم أن يقيموا القداسات باسمه اعترافاً بفضله (١) .

ومن المخطوطات المتبقية لدينا مخطوطة تتألف من مائتين وخمس وأربعين ورقة بتاريخ بؤونة سنة ١٤٦٨ ش (٨ يونيو سنة ١٧٥٢ م) لا يذكر ناسخها اسمه بل يكتب بالقرول بأنه كتبها تلبية لطلب المعلم ابراهيم الجوهري ، وعنوانها : كتاب المقالات - وعنوانه فأختصر على تعليقه من كتاب عبد الله الناشي في

(١) - توفيق أسكاروس : « نوابغ » ج ١ ص ٢٥٣ - ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠ .

المقالات وسمى بالكتاب الأوسط ، ومن الواضح أن الكاتب الأصيل هو الشيخ
الصفي ابن العسال وهو يقول إنه استتمارها من « مولى منفضل ، يصفه بكلمات
« مولاوى الأخ المنفضل الرشيد أبو المجد ، « والمخطوطة لها جزء ثان يشمل
قسمين ويتكون من ثلاثمائة وخمسين ورقة موضوعها : « ما اختصر على تعليقه من
كلام بعض المسيحيين في الرد على الكتاب المعروف باللمعة المضيفة الذى جرده
أبو المنصور بن الفتح الديماطى من كتابه الذى قصد به الرد على النصرانى .
تهذيب صفي الدولة أبو الفضائل ابن العسال المصرى . « أما الجزء الثالث للمخطوطة
فموضوعه يبين إلى أى مدى اهتم مفكرو القبط في توضيح عقيدتهم ، وهو :
« سؤال وجواب عن حلول أصل الأصول فى امرأة ، « . وكان الاجابة هو
فرج بن جرجس بن أفرام . وهنا ايضا لا تعرف عن المجيب شيئاً غير اسمه الذى
يورد خاليا من أى لقب « .

ولما بلغ المعلم ابراهيم الجوهري نهاية الشوط وانتقل إلى الفردوس عم الحزن
جميع القلوب . بل إن ابراهيم بك نفسه سار فى الجنائز اكراماً له وتقديراً
لخدماته . وبعد فترة وجيزة لحقت به زوجته ثم ابنته التى عاشت عذراء رغم
انها لم تلتحق بأى دير .

وهنا حقيقة يجدر بنا الوقوف عندها : فالمثل الدارج يقول « من خلف
مامات ، « . ولكن المعلم ابراهيم الجوهري رغم أبوتيه لاثنين - لم يترك نسلا من
بعده ، ومع ذلك فاسمه اليوم يتردد صدها من الشمال إلى الجنوب فى هذا البلد
الذى أحبه وخدمه وعلى السنة اولاد الكنيسة التى عاش طيلة حياته متفانياً
فى خدمتها .

وهناك خطاب لا يزال موجوداً كتبته المعلم إبراهيم الجوهري (بالتركية) إلى السلطان لإثبات حق دير شمران بمد أن أوضح موقع الدير والأفدنة التابعة له المطلوب الكشف عليها وهذه صورته :

امضاء السلطان محمود - رزقة دير شمران بموجب تربيح سنة ٩٣٣ بناحية معصرة دير شمران بولاية الأطفيجية (خط ديوانى تركى) .

١٢ فداناً و ١٣ قيراطاً

البحرى

القبلى

ينتهى إلى المعصرة المعروفة قديماً بطوغان إلى الطريق الموصل للمعصرة

الغربى

الشرقى

إلى البحر الأعظم

إلى الترععة الدايرة

٢١ / سنة ١٢١٤

من ديوان الجيشى

و إن حجة الرزقة المذكورة اثنا عشر فداناً ونصف فدان مستخرجة من الدفتر المقيد به كالمبين أعلاه وذلك طبقاً لما هو موجود فى تقرير حجة نظارة ناظر الدير المذكور وهذه صورة طبق الاصل صار تحريرها . والامر والفرمان لمن له الامر .

أدام الله بقاءه

صاحب الدولة والسعادة سلطانى

الداعى لتقديمه هو أن لدير شمران السكان بالقرية المسماة بهذا الاسم التابعة للمعصرة بولاية الأطفيجية بمصر أطياناً صالحة للزراعة مساحتها اثني عشر فداناً ونصف فدان .

وحيث أنه اقتضى الكشف على أطيان هذه الرزقة فالمرجو من الحضرة السلطانية له التكرم بأمر التأشير على كشف الدير المذكور من محل الاختصاص بما يطابق تقرير الحجة الموجودة تحت يد ناظر الدير المذكور .

والامر موكول للحضرة السلطانية أفندم ؟

عبدكم

معلم إبراهيم جوهري //

وكانت آخر خدمة أداها هذا الأرمن المجاهد هي أن حصل على فرمان لبناء الكنيسة المرفقية بالأزبكية . وكان القبط آنذاك لا يحصلون على فرمانات إلا بشق النفس . أما المعلم إبراهيم فقد حدث له أن أميرة من أميرات البيت السلطاني قضت في مصر فترة من الزمن وهي في طريقها إلى الحج . وتبين عليه أن يكون في خدمتها طول فترة بقائها في بلادنا . فلما أزمعت الرحيل أرادت أن تعبر له عن شكرها لما قام به من خدمات فألته عما يريد . فطلب إليها أن تصدر له فرمان بالبناء . وفلا استصدرته له . على أن الله تعالى لم يسمح له بأن يمشي ليرى الكنيسة التي سعى إلى إقامتها . فبدأ فيها ثم استكملها أخوه جرجس . وقد أصبحت هناك المقر البابوي إلى ختام حياة البابا كيرلس السادس (البابا الاسكندري الـ ١١٦) . كذلك نجح في أن توسط الأميرة لرفع الجزية عن الرهبان ورجال الكهنوت (١١) . وقد أوقف الكثير من أملاكه على الكنائس حتى لقد بلغ عدد الحجج المثبتة لتقدماته مائتين وثمانين وثلاثين حجة محفظة الآن بالمسكبة البابوية بالأزبكية (١٢) .

وخير ما نختتم به هذه السيرة المطرة مقتطفات مما قاله عنه الجبرتي وهي :

ومات الذي المعلم إبراهيم الجوهرى رئيس الكتبة الاقباط بمصر . وأدرك في هذه الدولة بمصر من العظمة ونفاذ الكلمة وعظم الصيت والشهرة مع طول المدة بمصر ما لم يسبق لمثله من أبناء جنسه فيما نعلم . . . فكان هو المشار إليه في الكليات والجزئيات حتى دفن الروزنامة والميرى وجميع الايراد والمنصرف وجميع الكتبة والصيارف من تحت يده وأشارته . كان من دهاقين (١٣) العالم ودهاته . لا يقرب

(١) توفيق اسكاروس . . . ج ١ ص ٢٢١ .

(٢) من مقال نشر بمجلة المحبة (يونيو سنة ١٩٦٠) نقلا من النكارة تحت يوم ٢٥

بشنس : ص ١٨٣ - ١٨٧ .

(٣) أى السنة .

عن ذهنه شيء من دقائق الأمور . ويدارى كل إنسان بما يليق به من المداراة .
ويحاني ويهادى ويواسى ويفعل ما يوجب انجذاب القلوب والمحبة . ويبعث الهدايا
العظيمة والشموع إلى بيوت الأمراء . وعند دخول رمضان يرسل إلى غالب
أرباب المظاهر ومن دونهم الشموع والأرز والسكر والكسارى . وعمت في أيامه
الكنائس وديور النصارى . وأوقف عليها الأوقاف الجليلة والأطيان . ورتب
لها المرتبات العظيمة والأرزاق والداراة والغلال . . . (١)

أما الأنبا يوساب ابن الأبح فقد استعمل تعبيرات الكتاب المقدس في وصفه
فقال عنه : إنه صار عبداً للامم ورجلاً للأعرج وزوجاً للأرملة ورئيساً مهتماً
بكافة الديورة ومديراً أميناً لكل الكنائس . ولم يخز ذلك البار الأرخب إذ قال
مع أيوب الصديق : إننى نجيت المسكين الصارخ واليتيم الذى ليس له معين ،
وبركة الضعيف كانت دائماً على ، وقلب الأرملة قد فرحت ولبت الحق والعدل
كالثوب وجملته على راسى كأنه إكليل . . . ولم يفكر قط أن يميز واحداً عن
آخر في قضاء الحق ، ولم يكن ثم عنده لاشموبى ولا يونانى ولا عجمى ولا يهودى
ولا رومى ولا قبطى ، واسكنها كلها خليفة الله . . . (٢) فلما انتقل المعلم إبراهيم
الجوهري إلى الفردوس رثاه الأسقف الجرجاوى بكل اعزاز فقال : فياله من
اضطراب عظيم صار في كورة مصر بل في كافة الاقطار المصرية . ناحت الشيوخ ،
بكت الشبان ، خرج الفلاحون ، ولوت العربان . كان القاضي يبكى ، والسكنة
يرفعون أصواتهم بالعويل ، تعالى ياكل الأرامل وابكين على رجلكن الذى كان
يتم بكن^٣ بالطعام والكسوة . والتمسوا يا كل الفقراء والمساكين ، واصنعوا لكم
مناحة على من يباشر أحوالكم كل حين . نوحوا وابكوا أهباً الرهبان سكان

(١) الجبرتي (تاريخ) ج ٢ بين وفيات سنة ١٢٠٩ هجرية . ٧٨١ - ٧٨٢

(٢) توفيق اسكاروس . ١٣٠٠ ص ٢٢٤ .

فقالوا (٢)

البراري على من يتفق كل حالانكم دائماً ، اجتمعوا ونوحوا أبا الكنة خدام
الرب واليسوا مسوحاً على الذي كان دائماً يتفق الكنائس بالمحرقات والقرابين ،
نوحوا وابكوا يا كل خدام بيت الرب على الذي كان مريضاً دائماً بحمل كل
احتياجاتكم . وبالأكثر كان النواح العظيم عند الأب المعظم أبنا يونس على ابنه
الحبيب البار الصديق أعني إبراهيم ... ، (١)

وهكذا نجد كيف تتحقق أقوال الله في أولاده فنقول مع المرتل في ختام
الحديث من هذا الأرغن الجليل : ذكرى الصديق البركة .

١٨٤ - وكان جرجس أصغر الأخوين ، تعلم في الكتاب كأخيه ، وكأخيه
أيضاً بدأ حياته العملية كاتباً عند أحد المماليك . فلما انتقل أخوه إلى دار النعم

(١) من نعمة لجنة نهضة الكنائس القبطية الأرثوذكسية المركزية بالقاهرة - وزعت
في حفلة إحياء ذكرى المعلمين إبراهيم وجرجس الجوهري التي أقيمت بكنيسة مار جرجس
بمصر القبطية يوم ٢٥ شمس سنة ١٦٥٥ ش (سنة ١٩٢٩ م) . ومقبرة هذين المعلمين الجليلين
تقوم في رحاب هذه الكنيسة . ويذكر الباحث توفيق أسكاروس أنه كان من عادة القبط أن
يدفنوا مع كبرائهم (أو مع شهدائهم) نبذة منهم ولكن مقبرة الجوهريين لا تضم قبر
رفاتهما . ويرجع توفيق أسكاروس أنه كان هناك مخطوطة أو أكثر وأن النار التي شبت في
الكنيسة سنة ١٥٥٨ ش لا بد أن تكون قد التهمتها . كذلك يذكر أن راهباً بكنيسة
السيدة العذراء (الملقة) أبلغه أن شخصاً اسمه باسيلي تادرس يعيش في قرية القيس قليوبية
لديه كتاب مخطوط يتضمن ترجمة وافية للمعلم إبراهيم ولكن باسيلي هذا يضمن بأن يطلع أحداً
عليه مبالغة منه في الحرص . وأن المعلم حنا مرتل كنيسة السيدة العذراء بمسارة زويلة سنة
١٩١٠ قال له بأن إبراهيم روفائيل الطوشي لديه أيضاً كتاب به ترجمة الأرغن الجليل وأخبار
مختلفة كما أن فخرى عبد النور كبير أقباط جرجا (في مثل القرن العشرين) أخبره بأن في
كنيسة جرجا كتاباً به بعض الشيء من هذا القبطي الكبير الذي عرف أن يعيش كما يحق
لدهوة التي دعى إليها . (نوابغ الأقباط ... ج ١ ص ٢٦٦) هذا وقد أورد توفيق
أسكاروس نصوص المصحح المحفوظة بالمكتبة البابوية المسجلة لوقفيات الجوهريين فاستغرق
بردهما من ٢٦٧ - ٢٦٦ من كتابه المذكور .

عينه ابراهيم بك ومراد بك مكانه. فأصبح كبير كتبة مصر لهذا اعتبره الفرنسيين
عيد القبط.

وحدث بعد استقرار الفرنسيين بشهرين أنهم أرادوا الاحتفال بأحد
أعيادهم، فدعوا المشايخ وأعيان المسلمين والقبط والشوام. وفي هذا الاحتفال
لبس جرجس الجوهري كركة بطرز نصب على اكتافها إلى أكمامها، وعلى
صدرها شماسات نصب بأزرار. وكذلك فلتشوس. وتعمموا بهائم كشميري.
وركبوا البغال الفارعة وأظهروا البشر والسرور... (١١) :

وحدث حين ذهب بونايرت إلى السويس أن استصحب بعض المشايخ
والمديرين والمهندسين والمصورين كما استصحب المعلم جرجس الجوهري والمعلم
أنطون أبو طاقية للاستعانة بغيرتهما. وقد اقتدى عسكر نابليون به فاعتادوا
استصحاب المعلم جرجس حينما ذهبوا. حتى أنه حين وصلت الأنباء بأن مراكب
الترك رست في أبو قير مع الانجليز، وأراد الفرنسيون تعدية النيل إلى الضفة
الأخرى منه ناحية بولاق أخذوه معهم أيضاً (١٢).

وحين دخل الترك القاهرة على أثر السحاب الفرنسيين وبدأوا يعيشون
فساداً هرب العدد الكبير من القبط إلى مصر عتيقة والجزيرة. أما أكابر القبط
مثل جرجس الجوهري وفتشوس (١٣) وملطى فإنهم طلبوا الأمان من المسلمين
لكونهم انحصروا بدورهم وهم بوسطهم. فأرسلوا لهم الأمان (١٤).

(١) بومبات الجبرتي ج ١ ص ٧٦.

(٢) شرحه ج ١ ص ١١٥ و ١٩٣ ويبدو أنهم كانوا يستصحبونه في مختلف رحلاتهم -

راجع « مجانب الآثار... » ج ٢ ص ٧٥، ١٥٤، ١٥٧.

(٣) لانترف من هذا الأرخن سوى اسمه رغم أنه يأتي دائماً بعد جرجس الجوهري

وسبق ملطى أيضاً.

(٤) الجبرتي ج ٢ ص ١٣٧.

أما في الفترة الأخيرة للحملة الفرنسية ، حين آلت القيادة إلى الجنرال بليار ، فإن هذا الجنرال اتخذ دار جرجس الجوهري مسكناً له (١) .

وحدث أن أراد الوالي هدم المنازل المجاورة لمنزله والتي كانت تهدمت واحترقت أثناء المعارك ضد الفرنسيين لكي يبني بدلاً منها ثكنات لحرسه فذهب خيمة عند بيته على مقربة من العمل ليباشره بنفسه . وعندها رتب مساعده قوائم بأرباب الحرف ونهبوا عليهم بالحضور مبتدئين بالقبض ، لحضروا يتقدمهم جرجس الجوهري وواصف وقلثيوس ومعهم طبول وزمور . فكان العمال يشتغلون على أنغام الطبل والزمر والغناء . واستمروا في ذلك عدة أيام ثم تبعتم طوائف أخرى . ومع أن هذا العمل سير الوالي إلا أنه طالب المطالبين والمزميرين بدفع مبالغ عن المال - فن دفع مبلغاً يرضيه أنقص ساعات عمله ومن دفع مبلغاً أقل بما يتغيه أطال عليه مدة العمل وأتعبه (٢) .

وحدث في السنة عينها (سنة ١٨٠٢ م) أن جاء إلى مصر عدد من سيدات الباب العالي ومعهن زوجة قبطان باشا فتبارى العظاء في إكرامهم ومعهم جرجس الجوهري الذي أعد داراً خاصة لاستضافة البهضر منهن فيه . وبالطبع اعتنى بفرش هذه الدار عناية خاصة حتى لقد فرش بساطاً من الكشمير في مدخلها . وقد تم زواج اثنين منهن في آن واحد فأقيمت وليمة العرس في هذه الدار (٣) .

على أن كل هذه الخدمات التي أدّاها جرجس الجوهري لم تكن بالضمان الكافي له ضد الطغيان التركي . فلم يابث الوالي أن أطلق عسكره على بيوت

(١) شرحه ج ٢ ص ١٢٩ .

(٢) عجائب الآثار ... ج ٢ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٣) توفيق أسكاروس ج ٢ ص ٢٩٤ .

الكبراء لينهبوها - فنبهوا من بينها بيت جرجس وأخذوا منه النفا من الكثرة
والفراوى الثمينة (١).

ثم آل الأمر إلى محمد علي باشا فأقر المعلم جرجس الجوهري في وظيفته وهي كبير
كتبة القطر المصري . ولما استتب له الأمر بقضائه على المالك أقام الزينات ودعا
المشايع وكبار القوم إلى ديوانه ، ولندع الجبرتي يستكمل لنا الوصف إذ يقول :
« .. ودخل إليه المشايخ نخلع عليهم فراوى سمور .. ثم حملوا شنكا ومدافع كثيرة
وطبولا . وأحضر في ذلك الوقت المعلم جرجس وكبار الكتبة وعدتهم اثنان
وعشرون قبطيا ولم تخرج مادة باحضارهم نخلع عليهم أيضا ثم نزلوا إلى بيت السيد
المحروقي فتغدوا عنده ثم عوَّقهم إلى مصر ثم طلبهم الباشا إلى القلعة لحبسهم في
تلك الليلة واستمروا في الترسيم وطلب منهم ألف كيس (وكان ذلك في يوم
الخميس) . . . (وفي الأربعاء التالي) أفرجوا عن التصاري الأقباط بعد ما قرروا
عليهم ألف كيس خلاف البراني وقدره مائتان وخمسون كيساً ونزلوا إلى بيوتهم
بعد العشاء الأخيرة في الفوانيس ، (٢) . على أن هذه المباحة التي بعاش فيها محمد علي
بالمعلم جرجس وزملائه كانت الأولى . تبعثا غيرها . وانتهت كلها إلى أن احتدم
غيطه عليه إذ خامره الشك في أن يكون جرجس قد احتفظ ببعض مال الجباية
لنفسه وبدافع هذا الغضب أمر بسجنه هو ومن يعملون معه واستدعى المعلم قالي
ليراجع الحسابات . وبعد مراجعته أبلغ الباشا بأن المبالغ مضبوطة وأن المعلم

(١) شرحه ج ٣ ص ٢٤٢ .

(٢) « عجائب الآثار » . . . ج ٣ ص ٢٠١ - ٢٠٢ ومن الطريف أن نذكر أن
الجبرتي بعد وصفه لتفصيلات الاحتفال قال بأن « ديوان افندي » قرأ فرمانين على المجتمعين ،
ثم هلق على فرمانين وما جاء في أعقابها من أحاديث بقوله « . . . ونحو ذلك من الكلام
الحفوظ المعتاد المنق . . . » . وهذا التعليق بوضع لنا تنهم المصريين لوضع الولاية رغم
سكونهم لفترات يهون بعدها . فهم شعب صبور ولكن صبرهم بشي دأباً إلى ثورة كما
ينضح لسكل مطلع على تاريخهم .

جر جس انما اشفق على الناس فلم يحتم عليهم دفع المبالغ المفروضة . ومع ان
محمد على اقتنع بذلك الا انه طالب جرجس ومن معه بدفع اربعة آلاف وثمانمائة
كيس من المال ، كما انه عين المعلم غالى (الذى كان كبير كتبة الالنى بك مكانه) .
وبمدها افرج عنهم . على ان المعلم جرجس اضطر الى بيع الكشور من ممتلكاته
ثم ازوى فى الصيد - ولو ان البعض يظن ان باشا هو الذى نفاه بعد ابتزاز
أمواله (١) . او بعد ان قضى اربع سنوات بعيداً عن القاهرة حسدوا له الإذن
بالمودة . ولكنه لم يمش غير سنة واحدة التقل بمدها الى دنيا الخلود ودفن الى
جوار أخيه العظيم فى رحاب مار جرجس بمصر .

ولا يذكر التاريخ اسم زوجته ولا صلة قرابتها به قبل ان تصبح شريكه حياته .
ويبدو انه لم يخلف غير بنت اسمها مختارة ، ، وهى جدة لرجل من رجال الدولة
أبام محمد على باشا اسمه رزق الله الصباغ . إلا ان المعلم رزق الله هذا مات دون
ان يخلف أحداً (٢) .

وجدير بالذكر ان للمعلم جرجس الجوهرى صورة بالحجم الطبيعى فى القاعة
الشرقية من قصر فرمساى (٣) - وهو القبطى الوحيد المصور مع نخبة من كبار
المسلمين يتوسطهم نابليون نفسه (٤) .

ولقد شارك جرجس أخاه العظيم فى خدمته الكنيسة من تصدير الكنائس
والأديرة ووقف العقارات عليها ، ومن معاونته للمستورين والفقراء (٥) .

(١) شرحه ج ٣ ص ٤٣١ - ٤٣٦ ، أنظر أيضاً ص ٢٢٨ ، ٢٩٣ ، ٣١٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ .

(٢) توفيق أسكاروس : ج ٢ ص ٣٠٦ .

(٣) هذا القصر بناه الملك لويس الرابع عشر وجعل منه آية من الفن والجمال . وفى
إحدى قاعاته أبرمت معاهدة الصلح بين الحلفاء وبين ألمانيا عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى .

(٤) توفيق أسكاروس : ج ٢ ص ٢٨٧ ، عجائب الآثار . ج ٤ ص ١٠١ .

(٥) تاريخ الأمة القبطية لكامل الخنكة وفريد كهل - الحلقة الثانية ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

ومن الوثائق الجديرة بالتأمل التقليد المخطوط بعلامة الأنبا بولس الثامن عشر
الذي أسند به نظارة كنيسة القديس مرقوريوس (أبي السيفين) إلى المعلم جرجس
تقتطف منها ما يأتي: . بسم الآب والإبن والروح القدس الإله الواحد . المجد لله
ذو القدرة والعظمة والجلال ، الصادق في وعده والمقال العادل في الحكم والأفعال .
الذي جعل بيعته المقدسة ثابتة مزينة بالجمال ومنحها بالأنوار البهية والأسرار
والغفران . وجعلها كمروسة وسفينة النجاة لكل غرقان . كراتب الطقوس النورانية
منذ الابتداء وإلى آخر الأزمان . . . لذلك رأت القلاية البطركية اليوئسية التي
بنعمة الله تعالى لازالت آراؤها متفقة ومقاصدها إلى الصالحات موافقة أن تتمسك
بذوى الصفات المستحبة المشكورة . من شهر عنهم المساعي المبرورة فتفرسهم في
خدمة البيعة المذكورة ويحبهم الرب الإله وبينهم وبينهم ولما كان الإبن المبارك
الدين الارثوذكسي الارخن المبجل الشماس المكرم الفرع الزاهر من الأصل
الظاهر المعلم جرجس أبو جوهرى بارك الله عليه مخصوصاً بهذه الاشارة . والمعبر
عنه بهذه العبارة . الذى له هذه المحاسن ليست بمستعارة . وانفتت الجماعة على
صلاحته وأهليته المشهود له بنجاحه وشفقته . وفوضت إليه القلاية بخدمة هذه
البيعة المشار إليها أعلاه تفويضاً كاملاً . وقلدناه هذه الوظيفة . ووكناه عليها
ليكون فيما يرضى الله عاملاً . ويكون ناظراً على مصالح هذه البيعة وعلى أولادها
وكهنتها وشماستها وخدامها علواً وسفلاً . وعلى نذورها وأوقافها ومقبوضها
ومصرفها كما جرت به العادة لمديرى البيع المقدسة وجميع ما استقرت عليه القاعدة
إلى هذه الغاية . فليتقدم بالاجتهاد ويقوم بأمرها بالاستعداد . . . ويلزم عليه أن
يكرم الكهنة وسائر الخدمة . . . ويجمع شمل أولاد البيعة بالالفية الروحانية
والمحبة المسيحية . ليمجدوا الله تعالى إذا شافوا منه الاحسان . . . وقد سطرنا له
هذا التقليد شاهداً له بهذا التفويض . فليفعل بكل ما يجب عليه مثل أمثاله .

ويتغلب بخوف الله تعالى في أفواه وأفعاله . . . ويتصرف تصرف الوكيل الأمين الحكيم . ويتدبر كتدبير الرؤساء التامين . ولا يهمل في شيء من الواجبات . ولا يرنح في حالة من الحالات . ويتذكر قول الرب له المجد من أراد أن يكون فيكم كبيراً فيكون لكم خادماً . . . فسبيل الأولاد المباركين الكهنة المؤتمنين والشمامسة المكرمين القاطنين الواردين والمترددين وكل الخدام بهذه البيعة المقدسة أن يقيموا الصلاة في كل وقت وحين . . . ويتفقوا معه على كل عمل صالح . والمستول والمطلوب من الرب الإله الساكن في أعلا سماء . والقديس محب آباءه مرقوريوس صاحب البيعة يعيت بقرته الإلهية على ما يضمه من الصالحات وينويه . . . ويجعل خدمته في هذه البيعة سبيبة . ونهايته فيها بالغة الروح حميدة . . . ويحئن عليه قلوب المتولين عليه . ويفخر له الخطايا والذنوب ويوجهه دوام الصحة في عقله ونفسه وجسده والقوة في قلبه وفهمه واعتقاده ويفرح في جيله على أيامه أياماً . . . وسلام سيدنا يسوع المسيح الذي حمل بدءاً على تلاميذه الأطهار وهم في عليه صهيون مجتمعون يحمل ذلك السلام الروحاني على الإبن المبارك المعلم جرجس أبو جوهرى . والنعممة والبركة والتحليل والغفران والخلص والمعونة من قاي أنا خدام بنعمة الله الكرمى المرقسى . والرحمة والرافة يشعلوه ويتضاعفوا عليه . وجميع التحاليل والبركات الأبصطالية والمجامع الأرثوذكسية . ومن أفواه الآبا خلفام يحمل عليه بالدوام ويحفظه ويممره ويثبت في الأرض ذكره . . .

في يوم الثلاث المبارك خامس شهر برهات المبارك للشهداء الأطهار السعداء الأبرار بركاتهم علينا . آمين .^(١)

ولا يفوتنا تسجيل شهادة الجبرتي له إذ يقول عنه يوم وفاته : ولما مات أخوه

(١) عن لفره لجمية نهضة الكنائس القبطية الأرثوذكسية المركزية بالقاهرة وزعت

في حفلة أحياء ذكرى المطين ابراهيم وجرجس الجوهرى ص ١١ - ١٥ .

في زمن رياسة الامراء المصريين تعين مكانه في الرياسة على المباشرين والكتبة
ويده حل الامور وربطها في جميع الاقاليم المصرية . نافذ الكلمة وافر الحرمة .
وتقدم في ايام الفرنسيين فكان رئيس الرؤساء وكذلك عند مجيء الوزير
والعثمانيين وقدموه واجلسوه لما يسديه إليهم من الهدايا والرزاق حتى كانوا
يسمونه جرجس أفندي . ورايته مجلس بجانب محمد باشا خسرو وبجانب
شريف أفندي الدقردار ويشرب بحضورهم الدخان وغيره ، ويراعون جانبه
ويشاورونه في الامور . وكان عظيم النفس ويعطى المطايا ويفرق على جميع
الاعيان عند قدوم شهر رمضان الشموع العسائية والسكر والارز والكساوي
والبن . ويعطى ويب . بنى عدة بيوت بحارة الوندك والازبكية وأنشأ داراً
كبيرة وهي التي يسكنها الدقردار الآن ويعمل فيها الباشا وابنه الدواوين عند
قطرة الدكة . وكان يقف على ابوابه الحجاب والخدم . ولم يزل على حاله حتى
ظهر المعلم خالي وتداخل في هذا الباشا (محمد علي) وفتح له الابواب لجمع الاموال .
والترجم (جرجس) يدافع في ذلك . وإذا طلب الباشا طلباً واسعاً من المعلم
جرجس يقول له هذا لا يتيسر تحصيله فيأتي المعلم خالي فيسهل له الامور ويفتح
له ابواب التحصيل . فضاقت خناق المترجم وخاف على نفسه فهرب إلى قبلي ثم
حضر بأمان . . . وانحط قدره ولازمته الامراض حتى مات وانقضى وخلا الجو
للمعلم خالي وتعين بالتقدم ووافق الباشا في اغراضه الكلية والجزئية . وكل شيء
له بداية ونهاية . والله اعلم (١) .

(١) عجائب الآثار . ج ٤ ص ١٢٦ . وثن كنا هنا نورد سير الأراخنة القبط إلا
أنه يجب أن نذكر أنهم عاشوا في صميم الحياة المصرية فشاركوا اخوتهم المسلمين السراء
والفراء . ولقد أورد صبحي وجيدة في كتابه « اصول المسألة المصرية » ص ١٠١ - ١٠٤
أسماء عدد من الرجال الذين ساندوا السلاطين أمثال محمد الدين ابراهيم بن فراب الاسكندراني
وزير السلطان برقوق الذي كان جده قد أسلم ثم قال : « هذه أمثلة قليلة نجدتها هنا »

بداية الانفراج

- ١٨٥ - عن رفاعة الطوطاوي
١٨٦ - من رسائل الخلفاء
١٨٧ - التعدة قبل الانفراج
١٨٨ - الرعاية الإلهية
١٨٩ - التراجع فالاستقرار
١٩٠ - الصلاة من اجل النيل
١٩١ - بداية الهدوء
١٩٢ - مذبة المالك
١٩٣ - اعادة بناء المرقسية بالاسكندرية
١٩٤ - تكريس الميرون
١٩٥ - رسالة مطران للعبشة وآخر
للبنها
١٩٦ - والنين للسودان
١٩٧ - تعمر أديرة القدس
١٩٨ - انبثاق النور أمام ابراهيم باشا
- ١٩٩ - مقابلة البابا لسفير روسيا
٢٠٠ - قضاء بنت محمد علي باشا
٢٠١ - خداع وتلاعب
٢٠٢ - كفاح القائد
٢٠٣ - سيدهم بشاي
٢٠٤ - تنالض له العجب
٢٠٥ - مؤامرات انجليزية
٢٠٦ - أبو طرحة
٢٠٧ - بعض الاراخنة
٢٠٨ - المعلم عيود
٢٠٩ - المعلم غال
٢١٠ - عبرة لها قيمتها
٢١١ - محمد علي باشا وابنه ابراهيم
٢١٢ - الجببترتي

١٨٥ - يجدر بنا قبل متابعة ركب التاريخ أن نسرّد مقتطفات عما سجله رفاعة رافع الطوطاوي في كتابه «مناهج الالباب المصرية في مباحج الاول المصرية» بعنوان «ما ينبغي ذكره في رؤساء احبار أهل الذمة» - قال: «فأما بطريك البعاقة فهو أكبر أهل ملته والحاكم عليهم ما امتد في مدته» وإليه مرجعهم في

وذلك في كتب المعر وهي ثمرنا بأن الأمر لم يكن شذوذاً وإنما كان قاعدة عامة في عهد السلاطين جميعاً وفي دواوين الحكومة ودواوين الأسماء على السواء. وكان هؤلاء الرجال يأتون من صميم الطينة المصرية ويشتركون في الحكم ويوجهون مصائرهم دون أن يكون في سلوكهم شيء من روح المبودية الذي أراد أن يراه الذين عرضوا لتاريخ ذلك العصر. كذلك نعرف أن أرباب الحرف كانوا يسبون السلاطين في الطرق ومواجهتهم ويتظاهرون تحت نواقد القلعة ويشكثون على أهلها. بل إنه حدث على أثر فتنة من الفتن أن تار العامة وقبضوا على قائد المسكر وأهانوه وجرسوه على حمار وحلقوا نصف لحينه وطاقفوا به البلاد وهو مكشوف الرأس وم يضربونه ويصفون به بالنعالات» .

التحليل والتحرير . . . وشرعته مبنية على المسامحة والاحتمال والصبر على الأذى وعدم الاكترات والاحتفال . وهو يؤدب لنفسه في الأول بهذه الآداب . . . فدأبه التخلق من الأخلاق بكل جميل . وأن لا يستكثر من متاع الدنيا فإنه قليل . فليقدم المصالحة بين المتحاكين إليه قبل الفصل والابت . فإن الصلح كما يقال سيد الأحكام وهو قاعدة دينه المسيحي . . . ولينظف صدور إخوته من الغل . . . وكذلك الديارات . . . يتفقد فيها كل أمر ويجتهد في اجراء أمورها على ما فيه رفع الشبهات . علماً أنهم إنما اعتزلوا فيها للتعبد فلا بدعها تتخذ منزهات . وأنهم إنما أحدثوا هذه الرهبانية لئلا ينقل في هذه الدنيا والتعفف عن الشهوات . . . بل خطوة منزهة عن الحرام مرصدة على الحلال . . .

١٨٦ - كذلك يجدر بنا التأمل فيما جاء في بعض الرسائل التي كانت تكتب في مختلف العصور من الخلفاء إلى البطارقة عند توليهم ، فقد ورد في إحداها ما يلي : . . . وكانت طائفة النصارى اليمانية بالديار المصرية لهم من حين الفتح عهد وذمام . ووصية سابقة من سيدنا رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام . . . ولا بد من بطريك يرجعون إليه في الأحكام . ويحتمون عليه في كل نقض وأبرام . ولما كانت الحضرة السامية الشيخ الرئيس المجل المكرم . السكاني المنز المنعم . القديس شمس الرئاسة عماد بن المعمودية . كنز الطائفة الضليبية . اختيار

الملوك والسلاطين (فلان) وفقه الله هو الذي تجرد وترهب . وأجهد روحه وأنعب وصام عن المأكول والمشرب . وساح فأبعد . ومنع جسمه لذينة المرقد . ونهض في خدمة طائفته وجد . وخفض لهم الجناح وبسط الحد . وكف عنهم

(١) توفيق اسكاروس . . . ص ٢٠ ص ٢٢ - ٢٣ ، وجد أن أورد المقال بأكمله ذكر في آخره أنه منقول من كتاب مخطوط محفوظ بمكتبة جامعة أركنورد هو . صم الأضنى في صناعة الآلات ، لفلنندي .

اليد . واستحق فيهم التبجيل لما تميز به عليهم من معرفة أحكام الإنجيل وتفرد .
اقتضى حسن الرأي الشريف أن يلقى إليه أمر هذه الفرقة ويفوض . ويبدلهم عن
بطريركهم المتوفى ويعوض . فلذلك رسم بالأمر الشريف لا برحت مراسم مطاعة
... أن يقدم الشيخ شمس الرئاسة المذكور على الأمة النصرانية اليعقوبية . ويكون
بطريكاً عليها على عادة من تقدمه وقاعدته بالديار المصرية . . . فليسلك سبيل
السواء ولا يملك نفسه الهوى . وليتصك بخرف الله تعالى إن فعل أو لوى . أو
أخبر عن الحوارين أو روى فالعلم مراقب . والحكيم أمر أولى القول بالفكرة
في العواقب . والحاكم غداً بحقوق الخلق مطالب . . . (١)

١٨٧ - وبعد هذا التأمل نعود إلى متابعة الركب لنجد أنه في هذه الفترة بدأ
ينفجر الطريق أمام المصريين . ولما كان شق أى طريق جديد يستلزم الجهد والمعناء
فقد كانت بداية هذا الطريق الجديد تنقسم بالجهد والمشقة رغم فسحته في النهاية .
وكانت مصر آنذاك لاتزال تحت تراكم بطش الوالى التركى والتعزيب العنيف بين
المماليك . وقد صعب هذا البطش وهذا التعزيب ركود مزعج في الزراعة
والصناعة . على أنه لما كان الخالق المبدع قد أودع داخل النفس الانسانية قوة على
مواجهة أحداث الحياة فقد برزت هذه القوة في أن أرباب الحرف والتجار
والمهنيين شكلوا طوائف ، معترف بها : لكل طائفة لوائح منتظمة ورؤساء
منتظمون ومبالغ محددة من الضرائب . وكان الاعتراف بهذه الطوائف رسمياً إلى

(١) توفيق اسكاروس . . ٢٣٠ ص ٣٥ - ٣٩ ، ثم أورد بعد ذلك الرسالة المبعوث
بها إلى أنبا يونس العاشر المعروف بالمؤمن (البابا ال ٨٥) ص ٣٩ - ٤٢ تتبعها رسالتان
بنفس المعنى دون ذكر اسم البابا المقصود بكل منهما ص ٤٣ - ٤٧ وجدير بالذكر أنه توجد
مخطوطة بالمكتبة البابوية بالقاهرة (٤٣٢ - رقم ٧٤٩) بتاريخ ١٦ مسرى سنة ٩٣ ش
(٩ أغسطس سنة ١٢١٤ م) يتضمن جزؤها الخامس تقاليد الأساقفة في حين أن جزءها
السادس يحتوي على أمثلة من المراسلات بين الباباوات والأساقفة والأراخنة وهي مكتوبة
بلغة شرعية ذات الجمع .

حدد أنه متى كان بعض الاعضاء أو كلهم من القبط فإن الشيخ المنوط به جمع الضريبة يأخذ منهم الجزية أيضاً . والعجب أنه حين كانت العلاقات بين المسلمين والقبط تسوء كان عمل رجال الحكومة هو الفصل بين الفريقين (داخل الطائفة) .

كذلك استطاع سكان المدن الوصول إلى حماية أنفسهم بتقسيم المدينة الواحدة إلى عدد من الأحياء المنفصلة عن بعضها البعض يسمى كل حي منها « حارة » . وكان لكل حارة اكتفاء ذاتي وفي الوقت عينه لها سورها وبوابتها ومع أن هذا التقسيم كان تفتيناً للوحدة العامة التي يجب أن تتكون منها الدولة القوية إلا أنه كان آنذاك نوعاً من الدفاع عن النفس نشأت في ظلها بعض الصناعات التي كثيراً ما كانت في أيدي طائفت متخصصة . وهذا أدى بالتسالي إلى انقراض صناعات وحرفيها بأكملها (١) . وهكذا نجد المجتمع المصري في مطلع القرن التاسع عشر مجتمعاً غشاه الظلم وسطاً عليه الركود . وهنا تعود فتسطع أمامنا هذه الحقيقة الأخاذة : حقيقة مصر التي أودعه إياها مبدعها . فرغم كل مامر عليها من ظلم وظلام ظلت حيويتها مشتعلة تلتهب كلما اتهمت فقرة من فقرات البؤس والضيقة . وهذا ما حدث بعد الانقلابات والقلاقل التي انتابتها من أوائل القرن الثامن عشر حتى نهايته . فبعد خروج الفرنسيين ظلت مصر فريسة لتناحر المماليك والعثمانيين والألبانيين بالإضافة إلى المماليك ، واستمر هذا التناحر إلى أن أعلن الشعب المصري رغبته في تولية محمد علي « الباشوية » .

(١) فمثلاً كانت صناعة النسيج ترتبط بجدد من الصباغة والتطريز والشراريب والحبوط المنفضة والمذهبة كما كانت تشمل صناعة الحصر (الجبرتي : عجائب الآثار . ج ٢ ص ٢٥٠) ، كذلك كانت صناعة الزيت رائجة وكانوا يستخرجونه من بذور الخس والقرطم والسلمج والفتب والسهم وثمة صناعات جانبية كتقطير ماء الورد في الفيوم وصناعة قوالب السكر والعسل الأسود في الصعيد وصناعة ملح النوشادر ويؤخذ أغلبه من قنات القاهرة والدلتا وكان من الصادرات الرئيسية تنمونه أوروبا كلها ، واستخراج الملح بالتبخير ولح البارد - راجع كتاب « المجتمع الإسلامي والغرب » ص ١٤١ - ١٤٤ .

١٨٨ - وكان الله في شامل حكمته قد ميا لكنيسة الرجل الذي برطامار طابة
الاب الحقيق فيوفر على الاساقفة والارباخنة ضرورة الاجتماع للتشاور في هذه
السنوات المتأرجحة . ذلك ان الانبا مرقس الثامن اراد ان يرسم مطراناً على
الحبشة فوق اختياره على الراهب مرقوريوس المولود في بلدة الجاولي المتعبد
بدير كوكب البرية ابي الرهبان . غير ان التدبير الإلهي رتب تأجيل الرسامة
ورأى البابا المرقسي ان يستعين بهذا الراهب الذي استقدمه من البرية فرسمه مطراناً
عاماً (١) الكرازة المرقسية باسم تيئوفيلس وأبقاه الى جانبه في الدار البابوية
ليستشيريه وليجعله ميسماً على الأمور الادارية ، فعاش الى جانبه مذاك . فلما
أتت الساعة ليختار الاساقفة والارباخنة الخليفة المرقسي وجدوا ضالته المنشودة
في فحص الانبا تيئوفيلس الجاولي فلم يحتاجوا حتى الى رسامته لان الشعائر
المقدسة التي ترفع الراهب الى الاسقفية هي بعينها التي ترفعه لتجمل منه البابا
الاسكندري . ذلك لان القانون الكنسي الاصيل يعتبر البابا الاخ الأكبر بين

(١) هذه اول مرة في تاريخ الكنيسة القبطية يقام فيها مطران عام لأن جميع البابوات
السابقين على الانبا مرقس الثامن حينها كانوا يستنبون بالرهبان في مختلف المهام الكنسية
لا يمنحونهم أكثر من رتبة القسبة لأنهم كانوا مقتنين بالتعليم الرسول الذي يرى وجوب
رسامة الأسقف على شعب معين حسب قول الانجيل من رب المجد « أسقفنا وراعي نفوسنا » .
فكان مساعد البابا الذي اعتاد الشعب أن يصفه بكلمة « نليذه » راهباً لا يزيد على
« القمص » أما في سنة ١٨٠٢ - أي بعد تعاقب مئة وسبع من البابوات على مدى ١٧٢٤
سنة - فقد اختط الانبا مرقس الثامن خطة رسامة مساعده أسقفاً . ولئن قيل أنه صاحب الحق
في الرسامة إلا أن القانون الكنسي الاصيل يقول بأن أية خطوة جديدة يجب عرضها على
المجمع والعمل بمقتضى رأى الأهلوية . والرسل أنفسهم وضعوا هذا الاساس باجتماعهم وتشاورهم
مما حول موضوع ختان الامميين قبل معموديتهم (أعمال ١٥) . وبما أن كنيسة القبطية
الأرثوذكسية لا تؤمن بعصمة انسان مما سما فيمكننا نحن الشعب القبطي أن نقول (مع احترامنا
الجزيل) بأن البابا مرقس الثامن قد أخطأ في هذه الرسامة . وإن كان الماضي لا يعاد إلا أن
أخطاءه يجب أن تذكر لئلا بهذا التذكر نتجنب الوقوع فيها مرة أخرى .

إخوته الأساقفة - فهو بينهم لم يبلغ مرتبة الأب (١) . فأقيمت صلوات التنصيب التي جعلت من الأبا بطرس البابا التاسع بعد المئة بعد نياحة سلفه بثلاثة أيام فقط . فقد لم مهام كرامته وسط زحمة الاضطرابات السياسية والتنافس الحزبي المرير . وقد تميز هذا البابا بفضائل جمة شهد بها الأجانب قبل المصريين : فكان وديماً محباً لشعبه ، باذلاً منتهى جهوده لخير أبنائه ، شغوفاً بالدرس والمطالعة ، حليماً في رياسته ، محبوباً من الجميع لبساطته المتناهية ولتشفه واكتفائه بالقليل . وكان أول من اتخذ الكنيسة المرقسية بالأزبكية مقراً بابوياً - وهي الكنيسة التي كان إبراهيم الجوهري قد حصل على الإذن ببنائها .

١٨٩ - وخلال السنوات الثلاث الأولى لبابويته نجح محمد علي في استمالة المشايخ وزعماء الشعب إلى جانبه . فبعثوا في مايو سنة ١٨٠٥ برجاء إلى سلطان تركيا أن يجعله الوالي عليهم . وبعد سنة من الزمان وصلهم الرد بالموافقة فأصبح محمد علي ، الباشا ، المعتمد من الباب العالي . فبدأ بحكمه عصر جديد لمصر : عصر من الانفراج والاستقرار لم تكن عرفت طعمه منذ قرون طويلة الأمد . على أن المماليك ظلوا يناوشونه في السنوات الأولى من حكمه . فدبروا مؤامرة هجموا بمقتضاها على القاهرة في أغسطس سنة ١٨٠٥ ليستعيدوا سلطانهم عليها . ولكن محمد علي عرف بمؤامرتهم مقدماً واستطاع أن يفتك بهم (٢) . وقد علق الجبرتي على اندحار المماليك بقوله : « لم يتفق الأمراء المصرية (المماليك) أبجح ولا أشنع من

(١) وهذه الحقيقة توضحها الكنيسة في صلواتها كما ذكرنا . فالأسقف الذي يصبح بابا يتلى عليه صلوات « تنصيب » لا صلوات « رسامة » . و صلوات التنصيب لا تبلغ روعتها عشر الروعة التي لصلوات الرسامة حيث يترنم الأساقفة بالصلوات التي يرتفع بها الرهبان درجة درجة إلى أن يصل إلى الكرامة البابوية . ثم إنه في الوقت عينه - يوجه الكلام إلى أحدم - لا يخاطبه بكلمة « يا أبا » .

(٢) عصر محمد علي لعبد الرحمن الراضي ص ١٩ .

هذه الحادثة وطبع الله على قلوبهم وأصمى أبصارهم وغفل أديبهم، (١) . ورغم هذه الهزيمة فقد تزعم محمد بك الآلاني حركة متارمة محمد علي . فتواطأ مع الانجليز أملاً في أن يقيموه والياً على مصر ويبعدوا للبهاليك سطرتهم . وبالفعل سموا لدى الباب العالي لعزل محمد علي وإقامة الآلاني مكانه . وقد تعهد هذا الأخير بأن يدفع للسلطان ألف وخمسة مائة كيس جزية سنوية (٢) . ونجحت مفاوضات وتعهدات الآلاني إلى حد أن أرسل السلطان أربع بواخر وسفینتين وملحقاتها إلى الاسكندرية ووصل بعض الجنود الانجليز مع الترك للاشتراك معهم في القضاء على محمد علي ولما وصلت الأنباء تقام محمد علي مع المشايخ على محاربة الانجليز . وحينما تقرر القتال استعد الشعب كله للاشتراك فيه والاقباط اشتروا المقاطف والغلقان والفؤوس والقزم وآلات الحفر وشرعوا في بناء حائط مستدير أسفل قلعة السبئية (٣) ويسترسل الجبرتي فيقول : وأما النصارى فإنهم حصنوا مساكنهم ونواحيهم وحاراتهم وسدوا المنافذ وبنوا كرانك واستعدوا بالأسلحة والبنادق وأمدم الباشا بالبارود وآلات الحرب دون المسلمين (٤) وكان ذلك في يونيو سنة ١٨٠٦ .

واقدم حالف النصر محمد علي . ثم كتب العلماء والمشايخ رسالة أخرى معلنين فيها صراحة اصرارهم على استمرار محمد علي في ولايته عليهم ولما رأوا فيه من عدم الظلم والرفق بالضعفاء وأهل القرى والأرياف (٥) وهذا تبرز شخصية الشعب المصري الذي عبر عن ارادته تعبيراً من القوة بحيث رضخ له

(١) شرحه ص ٢١ .

(٢) كل كبير يخنوي على ما يبارى خفة جنهات .

(٣) د عجائب الآثار ج ٤ ص ٤٩ - ٥٠ .

(٤) شرحه ج ٤ ص ٢٢٦ .

(٥) الرافعي ص ٢٣ .

الباب العالي . ونجد أن محمد علي نجح حيث فشل علي الكبير لأن الأول استعان
بالمصريين وبزعمائهم الوطنيين في حين أن الثاني لم يرتكن إلا على مماليكه متجاهلا
القوة الكامنة داخل أبناء مصر . فكان المرسوم الذي أصدره سلطان تركيا بالإنهاء
على محمد علي مبنياً على تأييد الشعب لواليه . ثم شامت العناية الإلهية القضاء على
الحكم المملوكي ومؤامراته فأت البرديسي بك في نوفمبر سنة ١٨٠٦ وتولى شاهين بك
المرادى مكانه . وكان هذا الرعيم الجديد خصماً لدوداً للألئى بك فانسعت الهوة بين
المماليك وبالتالي تضاعفت أسباب فشلهم . وكان الأوان قد آن لا قول نجحهم لأن
الألئى بك توفي في يناير سنة ١٨٠٧ .

ثم وصلت البوارج الانجليزية إلى ميهاء الاسكندرية في مارس سنة ١٨٠٧
واتصلت بالقنصل الانجليزى فى القاهرة فانصل هو بدوره بالمماليك فى الصعيد كما
تعهد بتقديم رشوة للمعافظ التركى للاسكندرية . ورغم كل هذه المكاييد فقد انهزم
الانجليز فى موقعة رشيد فى ٢١ مارس سنة ١٨٠٧ . ويصف الجبرقى ما حدث بقوله:
« وردت الاخبار من نهر رشيد يذكرون بأن طائفة من الانجليز وصلت . . .
وكان أهل البلدة ومن معهم من المساكر متيئين ومستعدين بالأزفة والمطف
وطيقان البيوت . فلما حصلوا بداخل البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية فالتقوا
ما بأيديهم من الأسلحة وطلبوا الأمان فلم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم وذبحوا
منهم جملة كثيرة وأسروا الباقين . . . » (١) .

على أن الانجليز لم يرتدعوا بالهزيمة وظلوا على اتصالهم بالمماليك زاعمين أنهم
بهذه المثابرة على الاتصال يقهرون المصريين . وتجمعت قواتهم من جديد عند
رشيد وضربوها بالمدافع . ثم كتب أحد قوادم - واسمه ستوارت - إلى الجنرال

فريزر يقول : « تبين لنا أن الأعداء (أهل رشيد) لا يكثرلون بالمصائب التي تنزل بهم ... وأن نجاحنا معلق على نجدة المماليك . فإذا جاءوا إلينا أمكننا أن نرسل إلى البر الشرقي من النيل قوة تشترك في القتال . أما الآن فيستحيل علينا ذلك لأن العدو متفوق علينا ... ثم اضطروا إلى خوض معركة عند قرية حماد في ٢١ أبريل سنة ١٨٠٧ فشلوا فيها فشلاً ذريعاً وسقط فيها اثنان من قوادهم كما وقع أربعمئة وثمانون أسيراً على رأسهم قائدان آخران في أيدي المصريين . فأرسلوهم في المراكب إلى القاهرة . ووصل الأسرى إلى بولاق في ٢٩ أبريل . فتجدت الجماهير على شاطئ النيل وفي الطرقات لرؤيتهم . ومع هذا كله بعث الجنرال فريزر برسلة إلى المماليك يناشدهم العهود . ولكن المماليك الذين اعتادوا القدر ببعضهم البعض لم تسترهم هذه المناشدة خصوصاً وأنهم رأوا بعيونهم الانتصار الساحق الذي أحرزه المصريون . فلم يكن أمام الانجليز بدٌ من الانسحاب فأجلوا على بلادنا اضطراباً . وكان جلاؤهم فرصة مواتية لمحمد علي لدخول الاسكندرية وضمها إلى الوطن المصري بعد أن ظلت سبع سنوات تابعة للسلطان التركي مباشرة . وكان هذا الانسحاب الانجليزي هو الثاني في سجل اعتداءاتهم علينا وقد دام ستة شهور . لأن الانسحاب الأول كان عقب إعادة الترك إلى السيطرة على مصر وإجلاء الفرنسيين عنها (١) .

١٩٠ - والمعجب أن سنة ١٨٠٧ قد اكتظت بالأحداث المرجعة التي انتهت كلها بالسلام والطمأنينة . لأنه بعد كل هذه المحاولات العدائية من المماليك ثم من الانجليز ، جاء الفيضان شبيهاً فداخل الناس خوفاً من نقص المحصول نتيجة لهذا الشح ورجسوا من محمد علي أن يطلب إلى الرؤساء الدينيين الصلاة ليبارك الله في

(١) عمر محمد علي لبيد الرحمن الرافعي ص ٦٤ - ٧٥ ، مجانب الآثار ... ص ٤٣ - ٢٧ -

النيل قرتفع مياحه الارتفاس المطلوب . وبالفعل ارتفعت الصلوات من الجميع .
أما الأبا بطرس فذهب مع جماعة من الأساقفة والكهنة يتبعهم الشعب إلى شاطئ
النيل . وهناك أقاموا شعائر القديس الإلهي . ولما انتهوا منها أخذ البابا المرقس
قربانة من البركة مع الماء الذي غسل به الأواني المقدسة وطرحها في النهر الخالد .
وعندها قارت مياحه وارتفع منسوبه . فرفع الجميع آيات السبح لله المتعجب الذي
لم يرحم الشعب المصري بالفيضان فقط وإنما شمل القبط برحمته أيضاً بأن جعل
لبابا م مكانة وكرامة في عينى محمد على باشا . فتمتعوا بالحرية الدينية كما ذاقوا طعم
السلام . وهكذا نرى أنه كما انهزم المساليك والسحب الإنجليز جاء الفيضان
واقياً بعد شحه .

١٩١ - ولما كان محمد على باشا ذا دهاء فإنه حالما استقرت له الأمور أخذ
يستميل إليه المشايخ وقادة الشعب فترك لهم المتأخر عليهم من الضرائب . ويعلق
الجبوتى على ما داخلهم من ارتياح نفسى فقال : « ... واستخدموا كسبة الأقباط .
وانقلب الوضع فيهم بضده و صار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية
والحصص والالتزام وحساب الميرى والفسائظ والمضاف والرماية والمرافعات
 والمراسلات والتشكى والتناجى مع الأقباط واستدعاء عظمائهم في جمعياتهم وولائهم
والاعتناء بشأنهم والتفاخر بتردادهم والترداد عليهم والمهاداة فيما بينهم »

١٩٢ - وساد مصر السلام وبدأت تستعيد أنفاسها وتحس بشيء من الطمأنينة
الداخلية إذ أن محمد على أخذ يسوس البلاد في كثير من الحزم والاتزان . ثم
استنجدت به الحكومة التركية لمحاربة الروهابيين في الحجاز فاستعدت للحملة . وفي
أول مارس سنة ١٨١١ أعد مهراناً نجماً بالقلعة ليقلد فيه ابنه طوسون قيادة

الجيش المختار للذهاب إلى القتال وفي هذا المهرجان دعا أكابر الرجال وفي مقدمتهم
المماليك . قلبوا جميعاً ما هذه الدعوة إذ عدوها افتة كريمة من الباشا وذهبوا
مرتدين أنعم الملابس بمنطين بجيادهم المتلهمة . وفي لحظة معينة دوى الرصاص من
نوافذ إحدى ثكنات القلعة فكان دويها الإشارة المتفق عليها للاقتضاض على
المماليك وقد تم الغنك بهم فعلاً إذ قد دخل أربعائة وسبعون منهم مع أتباعهم
إلى القلعة صبيحة ذلك اليوم فقتلوا جميعاً ما عدا أمين بك الذي قفز بحصانه من أعلى
السور - على ارتفاع ستين متراً - وحينما اقترب من الأرض قفز من على جواده
وأخذ يجرى داخل الصحراء ثم استمر في سيره إلى أن بلغ حدود سوريا (١) .
فكانت من غير شك مذبحة مروعة استهدفت منها محمد علي باشا تلييت سلطته
واراحة نفسه من مناورات هؤلاء العماشين بالامن الذين لاهم لهم غير الغدر
ومحاولة الاستئثار بالحكم . ومع ذلك فهذه المذبحة الشنيعة قد أراحت مصر من
طغيان هؤلاء المماليك الذين ظلوا على ما يربو من الخسة قرون مسيطرين عليها .
ولكنها من الناحية الأخرى قد ملأت القلوب رعباً أفقدها الشجاعة والطمانينة -
بل أفقدها الشجاعة الأديية أيضاً . ففقدت بذلك دعامة من دعائم الحياة
القومية الكريمة .

إلا أنه على الرغم من هذا الرعب فقد كان هناك من استطاعوا أن يكرسوا
نفوسهم للحياة الروحية فينشغلوا بالجهاد البنائي . ومن هؤلاء المنشغلين بالروحيات
جندي مجهول انشغل بنساخته جزء من تاريخ الشيخ المكرم الأرخن المسيحي
جرجس بن أبي اليسر ابن أبي المكرم ابن أبي الطيب المعروف بابن العميد .

(١) مصر محمد علي - لبد الرحمن الراهق س ١١٢ - ١١٨ ، ويقول إن قتل المماليك
بالقلعة كان البادرة الأولى التي استنارت الناس عليهم في الأقاليم فقاموا عليهم حينما استطاعوا
وقتلوا من تمكنوا منه حتى لقد بلغ عدد قتلاهم ألفاً .

وهذا عنوان مخطوطة هي في الواقع مختارات من ميامر أغاييوس المنبهي المعروف
بمحبوب بن قسطنطين . وهذه المخطوطة تتضمن أيضاً مختارات من الآيات القرآنية
التي تتحدث عن العقيدة المسيحية . وقد جاء في أولها ما يلي : « لما كنا نسمع طلب
الاسلام أخذنا بيدنا كتاب القرآن وفتشنا فيه فوجدنا منه ما يرد الأخصام الذين
كانوا يثلبوننا به وهم الجهال الذين لم يعرفوا القرآن . فأخذنا من كل سورة ما يناسب
لنا في رد الجواب . ككت في ١٠ بشنس سنة ١٥٢٣ ش (١٧ مايو / ١٨١٧ م) » .

١٩٢ - ومن مراحم الله في هذه الفترة أن نجح بعض الأراخنة في سعيهم إلى
إعادة تعمير الكنييسة المرقسية بالاسكندرية بعد أن كان الفرلسيون قد خربوها .
فأصدر محمد علي فرماناً (سنة ١٥٢٤ ش) إلى المعلم صالح عطالله أحد أراخنة
الاسكندرية يمنحه الإذن في أن يجمع الاكتابات لبناء الكنييسة ، وفي الوقت
عينه منحه الفعلة والبنائين اللازمين للعمل . وكان الأبا بطرس الجاوي في ديره
آنذاك بينما كان في الاسكندرية عدد من الأساقفة ومعهم الأراخنة المعلم جرجس
أبو ميخائيل الطويل وأخيه المعلم حنا والمعلم سرايامون والمعلم منقريوس
أبو يوسف البنتوني والمعلم عبد الملك أبو يوسف حياطة . فكتب المعلم صالح
عطالله إلى البابا يبشره بالمنحة العظيمة ، بينما كتب الأساقفة والأراخنة إلى القمص
يوسف رئيس هزبة دير الأبا أنطوني بيوش . ورداً على هذه الخطابات المتضمنة
للأخبار المفرحة أرسلوا تبرعات عينية من الوقف وبما قدمه الأراخنة حملها المعلم
جرجس حسب الله البياضى وأوصلها إلى المعلم عبد الملك أبو يوسف حياطة .
« لأن هؤلاء جميعاً كانوا واسطة في هذه الشركة الروحانية » .

ولقد بلغت غيرة الشعب وحماسه مبلغاً مكنه من أن يتمم بناء الكنييسة

خلال سنة من الزمان فبعث بمندوبيه إلى البابا ينيوه بذلك فقصد إلى الاسكندرية ليكرس الكنيسة التي تمت . وصحبه الأبا سرايامون والقمص جرجس ورئيس دير أبي مقار والقمص حنين والقس موسى خادما كنيسته السيدة العذراء بحارة الروم والقس عازر خادم كنيسته السيدة العذراء بحارة زويلة والقس أبسخيرون كاهن الكاتدرائية المرقسية بالأزبكية والأرخن المعلم منقريوس أبو يوسف البتنوني الذي تولى الصرف على الرحلة من جيبه الخاص والمعلم يوسف الفمراوى والمعلم باخوم ابن شقيق الأبا سرايامون . ووصل البابا ومحببه إلى دمنهور صباح الأربعاء ٣ بابة سنة ١٥٢٥ ش فأدوا شعائر القديس الإلهي بكنيسة الملك مينخائيل . ثم استمروا في سفرهم فوصلوا إلى الاسكندرية صباح الجمعة ٥ بابة . ولكنهم لم يقيموا صلوات التكريس إلا ليلة الأحد فقضوا الليل كله في هذه الشعائر ذات الروعة الخاصة وأكلوها بالقديس الإلهي لجر الأحد . ثم قضوا ثلاثة أيام في مدينة السكاروز العظيم عادوا بعدها إلى القاهرة فوصلوها يوم الاثنين ١٥ بابة .

١٩٤ - ثم رأى الأبا بطرس الجارلى ضرورة إقامة شعائر الميرون المقدس وأبدى رغبته لأبنائه . وتأيية لهذه الرغبة جهز القديس خليل الخطاب بيولاقي ما يلزمهم من حطب الزيتون وباقي المستلزمات ، وتكفل بالصرف عليها المعلم يوحنا أبو مينخائيل الطويل كاتب ديوان محمد على والمعلم منصور سرايامون كاتب ديوان الأنوال والمعلم منقريوس أبو يوسف البتنوني . وفي الأسبوع الأول من الصوم الكبير ، وقبل تأدية شعائر طبخ الميرون ذهب البابا المرقسى إلى كنيسته السيدة العذراء بحارة زويلة ليستشفع بأم النور وينال بركتها كي يتم هذا العمل المقدس . فخرج الكهنة وخدما هذه الأيعة المقدسة لاستقباله بالألحان الكنسية حسب الطقس والتفوا حوله ودخل الجميع معاً . وبعد الانتهاء من شعائر القديس الإلهي تقدمت الأم المباركة الراهبة ملايكة رئيسة دير السيدة العذراء بتلك الجهة

ونالت البركة الابوية ثم رجعت من الانبا بطرس وصحبه أن يتخذوا في الدير .
فلبوا دعوتها ثم رفع الجميع شكرهم للآب السماوي وانصرفوا (١١) . وبعد ذلك
أقيمت شعائر الميرون للمقدس في كنيسة مار مرقس بالازبكية - وقد اشترك سبعة
اساقفة مع البابا في تأديتها .

١٩٥ - ثم وصل رسل موفدين من إمبراطور الحبشة يرجون من البابا
المرقس رسالة مطران لهم عوضاً عن مطرانهم الذي تبيع . وقد أكرم محمد علي
باشا وفادتهم . وكان الانبا مرقس في زيارة لدير كوكب البرية فبعث إليه أسقفنا
القدس الشريف وأبو تيج (اللذين كانا في القاهرة آنذاك) برسالة يخبرونه فيها
بطلب الأقباط واهتمام الوالي به . فلما وصلته الرسالة وقع اختياره على راهب
أنطوني اسمه القس مينا ، وقال لعرب الدير : « سأقول للآب مينا أن يركب الهجين
وينزل معنا . فإن أطاع لساعته كان بها وإن لم يطع فقيدوه واركبوه على الهجين
واحرسوه في السفر » . ولما طلب إلى القس مينا أن يركب معه أطاعه . على أنهم
ما كادوا يصلون إلى دير الطين (قبل مصر عتيقة) حتى ظن الراهب أنه إن تعارك
مع البدوي المرافق له استطاع أن يفلت منه . ولكن البدوي والقس شنودة (تلميذ
البابا) فطنا للأمر فقيدها وحلوا إلى القلاية البابوية العامرة (١٢) ، ومنها أخذاه
إلى منزل المعلم جرجس أبو ميخائيل الطويل حيث ظل تحت الحراسة . وفي عيد
السيدة العذراء (الأحد ١٥ مسرى سنة ١٥٢٤ ش) قام الانبا بطرس الجاولي
ومعه عدد من الاساقفة بتأدية الشعائر المقدسة التي حوَّلت الراهب القس مينا إلى نيابة
الانبا كيرلس مطران الحبشة . فأقام بالقلاية البابوية العامرة إلى أن جهزوا له كل

(١) كتاب ١٠١ طقس ص ٥٣ .

(٢) نرى من هذه التعبيرات أن البابا بطرس الجاولي قد حافظ على التقاليد الأصيلة في
اتخاذ « تلميذ » له لا يزيد رتبته من القمصية ، كما أن مؤرخ ذلك العهد قد حافظ هو أيضاً على
التقليد الكنسي فوصف الدار البابوية بكلمة « قلاية » .

ما يحتاج إليه السفر ، وأعدوا له من يرافقه من السكنة والشمامسة والرهبان وما يلزمه من الكتب والملابس الكهنوتية والفرش والنحاس . واتبعوا العادة التي جرى عليها الآباء منذ البداية فدفعوا له أجره الجبال التي نقلته إلى السويس ثم أجره الغليون الذي ركبته إلى جدة ومنها إلى مصوع . وقد صحبه البابا والمطارنة إلى دير الأنبا رويس الذي كان آنذاك نقطة الخروج من القاهرة لمن ينبغي السفر جنوباً (١) .

كذلك حدث أن شغل كرسي البهنسا والفيوم والجهيزة . وكان في دير السريان آنذاك راهب محبوب جداً من إخوته فأخذوه إلى الأنبا بطرس الجسولي ليرسمه أسقفاً على الكرسي الشاغر . ولأن البابا كان من دير الأنبا أنطوني فقد كان ميالاً إلى اختيار رهبان ديرهم لرسامتهم أساقفة . على أن الرهبان آنذاك استمروا في إلحاحهم إلى حد جعل البابا ينزل على رأيهم ويرسم من اختاروه أسقفاً باسم الأنبا ايساك . ومن الطريف أنه توجد في ديرهم للآن بدله كهنوتية كاملة باسمه نسج فيها أنها تمت سنة ١٥٥٥ ش (٢) .

١٩٦ - وتوالت المراحل الإلهية - ذلك أن البابا الاسكندري كان قد اضطر إلى عدم رسامة أساقفة السودان لأن النوبة كانت قد سقطت في أيدي ولاية اليمن . ولكن محمد علي باشا تمكن من استعادتها لسultan مصر فأصبح الطريق إلى السودان مفتوحاً . ووجد البابا المرفى الفرصة هوائية فرسم أسقفين للفطر السودانى الشقيق كما رسم معهم الرعاة اللازمين للخدمة . فعادت الرابطة التي تربط البلدين إلى ما كانت عليه .

١٩٧ - ولقد تكاثرت مراحم الله بصورة عجيبة في تلك الفترة - فما كان

(١) كامل صالح نحة ، ص ١١١ . . . الحلقة الخامسة من ١٢٢ - ١٢٥ .

(٢) الأديرة المصرية القديمة ، لصموئيل تاووزروس السريانى

الانبا بطرس الجسولي ينتهي من تكريس الكنيسة المرقسية بالاسكندرية ومن اقامة شعائر الميرون من رسامة الاساقفة حتى نجح الملم يوحنا ابو ميخائيل الطويل في استصدار فرمان من محمد علي باشا بالاذن في تعمير الاديرة بالقدس الشريف. ثم ذهب هذا الارخن الفيور ومعه الارخن حبيب حنا إلى البابا وأطلعاه على فرمان . وعندما أرسل البابا في طلب المهندس أنطونيوس عصفور وعهد اليه بتنفيذ عملية التعمير . وفرح المهندس أنطونيوس بالثقة البابوية وذهب مع الارخن حبيب حنا إلى دمشق حيث سلموا فرمان التعمير إلى واليها فصدق عليه وكتب لها فرماناً بذلك . ومن ثم ذهب كلاهما إلى قاضى مدينة القدس وفي حضرة نقيب الاشراف وأعيان المدينة سجلوا فرمان في المحكمة . وبعد اتمام كل هذه الخطوات الرسمية اللازمة شرع الملم حبيب والمهندس أنطونيوس في العمل . وقد نجحوا بنعمة الله في ترميم دير السلطان " وحاكورته ودير الرمان وقاعة الملكة ميلانة ودار سالم الناظر ومختلف الاماكن المجاورة لقبعة القيامة ودار القمص سمعان ودير الشهيد العظيم مار جرجس . وما يشير المعجب أن كل هذا التعمير تم في ٢٤ برمات سنة ١٥٢٧ ش - أى أنه لم يستغرق أكثر من سنتين !

١٩٨ - زعم عدو الخير أن في استطاعته تمسك كبير صفو هذا الهدوء فاستشار بعض الناس إلى أن يقولوا امام ابراهيم باشا (ابن محمد علي) بأن النصارى يؤمنون بخروج النور من قبر السيد المسيح يوم السبت التالى ليوم الجمعة العظيمة : يوم الصلبوت الكريم . فداها ابراهيم باشا الانبا بطرس واستفسر منه عن الخبر ثم طالبه بأن يذهب معه إلى القدس ليرى بعينه ماذا يحدث . فسافر البابا المرقسى بالفعل ثم أفهم ابراهيم باشا بأن بطريك الروم الارثوذكس هو الذى يدخل داخل القبر المقدس ليرفع الصلوات التى ينبثق من بعدها النور . فوافق ابراهيم باشا على

(١) راجع ما جاء فى ج ٣ ص ١٩٢ من هذا الكتاب والهامش على الصفحة منها .

وجود البطريرك الرومي ولكن أصر على أن يدخل الأبنا بطرس معه . وأخرج الجماهير التي تتجمع سنوياً في مثل هذا اليوم المبارك وأغلق باب كنيسة القيامة بالمفتاح . كما اضطر البطريركين إلى خلع جميع ملابسها ليضمن أن واحداً منها لم يخفى شيئاً فيها . وعندما أخذ البابا المرقسي يستغيث برب المجد ضارحاً إليه أن يتدارك ويتدارك معه كل المنتظرين التبرك برؤية نوره . وبالطبع كان بطريرك الروم يصل بجماعة إلى جانبه . وعندما انبثق النور من القبر المقدس وطاف حول الكنيسة ثم شق العامود القائم على يسار الداخل عند بوابة الكنيسة فرآه الشعب الذي اضطر إلى الخروج من الكنيسة فتجمهر خارجاً . ولا يزال هذا العامود قائماً للآن مشقوقاً من وسطه من فوق إلى أسفل معناه للجميع أن السيد المسيح لا بد أن يجبر خواطر المتعلمين إليه . فهم حينما طردوا الحاكم الأرضي قد سعدوا برؤية نور الملك السماوي يخرج إليهم خارج الكنيسة .

١٩٩ - كذلك حدث ما أثار الدهش في أوساط المجد العالمي وهو أن سفير روسيا ذهب لزبارة الأبنا بطرس الجماري . وكان يصحب ترجمان يتقدمها الياسقجي^(١) . ولما دخلوا حوش الدار البابوية وجدوا رجلاً جالماً على الدكة تحيط به النسخ العديدة من الكتب وهو منهمك في مطالعتها ومقارنتها . فطلبوا إليه أن يوصلهم إلى البابا المرقسي . وأصابهم الذهول حينما علموا أنه هو الذي يخاطبهم ولم يصدقوا في بادئ الأمر . فسأله السفير عن تجاهله المظاهر الخارجية . أجابه في وداعة : « ليس العبد أفضل من سيده وسيدي كان بسيطاً في ملبسه شظناً في عيشه » . فازداد السفير ذهولاً ورأى أن يحول مجرى الحديث فسأل : « وما حال الكنيسة ؟ » . أجابه لفوره : « هي بخير بحمد الله . وما دامت كنيسته فهو وحده الذي يرهاها ولن يتخلى عنها أبداً » . فعاد السفير يتسائل : « ألم تفكروا قط في

(١) هو شخص كان يسير أمام الكبراء معناه قدمهم منسجاً أمامهم الطريق .

الحماية ، فاستفسر البابا عما يقصد إليه زائرهم . فلما أفهمه بأنهم على استعداد
لوضع الكنييسة تحت رعاية قصر الروميا الذي له الصورة والجوالة والذي جعل
من نفسه حامي الأرثوذكس حيثما كانوا . وعندما سأله الأنبا بطرس : ، ألا
يموت القيص الذي تصفه كل هذا الوصف ؟ ، أجابه بالإيجاب . فقال البابا
الاسكندري : ، إننا في حمي ملك لا يموت ، . فتضاعفت دهشة السفير وأحسن
بقوة هذا الرجل المتواضع الذي كان مهيباً رغم بساطته وقال : ، حقاً لم أقابل من
يستحق أن يكون خليفة السيد المسيح على هذه الأرض غير هذا الرجل الذي لم
يخدعه زخرف العالم ، . وحالما خرج من الدار البابوية ذهب لغوره إلى قصر
محمد علي وسرد عليه كل ما جرى . فازداد الوالي تقديراً للبابا .

٢٠٠ - ولقد تجلت عناية الله أيضاً في مساندة للأنبا بطرس - ذلك أنه كان
لمحمد علي باشا بنت اسمها زهرة باشا زوجها من أحد بك الدقردار . ثم اعترأها
روح نجس . ودار الأطباء في علاجها . فقال بعض رجال القصر للباشا بأنه في
امكان ، أئمة ، النصارى شفائها . فأرسل لثوره إلى البابا الاسكندري الذي استدعى
الأنبا صرا بامون أسقف المنوفية وطلب إليه الذهاب إلى قصر الباشا للصلاة على
ابنته . وبالطبع لبى الأسقف طلب باباه . وحينما وصل إلى القصر وجده غاصاً
بالرجال والنساء الذين ذهبوا ليروا ماذا يستطيع الأسقف القبطي عمله . فدخل إلى
غرفة زهرة باشا . وما كاد يبدأ الصلاة حتى ألقي الشيطان بالأميرة إلى الأرض .
فأخذت تصرخ وترغى وتزبد . فتضاعفت صلوات الأنبا صرا بامون وأخذ يذرف
الدموع سخينة قائلاً بأعلى صوته : ، يا خطيتك يا صليب ا ، (اسمه العلباني) .
واستكمل بقول : ، يا ربنا يسوع المسيح مجد يمينك وانصر كنيستك ، . وظل في
صراع ووحى ثم أكله بأن رسم علامة الصليب على كوب ماء رش به وجه الأميرة .
فصرخ الشيطان بصوت مزعج وخرج منها . فقامت الأميرة معافاة صحيحة . وعندما

صدحت موسيقى القصر وجرى من يبشر محمد علي بالشفاء . لجاء . ووجد ابنته في خير وعافية وأراد أن يعبر عن شكره للأبنا سرايامون فصر " أربعة آلاف جنيه في صرة وقدمها له . ولكن الأب الروحاني رفضها قائلاً : لا أستطيع أن أربح المال بالمواهب التي منحني الله إياها مجاناً . وكل ما أرجوه من دولتكم أن تعطفوا على أبناء القبط الذين تجنى عليهم المحكام ورفقوهم . فقبل الباشا هذا الرجاء ثم ألح عليه في أن يأخذ المال . فأخذ منه القليل وزعه على الجنود المصطفين على الجانبين لتوديعه وهو خارج .

٢٠١ - ووجد الكاثوليك أن القبط في تلك الفترة يعيشون في هدوء . ويتمتعون بالحرية الدينية . فلم يكن هناك ماء عكر يتصيدون فيه . ولكنهم وجدوا أن محمد علي يسمي سعيًا حثيثًا إلى تعليم أبنا مصر وإلى استقدام العلماء وبخاصة الفرنسيين للافادة من علمهم وخبرتهم . فرأوا أن يدخلوا عن طريقه بالذات واقترحوا عليه أن يطلب إلى كاتبه المعلم غان وأخيه المعلم فرانسيس الانضواء تحت رعاية البابا الروماني . ومقابل عمله هذا يضاعفون مجرورياتهم معه . فاستدعى البابا كاتبه وأخاه وابنه باسيلوس وأشار عليهم بمضمون الطلب الكاثوليكي . فقالوا له بأنه من المحال تحويل الكنييسة القبطية في مجموعها ولن يؤدي هذا الطلب إلا إلى سفك الدماء . وعرضوا عليه أن يعتنق ثلاثتهم المذهب الكاثوليكي بشرط الاحتفاظ بعوائدهم الشرقية . ووافق محمد علي على اقتراحهم . فتحولوا هم وعدد من أشياعهم إلى الكشلكة . وكان ذلك في مستهل سنة ١٨٢٢ .

ولم تمض غير شهر حتى أمر محمد علي أحد رجاله باغتيال المعلم غالي فنفذ أمره وقتل المعلم المذكور في مدينة زفتى في أوائل يوليو سنة ١٨٢٢ . ويرجح العلامة محمد بك فريد وجدى (١) أن السبب في هذا الاغتيال هو أن المعلم فرانسيس

(١) في كتابه « دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجري » مجلد ٧ ص ٦٢٢ .

زيف خطاباً باسم محمد علي باشا وختمه، زعم فيه أن الباشا يطلب إلى بابا رومية وهو
لاون^(١) الثاني عشر أن يقيم ابراهيم كاشور (الطالب بكلية البروجاندا الرومانية)
رئيس أساتفة على مدينة ممفيس مقابل إخضاع قبط مصر لسלטانه، كما ادعى أن
الباشا منح والد ابراهيم كاشور لقب «مركز طهطاس»، وكان المعلم فرانسيس قد
اندفع في كتابة هذا الخطاب المزيف بسبب اختلاف احتدم بينه وبين أسقفهم
مكسيموس في قضية طلاق. وهناك صورة لهذا الخطاب المزيف محفوظة في إحدى
مكتبات الفاتيكان استولى عليها غاريبالدي عندما غزوا روما^(٢).

وثمة صورة للنفاق العياشي تبدي لنا حين أرسل محمد علي باشا إلى باسيليوس
ابن المعلم غالي ليعزيه عن أبيه. فأنحنى باسيليوس على يد الباشا يقبلها وهو يقول:
«أطال الله بقاءكم. فما دمتم باقين فإني لم أفقد أبي». فكانت هذه الكلمات سبباً
في أن يعين محمد علي هذا الرجل في وظيفة أبيه.

وبدخول المعلم غالي وابنه وأخيه وطائفتهم وأشياعهم إلى الكتلحة أصبح
الكنيسة الكاثوليكية كيان في هذا الوادي الرحيب الذي لم يعرف منذ نشأة
المسيحية غير الكنيسة القبطية الأرثوذكسية المصرية الصميمة التي ظلت على مدى
القرون رمزاً للصمود في وجه الاستعمار وبطش الدخلاء. ولولا تلاعب السياسة
وفعل المطامع اللسانية لظلت على وحدتها وقوة تماسكها.

٢٠٢ - ولم يقف الراعي الساهر مكتوف اليدين كما يريد الفرزيون أن يوهمونا.

(١) يبدو أن اسم «لاون» مقترن بالأذى للكنيسة المصرية: فقد كان لاون الأول
صاحب الوثيقة المعروفة باسم «طومس لاون» زعيم المنـآمرين على الأنبا ديسقورس
البابا الاسكندري الخامس والعشرين في مجمع خلنبدون المشنوم - راجع الفصل الأول من ج ٢
لهذا الكتاب.

(٢) «الأمة القبطية وكنيستها الأرثوذكسية» لفرنسيس المنرس ٥٩.

لقد كان الأب والغساند يحتم عليه واجبة أن يحرص على ابنائه وجنوده قدر
المستطاع . فتفقد الشعب ثم انشغل في كتابة الرسائل الموضحة للعقيدة المؤيدة
لجهاد الآباء . ففي المكتبة البابوية بالقاهرة كتاب رقم ١٥٣١ بعنوان مقالات
في المجادلات ، وآخر في الاعتقادات رداً على المعاندين ، بتاريخ ٧ أيب سنة
١٥٢٥ من بخط البابا نفسه . وله مواظ ورسل بالغة العربية (في مئة واثنين
وعشرين ورقة خط يد) . أما المقالات فهي : ١ - في الرد على من يقول أن الله
أعدم من طائفة القبط المقدم أمام متولى الوقف بقضائه لهم . ٢ - في الرد على من
يقول إنا مهملون في السعى عن سياسة أولاد بيعتنا ولنا متبئين مثل غيرنا .
٣ - في الرد على من يقول إن في المسيح مشيئين وطبيعتين منفصلين ويمطون
لطبيعة المجد وللأخرى الهوان . ٤ - في الرد على من يقول إن غيرهم من الطوائف
ملازمون الاعتراف وتناول القربان وطائفة القبط نادر لهم هذا الفعل . ٥ - في
الرد على من يقول إن القبط عدوا المساعدة من باربيهم وصارت خطاياهم مشهورة .
٦ - في من يميل لغير اعتقاداته لأجل المجد الباطل رغبة منه للخفضة الجسدانية
وميل لمحبة الفضة . ٧ - نوح البابا على تمدى الغير بالاقوال الكاذبة (١) . ويقول
المطلعون إن المقالين الأخيرين كتبها خصيصاً لمن السليخ عن الارثوذكسية
ودخل السكسلكة وتسمى باسم « القبطى التابع » ، أو « قبطى افرنجى » (٢) .

(١) مخطوطة رقم ٣٦١ (٤٧٠) .

(٢) ول هذه التسمية تعبير عن أن القبطى الذى خرج على كنيسته الأصيلة قد فقد بهذا
الخروج جزء من صميم قوميته الوطنية . واست أشك في أن من يقبل على نفسه أن يكون
« تابعا » أو « افرنجيا » قد تنسك لنفسه واقومه معها كانت الأسباب التي دفنته إل هجران
كنية آباءه التي زادوا عنها بدمائهم وبجهودهم . ومثل هذه التسمية تذكرنا بأن القبط أطلقوا
كلمة « ملكيين » على مشايخي مجمع خلقيدون الذين انحازوا آنذاك للملك مرقس انوس حين
رأس الجلسة الافتتاحية لذلك المجمع المشنوم .

وهناك كتاب رقم ١٠٦ يتضمن المواعظ والتعاليم ، تأليف أنبا بطرس أحد
الرهبان الأنطونيين عربى خط يد نقله من الخط الجرشونى إلى العربى أنبا بطرس
البطريك الـ ١٠٩ ، والناسخ حنا سليمان . وكان الفراغ منه فى ٢ النسي
سنة ١٥٨٠ ش .

ومن المخطوطات التى جمعها هذا البابا الدورب على البحث وأودعها مكتبة
الدار البابوية جزء من مخطوطة هى معجم الألفاظ الطيبة . ومع الأسف أن الباقي
منها يبدأ بكلمة « علاج » وينتهى إلى كلمة « مرض » ، وإلى جانبها مخطوطة من
أوراق متناثرة تشمل الصلوات السبع جدها القس الياس اثناسيوس كاهن
الكتدرائية بأبوتيج فى ١٨ طوبة سنة ١٥٢٠ ش . ثم مخطوطة ترجع أصلاً إلى
القرن الخامس عشر رتبها وأضاف إليها ست ورقات : ثلاثاً فى أولها وثلاثاً فى
آخرها - الثماس اثناسيوس خادم كرمى أبوتيج وتتضمن القراءات المختارة من
العهدين القديم والجديد من ١٢-٣٠ بوقنة ثم لشهور أيب ومصرى والنسي ١١١ .

ولقد أبدى أنبا بطرس الجاوى عناية كبرى بالسكتب والتفتيش فيها إلى
حد أنه هو الذى أنشأ المكتبتين الخاصة والمعامة بالدار البابوية - فى القاهرة .

ولا غرابة فى اهتمام البابا المرقسى كل هذا الاهتمام بالكتابة فى العقيدة
الأرثوذكسية إذ قد استفل الفرنسيون نفوذهم لدى محمد على باشا واستندوا إلى
أنه أصبح لهم كيان رسمى فى هذا الوادى الرحيب فأخذوا يفتحون المدارس بحجة
أن أولاد الكاثوليك يجب أن يتلوا العلم على أيدي رجال (أو سيدات) الدين
الكاثوليكي . ففتحوا مدرستين فى الاسكندرية إحداهما تحت رعاية الرهبان

الغازيين (١) والثانية تحت رعاية راهبات الاحسان (٢) سنة ١٨٤٤ م. وقد شجعهم محمد علي باعطائهم الاماكن اللازمة لاقامة المدارس عليها، وسار على منهجه محمد سعيد باشا لذلك نجد راهبات الراعي الصالح (٣) بفتحن مدرسة للبنات في ٦ يناير سنة ١٨٤٦ م. وقد شاء الولاة المدنيون التقرب إلى الغرب لتوطيد نفوذهم بواسطتهم وبخاصة عندما أيقنوا أن الهدف من هذه المدارس هو استمالة القبط دون المسلمين إلى مذهبهم الكاثوليكي. ومن الامثلة على تشجيع ولاية مصر لهؤلاء الغزاة، أن راهبات الاحسان حصلن على أرض مساحتها ثلاثة آلاف وخمسة أزرع لاقامة مدرستهن عليها (٤). وهكذا نجد أن كل القوى تكنتت ضد الكنيسة القبطية: قوة الحكومة الفرنسية بما لها ورجالها ونسائها مع قوة الوالي الحاكم لمصر بسلطانه واغداقانه. ولكن ما أصدق القول: «دولة الظلم ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة» (٥). فقد نجحت هذه القوى لفترة معينة إلى أن نمت البذار التي بذرها البابا بطرس الجاوي ومن توألوا بعده على السدة المرقسية ووانت ثمارها لجمعت ثمار هذه المدارس مرة في حلق القبط فلفظوها، بل ومرّة في حلوقهم هم حتى أرادوا أن يبيعوها.

أما الانجليز فساروا على خطّة دعائهم المعهودة زاعمين في خيالاتهم أنهم يستطيعون السيطرة على الكنيسة القبطية كمثل فافتحوا مدرسة في الدرب الواسع سنة ١٨٤٠ م أمام الكنيسة المرقسية التي تضم المقر البابوي لتعليم الشبان الذين سينتظمون في سلك الكهنوت لكي يعدوهم التعاليم المغايرة للمعقيدة الأرثوذكسية

(1) Les Lazaristes .

(2) Les Filles de Charité de St. Vincent de Paul .

(3) Le Bon Pasteur .

(٤) « تاريخ التعليم الأجنبي في مصر » لجرجس سلامة ص ١٨ و ٤٢ - ٤٣ .

(٥) أي إلى يوم القيامة . « تاريخ مصر » لجرجس سلامة ص ١٨ و ٤٢ - ٤٣ .

وعن طريقهم يبلبلون أفكار الشعب القبطي فتسنى لهم فرصة السيطرة عليه بطريقة سلبية خفية . على أن سهمهم طاش أمام يقظة الراعي الساهر فاضطروا إلى اغلاق مدرستهم في العام الدراسي سنة ١٨٤٧ - ١٨٤٨ . ومما تجدر الاشارة إليه أن البيت الذي شاءوا أن يجعلوه مركزاً للسيادة على الكنيسة القبطية أصبح بعد فشلهم بيت الوقف التابع لدير الانبا أنطوني أبي الرهبان (١) .

وإلى جانب كتابات الانبا بطرس العامة فما زالت رسالته التي بعث بها إلى الشعب منفلوط باقية ، وهي تحوى التقليد الاسبقى قال فيها : تبذلون الطاعة الكلية والمودة الحقانية وتعاملونه كالاب بالمحبة الروحانية . ولا تخرجوا على ما يشير به من القوانين الشرعية . وتحافظون على الاصوام المفروضة والصلوات المنصوصة والقداسات المرفوعة والسهرانات بالتراتيل المسموعة . والصدقات على محاوركم بقدر طاقتكم . ورفع القرايين من بكورككم وثمار غلاتكم . وتحافظوا على طهارة النفس والجسد والقلب . وتعتمدوا على الصوم والصلاة في أوقاتها المفروضة وتحفظوا بما استودعكم من الامانة بالثالوث الاقدس الآب والابن والروح القدس الاله الواحد . وامانة الآباء المجتمعين بنيقية الثلاثمائة والثمانية عشر وقول المئة والخمسين المجتمعين بالقسطنطينية فلما اجتمع الآباء المائتان بأفسس على قطع نسطور القائل بالطبيعتين في المسيح من بعد الاتحاد العجيب لم يقدرُوا أن يزيدوا في الامانة شيئاً أو ينقصوا شيئاً بل إنهم حرموا ذلك الجاحد اعنى نسطور ومن يقول بقوله وانتسرفوا إلى كراسيهم يطلب إليكم أن تحبوا بعضكم بعضاً محبة أخوية بغير محاباة فإن محبة وثاق الكمال واقه تعالى بعصمكم من العصيان . وينعم على السامعين الصائمين بالغفران . وبأمنكم في أوطانكم . ويثبت على الصخرة التقوى ايمانكم . وينبئ أرزاقكم ويديم عمارتكم والتوبة هي

(١) « الكنيسة القبطية في مواجهة الاستعمار والصهيونية » لوليم سليمان ص ٢٣-٢٤ .

الرجوع والندم بحسب ذلك محالين ومغفورة لكم خطاياكم من فم الثالوث الأقدس
الآب والابن والروح القدس الإله الواحد في الذاتية . . . محالين ومغفورة لكم
خطاياكم بطلبات الست السيدة مريم الزهرة العطرة التي أضحت عطر طيبها في
كل الأقطار يفوح والدة الإله الكلمة الأزلي المتجسد لخلاصنا الذي مات بالجسد
وهو حي بالروح . ومار مرقس الانجيلي الذي ببشارته المحيية نجيئنا من طوفان
الخطية كنجاة نوح وكافة ذوى الأفعال المرضية من بالشهادة سفك دمه ومن
تشف بالنسك ولبس المسوح . وتكونوا محالين مباركين من فم الواحدة
الوحيدة الجامعة الرسولية الكنيسة . ومحالين مباركين من فم الآباء أصحاب
المجامع المقدسة الثلاثمائة والثمانية عشر بنقية والمائة والخمسين بالقسطنطينية والمائتين
بأفسس ومن فم أنابطرس خادم بنعمة الله وأحكامه الغير مدروك ولا معقولة المرتبة
المرقسية . وسلام الرب القدوس يحوط بكم من كل ناحية . وببركة الرب الإله
القدوس تحل عليكم النعمة والبركة تشعلكم . والشكر لله دائماً أبداً آمين في ثالث
عشر اشير سنة ٣٣ للشهداء الأطهار السعداء الأبرار . رزقنا الله ببركاته . آمين .

والحق ان هذه الرسالة جديرة بنقلها بأكملها لانها أشبه برسائل الآباء الأولين
خصوصاً رسائلهم الفصحية التي كانوا يعيشون بها إلى كافة الأقطار المسيحية في عيد
القيامة المجيدة .

كذلك ورد في آخر سيرة الأنبا باخوم أبى الشركة - وهى السيرة التي ترجمها
أميلينو إلى الفرنسية - ما يلى : . كان المهتم بهذه السيرة الجميلة الآب الجليل الكريم
في جيله أبينا المحبوب الرؤوف الرحيم الحليم رئيس الأساقفة بالديار المصرية أنبا
بطرس التاسع بعد المئة في عداد البطارقة . .

وهنا مخطوطة تتكون من مئة وثمانين وخمسين ورقة لا تحمل اسماً ولا كتبها

مؤرخة بتاريخ ١٨٦٦ . ش لساويرس ابن المقفع ومن المعقول أن يكون الأبا بطرس قد كتبها ضمن الكثير من كتاباته لأن عنوانها هو « كتاب الثميين في إيضاح الاعتقاد في الدين » ، وهي تتضمن وصفاً لحياة السيد المسيح مصحوباً بشهادات المهدين القديم والجديد وكذلك الكتاب الكنسيين . وتألف من خمسة عشر فصلاً (١) .

وبالإضافة هناك مخطوطة تتضمن حياة الشهيذة القديسة بربارة على صفحاتها الأولى (وجه) ملحوظة مؤداها أن نعموم بن ميخائيل أنطونيوس بن فرج الله من مدينة حلب قد اشترها وأوقفها على كنيسة السيدة العذراء بمصر العتيقة (من غير تحديد كنيسة بالذات) . وتحمل تاريخ ١٨ سبتمبر سنة ١٨٢٩ دون التاريخ القبطي .

وبما يؤثر عن الأبا بطرس الجاهول أنه لم يكتب بالعناية بالإشخاص بل وجه عناية أيضاً إلى تملكات الكنيسة . ومن الأدلة على ذلك صورة حجة خاصة بدمياط تاريخها ١٢٦٩ هـ (١٨٤٩ م) مخنومة بمختم القاضي محمد حسن قاضي نهر دمياط وهي : « حضر للمجلس القس حنا ولد يوسف إبراهيم الناظر على وقف فقراء كنيسة القبط بالشر من قبل بطريرك الأقباط المدعو بطرس بحارة القضاة على الجزئين شرق وغربي أوقفها المعلم الجرهمي » . وهذه الحجة بدورها توضح لنا يقظة الآباء القبط خلافاً للدعايات الغربية المفرضة (٢) .

ويجب أن نذكر أن الدراسة لعملية للحضارة الفرعونية بدأت بشكل جدي في هذه الفترة . فقد أرسلت الحكومة الفرنسية ميسو مارييت إلى مصر بقصد شراء المخطوطات القبطية سنة ١٨٥٠ . ولكنه وجد الدراسة واسعة شيقة فاستقال وطاش

(١) مخطوطة ٢٢٤ - رقم ٢٩٥ مخطوطة بالمكتبة البابوية بالقاهرة .

(٢) توليف اسكاروس ج ٢ ص ٢٧٨ .

في مصر بقية حياته . وكان أول من نبه الأذهان إلى أن دراسة الحضارة القبطية لها أهمية خاصة لسكل باحث في حضارة الفراعنة إذ أنها امتداد لها . فدراسة اللغة القبطية مثلاً مفتاح لدراسة الهيروغليفية . وقد قدرت مصر جهود هذا العالم المحب لحضارتها فنحته لقب « باشا » (١) .

٢٠٣ - ورغم استتباب الأمر وسياسة الحرية الدينية التي سار عليها محمد علي باشا ، فقد حدث في دمياط حادث اليم وهو أن أحد الرجال زعم أن سيدم بشاي الكاتب بديوان الحكومة بذلك الثغر قد سب الدين الإسلامي . وثارَت الانفعالات لهذا الكلام إلى حد أدى إلى أن حكم القاضى عليه بالجلد . ثم أركبوه جاموساً

(١) تاريخ مصر الحديث لمحمد عبد الرحيم ص ٢١٤ ، كما أنه بمجرد بنا أن نذكر أن النشاط في فتح المدارس لم يكن قاصراً على الأجانب بل إن ولاية مصر الذين شجعوا هؤلاء الأجانب فتحوا المدارس بدورهم - فتشجيعهم إنما كان لنشر العلم بطريقة أعم وأوسع . ويمكن أن نعرف أن محمد علي كان قد فتح حتى نهاية سنة ١٨٣٦ خمسين مدرسة ابتدائية موزعة ما بين القاهرة والأقاليم ، ومدرستين تجهيزيتين (ثانويتين) إحداهما في القاهرة والثانية في الإسكندرية ، ثم المدارس العليا التي كانت توصف إذ ذاك بالمدارس الخصوصية وهي الطب والصيدلة والولادة والطب البيطري والمهندسخانة والزراعة والعمليات والآلة والمحاسبة والفرسان والمدفعية وأركان الحرب . ومما يجدر ذكره أن محمد علي أراد إدخال البنات إلى مدرسة الولادة فرفض آباؤهن رفضاً باتاً . وعلى ذلك اشترى سبع جواري سودانيات وأدخلهن فيها فكان بذلك الحميرة لتلك المدرسة إذ دخل بدهن المصريات (تاريخ مصر من الحملة الفرنسية إلى عهد محمد علي باشا لأحمد عزت عبد الكريم ص ٢٨٩) . ولقد كان التعليم بالهجان بالإضافة إلى الغذاء والكساء والمراتب الشهرية لتلاميذ . فتكون بذلك جيل جديد من الشباب المصري انشغل في بادئ الأمر بترجمة المؤلفات في الطب والهندسة والفلك والرياضيات والتاريخ والجغرافيا والعلوم العسكرية . وأدت هذه الحركة العلمية إلى بث الروح القومية إذ تولى المصريون لأول مرة في تاريخ مصر الحديث شئون بلادهم . وليس من شك في أن صحوة القومية استنارت الفريين فضاغنوا جهودهم لهد من قوتها بأن اسبقولوا تاريخ مصر وجغرافيتها وعلومها وهدر ذلك بتاريخ بلادهم وجغرافيتها وعلومه . (تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلى نهاية عصر اسماعيل للدولف نفسه هامش ص ٣١٣ - ٣١٤) حتى لقد أفلحوا في تخرير مجموعات من المصريين والمصريات يجهلون أمجاد مصر وينشدون بأبجاد غيرها |

وظهره ناحية رأسها وطافوا به شوارع المدينة وهم يهتفون هتافات عالية مشيرة .
وخلال طوافهم كانوا ينخسونه بالسياخ ويلقون عليه الزفت المغلي . وبعد أن
شموا من عملهم رموا بسيدهم بشاي أمام باب بيته وتركوه وهضوا . فبات بعد
خمسة أيام . وساء القبط أن يحدث هذا الحادث آنذاك فرفعوا شكواهم إلى محمد
على الذي أمر بإعادة التحقيق بدقة . فاتضحت براءة الشهيد سيدهم بشاي . ومن
ثم أصدر الوالي حكمة بإدانة القاضي والمحافظ كليهما ونفساها عقاباً لها . وعلى أثر
ذلك احتفل القبط بجنائز الشهيد احتفالاً رائعاً نادر المثل . ومذاك صدر الأمر
بالسماح للمسيحيين برفع الصليب جهاراً في جنازاتهم .

٢٠٤ - ومن العجب بمكان أنه في هذه الفترة التي سادها شيء من الحرية
الدينية ومن التسامح فإن خصوم عمر مكرم حينما أرادوا أن يسقطوه من زعامته
الشعبية ادعوا عليه بأنه اقترف أنواعاً من الموبقات منها أنه أدخل جماعة من
القبط الذين أسلبوا في دفتر الأشراف ، وأنه قطع رواتب بعض الأشراف
المستحقين وأعطاهما للقبط المتداخلين معه (١) .

٢٠٥ - ثم وصلت إلى الأنا بطرس شكوى للأجباش من مطرانهم زعموا
فيها أنه يعاملهم بقسوة ، ووردت بعدها رسالة من المطران يوضح فيها حقيقة
الخلاف وهي أن شيئاً من التعاليم الغربية انتشر بين الأجباش نتيجة لنشاط بعض
الأجانب . فبعث البابا المرقسي برسالتين أولاهما إلى ملك الحبشة أوضح له فيها
العقيدة وصردها القانون النيقاوي ثم قال :... هذه هي أماتنا بالإسكندرية
من أبينا مرقس الانجيلي إلى يومنا هذا وليس لنا تعليم ولا أمانة غيرها . وأرسلنا
لكم عدة أدراج بها ولم نعلم إن كانت تصلكم أم لا أو تصل والمترجمون

يفيرونها . وكذلك الجوابات التي تحضر من عندكم لنا لم نعرف لها قاعدة ولا نصاً معتدلاً ونحن غير عارفين إن كانت لحبطة جواباتكم من المترجمين أم من عدم معرفة اللغة ... ولاجل كمال برهنة كلامنا المتقدم شرحه وأصل لكم درج بمجموع بالاختصار من كلام آبائنا الرسل والآباء الذين بعدهم . عند وصوله عندهم ترجمونه من اللغة العربية إلى اللغة الحبشية وتطلعون عليه عامة الجيوش وجماعة العلماء بطرفكم . . . ويكون ذلك بحضور أخينا الحبيب المكرم المطران أنبا كيرلس بعد صلحكم معه صلحاً شافياً وتأخذون منه الحل والبركة وتقبلونه كقبولنا عندهم لأنه رجل صالح قديس وذو فهم وعلم بالسكتب المقدسة وتطيلون روحكم ويكون عندهم الثاني في ترجمة الدرج وجواباتنا الواصلة لكم حتى تفهموا ذلك جيداً إذا كان يصير عندهم وعند العموم الاقتناع بهذا الدرج فإن الله تعالى يهديكم إلى ما يرضيه ويحببكم ما يفضله ويكون لكم عوناً أميناً وحافظاً أميناً . وإن كان لم يصر عندهم الاقتناع بذلك فيزوا اثني أو ثلاثة من طرفكم ذوي فهم وعلم بالسكتب المقدسة وارسلوهم ليحضروا طرفنا فتكلم معهم شفاهياً بالفهم حتى يقتنعوا بحضور صورة الأمانة وما يصير بيننا وبينهم من القول وما ينتهي به الكلام يصل لكم به كتاب تفهمون به كل شيء منه تفصيلاً . والله تعالى يشبكم ويساعدكم ويدبر أموركم وسلام الرب يحل عليكم والبركة تشعلكم . . .

تحريراً في ٢٤ شهر طوبة سنة ١٤٥١ ش .

أما الرسالة الثانية فوجهة المطران وتتضمن توجيهاته الأبوية وبالاضافة إلى هاتين الرسالتين بعث الببابة المرسو بخطاب إلى وزير حبشى اسمه سايا جاديس رداً عليه إذ قد استعمله بهذه الكلمات : . . . إنه في أبرك وقت وأشرف ساعة حضر لنا جواباتكم : واحد صحبة محمد الجبرت والثاني صحبة ولدنا بمقرب القبطي وقراناهما وفهمنا ما فيها وصار عندنا فرح زبادة وقد مننا التمجيد والشكر لله تعالى

الذي أعطاكم ولد سلامي لسأله تعالى أن يكون لكم عوناً ومعيناً (١) .
ولما لم تؤد كل هذه الرسائل إلى نتيجة اختار الأبا بطرس القمص داود
الانطوني وزميله في الرهبة اسمه برسوم وأرسلها إلى الحبشة . فوجد أن بعض
الانجليز عرضوا على الامبراطور تدريب جنوده وصنع المدافع لهم وتعليمهم
استعمالها . ولكنهم في الواقع تسروا خلف هذه العروض لينشروا تعاليمهم
الدينية اللاأرثوذكسية . واكتشف المطران القبطي خديعتم فبعث برسالة إلى
أبيه الروحي . ورأى الانجليز أن يفتحوا ثغرة على جبهة أخرى ليشتتوا نشاط
المسؤولين في الكنيسة وبالتالي يضعفوا مقاومتهم فيهلوا إلى هدفهم من السيطرة
على بعض أبناء هذه الكنيسة العريقة . ولهذا الغرض استشاروا الأقباش
ليطالبوا بملكية دير السلطان وزادوا على ذلك بأن أوعز إليهم القنصل
الانجليزي في القدس برفع شكواهم إلى سلطان تركيا مباشرة . وأطاع الأقباش
الإيعاز الانجليزي وسافر وفد منهم إلى القسطنطينية . على أن القاضي الشرعي الذي
كان السلطان التركي يرجع إليه في مثل هذه الأمور ناصر القبط .

وخلال كل هذه المؤامرات كتب البابا المرقسي رسالة إلى القمص داود
يلفه فيها أحداث القدس قال فيها : من بعد توجهكم بمدة كم يوم وردت
جوابات من القدس الشريف أحدهما من جناب أخينا المطران داود هطران
طائفة الأرمن بالقدس ووكيل دير مار يعقوب بذاك الطرف ، والثاني من أولادنا
الكمنة المقيمين هناك المندوبين من طرفنا يخبروننا فيه بخصوص قضية مفتاح

(١) « كيرلس الرابع أبو الإصلاح القبطي » لجرجس فيلوتاوس عوض ص ٤٧ - ٥٦ ،
وتجدر الإشارة هنا إلى مدى ضاية الأبا بطرس الجاولي بتوضيح الإيمان لأبناء الأقباش
فيقترح عليهم انتداب من يمكنهم التمام منه لتحدث إليه شخصياً إن كانت الخطابات لا تنق
بالنرض . وهذا أيضاً دليل على سهر الرامي بخلاف ما صورته هذه الدوابات الأجنبية . لذلك
قد آن الأوان لتلبيط الأنوار على الوقائع .

كنيسة الملاك (بدير السلطان) الذي أخذه الحبش... وصار أعمال الدعوى المذكورة على يد سعادة متصرف القدس وحضرة القاضى بالمدينة وأعيان مدينة القدس من كل طائفة... بحضور ترجمان قنصل دولة الانجليز بالقدس وواحد حبشى يسمى مينخائيل وكيل عن الحبش وبعض الحبش حضروا معه... وأخيراً أخذ مفتاح الكنيسة المتقدم ذكره من الحبش واستله أولادنا الكهنة كما كان مثل الأول بأمر سعادة المتصرف وحضرة القاضى واستخرجنا عنها علامات شرعية وصار عرض تلك القضية إلى الآستانة العلية لأجل إخراج فرمان سلطاني عن ذلك... خصوصاً يا ولدنا أن أولادنا الحبش الذين يحضرون من بلادهم إلى القدس وخلافه من قديم الزمان ونحن حاملون ثقلهم في المصاريف التي تصرف عليهم سنوياً... فضلاً عن ما كولاتهم ولوازم موتاهم وكسوتهم وسفرياتهم في الذهاب والاياب... فيقتضى يا ولدنا أنكم تفهمون أولادنا جزدمات أوبيا والرأس عالي وباقي أولادنا الذين أرسل لهم الجوابات ومن تفهمونهم بمعرفتكم كذلك... وتبطل تلك الفتنة بالقول إننا لم نعامل أولادنا الحبش مثل أولادنا القبط بل يعلم للجميع أنه صائر منا الالتفات والمعاملة للحبش في كل لوازماتهم... وثانياً إياك أن يرسلوا لنا شيئاً... ومن الآن فصاعداً تنبهون على أن كل من يحضر لهذا الطرف من أولادنا الحبش لزيارة القدس الشريف وخلافه لا يحضر من ذاك (الطرف) إلا بورقة من حاكمه... ويكون عليها ختم حضرة أخينسا المطران أنبا سلامة... لذا يكون معروفاً، (١).

(١) «كيرلس الرابع أبو الإصلاح القبطي» لجرجس فيلوثاوس مؤرخ من ٥٧-٧٠، ولقد أورد المؤلف رسائل مختلفة فير المذكورة أعلاه كما أورد حجة شرعية بالتركية من ملكية القبط لدير السلطان انتهت بالقول: «وأخذ قنصل الانجليز والمطران الانجليزى بساعدان الأحباش وكتبت الجرائد الشهيرة عنه في حينه تردد صدى هذه المسألة... وأخيراً انجحت الواقعة من ثبوت ملكية الدير للقبطة... وبالإضافة نرى من رسالة الأنبا بطرس الجارلي استنكاره»

ولقد نتج عن كل هذه المسكنيات البابوية وكل هذه المخادعات الانجليزية أن قابل القمص داود النجاشي شخصياً - بما اضطره إلى البقاء في الحبسة سنة وبضعة أشهر إلى أن نجح في اظهار الحق . وعلى ذلك لم يعد إلى القاهرة إلا بعد نياحة الانبا بطرس الجاولي .

٢٠٦ - ولقد أمد الله في عمر الانبا بطرس فبلغت بابويته اثنين وأربعين سنة وثلاثة أشهر وأثنى عشر يوماً . ووصفه معاصروه بأنه كان طويل القامة بمنزلة الجسم ذات حمة معتدلة ، قلما يشكو الماء طوال حياته . ويرجعون السبب في ذلك إلى شدة زهده وتقشفه وإلى اعتداله . وتبيح ليلة الاثنين أول أسبوع البسخة الموافق ٢٨ برمهات سنة ١٥٦٨ م (١) .

أما أشهر الاساقفة المعاصرين له فهم : يوساب أسقف اخيم وجرجا ، اثناسيوس الغمراوي أسقف أبوتيج ، توماس المليجي أسقف المنيا ، ميخائيل أسقف أسبوط ، غبريال أسقف أسنا .



ولقد برز من بين معاصريه الانبا صرابامون المعروف بأبو طرحة أسقف المنوفية الذي حباه الله مقدرات روحية عجيبة حتى وهو بعد شاب في العالم . وكان اسمه صليب الزيات لاشتغاله بتجارة الزيت . وحدث له ذات يوم وهو راكب حماره ومار بالسوق أن كانت بعض الذنوة الساقطات يتشاجرن ، وفي شجارهن قتلن رجلا ولم يجدن مخرجاً لهن من هذه الجريمة وما أن وقعت عيونهن على

الزعم بدم العناية بالأجاش ، وهذا الزعم مازال مسيطرأ على أفكار بعض القبط الذين لا يفتأون يرددون كلمات « وما الذي أدبناه للأثوبيين من خدمات » ؟ متجاهلين بهذا السؤال أن المسيحية نفسها وصلت إلى أنيوبيا من طريق القبط .

(١) نوابغ الاقباط ومناهيرهم في القرن التاسع عشر لتوفيق أسكاروس ج ١ ص ٥٨ - ١٢١ .

صليب الزينات حتى أمسكن به وأصقن به نعمة القتل فسبق إلى المحاكمة . وفي
أثنائها أخذ يصلى بدموع ويستنجد بالسيدة العذراء وبمختلف القديسين . وحين
وقف أمام القاضي التفت إلى القتل وأهاب به أن يقول صراحة من الذى قتله .
وعندها وقف أمام الجميع واعترف بالمجرمات الحقيقية فلم يسع القاضي المذهول
إلا أن يطلق صراحه .

فلما خرج صليب من مساحة المحكمة قرر لساعته أن يترك العالم المليء بالعدو
ليقضى حياته فى العشرة مع الله . فقام يومذاك وقصد إلى دير الانبا أنطوني حيث
ترهب . وبعد سنوات من المداومة على الصلاة والصوم ومن التعب والتأمل اختاره
الانبا بطرس الجاوى ليكون أسقفاً على المنوفية باسم سرايامون . وخلال أسقفية
كان يأتى أحياناً إلى القاهرة للتشاور مع باباه أو لتفقد أولاده المقيمين فى العاصمة .
وهو الذى شفى ابنة محمد على باشا بصلواته .

ومن الأشخاص الذين اعتاد السؤال عنهم أسبوعياً أرخن هو خال يواقيم بك
منصور - كان يزوره صباح كل سبت ليشرّب معه القهوة فى حوش داره وحدث
أن ابن أخته (يواقيم المذكور) مرض وهو ابن عشر شهور فقط . وبلغت به
حدة المرض أن مات مساء الجمعة . فلما جاء الانبا سرايامون إلى خاله صباح
السبت كالمعتاد أحضرت الأم طفلها الميت ووضعتة فى حجره وقالت له : وهذا
وحيدى . وقد فارق الحياة أمس مساءً ، لحمله بيديه ثم نفخ فى وجهه وقال لها :
لا تخفانى . ابنك بخير بنعمة الله وسيباركه الرب ويفتح به البيت . وفى
الحال ردت إليه روحه فبكى . وأعطاه الاسقف إلى أمه التى أرضعته وقلبها يفيض
بهجة وشكراً . وافتد عاش يواقيم منصور واشتغل بالسكة الحديد حتى وصل إلى
درجة وكيل إدارة مصلحتها ونال رتبة البكوية . وأحيل إلى المعاش سنة ١٩٠٩ .
وقد ظل طوال حياته يذكر هذه الحادثة التى روتها له أمه ، ويرفع آيات السبح

الله الذي أمره في عمره وكان الانبا سرايامون عظوما حين القلب - دفعه حنانه إلى أن يخرج بالليل بعد أن يكون الناس قد ناموا ليحمل الفمخ أو الدقيق لمن أخفى عليهم الدهر. ومن الحوادث المأثورة التي استثارت حنانه قصة عجيبة تلخص في أن رجلا تشاجر مع زوجته مشاجرة عنيفة. فخرجت المرأة من بيتها هائمة على وجهها. وفي عنفوان غضبها زين لها الشيطان أن تذهب إلى بيت بغى إغاظة لزوجها. وبالفعل ذهبت إلى ذلك البيت. فذهب من أبلغ الزوج بما حدث. ومن رحمة الله أن الزوج بدلا من أن يقتحم البيت ليرى بنفسه إن كانت زوجته هناك أم لا قصد إلى الانبا سرايامون وشكا إليه أمره. فقال له الأب الرحيم: «تمهل يا بني. ألا يمكن أن يكون مبلغك كاذبا؟ اترك لي الأمر وسأعرف بنفسى الحقيقة». وصرفه من عنده موصيا إياه أن يعود إليه في اليوم التالي. وقام لساعته فارتدى ثوبا علمانيا فوق ثيابه الكهنوتية وذهب إلى البيت المذكور وسأل عن السيدة بالاسم. فأدخلوه إليها. وما أن أغلق الباب حتى خلع الثوب العلماني. وعندها سقطت المرأة على قدميه تذرف الدموع واعترفت له بما حدث بينها وبين زوجها وأنها مع كونها جاءت إلى بيت الخطيئة فهي لم تقترفها بعد. ورجت منه أن يساعدها ويحدها المخرج من المأزق الذي أوقعت نفسها. فأخذها معه وذهب بها إلى بيت كاهن يعرفه وأعلمه بسرهما ثم رجا منه أن يقيمها في بيته وأن يذهب لملقائه في الدار البابوية في الساعة عينها التي كان قد حددتها لزوج المرأة ويشنكى من ضيق بيته. وبالفعل ذهب إليه الكاهن وحده وكان الزوج قد وصل. فبدأ الكاهن بشكايبته قائلا بأنه كان يتمنى لو كان بيته يتسع لكل قاصد. وقد أنهت هذه المرأة طالبة ابواها فأواها بالفعل ولكنه يأسف لأنه لن يستطيع إبقائها عنده فترة طويلة. قال الأسقف الحكيم: «اذهب واحضرها لتصرف معها. ولما أحضرها وتقابل الزوجان تعانبا واصطالعا. وفيما هما

خارجان أخذ رجل الله الزوج على ناحية وأرصاه بالرفق بشريكه حياته وبعد
الاصفاء إلى إخوان السوء .

وحدث له ذات مرة وهو يرفع القداس الإلهي في مدينة شبين أن كان بعض
الأطفال يلعبون خارجاً في أحوش الكنييسة بالناحية الشرقية . وفي أثناء لعبهم
سقط أحدهم - واسمه مينخائيل تادرس - في البئر . فصرخ الاسقف : يا أم النور .
حوش يا أم النور . ثم التفت إلى القريبين منه وقال لهم : الحقوا مينخائيل
وقع في البئر . فخرجوا على الفور وذهبوا ناحية البئر ونادوا عليه . فرجا منهم
أن يدلوا إليه بحبل تسلق عليه وصعد إلى فوق فوجدوه سالماً - بل حتى ثيابه لم تبتل
فسألوه عما حدث فقال لهم : حالما سقطت تلفتني سيده وجمها مشرق ساطع وهي
جالسة على كرمي عائم على سطح الماء فأجلستني على حجرها وقالت لي : لا تخف ،
وهكذا أحسست بالاطمئنان إلى أن أسعفتموني .

وهذا السلطان الروحي الذي منحه الله إياه لشفاء المرضى وإقامة الموتى قد
جعله نافذ القوة على المعتدين . فقد حدث أن كان راكباً حماره يتجول لا فتقاد
شعبه . فاعترض طريقه لص ورفع يده عليه بالنسبوت ليضربه كي يتمكن من
سرقته . فقال الانبا سرابامون : وي اكلم بجانين أنت رفعتها ؟ طيب خليها
مرفوعة وسيبني . وتركه ومضى ليكمل جولاته الافتقادية . وبينما كان عائداً وجد
الاص مكانه وذراعه مرفوعة وهو يصرخ من الألم وما أن رآه على هذا الشكل
حتى قال : يا خطيتك يا صليب . رح يا ابني الله يباركك ، فأنحل الرباط الذي
ربط ذراع الاص . فتاب وشكر لرجل الله عطفه .

وبدا سلطانه الروحي بصورة أقوى عند مواجهته لعباس باشا الأول (ابن
محمد علي) . فقد حدث أن أصدر هذا الباشا أمره بإعدام المنجمين والسحرة .

فوشى بعض الأشرار بالأنبا سرايامون زاعمين أنه ساحر كبيره من يستعملون
الشعوذة . فاستدعاه عباس باشا وأخذ يسخر منه ثم سأله في شيء من الاستخفاف :
« ألم تشف زهرة باشا ؟ فبأى قوة شفيتها ، ؟ وفاضت القوة الإلهية على القديس
فصرخ في وجه الباشا : « إنها قوة الله . » فأحدث كلمته رعباً سرى في القصر كله
حتى لقد أفرَّ عباس باشا بأن قوة خفية أرعبته فقدال لساعته : « أمان
يا بابا أمان . »

ولقد عاش الأنبا سرايامون إلى أن أدرك أيام الأنبا كيرلس الرابع . وبعد
حياته اختار البابا الراهب برسوم الذى زامله أيام رهبنته وفي سفره إلى الحبشة
ليكون خلفاً لهذا القديس الذى اشتهر « بأبو طرحه » لأنه اعتاد أن يغطى رأسه
بطرحة كانت تنزل على وجهه وتغطى عينيه أيضاً (١) .

٢٠٧ - ولقد برز في هذا العصر عدد من الأراخنة لا نعرف عن بعضهم غير

جملة عابرة بينما نعرف عن غيرهم أكثر من هذه الجملة العابرة . على أن كنيسةنا
القبطية قد عوّدتنا على إدراك حقيقة عجيبة ضمن تاريخها المليء بالعجب : هذه
الحقيقة هي كثرة جنودها المجهولين الذين اكتفوا بدعاء قصير يفيض بالمعاني
وهو « عوّض يارب من له تعب في ملكوت السموات » . ومن الأراخنة الذين
لا نعرف عنهم غير جملة عابرة المعلم بقطر واصف الذى قيل عنه أنه كان محاسباً
للبرديسى بك أحد الخصوم العنيدين لمحمد على باشا . ولم يذكر عنه الجبرتي إلا أنه
بعد أن مات « اجتمع العسكر ببيت محمد على وحصل بعض قلقة لخوّلهم على القبط
بمئاتى ألف ريال منها خمسون على غالى كاتب الألفى ، وثلاثون على تركه بقطر
المحاسب ، والمئة وعشرون موزعة عليهم فسكن الاضطراب قليلاً (٢) أما توفيق

(١) توفيق اسكاروس . . . ج ١ ص ١٣١ - ١٥٦ .

(٢) « عجائب الآثار » . . . ج ٢ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

أسكاروس فيسهل و قائمة تتضمن علم الذرام المأخوذة من المعلم يوجنا منصور
تسليم كاتبه الحقير اسرائيل يعقوب مما صرف في ماتم المرحوم بقطر واصف من
ابتداء يوم وفاته الذي هو يوم السبت ١٣ جمادى الأولى سنة ٢٣١ هـ ليلية . . .
وقد بلغت ١٢٦٣١١ درهماً . . . ، وأورد بعد ذلك تفاصيل المبالغ المدفوعة ،
ثم ذكر أيضاً أنه كان لدى المعلم بقطر كاتب قاعة اسمه المعلم سيداروس . وقد
ختمت السيدة مختارة زوجة بقطر وبنت جرجس الجوهرى بمختمها على حسابه (١) .
وإننا نجد في هذا الوصف القصير أسماء لثلاثة معلمين لا نعرف عنهم غير
أسمائهم ووظائفهم . . .
ثم يذكر لنا الجبرقي أن محمد علي باشا قبض على كبار المباشرين القبطن ذات
مرة ، و ثم فلدوا المباشرة إلى المعلم منصور صربمون الذي كان معلم ديوان الجرك
بيولاق . . . ، ثم تحدث عن الذبيح وكيف أنه تعين أشخاص مباشرون للإشراف
عليه فقال : . . . والمعلم منصور أبو صربمون القبطن ورتبوا لضبط ذلك كتاباً
ومباشرين يتقرون بالنواحي والبلدان والقرى وما يلزم لهم من المصاريف
والمعالي والمشاخرات وما يكفيهم في نظير تقديم وخدمتهم فيمضى المعينون لذلك
فيحصون ما يكون موجوداً على الأنوال بالناحية من القماش والبن والأكية
الصوف المعروفة بالزعابيط والدنانير ويكتبون عدده على ذمة الصانع ويكون
ملزوماً به حتى إذا تم نسجه دفعوا لصاحبه ثمنه بالفرض الذي يفرضونه وإن أراد
صاحبها أخذها من الموككين بالثمن الذي يقدرونه بعد الختم عليها من طرفيها بعلامة
الميرى فإن ظهر عند شخص شيء من غير علامة الميرى أخذت منه بل وعوقب (٢) . . .

أما الأرخن الذي يأتي اسمه بعد المعلم منصور مباشرة فهو المعلم بشارة ،

(١) في كتابه « نوابغ » . . . ج ٢ ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٢) « عجائب الآثار » . . . ج ٤ ص ١٢٢ و ٢٨٢ - ٢٨٤ .

ولا نقرأ عنه غير قصة تعطينا صورة عن أثر الشائعات في الناس . لقد حدث أن
سافر محمد علي باشا للحج وتأخر في العودة . وكان الجميع ينتظرونه من يوم إلى يوم ،
فوصلت سفينة إلى القصير كان من بين ركابها سبعة عشر جندياً قتلوا لأنهم طملائع
الباشا وإنه أت في أزم فلما سمع وكيل المدينة هذا الخبر أرسل لساعته خطاباً
إلى كاتب من الأقباط بقنا يعرفه بقدم الباشا فكتب ذلك القبطي خطاباً إلى
وكيل شخص من أعيان كتبة الأقباط بأسبوط يسمى المعلم بشارة ، فعندما وصله
الجواب أرسل جواباً إلى موكله بشارة المذكور بمصر بذلك الخبر وفي الحال
طلع إلى القلعة وأعطاه لإبراهيم باشا فانتقل إبراهيم باشا إلى مجلس كتعذابيك
فطلع كتعذابيك على بشارة خلعة وأمر بضرب المدافع ونزلت المبشرون
وانتشروا بالبشائر إلى بيوت الأعيان وأخذ البقاشيش ولما حصل التراخي
والتباطي والتأخر في الحضور بعد الإشاعة أخذ الناس في اختلاف الروايات
والأقويل كعادتهم ...^(١)

وهناك أرخان لا تعرف غير اسميها وكونها من الكتبة المشتغلين في دواوين
الحكومة وهما المعلم جريس والمعلم يعقوب^(٢) ، وإلى جانبها أرخان آخر كان
كاتباً عند وكيل نقابة الأشراف هو المعلم عبد القدوس^(٣) .

أما المعلمون جرجس الطويل وأخوه حنا ومنقريوس البتانوني الذين تعاونوا
مع الأنبا بطرس الجارلي يوم أن شاء إقامة شمائر الميرون فنعرف أنهم كانوا ضمن
كتبة محمد علي باشا . ويذكر لنا الجبرتي أن إبراهيم باشا سافر على طريق
القليوبية ومحبته طائفة من مباشري الأقباط وفيهم جرجس الطويل وهو كبيرهم .

(١) د مجانب الآثار . . . ج ٤ ص ١٢٢ و ٢١٧ .

(٢) شرح ج ٤ ص ١٢٢ .

(٣) شرح ج ١ ص ١٩٤ - ١٩٦ .

ثم حدث أن غضب محمد علي باشا على المعلم غالى لتأخر بعض المال عليه فاعتقله
... فأحضر المرافعين عليه وهم جرجس الطويل ومنقر يوس البتانوني وحنان
الطويل والبسم خلعاً على رياضة الكتاب...^(١) ومن آثار العناية بالمخدمة
الكنسية بدر شيل عليه النص التالي : « ما اهتم بهذا المعلم يوحنا أبو ميخائيل
الطويل برسم بيعة ماري مرقس الانجيلي الكاروز بالازبكية . عرض يارب من
له تعب . سنة ١٥٢٢ للشهداء »^(٢) .

المعلم رزق الله الصباغ - أحد أحناف السيدة مختارة بنت المعلم جرجس

الجهوري وزوجة المعلم بقطر واصف . ولا تعرف عنه إلا أنه كان زميلاً للمعلم
منصور صر بمون في كونه معلماً لديوان الجرك ببولاق^(٣) . وله ابن عم اسمه
جرجس مينا الصباغ كان من موظفي تفتيش الدائرة السنية^(٤) .

دكتور ابراهيم السبكي - بدأ حياته العملية كموظف في الحكومة المصرية .

ثم اختير لبعثة دراسية في فرنسا سنة ١٨٤٥ ، فافر ودرس الطب البيطري .
وبعد ثلاث سنوات حصل على الشهادة المرغوب فيها وعاد إلى وطنه . ثم عين
مدرساً بمدرسة الطب البيطري في القاهرة في ٢٢ يوليو سنة ١٨٤٨ م^(٥) .

المعلم ابراهيم نخلة وعائلته - نشأ هذا الأرخن في قرية أم خنان (من قرى

الجزيرة) ثم أصبح من كبار الكتبة العاملين في ديوان محمد علي باشا . واكبر
أولاد المعلم ابراهيم هو المعلم نخلة الذي أحقه أبوه بالكتابة في طفولته تبعاً

(١) « مرشد المتحف القبطي » لوديع شنوده ص ١٤٥ .

(٢) شرحه ج ٤ ص ٧٤ و ٢٤٢ .

(٣) شرحه ج ٤ ص ١٢٢ .

(٤) تولى اسكاروس ج ٢ ص ٣٠٦ .

(٥) عن « كتاب البعثات الطبية » للأب مير طوسون ص ٢٥٤ .

لعادة القبط آنذاك . فتفرق في اللغتين القبطية والعربية وانتقر الحساب والخط .
وأهم من هذا كله تهتم المرامير والتسبحات والمردات الكنسية . فلما بلغ سن
الشباب اتخذ أبوه مساعداً له في أعمال الديوان ليدرّبه عليهما . وقد تجاربه
الشاب مع عناية أبيه ورغبائه فأصبح ماهراً في مختلف الأعمال الحسابية والمكتاتبية
والإدارية . فزكته مهارته لدى شريف باشا الكبير الذي اتخذته كاتم أموره
(سكرتيره) . ولما كان هذا الباشا يقيم في الإسكندرية فقد انتقل المعلم نخلة
إليها هو وعائلته - إذ كان قد أصبح رب بيت .

ثم حدث أن طالب محمد علي باشا كبير كتبه - المعلم وهبة إبراهيم آنذاك -
أن يقدم له حساباً شاملاً عن أمور الدولة . وعجز الكاتب عن تلبية أمر الوالي
الذي غضب عليه ونحاه جانباً . ولثقة شريف باشا في كاتم أموره حول عليه
غلب الوالي . فاخطرب المعلم نخلة وخشى أن يصيبه ما أصاب المعلم وهبة . وفي
حيرته استشفع بمار مرقس الإنجيلي الكاروز الحبيب ثم نذر أن يوقف كل ما يملك
من أراض على الكنيسة - وهذه تقع الآن ما بين شوارع شريف وسيزوستريس
والكنيسة القبطية وطوسون بالإسكندرية . وبعد أن اطمأن إلى شفاعته ناظر
الإلهيات . قصد إلى قصر رأس التين لزيارة محمد علي باشا . وقد مكث بذلك
القصر يومين نجح خلالها في إنجاز العمل المطلوب وقدمه إلى الباشا الذي أبدى له
كل الرضى . وحالما غادر القصر ذهب لساعته إلى الكنيسة المرقسية وقدم الشكر
لله والتمجيد لقدسه ثم قابل المسؤولين بها واتخذ معهم الخطوات اللازمة لتنفيذ
نذره . وبعد ذلك عاد إلى بيته .

ولقد أنجب المعلم نخلة ثلاثة بنين هم إبراهيم وصالح وسلمان ورباهم تربية
مسيحية حقة (١) . ومن أحفاده الشماس كامل ابن صالح المؤرخ المعروف الذي كتب

(١) كامل صالح نخلة « سنة » . الحلقة الخامسة من ١٧٥ - ١٧٦ .

الكثير من الكتب والمقالات عن باباوات الاسكندرية ومطارنة الكرمسى

بالأورشليم وغيرهم .

ومثل هذه الوثائق توضح لنا أن الشبهة المقدمه لم تثقل من يد إلى يد عن طريق الآباء لحسب بل انتقلت أيضاً عن طريق جميع الذين التصقوا بالقادى وأحبوا كنيسته فكانوا أعضاء حية عاملة في جسده الذى هو بيعته المقدسة .

المعلم حنا المتبادى : وهبه الله ذكاه فطرياً عجيباً . فبعد أن استوعب كل المعلومات التى تلقنها فى الكتاب اتقن اللغة التركية وبها استطاع التمام مع الحكام والتقرب إليهم . وفى عهد محمد على باشا عينوه سكرتيراً طاماً لمديرية صوم قبلى . وكانت تمتد من الروضة إلى وادى حلغا . ولأمانته وتفانيه فى العمل وثق به سليم باشا البلهدار مدير تلك المنطقة وترك له تدبير أمورهما . ومن ثم أصبح صاحب آفاق فى التصرف فى المسائل الإدارية وحوادث الطور ، وتعيين العمدة والمشايخ وفصلهم إذ لم توجد آنذاك محاكم ولا قوانين . ومع كل هذا تفوذه على استقامته . ولم ينه تفوذه الاهتمام بشئون القبط ، فكان يحضر دائماً المجالس الشرعية الخاصة بالنصل فى قضاياهم الشخصية . كذلك كان مواظباً على الصلوات الكنسية بل أنه كان أحياناً يلقى العظة . ومن حوادثه الطريفة أن ناموراً فى مركز أسنبوط اسمه حسن أغا فرج كان يمر يومياً فى ذهابه وإيابه على كاتب قبطى لأحد العمارات الأميرية . فكان الكاتب يجيبه عند ذهابه بقوله : صباح الخير يا بيه ، وعند إيباه : مساء الخير يا بيه . فتمت الأمور هذه التحيات ولما كان له حق الحكم بالاعدام أمر بشق الكاتب . فامرغ أحد الأقارب إلى المعلم حنا وأبلغه الأمر . فتنازع هذا بدوره إلى انقاذ الرجل من بطش المأمور . وليس من شك فى أنه تمكن من انقاذ غيره لأن عنايته شملت القبط والمسلمين على السواء (١) .

وحدث عندما أراد محمد علي تحرير دقائر بالضريبة المفروضة على الأتليان وتسجيل زيادتها أنه قرر أن ينظمها بتقسيم المسؤولية بين مختلف المباشرين ، لعل القبط (وفي مقدمتهم المعلم خالي) مسئولين عن مصر المتبقية . ثم فرض على خالي نفسه مقدار ألف كيس فوزعها على زملائه من الكنبه والمباشرين وجمعها في أقرب وقت وسلمها لباشا .

ثم ناد محمد علي فطالب القبط بثلاثين كيس ولكي يضطرم إلى الدفع بلا عاطلة . أمر بالاحتياط على بيوت عظام الأقباط كالمعلم خالي والمعلم جرجس الطويل وأخيه وفلتبوس (١) وعدتهم سبعة فأحضروهم في صورة منكرة وسمروا دورهم وأخذوا دقائرهم فلما حضروا بين يديه قال لهم أريد حسابكم بموجب دقائركم هذه وأمر بحبسهم فطلبوا منه الأمان وأن يأذن لهم في خطابه فأذن لهم . فخطبه المعلم خالي وخرجوا من عنده إلى الحبس . . . غير أنه تنازل لهم عن مطلبه مكتفياً بأن يدفعوا له سبعة آلاف كيس فقط .

وفي أحد أيام سنة ١٨١٢ قرر محمد علي الاستيلاء على دار اسماعيل أفندي أحد الكبراء . فأقترح عليه أحد قاروه أن يكتب عرضاً ويذهب به مع بعض أخصاء الباشا لعل شفاعتهم تجد قبولا . وبومذاك كتب اسماعيل أفندي العرض لمرضاة وصحبه المعلم خالي لتقدمه . ودخلا معاً . إلا أن الباشا حالما رآهما أدرك أن المعلم خالي يرغب في الاستشفاع لأجل اسماعيل أفندي فرفض حتى الاطلاع على العرض حال ورود الرجلين لساعته .

ومن حوادث سنة ١٨١٦ أن أتباع أحمد المسلمين الملتزمين بجمع الجوالى تناولوا على قبلى . ثم قبضوا عليه وأخذوا يتشددون في مطالبته بما كان عاجزاً

(١) وجدنا أن اسم فلتبوس كان يأتي بعد اسم المعلم جرجس الجومرى بباءة ، وهو هنا ما زال في الصف الأول من القبط ومع ذلك فلا نعرف منه شيئاً .

عن أدائه واتضح لهم بعد هذا كله أنه باهن ورغم هذا استمروا في عشادتهم .
وبيننا هم في هذا المجال بلغ الخبر مسامع المعلم غالى . فأخذ على واقعه دفع المبلغ
المطلوب متعاً للأذى .

وما يجدر ذكره أن ابراهيم باشا حين عزم على إعادة قياس أراضي مصر تقدم
إليه قياسون فقط كآفة عدم بعض مهندسى الأفرنج . فعارض المعلم غالى في حق
الأفرنج العمل في مثل هذا المشروع . وخص ابراهيم باشا بما تقدم به القبط وما
تقدم به الأفرنج أيضاً رغم معارضة المعلم غالى فوجد بعد الفحص أن عمل مساحى
القبط أصح ولكنهم أبطأ في التنفيذ . فاختار عدداً منهم للعمل ثم أوصاهم بالأصراع .

ومع كل هذه الخدمات التي أدّاها المعلم غالى فقد أصدر محمد على - بينما كان
في الاسكندرية - الأمر بالقبض عليه وحبسه هو وأخيه فرنسيس وخازن داره
المعلم سحمان ، لأنه كان قد بعث إليه يطالب بستة آلاف كيس فتأخر في إرسالها
واعترض عن عدم القدرة على أدائها ، ثم طلب مهلة ليتمكن من جمعها . ولكن
طلبه لم يرفض فقط بل أن الكتبخدا نادى على بعض الأقباط وأفهمهم أن على
المعلم غالى ثلاثين ألفاً من الأكياس فإن لم يدفعها أصبحوا هم ملزمين بها . وبعد
ذلك أرسل إلى المعلمين جرجس الطويل ومنقر يوس البتنونى وحنا الطويل وخلع
عليهم الخلع وولاهم على رياسة الكتبة لعله بذلك يتمكن من أخذ المبلغ المفروض
بواسطتهم . واستمر المعلم غالى في الحبس هو وأخوه وخازن داره . ثم استحضروهم
من الحبس وصدر الأمر بضرب فرنسيس أمام أخيه ، فسأل : « وأنا أضرب
أيضاً ؟ » قالوا : « نعم » . وضربوه على رجليه بالسكرابيج . ثم تركوه فترة
وعادوا يضربونه ثانية . أما سحمان فقد ضربوه ألف كراباج . وبعد أيام صدر
الأمر بالأفراج عن فرنسيس وعن سحمان لثلاثين يوماً في السجن . وبالفعل انتقل

سبحان إلى رحمة مولاه طالما وصل إلى بيته . أما غالى فظل في السجن . ولما رجع
الباشا من الاسكندرية تشفع جوني الحكيم^(١) في المعلم غالى وأخذه من الحبس
إلى داره . وهكذا مرت هذه الشدة عليه . إلا أنه حين اكتشف محمد علي
ما اقترفه فرنسيس من تزوير خطاب باسمه وختمه إلى الباشا الروماني قتل المما
غالى بوصفه الأخ الأكبر وبالتالي المشمول عن زلة أخيه^(٢) .

٢١٠ - وتبرز أمامنا عبرة لها قيمة كبرى هي أن الانسان المزعزع الإيمان
ليس في حاجة إلى اضطهاد يرعبه ولا إلى أغراءات طامية تجتذبه لكي يتكر
لمقيدته . فنحن نرى من مختلف المؤرخين أن محمد علي باشا رغم شهوته في الحكم
ورغم سميه المتواصل إلى الاستئثار بالسلطة قد أطلق الحرية الدينية . وحينما كان
يتشدد في المطالبة بالمال أو في الاستيلاء على البيوت والأطيان كان يجأش بالمسلمين
أيضاً . ومع هذا كله يحدثنا الجبرتي عن رجل يصفه بأنه « الأستاذ الفريد
والوطني المجيد » هو الشيخ محمد المهدي الحفني ، ثم لا يخبرنا إلا أن « والده من
الاقباط وأسلم وهو صغيراً دون البلوغ على يد الشيخ الحفني . . . »^(٣) . ترى -
ما الذي دفع بسلام في سن صغير إلى أن يترك بيت أبيه ويلتصق بشيخ ليس من
أهله وإن كان من جيرانه ؟ أم قسوة أبيه أم اهمال أمه أم الأمران معاً ؟ أم
زمالة الطفولة والتعاطف بين مجموعة في سن واحد ؟ . . . لا داعي للاسترسال في
مثل هذا التساؤل لأننا لن نستطيع الوصول إلى الجواب الصحيح . غير أنه مما

(١) ومرة أخرى لا نعرف من هذا المعلم شيئاً ولكن لا بد أنه كان يستمتع بمكانة
خاصة وإلا ما كان يستطيع أن ينشفع في مثل هذا الموقف وما كانت شفافته لتقبل .
(٢) للاطلاع على مختلف المعلومات عن المعلم غالى راجع « عجائب الآثار . . . »
لجبرتي ج ٣ ص ٢٨٠ و ٢٨٢ و ٢٤١ و ٢٤٢ ؛ وج ٤ ص ٧٨ و ٨٠ و ٩١ و ٩٣
و ١٠٧ و ١٥٢ و ١١٧ و ٢١٨ و ٢٤٢ و ٣١٨ .
(٣) « عجائب الآثار . . . » ج ٤ ص ٢٢٣ .

لا شك فيه أن هناك عوامل نفسية أو ماثلية أو إجتماعية دفعت بهذا الولد إلى هجر
ماتته والإلتجاء إلى من لا يتمون إليه بصلة الدم . فالشخص الناضج في مقدوره
المقارعة والاختيار . أما الذي لم ينضج بعد فلا يستطيع أن يقوم بمثل هذه
الموازقات . فدوافعه ترجع دوماً إلى الانفعالات الداخلية أو إلى البيئة . لذلك
كانت المسئولية الملقاة على الوالدين والمربين والسكينة مسئولية عظيمة لأنهم هم
المرجوون للصغار .

٢١١ - لقد كانت مصر منذ أن تغلب عليها الفرس مطمع الغزاة من مختلف
البلاد وعلى مدى الأزمان . وبعد السحاب الفرنسيين كانت هناك قوات ثلاث
تستهدف السيطرة عليها ، هذه القوى هي : الأتراك والانجليز والمماليك . على أن
هذه القوى لم تدرك أن قوة رابعة تنافسها وأن هذه القوة الرابعة تنتهي بعد
جهاد طويل مرير يتخلله الفشل والنصر إلى أن تغلب في النهاية . والقوة الرابعة
التي كانت في الخلفية على الدوم والتي لم يقف الباطشون لحظة للتفكير فيها ، بل إن
هم وقفوا قائماً للازدراء بها ، هي الشعب المصري نفسه . هذا الشعب الذي طالما
استبدوا به وزعموا في خيالاتهم أنه خانع اعتاد الاستسلام فأعماه هذا الزعم عن
مقدرته الكامنة . هذا الشعب اعتاد أن يسلك مسلك يله الخالد قبل السد العالي :
أي أنه يفيض وينحصر ، هكذا الشعب يخذل إلى السكينة ويشور . والفترة التي
تسلم فيها محمد علي مقاليد الحكم كانت إحدى فترات الفوران . ولما كان محمد علي
تسيطر عليه شهوة الحكم ووجد أنه وصل إلى مصر ليكون والياً عليها يؤدي
الحساب إلى تركيا ، فقد أدرك بثاقب بصره أنه لو استند إلى الشعب واستماله إليه
لامكنه أن يصبح الحاكم الذي ليس لباب العسالي عليه إلا أن يأخذ منه المال
المفروض فيبعد أن نجح في أن ينال تأييد الشعب بدأ يعمل على بث قواه الكامنة :
فنظم إدارته وأنى موارده وعلم أبناءه ، وكون له قوة عسكرية منظمة كافية

لأرهاب خصومه وفوق هذا كله فقد عزم على أن يتخذ من مصر وطناً . ومع كونه حاكماً مستقبلاً فقد أنشأ مجالس خاصة كانت أشبه بالمدارس ، في إعدادها المال والموظفين والمواطنين المستعيرين . ومنها ما يكن من تجمهه ونسكه بالممالك ثم من إبعاده الزعماء الشعبيين فقد سار بمصر في الطريق الذي أوصلها إلى الوعي الصحيح لشخصيتها ولقدراتها ^(١) .

أما إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا فما يؤثر عنه أنه كان محبوباً من مختلف المصريين . ويبدو هذا التقدير في أنه حين كان عائداً من الحجاز أذيع خبر وصوله إلى القصير (على البحر الأحمر) وطولب القاهره يون بتزيين المدينة أما جهات النصارى وحراراتهم وخاناتهم فإنهم أبدعوا في عمل تصاوير مجسمات وتمائيل وأشكال غريبة . . . ^(٢) .

ولقد انتصر إبراهيم باشا في كل الميادين التي اقتحمها وكان لا يعتمد إلا على الجنود المصريين ولا يتكلم إلا اللغة العربية . فقد قال عنه الفرنسيون إنه يجاهر علناً بعزمه على إحياء القومية العربية وإعطاء العرب حقوقهم وجعلهم شعباً مستقلاً ، وكان لا يفتأ يتحدث عن مفاخر العرب أمام جنوده ويطعن في الترك بلا تردد . فسأله أحد جنوده بتلك الحربة التي عودهم عليها كيف يطمئن في الأتراك وهو واحد منهم . أجابه لفروره : « أنا لست تركيا . لقد جئت مصر صيباً فصرتني شمسها وغيرت من دمي وجعلته دماً عربياً ^(٣) . » ولو لم تتدخل السياسة بأساليبها الملتوية وأغراضها الخفية لامتد حكم مصر بهمة جيشها وقائده

(١) تاريخ مصر من الحملة الفرنسية إلى نهاية عصر اسماعيل (سنة ١٧٩٨ - سنة

١٨٧٩ م) لأحمد عزت عبد الكريم ص ٣٠٨ - ٣٢٥ .

(٢) « جوانب الآثار . . . » ص ٤٣٥ - ٤٠٦ .

(٣) « عصر محمد علي » لبد الرحمن الرافعي ص ٢٤٧ .

البطل ابراهيم باشا فثبيل تركيا ذاتها ولا صيغ السلطان التركي تابعا لمحمد علي ا
٢١٢ د وليس من الممكن الحديث عن هذه الفترة من تاريخنا دون الاشارة
الى المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتي الذى عكس لنا فى كتاباته كل ما احتوته
الحياة آنذاك من ارتفاعات وانخفاضات، وكل ما شاهدته من أحداث وتقلبات.
وتصويره للحياة دقيق للغاية حتى أن أحد المعاصرين قال عنه: كان الجبرتي يملك
موهبة سيكولوجية بعيدة الشفافية مكنته من استيعاب حقيقة الدخلاء.. فالماليك
أرقاء دخلاء استجلبوا إلى مصر من القوقاز، والعثمانيون دخلاء ولا يستثنى منهم
الانكشارية الذين استوطنوا مصر دواماً، أما الفرنسيون فهم دخلاء من بلاد
الفرجة لكنهم بدوا فى نظره متطفلين كأنهم قد وفدوا من كوكب آخر...
ولقد زار الجبرتي معرضاً لمنجزات العلوم الاوربية وصف معروضاته بأنها ولعب
أطفال تعرض للتأثير فينا ولكننا لن نتخضع ببساطة... ولكنه حينما حضر
محاكمة سليمان الحلبي قاتل كبير بدت أمامه أسلوباً صافى النية للتصوير الفرنسى
الاصيل لاقرار العدل (١) ..

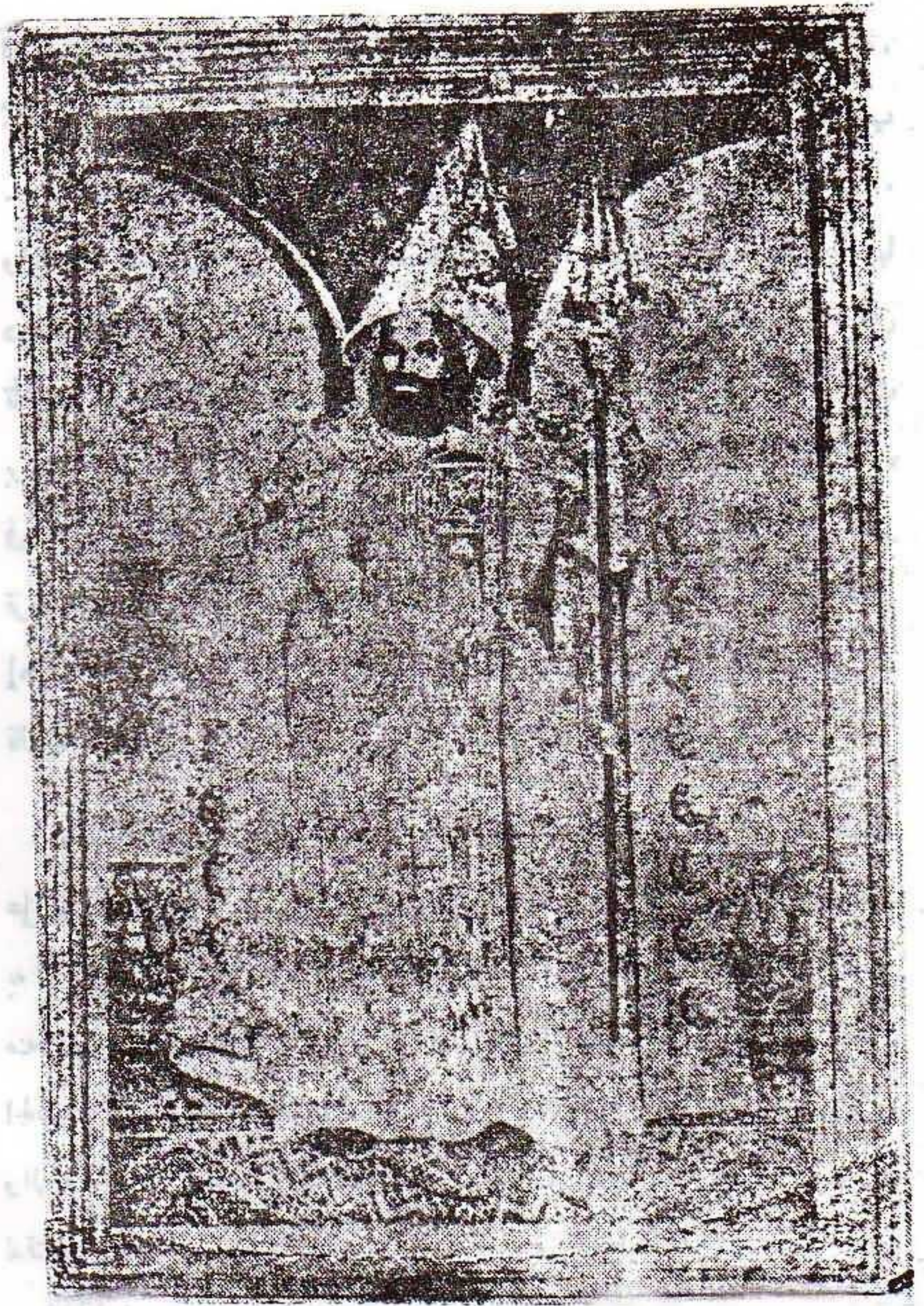
أما المؤرخ المصرى المعاصر دكتور أحمد عزت عبد الكريم فقد قال عنه
ما يلى: ... كانت مصر فى أواخر القرن الثامن عشر قد بلغت نهاية شوط من
مسيرتها الطويلة عبر آلاف القرون، كما كانت على عتبة عصر جديد... كانت
مصر بتاريخها الطويل وحضارتها الزاهرة صانعة للتاريخ... وكلما ازداد نبض
الحياة فى مصر سرعة وتعقدت الأمور وتشابكت المصالح اشتد الإغراء على التدوين
والتسجيل... وعلى هذا النحو كان التراث التاريخى المصرى من أروع ما خلفه
العقل المصرى... وشهدت مصر منذ انتهاء حكم على بك الكبير حتى مجيء الحملة

(١) من رء - آلة كتبها المؤرخ الانجليزى الفيلسوف ارنولد تونى ولطهرت جريدة
الاهرام ملخصاً لما فى عددها الصادر يوم الجمعة ٢٦ أبريل سنة ١٩٢٤.

الفرنسية فترة من أشد الفترات التي مرت بمصر اضطراباً وفساداً واستغلالاً . . .
ثم قرعت أسماع المصريين أنباء انفجارين كبيرين جاءت إليهم من الشرق والغرب . . .
الانفجار الوهابي في الجزيرة العربية والانفجار الفرنسي في أوروبا . . .
والثقفين المصريين كانوا أميل إلى المطف على الحركة الوهابية التي وجدوا فيها
دعوة إلى الإصلاح الديني وإلى الصوفية الحقيقية . . . أما الثورة الفرنسية فكان
تأثيرها على المصريين شديداً رهيباً لأن المبادئ التي نادى بها الثوار كانت ذات
بريق خاص : فهم لم يعلنوا حقوق المواطن الفرنسي بل أعلنوا حقوق الإنسان ،
في الحرية والآخاء والمساواة . فلما جاء العلماء الفرنسيون مع نابليون إلى مصر
تردد عليهم الجبرتي وبعض أصدقائه كالشيخ اسماعيل الخشاب والشيخ حسن العطار
إهتماماً منهم بالتاريخ والأدب والعلوم التي كان يشتغل بها هؤلاء العلماء حتى لقد
قال الشيخ العطار : « إن بلادنا لا بد أن تتجدد فيها العلوم والمعارف » .

وامتلاً للجبرتي مرارة حين شهد تزايد قوة محمد علي وتعاظمه إلى حد التسلط
على قادة الشعب . . . وكانى بالجبرتي في هذه السنوات الأخيرة من حياته وقد اشتد
به الألم . . . قد أخذ مكانه على مفرق الطرق . . . ولم يدرك أن ما كان يقاسى
منه المصريون في تلك السنوات ما هو إلا بعض ألم الخماض الذي يسبق الميلاد
الجديد . كان الميلاد الجديد هو نهضة مصر فيما تلا ذلك من القرن التاسع عشر (١) .
والواقع أن كل المشغلين بالتسجيل التاريخي يمثلون إعجاباً بما كتبه الجبرتي
لدقته في التسجيل وفي التعليق فهو يعطينا صورة تفصيلية عما شاهده وما جازه
من اختبارات .

(١) انعقد بالفاخرة مؤتمر لتكريم ذكرى الجبرتي من ٢٢ - ٢٦ أبريل ١٩٧٤
بمناسبة مرور مئة وخمسين سنة على وفاته وفي آخر أيام المؤتمر نشرت الأهرام للدكتور أحمد
عزت همد الكرمي مقالا بعنوان « الجبرتي على مفرق الطرق » اقتطفنا منه الفقرات المذكورة.



ابو الاصلاح
الانبا كيرلس الرابع

إحدى القمم الشاهقة

- ٢١٤ - سلسلة من القمم
٢١٤ - نشأة داود الأنطوني
٢١٥ - رياسته للدير
٢١٦ - إيقاده للعبشة
١١٧ - اختلافات فائق
٢١٨ - خطاب التزكية
٢١٩ - افتتاحه المدرسة الكبرى
٢٢٠ - انشائه مدرسة البنات
٢٢١ - موقف الآباء من تعليم البنات
٢٢٢ - عنايته باللغة القبطية
٢٢٣ - وبالأخص الكنسية
٢٢٤ - تراوّه مطبعة وفرحة بها
٢٢٥ - تنظيمه المكتبة البابوية
٢٢٦ - اهتمامه بالسكينة
٢٢٧ - انشائه ديوان الأوقاف
٢٢٨ - سفره للعبشة مندوباً عن محمد سعيد باشا
٢٢٩ - مناورات الانجليز
٢٣٠ - روعة التواضع البابوي
٢٣١ - تجديد الكنيسة المرقسية
٢٣٢ - حادثة مع مندوب البابا الروماني
٢٣٣ - رعاية خاصة بالمرأة
٢٣٤ - رسالة القائد
٢٣٥ - تسوية الفائق
٢٣٦ - الحكمة الروحية
٢٣٧ - تلاعب فرنسي - انجليزي
٢٣٨ - خيانة الصديق
٢٣٩ - هزة القبطة والأسي
٢٤٠ - قصة المطبعة
٢٤١ - بعض كبار خريجي مدارس أبي الأصلاح

٢١٣ - ونقف الآن أمام راع سيطر على الفكر القبطي منذ أن اتخذ مكانته في سلسلة الباباوات الاسكندريين حتى أننا مازلنا نتحدث عنه بالقب الذي اخترناه له بدلاً من اسمه وهو أبو الأصلاح . . على أن الذي يجب أن يدركه القبط هو أن أبا الأصلاح ، ليس فريداً في هذه الكنيسة المريفة . صحيح أنه خطا خطوات جديدة دفعت بشعبه إلى الاعتراف بفضله ولكن الاعتراف بفضل شخص لا يعني انكار فضل غيره . وهذا ما يجب توكيده إذ قد جرى بعض الكتاب - اءماناً منهم في إبراز فضائل شخص ما - على أن يببالغوا في التقليل من شأن غيره . ولكن هذه الحطة لا تتفق والتعليم المسيحي اطلاقاً . فالاعتراف بالفضل لذويه واجب . ولهذا السبب نؤكد أن الآباء جاهدوا على مدى الأجيال : كل حسب تقديره

وإمكانياته فوجد الأبا بطرس الجاوي مثلاً منشغلاً بالتفقد وبالكتابة . ولكن
بما أن التفقد جهد ووقى وبما أن الكتابة تستلزم القراءة لتفهم مضمونها فإن جهد
الابا بطرس ضاع بين تيارات الدعايات الأجنبية المتنوعة والانقلابات السياسية
المتباينة ففسى القبط هذا الجهد الذى بذله الابا التاسع بعد المئة أو جهلوه . ولكن
الدعايات المفرضة عجزت عن أن تغلق المدارس التى فتحها أبنا كيرلس الرابع
وعن أن تمنع المطبعة التى احتضرها . فبقيت هذه المنشآت شاهدة على الجهد
الذى بذله الابا المباشر بعد المئة . على أن الدعايات لم تقف مكتوفة الأيدي
بأزاء عجزها فروجت شائعات مؤداها أن هذا الابا تلقى العلم فى إحدى المدارس
الانجليزية وفيها تعلم مسروليته وقام بواجبه العجيب أن المدرسة المذكورة
افتتحت سنة ١٨٤٠ وهو قد دخل الدير سنة ١٨٢٨ ثم أصبح رئيساً له سنة
١٨٤٠ . فكيف قسى له أن يأتى إلى القاهرة من دير الأبا أنطوني ليحضر الدراسة
ويجود إلى ديره فى نفس اليوم ؟ وكيف استطاع ذلك يومياً وديره قرب البحر
الأحمر ولم تكن له مديونة ؟ هذا مع العلم بأنه سار على منهج أبى الرهبان فى
تشده بأن الرهبان يجب أن يقضى حياته داخل الدير . فما أصدق من قال : إن
حبل الكذب قصير وصاحبه لا بد مشنوق به ، والحق إن هؤلاء المروجين
يحملون تاريخ الكنيسة القبطية وقد بنوا اشاعاتهم على الزعم بأن القبط هم أيضاً
يحملون تاريخهم . فالآباء على مدى العصور قاموا بما يمكنهم . ولا داعى
للاستشهاد بالمصور الأولى وإنما يكفى أن نسألهم أين كان هؤلاء الأجانب أيام
الابا متاوس الكبير (الابا الاسكندرى الـ ٨٧) أو أيام الابا يونس الثامن
عشر (الابا الاسكندرى الـ ١٠٣) وغيرهما ؟ ولئن كان القبط فى وقت ما يحملون
حفاق تاريخهم فقد أصبحوا الآن على وعى به . والواقع الذى يجب أن يتبصروه
فى وعيهم هو أن قصة كنيستهم ما هى إلا سلسلة متواصلة من القمم الشاهقة ،

وأنهم متى بلغوا قمة منها عليهم أن لا يفرحوا بوصولهم إليها فيستكبروا . بل عليهم التنقل ما بين قمة وأخرى مع ما في هذا التنقل من جهد . وحينذاك تبدى أمامهم الحقيقة الساطعة التي هي أن الإصلاح كان أبداً دأب الرعاة الساهرين الذين أنعم الله بهم على كنيستهم القبطية ، وأنهم جاهدوا الجهاد الحسن حتى وإن لم يتصر البعض منهم في هذا الجهاد . إنهم جاهدوا موقنين أنهم إنما يسمعون إلى إرضاء الله الذي يرى في الخفاء ، وأنه هو وحده في النهاية له السلطان على اظهار الحق وعلى تحويل الفشل إلى نصر . أفلم يكن يوم الصلب في نظر الرسل منتهى الفشل واليأس ؟ ولما كان ماذا نتج عنه ؟ على هذا اليقين سار خلفاء مار مرقس في ذودم عن العقيدة وعن الشعب الذي ائتمنوا عليه عالمين أن فجر القيامة لم يسطع إلا بعد حللك الظلام الذي غطى العالم ساعة الصلبوت . إذن فليذكر أن كيرلس الرابع في حقيقة جهاده ليس « أبا الإصلاح » بل هو واحد ضمن آباء الإصلاح الكثيرين . وليس هذا تقليلاً لجهاده وإنما هو اعتراف بفضل الآخرين إلى جانب الاعتراف بفضل الخصاص الذي سترضحه سيرته ...

٢١٤ - كان القمص داود الانطوني لا يزال غائباً عن أرض الوطن يوم أن نعى الناعي البابا بطرس الجاولي . ومع ذلك فقد كان من بين الأساقفة والاراقنة اقتنع بوجوب اختياره لما عرفوه عنه من الجهاد في سبيل النروض بالرهبان وبالاديرة . وكان قد ولد في بلدة الصوامعة شرق (محافظة جرجا) من أبوين متلتين نعمة . وكان أبوه - توماس بن بشوت بن داود - مزارعاً بسيطاً أيضاً . ولكنه رأى أن يعلم ابنه داود فأرسله إلى الكنائس حيث درج اولاد القبط على التعلم . لان الكنائس كانت ماحقة بالكنائس والاديرة يتعلم فيها الاولاد المزامير والتسبحة والقراءات الكنسية المختلفة بالإضافة إلى الحساب والكتابة العربية ومبادئ اللغة القبطية . ولما اكمل داود تعليمه في الكنائس ذهب ليكمل

في الفيظ مع أبيه . وخلال عمله كفلاح تصادق مع العربان القاطنين إلى جوار
بلدته . فتعلم منهم ركوب الخيل والهجن (السريع من الإبل) . ولتعلقه بالفروسية
وبالحياة في الهواء الطلق كان يرافق العربان في أسفارهم ويأبى بهم بحصانه أو
بهجينه . فاعتاد منذ صباه العيشة الحثيثة وتحمل المشاق . ويبدو أن هذه الحياة
الشظفة جعلته يميل إلى العزلة والتبتل وبالتالي يتباعد عن النساء . فلما بلغ الثانية
والعشرين من عمره ترك أهله وبيت أبيه وتوغل في الصحراء قاصداً إلى دير
كوكب البرية أبي جميع الرهبان .

وسار من غير مرشد لأن نجمة الهادي كان يسطع في داخله . وكان الدير
آنذاك تحت رياسة القس أناسيوس الفلوصي^(١) . ومن المزم أن أباه حاول قدر
الإمكان أن يرجعه عن عزمه . ولكن المراحم الإلهية أزرتة وأبقتة لخير الأمة
القبطية بأسرها . وقد احتفظ في الرهبة باسمه الأصلي « داود » .

وفرح الراهب داود بثقة القس أناسيوس الفلوصي فكرس وقته ونشاطه
للدروس والتفتيش فيما وجد من كتب بالدير . وفي الوقت عينه فاض قلبه بحب
إخوانه الرهبان . فكان يجمعهم كلما سنحت الفرصة ويقراء لهم ويشرح لهم ما صعب
عليهم ويستحثهم على الدرس . وانعكست محبته لهم بمحبتهم له . ووثق فيه رئيس
الدير فكان يأتونه على الرهبان كلما اضطرتهم أمور رياسته إلى ترك الدير لتفقد
العزبة والرهبان المسؤولين عنها .

٢١٥ - وبعد سنتين من رهبته انتقل القس أناسيوس الفلوصي إلى مساكن
النور ، فأجمع الرهبان على انتخابه رئيساً لهم . وحينما سمع الانبا بطرس الجاوي
بفضائله وبالرغبة الاجماعية على اختياره استدعاه ورسمه قساً باسمه . وبعد أن منحه

(١) قلمنا بلدة في محافظة المنيا .

البركة وزوده بالنصائح الأبوية صرفه إلى الدير ليباشر مهام رياسته .
واندفع القس داود بغيرته الروحية إلى اعداد كل ما يحتاج إليه الرهبان كي
لا يجد أحدهم عذراً في مغادرة الدير . وقرر أن لا يبقى بعزبة الدير في بوش
(شمالى بنى سويف) غير الرهبان الغائمين بأعمال الزراعة .

ثم وجه عنايته بعد ذلك إلى التعليم فافتح كتاباً لتعليم الاولاد في بوش :
سواء منهم الرهبان أو العائشين في العالم .

واستكمالاً لعمل الكتاب أنشأ مكتبة في عزبة الدير ببوش وجمع فيها كل
ما وجده من كتب كما أحضر لها كتباً جديدة وفتح بابها لكل من يريد القراءة
والبحث . وكان في أوقات فراغه يجمع الرهبان ويناقشهم فيما قرأوا . ثم يستمر
النقاش بينه وبينهم حول الموضوعات الدينية والادبية والتاريخية . ولكي يشجع
الرهبان وغيرهم من الشباب على طلب العلم تلمذ هو على الشيخ الذى كان مدرّساً
للغة العربية فأتقنها . فكان نموذجاً صالحاً لرهبانه وللشبان الذين التحقوا بمدرسته .

٢١٦ - ثم حدث ما حدث من تلاعب الانجليز في الحبشة فرأى الابا بطرس
الجاولى ضرورة ايفاد شخص متقد غير عمتلى . اخلاصاً ليحسم الامر بحكمته بعد
أن فشلت كل رسائله في اقرار الامور . ورأى أن الشخص الذى يمكن اتقانه
على هذه المشكاة هو القمص داود الانطونى وقد استأذن القمص داود باباه في
استصحاب زميل له ليتعاون الاثنان معاً ويصلا إلى ما لا يستطيع الشخص الواحد
بلوغه . وبالاخص لان الرب له المجد حين أرسل رسله للكراسة أرسلهم اثنين
اثنين . فأذن له الابا بطرس . وعلى ذلك استصحب القمص داود أخاه في الرهبنة
وفى السكهنوت اسمه برسوم " " . وذهب الاثنان حاملين معها خطابين من البابا :

(١) رسمه الأنبا كيرلس فيما بعد أسقفاً على المنوفية خلفاً لآبى طرحة باسم الأنبا يونس .

أحدهما للطران وثانيها للكهنه والشمس^(١). ونظياً بذلك البلاد سنة وأربعة أشهر منحها الله خلالها أن ينجحوا في المهمة التي سافروا من أجلها . على أنها عاداً بعد نياحة الأنبا بطرس كما سبق القول .

٢١٧ - وانقضت على نياحة الأنبا بطرس الجاولى ثلاثة شهور واثنا عشر يوماً حينما وصل القمص داود إلى القاهرة . وقد تبدو هذه الفترة قصيرة ولكنها كانت طويلة بما امتلات به من تضارب في الآراء وفي الأقاويل . فالبعض من كانوا يرون في القمص داود ضالته المشرودة ، والبعض الآخر يعارضهم . وما زاد البلبلة أن بعضاً من خصوم القمص داود أبلغوا عباس باشا الأول (الوالي آنذاك) بأن إليازيرجات^(٢) تشير إلى أن انتخابه سيكون شؤماً على الرياسة المدنية . ومع أن هذا الوالي جاز فترة قرر فيها الفتك بكل من يشتغل باليازيرجات والتكهن إلا أن هذه الشائعات أثرت فيه وجعلته يتطير خوفاً من انتخاب القمص داود . وعلى الرغم من هذه الأراجيف فقد تجمع عدد من المطارنة في صف الراهب الأنطوني يساندم الأراخنة الآنية أسماؤهم : تادرس شلي ، تادرس عريان . برسوم واصف ، حنا عبيد ، يوسف نصر الله ، حنين حنس وأخوه اسطفانوس ، روفائيل الطروخى ، حنا القيس ، بطرس نخلة ، ابراهيم لطف الله ، يوسف مفتاح ، تادرس سيدهم ، وأكثرهم حماسة حنا جريس و ابراهيم خليل . هؤلاء جميعاً ظلوا يقاومون التيارات المضادة والشائعات المزعومة التي مؤداها أن القمص داود قتلوه في الحبشة . ثم بدد الله الفيوم المتكاثفة بوصولها سالماً إلى القاهرة هو وزميله في ١٧ يوليو سنة ١٨٥٤ م .

وحالما وصل خرجت الجموع لاستقباله وامتلأت قلوب مربيهه فرحاً ولكنهم

(١) هذان الخطا بان غير تلك التي انتبنا منها في سيرة الأنبا بطرس الجاولى .

(٢) هي علم فراءة الفيب من طريق التنجيم - أي بواسطة النجوم .

لم يستطيعوا أن يبددوا أو هام عباس باشا. فاحتالوا حيلة جازت عليه وهي أنهم طلبوا رسماته مطرانا عاماً على الكرازة المرقسية. فإن ثبتت كفاءته وتمتت بهتان الشائعات بحسبه بطريركاً. وبهذه الوسيلة نهجوا في إقامته رئيساً عليهم. لأن المطران العام، ماهو إلا البطريرك وإن اختلفت التسمية. وقد رسمه الأساقفة باسم كيرام، فأصبح الرابع الذي يحمل هذا الاسم والبابا المباشر بعد المنسفة.

٢١٨ - مرة أخرى نتوقف عن متابعة الركب لنتمعن في مبدأ رسولي: هو عدم انتقال الأسقف من إيارشية إلى غيرها وعدم جمعه بين إيارشيتين، وعدم ترشيح الأساقفة لبا بوية بل اقتصار هذا الترشيح على الرهبان^(١). وأن للمطران العام الحق في الترشيح الكرمي البابوي أسوة بأبي الإصلاح. ولكن المؤرخين القبط أجمعوا على أنه لم يرسم مطراناً عاماً إلا تهدئة لعباس باشا وأنه كان قصاً فقط أيام تزكيته فهو أقيم مطراناً عاماً على الكرمي عينه الذي تقلد رياسته. لهذا رأيت إثبات التزكية التي كتبها له المطارنة وهي:

هذه تزكية أينا القمص داود المنتخب أن يصير بطريرك على خلافة مار مرقس الرسول بمدينة الاسكندرية والنوبة والحبشة والخمس مدن الغربية.

بسم الله الواحد الأب والإبن والروح القدس الثالوث المقدس المساوي الغير مفترق بلاهوت واحد. هذا هو الأنا نحن معشر المسيحيين الأرثوذكسين. نتوكل عليه إلى النفس الأخير. ونرسل له إلى فوق التمجيد في الأعلى كل امتلايحة الله الجامعة الرسولية. وكل الأرثوذكسين المجتمعين. من الأساقفة الفضلا والقمامنة والقسوس معاً. والشمامنة وكل الشعب المحب للمسيح الذي بكورة مصر. عندما

(١) راجع ج ١ من هذا الكتاب ص ١٧١ فقرة ١٥٥ وص ٣٢٢ - ٣٢٣ فقرة ٤٢٤، ج ٢ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ فقرة ٤٨٠ - ٤٨١ وص ٣٩٩ فقرة ٥٠٥.

لحقنا اليتم ووجع لقلب . عندما أكل سيرة أينا الطوباني رئيس الأساقفة الفاضل
أنا بطرس . وتتيح هذا التمسك بالفضائل . الذي قال جميع المواعيد المقدسة .
صاحب الذكر الحسن ... ومضى إلى الله الذي أحبه . وسمع من الله ذلك الصوت
المملو فرحاً . القائل نعماً أيها العبد الصالح الأمين . ادخل إلى فرح سيدك . ولما
تيتنا من أبوتته . وصارت كنايس الله المقدسة أرامل . هذا الذي كان يرطام
بتعاليمه . وبهذا صرنا في جهد واهتمام عظيم كنا . وسألنا الله أن يظهر لنا من هو
مستحق لهذه الرياسة الكهنوتية العظيمة . ليرعانا في طريق الرب ويرشدنا إلى مينا
البيعة المقدسة . وإن كنا طرفين بمحبة الأبوية التي للمدينة المحبة للمسيح الاسكندرية .
وكل كورة مصر . وطيب قلبهم . وليس يريدو أن يصيرو أيتاماً . إلى زمان بعيد .
فلذا اجتهدنا أن نكمل عمل الله . وطلبنا إلى الثالوث المقدس بقلب نقي وأمانة
مستقيمة لكي يكشف لنا من هو مستوجب لهذه الوساطة . لتقدمه على هذه الدرجة
التي لرتبة زياسة الكهنوت . فبمنحة علوية وفعل الروح القدس . واتفاق منا كنا
وطيب قلب . كشف لنا أن ننظر إلى أينا البكر الطاهر القمص داود المدعو
كيرلص الجزيل العبادة لله رئيس دير أبونا الأب البار العظيم أنطونيوس سابق
أب جميع الرهبان بجبل العربة . واختارناه لنا أن يصير رئيس أساقفة على الكرسي
الرسولي . الذي للسليح مرقس الإنجيلي ناظر الإله بالمدينة العظمى الاسكندرية .
وكل كورة مصر ونجومها . لأنه رجل عابد لله . مزيناً بالفهم . محب للفريبا . معلماً
نقياً . ومجتهداً على صدق الإنجيل . وأقناه راسا المرعاة ورئيس أساقفة . ولقوام
واعتدال كنايس الله المقدسة . ومختصاً لانفسنا . لكي يرعانا بكل الرأفة والوداعة .
لكي نحن أيضاً نرسل إلى فرق التبشير والشكر . ونرفع إلى الذي أحسن إلينا
مخلصنا يسوع المسيح . إلى الأبد آمين .

ونحن الأساقفة المجتمعين . سطرنا هذه التزكية . وشهدنا فيها . وكل الذين

اجتمعوا معنا بحمين الله السكينة الفضلا . ومحبين الزهد الرهبان . وكل الشعب المهب
للمسيح الذي للمدينة العظمى الاسكندرية وما يليها مجدأ و اكراما للآب والابن
والروح القدس . الآن وكل آوان وإلى دهر الدهارين آمين .

د تحرير آفي يوم الاحد الثامن والعشرون من شهر بشنس سنة ١٥٧٠

موافق ٤ حزيران سنة ١٨٥٤ الموافق إلى الاحد السادس من الحنين .

أنا ابرآم	أنا سرا بامول	أنا مكار يوس
أسقف كرسى اورشليم	أسقف كرسى أسبوط	أسقف كرسى أسبوط
وما بنبها ارتضيت	ارتضيت بهذه التزكية	ارتضيت بهذه التزكية
بهذه التزكية كما كتبت	كما كتبت	كما كتبت
(ختم)	(ختم)	(ختم)

أنا أطا سوس	أنا با كوموس	أنا ابرآم
أسقف كرسى منفلوط	أسقف المنبا والأشمونين	أسقف كرسى قوص وفنا
ارتضيت بهذه التزكية	ارتضيت بهذه التزكية	ارتضيت بهذه التزكية
كما كتبت	كما كتبت	كما كتبت
(ختم)	(ختم)	(ختم)

أنا أسقف	أنا اثنا سبوس	أنا يوساب
أسقف البنبا والفيوم	أسقف أبو نج	أسقف جرجا واخميم
ارتضيت بهذه التزكية	ارتضيت بهذه التزكية	ارتضيت بهذه التزكية
كما كتبت	كما كتبت	كما كتبت
(ختم)	(ختم)	(ختم)

أنا ميخائيل	أنا القمص عبد القدوس	أنا القمص يوحنا	أنا القمص جرجس
أسقف كرسى سنا	رئيس دير العدرى	رئيس دير العدرى	رئيس دير الست دميانة
ارتضيت بهذه التزكية	بالسريان ارتضيت بهذه التزكية	بالبراموس بنسبات	براوى الزهران
كما كتبت	التزكية كما كتبت	ارتضيت بهذه التزكية	ارتضيت بهذه التزكية
(ختم)	(ختم)	كما كتبت (ختم)	كما كتبت (ختم)

أنا القمص ميخائيل	أنا القمص جرجس	أنا الخوري بسقوبس ميخائيل
خادم ورئيس دير أبو مقار	من كهنة دير أبو مقار	وكهل كرسي صنبو
يجبل هيات ارتضيت بهذه	ارتضيت بهذه التزكية	ارتضيت بهذه التزكية
التزكية كما كتبت	كما كتبت	كما كتبت
(ختم)	(ختم)	(ختم) (١)

وهكذا نرى من توقيعات عشرة أساقفة وأربعة رؤساء أديرة وقص وخوري بسقوبس أن كيرلس الرابع وقت تزكيت الكرمي كان القمص داود الراهب بدير الأنبا أنطوني . وجهاده في ميادين العلم ورفع شأن الكهنوت والنهوض بالمرأة والوساطة بين حكام مصر والحبشة دليل حاسم على أن الراهب البسيط يستطيع أن يرتفع إلى مستوى المسئولية الباباوية مادام مستنداً إلى الروح القدس محتسباً حياً لشعبه . وقد أثبت تاريخ كنيستنا الطويل أنه ليس فريداً في جهاده ، وأن الكنيسة طالما أضفت عليهم القاباً تعبر بها عن عرفانها لمجهودهم . فليس الوعي الحقيقي للواجب نتيجة لحياته في العالم ولا اختباراته كأسقف أو كطران بل هو مستند من مصدر النعمة الذي جعل من صيادي السمك رجالاتنا فتنا المسكونة ، ١٣٦ .

٢١٩ - وما أن وجد نفسه المشول الأول عن الشعب القبطي حتى وجه اهتمامه إلى نشر التعليم . ولكنه شاء في الوقت عينه أن يوثق الصلة بينه وبين أبنائه . فوضع نصب عينيه وجوب افتتاح معهد هلي يستضيء بنوره الشباب . ولدى جعل هذا المعهد حقيقة واقعة لها مكانة في قلوب الشعب نشر عليهم طرس البركة الوارد نصه فيما يلي :

(١) مخطوطة رقم ٥٠ تاريخ مخطوطة بمكتبة المتحف القبطي تتضمن سيرة أنبا باخوم أبي الفركة ، وقد جاءت هذه التزكية في آخرها ، ومخطوطة ١٨٤ مكونة من قسمين يتضمن أحدهما صورة لتزكية جنبها .

(٢) كذلك أثبت تاريخ كنيستنا القبطية أنه في المرات الشاذة التي احتل فيها طران أو أسقف الكرسي البابوي لم يرتفع أي منهم إلى المستوى الشاهق الذي بلغه الباباوات الذين هم من الدير مباشرة مع أنهم كانوا من الأباء المتأخرين أيام أن انتقلوا بإيثاريتهم الأصبية . أما كلمة «فتنا المسكونة» فتعبر عن قوة الكرازة ورد في سفر الأعمال ١٧ : ٦ .

• البركة الكاملة والنعمة العاملة الشاملة إلى حضرات الابنا المباركين والآجباء
الطامنين الأراخنة والمعلمين والشمامسة المكرمين وأرباب الصنایع المحترمين وجميع
الشعب المحب لله الدينيين الأبرموذكسين بارك الله عليهم بكل البركات السماوية
الحالة على رسله وأنبيائه وصانعي وصاياه في كل جيل وحين . بشفاعة الدائمة
البتولية ومارمرقس الكاروز بالديار المصرية . آمين .

• بعد تجديد البركات الروحانية عليهم واهداء مزيد السلام الروحاني لديهم .
نعلمهم أنه لما كان الأمر الواجب اكتساب المعارف والفنون وقراءة الكتب
المقدسة ومعرفة قواعد الديانة وإدراك معرفة الآلسن المستعملة ببلاغة الألفاظ
وعذوبة البيان كان ذلك من أهم أمر وأوجب مهم إذ أن به أولاً يحصل التمدن
وانتظام حدود الانسانية . وقد تصرّح عن ذلك في الكتب المقدسة نورد لكم
بعضها على سبيل التذكيرة لاني أنا أعلم انكم بها خبيرون وهو بما جاء في الأحصاح
السادس من سفر تثنية الاشرع قوله تعالى : • وليكن هذا الكلام الذي أنا
أوصيك به اليوم في قلبك وقصه على بنيك وتكلم به إذا جلست في بيتك وإذا
مشيت في الطريق وإذا نمت وإذا أقت واعقده علامة على يديك ويكون عصائب
بين عينيك واكتبه على أسقفه بيتك وعلى أبوابك .

• وقوله تعالى ليشوع بن نون هكذا كما كتب في بدء سفره : • لا يبرح
سفر هذه السنة عن فيك لكن ادرسه الليل والنهار لتحفظ وتعمل جميع ما كتب
فيه حينئذ تفلح بطريقك وتتفطن بها .

• وجمع ذلك صاحب التريتل بقوله في مزمور ١١٨ • سراج لرجلي هو
ناموسك ونور لسبيلي . • وقد أعطى التطويب للرجل الذي يتلو ناموس الرب
ووصاياه ليلاً ونهاراً وشبهه بالشجرة المفروسة على مجاري الأنهار .

• وتأملوا أيضاً وصية الرسول مار بولس لتلميذه تيموثيوس حين كتب له برسائه الثانية فصل ٣ هكذا يقول له : فاثبت أنت على ما تعلمت واثمنتت به فقد علمت من تعلمت وأنت منذ صبائك تعلمت الأسفار المقدسة التي تقدر أن تحمك للخلاص بالإيمان الذي يبسوع المسيح إن كل الكتاب أوحى به من قبل الله مفيد للتعليم والتوبيخ والتقويم وللنأديب بالبر لكي يكون رجل الله كاملاً ومستعداً لكل عمل صالح .

• فإذا فهمت هذه الأقاويل الإلهية : أظن أنكم تشرفون إلى ما أنا شارح فيه لمنفعة أولاد الكنيسة بإستنادي على قوله تعالى بإنجيله المقدس : • فقتشوا الكتب فإنكم تظنون أن لكم فيها حياة الأبد فهي تشهد من أجلي . • فإن كان كذلك فنواظب عليها بمداومة القراءة والدرس فيها كما وقد علم ذلك بولس الرسول لتلميذه تيموثيوس كما جاء برسائه الأولى ص ٤ هكذا يقول له : واظب على القراءة إلى حين قدومي وعلى الموعدة وعلى التعليم وادرس هذه الأشياء وتشاغل بها لكي يكون أقبالك ظاهراً لكل أحد .

• وعلى الجملة فأقول بما أن هذا الأمر مستحب لديكم جداً حينئذ صار التسارع إليه واجباً لتأملوا في انتظامه جميع طوائف المسيحيين الذين اتبعوا هذه الأقوال السابق ايضاحها لبنيوتكم فأنشأوا مدارس ومكاتب حاوية معرفة الآلسن ودقائق غوامضها وربوا أطفالهم بحسن التربية وأدبهم أحسن التأديب حتى بلغوا وبرعوا ليس في لغاتهم المولودين فيها فقط والخاصة بهم بل واكتسبوا الآلسن الغريبة أيضاً التي لم تسكن لهم عادة بمعرفتها ولا كان يظن فيهم النطق بحرف منها عن كونهم بلغوا النباية في المنطق والقراءة والكتابة كما هو ظاهر للعيان .

• وعدا عن تعليم الأطفال فإن المذطور أن أرباب الآلسن واللغات الأعجمية

قد برعوا في معرفة اللسان القبطي الذي لا حاجة لهم فيه وكذا اللسان العربي نطقاً ،
وكتابة وقراءة حتى أن اللسان القبطي قد آل بنسيان معرفته بحيث اتضح رسمه
والدرس بالكلية من أهله وصار مجرد تسمية بلا فاعلية حتى أن القراءة الضرورية
المتعملة بالكنائس لا يعرف معناها أحد ولا مفهوميها والذي يقرأ لا يفهم
ما يقول . ولولا أن اللسان العربي قد وضع في الكنائس ترجيحاً له لأجل مساعدة
المعرفة للشعب لكان يتم علينا قول الرسول : « إن الذي لا يؤمن إذا دخل البس
يقول إنكم قد جنتم وكيف يقال على بركتك آمين . »

« ويأيت هذا اللسان العربي الدارج بين عامة شعبنا كانوا يتفقون به جيداً
 ويفهمون قواعده العربية ، فأظن ولا حتى معاني ألفاظه وذلك ناشئ من كون
أن الأطفال عندما يلبثون السن اللازم لاكتساب فوائد التعليم يسلمهم والدوم
إلى عرفاء عواجز النظر يعلمونهم القراءة غيباً بالكلام المستهين والألفاظ المحرفة
ويدعوا الأطفال يحفظون بعضاً من المزامير بغير معرفة القواعد ولا المعنى
فيخرجونهم جهلة في أقصى الجهل حتى لحدود الرئيس والمرؤوس وبالْحَقِيقَةِ يتم
قول النبي عاموس القائل . « ها تأتي أيام يقول الرب وأرسل الجوع إلى الأرض
لا جوع للخبز ولا عطش للماء بل لاستماع كلام الرب . » وآخر قال : « جهلوا
العلم والمعرفة ولا الرئيس يرشد ولا المرؤوس يسترشد . » وإن أصل المعرفة
جهلها فقد بردت حرارة الإيمان وبعد التمدد عن أهله ولعله يتم قوله تعالى :
« من كثرة الإثم تبرد المحبة من كثيرين . »

« وحيث أنه بنعمة الله صرت إلى ما أنا عليه مؤتمناً وعبداً ليسوع المسيح
مدعوا مطراناً خادماً للكراسة المرقسية مترجياً من مراحمه الفائقة الكمال أن
يوفق لي ما يرضاه ويؤهلني للقيام بفرائض هذه الخدمة التي هي أنتم معشر الذين

يؤمنون به حتى أجد لي دالة قدام منبره المرهوب المخوف قالوا ها أنا والبنون
الذين أعطانيهم الرب . .

وإذا كان فرض واجب على مباشرة التعليم والقيام بالسعي فيما يوجب
انتظام العامة والحث على معرفة أصول الديانة وقواعدها وكان أقصى الأمل
الشروع في إيجاد عمل للقراءة والتعليم وقد عزمت بنعمة الله أن أشمر عن ساعد
الجد كما هو من الواجبات على بحسب ما انتدبت إليه بمراحه أن أكل قصدي
باعتدادي على العناية الربانية المؤهلة إلى كل عمل صالح وهي إرادته تعالى ومساعدة
أولادنا شجب الله المختار حبي رأيت منهم التلهف لإيجاده والمسارة لانجاز
ولاج لي من حسن ذمتهم ونقاوة طويتهم استعنائهم على ذلك وميلهم إليه بكل
رغبة ولشاط واختصاصهم بصالح العمل وأحسن التقويم . وقد رأيتهم دائماً
يلهبون بهذا الأمر وكان هذا المقصد جل رغبتنا فقد توفق إيجاد بعض خرابات
دائرة من تعلقات الوقت تجاه دار البطاركية وأستصوب أن يصير انشاؤها عمل
مركب من كم أودة يقيم فيها المعلمون والصبيا ينقلون منها من مرتبة إلى أخرى
وهي من أول مرتبة المبتدیان إلى ما يوفق به الرحمن من التعليم بحسب القدرة والامكان .

ولغاية الحرص قد بلغت مقايمة تكاليف عمارة الجهة المذكورة بما يناهز
المائة وخمسين ألف قرش (خمسون كياً) . ولما كان جهدي قصير في إيجاد هذا
القدر نظراً لضيق الوقت وضعف الحال صار لي أمل في مرة الأبناء المباركين أن
يدروا بالاسعاف على قدر الامكان والطاقة للمساعدة في إنشاء هذا العمل . وما أنا
مساعد بقدر جهدي وطاقتي ومباشر العمل بنفسى وبعد اتمام البناء بنفق يقدرني
الله على إيجاد الكتب والادوات وما يلزم للإدارة بدون تكليف أحد وبصير
ترتيب معلمين للتعليم كما الجارى عند باقى طوائف المسيحيين . وبمونة الله تعالى

يصير الانتظام التام حتى يضرب بذلك المثل ويشاد ذكره بين الملا .
وحيث أن مرجع الأمر إلى مساعدة أولادى الأرثوذكسين المباركين
حفظهم الله يمينه الحصين وجعلهم من الفائزين المقربين فكل ما سمعت نفعه
بشئ . وجاءت همته به على قدر إمكانه يقدمه لمهارة تلك الجهة ابتغاء لمرضاة الله
تعالى لمنفعة عامة الشعب المسيحي ولاصلاح خير العامة والخاصة معتقداً ان الله
يعوض عنها عوض الفانيات بالباقيات والأرضيات بالسماويات . ويكون ذلك
لهم ذخيرة في المظال الأبدية . الرب الإله ينمبهم ويكثرهم ويدر أرزاقهم وينشئ
أطفالهم نشواً حسناً ويكثر نسلهم ويقر أعينهم بهم ويعمر أوطانهم . والذي
ليست له ذرية الرب الإله يعطيه النسل الطاهر ويجود عليه بالزورج المبارك كما جاد
باسحق لابراهيم ويوحنا المعمدان لذكرياً . ويملا بيوتهم وعنازتهم ومعاصمهم
من البركات الروحانية ويعطيهم همراً طويلاً وحياة هنية وآخرة ظاهرة مرضية
ويجعلهم من الخراف اليمينية الذين يتكثرون في الأحضان الابراهيمية في اورشليم
السماوية ويسمعهم الصوت الفرح المملوء فرحاً وحبوراً : « تعالوا يا مباركى أبى
رثوا الملك المعد لكم قبل انشاء العالم ، بشفاة العذراء الطاهرة البتول أم النور
وناظر الإله مار مرقس الإنجيلي الرسول وكافة الرسل والشهداء والقديسين .
كونوا مباركين محالين من فم الثالوث المقدس والآباء اصحاب المجامع المقدسة
ومن فى أنا الحقير كيرلس . والله الشكر دائماً سرمدياً . آمين » .

وقد افتتح قائمة الاكتاب بمبلغ خمسة آلاف قرش ووقع تحته بامضائه

(١) مخطوطة رقم ٢٧١٣ محفوظة بالمتحف القبطى ، وهي مكتوبة على ورق كتان
وتتألف من ورقين : الورقة الأولى لم يجد واضحاً عليها غير ستة سطور والثانية ثلاثة عشر
سطراً وذلك لتسرب المياه إليها ومن نعمة الله أن بعض المؤرخين قد نجح في تدوينها قبل ذلك
- راجع كتاب كامل صالح نخبة « سلسلة ... » الحلقة الخامسة ص ٢٠٢ - ٢٠٧ .

الكريم ، وثبرع كل من أنبا أبرام مطران القدس ، وأنبا منرا بامون مطران
المنوفية بمبلغ ألفين وخمسمائة قرش . وتجاوبت القلوب لهذا النداء الأبوي فتقدم
أربعون من الأراخنة : كل بما يستطيع تقديمه . فبلغ ما قدموه أربعة وأربعين
ألفاً ومائة وستة قروش . وعلى ذلك اشترى أبو الاصلاح عدداً من البيوت
الواقعة عن شمال الكنيسة المرقسية التي كان إبراهيم الجوهري قد حصل على الإذن
ببنائها . ثم هدم هذه البيوت وبني مكانها المدرسة الكبرى التي مازالت بنعمة الله
قائمة إلى الآن ملاصقة لكنيسة الشهيد أسطفانوس المجاورة للمرقسية . ولما أتم بناءها
فتحتها للجميع بلا استثناء . للقبط والمسلمين واليهود . وجعل التعليم بها مجاناً بالإضافة
إلى صرف الكتب والأدوات المدرسية - فسبق الحكومات في مختلف البلاد في
هذا المضمار . ولشدة عنايته بالمدرسة كان يتفقد سير العمل فيها يومياً . وأحياناً
كان يبتى في الفصل الواحد مصغياً إلى المعلم وهو يشرح الدرس . فإذا ما انتهت
الحصّة قال للتلاميذ : « لقد استفدت معكم اليوم فائدة لم أكن أعرفها من قبل » .
ولأنه كان يسمى نحو الكمال فكان إذا ما أتاه زائر من طبقة المتعلمين أخذه لزيارة
المدرسة وسأله بمد ذلك عن ملاحظاته عنها . ولقد شهد للمدرسة صاحب كتاب
« مصباح السارى ونزهة القارى » فقال : « وفي حارة الاقباط مدرسة عظيمة
يعلمون فيها اللسان القبطى القديم والتركى والإيطاليانى والفرنساوى والانكليزى
والعربى . وهم يقبلون فيها من جميع الطوائف وينفقون على التلاميذ من مال
المدرسة . وهذه بناها البطررك كيرلس القبطى وأنفق عليها نحو ستمائة ألف قرش .
وكل هذا بخلاف ما نعمده في بلادنا من الإكائروس وأوجه الشهب » (١) .

ولما كان هدف البابا كيرلس هو تربية الشخصية ، ولما كان لا ينجس في الحق

(١) هذا الكتاب لابراهيم أفندى الطيب طبعه في بيروت سنة ١٢٨٢ هـ ، والجل المنتبسة
وردت فيه عند الحديث عن مصر ومدارسها - توفى في ألكاروس . . ج ٢ المايش على ص ١٣١ .

لومة لاثم ، فقد حدث أن جاء إليه بعض الرجال يشتكون من أن معلماً حارب ولداً من أولادهم غير مراعى وجاهة أبيه ومكانته الاجتماعية . فنادى البابا البصير على تلميذه الخاص وأمره أن يحبس أولاد كل الموجودين في حضرته إلى أن يدفع كل منهم ستين كيساً لأنه كان يصرف على كل تلميذ كيساً شهرياً (أى خمسة جنيهات) . وأصاب الرجال ذهول فقال لهم : « إن أولادكم رجال المستقبل ومشيدو الوطن فيجب أن يكونوا الخيرة الصالحة التي تحضر المعين كله ، . وعندما قالوا بلسان واحد : « لسنا نعرف لأنفسنا أولاداً . فهم أولادك ولك الحق أن تصرف فيهم تبعاً لحسنتك » .

وكانت هذه المهمة التي بذلها البابا الاسكندري في سبيل التعليم سبباً في اقتناع من كانوا خصومه إبان تزكيتهم للبابوية ، فانضموا إلى مرديته وتجمع رأيهم على أنه بالفعل أولى من يستحق هذه الكرامة الكهنوتية العليا . فأقيمت حفلة التنصيب بعد سنة وشهرين من رسامته مطراناً عاماً .

ومن نعمة الله أن سعيد باشا أصبح والياً على مصر بعد رسامة الأنبا كيرلس بشهر واحد - ذلك لأنه أطلق حرية العبادة من جديد بعد أن كان عباس باشا قد تشدد مع القبط ومنعهم من بناء كنائس جديدة بل منعهم حتى من تجديد الكنائس القديمة . على أن سعيد باشا ساهم في إضمار الروح القومية لأنه ألف ديوان المدارس كما ألف المدارس الخصوصية ولم يبق منها غير مدرسة الطب والمدرسة الحربية . وفي الوقت عينه شجع الأجانب وشمل مدارسهم برعايته وأغدق عليهم المال والأراضي (١) .

٢٢٠ - ثم رأى البابا المرقسي أن تعليم الولد دون البنت سيقدم هوة فكرية سيخية بين الاثنين مما يؤدي إلى سوء من عدم التكافؤ بين الزوجين . وأدرك في

(١) تاريخ مصر . . . لأحمد عبد الكريم عزت من ٣٥٠ .

الوقت عينه أن البنت الجامعة القابعة في الظلام لن تكون أما تحسن تربية أولادها. وبما أنها المرشد الأول والموجه الأول للطفل وجب تعليمها . وبهذا التطلع نحو مستقبل العائلات افتتح مدرسة للبنات في حارة السقاين : مدرسة من النوع الحديث الذي يمكن وصفه بالمدرسة . وكالمعتاد شيّد كنيسة تحتضن المدرسة لينشأ البنات في كنف الرعاية الروحية فلا تقتطف عمرهن فقط بل تنمو أرواحهن كذلك . وكما فتحت مدرسة الأولاد للجميع بلا استثناء هكذا فتحت مدرسة البنات للقبط والمسلمين واليهود سواءً بسواء . فهو الراعي والآب ومن واجبات الرعاية الاهتمام بكل الشعب : يسعى في طلب الجميع ويحملهم على منكمييه فرحاً . ومن حنان الأبوة العطف على الأبناء والبنات بل إن البنت أشد حاجة إلى هذا العطف لما ستجعله فيما بعد من أعباء .

٢٢١ - ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن الأنبا كيرلس في عنايته بالبنات استند إلى ما قاله آباء الكنيسة القبطية وعلماءها في مختلف الأجيال . فأكليمنطس الاسكندري^(١) قال : « إن الجنس أمر عرضي يزول بزوال هذا الجسد . والجزء الأبدى ليس لذكر أو لآنى بل للإنسان لحسب إذ تزول الرغبة الجنسية التي تفرق بين الناس . ومن البديهي أن الذين يتشاركون الحياة لهم نعمة مشتركة وخلص مشترك » .

أما ابن كاتب قيصر^(٢) فقد قال في تفسيره لرسالة كورنتوس الأولى : « قوله

(١) من أعلام المدرسة الاسكندرية عاش في أواخر القرن الميلادي الثاني - راجع ج ١ من هذا الكتاب الفصل المنون « مدرسة الاسكندرية » .

(٢) نال أبوه لقب « الأمير علم الدين » لما كان يشتمع به من نفوذ سياسي . أما هو فانتقل بالكتابة من اللغة القبطية كما وجه انتباهه أيضاً نحو العلوم الديبية فوضع تصوراً للإنجيل متى ، أمثال الرسل ، رسائل بولس والرسل الآخرين ، ثم سفر الرؤيا - راجع ج ٣ ص ٢٤١ - ٢٤٢ من هذا الكتاب .

لكن ليس الرجل دون المرأة ولا المرأة دون الرجل في الرب. أى أنها متساويان أمام الله وليس أحدهما أشرف من الآخر... وقوله المرأة مجد بعلمها^(١) لما عظم الرجل بسكونه صورة الله خشى أن يظن أن بين الرجل والمرأة فرقا في الجوهر فتلافى ذلك بأن جعلها مجد بعلمها أى جماله وشرفه إذ هى معينة له في الحياة وقسماها. وهكذا نجد أن آباء الكنيسة وأعلامها قد أدركوا المعاني العميقة الكامنة ضمن آيات الأسفار الإلهية فأعلنوها لأولادهم لتثبيتها في القلوب ومن دواعى اعتزازنا أنهم بيّنوا لنا قيمة المرأة في نظر خالقها من الآيات المقدسة ذاتها. وعلى هذا المنهج سار أبو الإصلاح مستهدفاً النهوض بالمرأة لتكون جديره ببنوتها لله. والمدرسة التى افتتحها لبنات تعتبر أول مدرسة من نوعها في العصر الحديث. وقد عين حنا القسيس ليشرّف عليها ويقدم لها كل ما تحتاج إليه من المعدات والأدوات. وما يجدر ذكره أن آباء البنات ثاروا على البابا في خطوته الجريرة إلى حد أنهم تظلموا للوالى (سميد باشا). والسكن الوالى ساندته^(٢).

٢٢٢ - وبما أنه وجه اهتماما خاصاً إلى دراسة اللغات فقد عنى عناية كبرى باللغة القبطية وعين لتدريسها عريان جرجس مفتاح الذى كان يجيد معرفتها. ولقد كان البابا في هذا المضمار قدوة فعالة إذ قد تعلم اللغة القبطية هو أيضاً. صحيح أنه كان يعرفها ويقراها من قبل، ولكن معرفته بها كانت قاصرة على

(١) أمثال ٢٢ : ٤ .

(٢) جاء في الحفظ النوفيقية لعل باشا مبارك مايلي : ه ولما وجد البطريرك الكبير الشهير كيرلوس مندهى المدرسة القبطية بالأزبكية والكنيسة الكبرى بها ما عليه أبناء الأمانة ما كانوا حارة السفاين من الصعوبة لعدم وجود كنيسة بتلك الجهة سمى بجده واجتهاده وحرص وجهاً الأمانة على شكايته الحال للدقام الخديوى وطلب الرخصة ببناء كنيسة بها فصدر أمر سام من محمد سميد باشا في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٥٤ لمحافظة مصر باجابة التماس الأمانة ببناء كنيسة بحارة السقايز بأحد أماكن وقف الأقباط... ومن نعم الله أن الكنيسة والمدرسة بتلك الجهة ما زالتا قائمتين تتم في كل منهما العمل الذى شيدت من أجله.

الصلوات الكنسية شأنه في ذلك شأن كل أولاد القبط الذين تعلموا في الكنائس .
أما في المدارس التي افتتحتها فقد طالب التلاميذ بأن يتعلموها كما يتعلموا غيرها
من اللغات - أي بدراسة قواعدها اللغوية والنحوية . وبدراسة علمي هذا المنهج
ساعد على استكمال الأبحاث التاريخية لأن اللغة القبطية هي في الواقع لغة قدماء
المصريين التي كانوا يكتبونها بالصور الهيروغليفية فأصبح أبناءهم يكتبونها
بالحروف اليونانية مع إضافة الحروف السبعة الأخيرة التي كانت معروفة في اللغة
المصرية ولا وجود لها ضمن اليونانية .

٢٢٣ - وتعزيزاً لدراسة القبطية اختار القمص تكللا (أحد كهنة الكنيسة

المرقسية بالازبكية) ليعلم الأحسان والمردات الكنسية للتلاميذ ذوي الأصوات
الرخيعة كي تصعد الصلوات إلى المرش الإلهي في نعمات متناصفة جذابة . كذلك
رأى أن يرسم هؤلاء المرتلين شمامسة ويجعل لهم زياً خاصاً . فكانت جهوده في
هذا المضمار سبباً في تشجيع الأهالي على إرسال أولادهم للمدارس التي افتتحتها كما
جعلتهم يواظبون على حضور الصلوات الكنسية ليستمعوا إلى أولادهم وهم
يتربون بالأحسان .

٢٢٤ - على أن أستطع جهد بذله في سبيل التوضيح بشعبه هو شرائه مطبعة

كانت الثانية التي تصل بلادنا ، لم تسبقها غير المطبعة الأميرية التي كان قد اشتراها
محمد علي باشا . فكلف الأنبا كيرلس الرابع الخواجا (١) رفلة عبيد الرومي
الأرثوذكسي بشرائها . وفي الفترة ما بين تكليفه ووصول المطبعة فعلا نجح في

(١) كان اللقب الشائع استعماله للفظ هو لقب « المعلم » ، ولكننا ابتداء من هذه
الفترة نجد كلمة « خواجا » قد حلت محلها . فأصبحت نطاق على أي قبلي لم يحصل على رتبة
حكومية رسمية ، والرتب كانت آنذاك : أفندي ، بك ، باشا . وبما لا شك فيه أن استبدال
« معلم » « بخواجا » كان من تأثر الفرنجة .

استصدار الأمر من محمد سعيد باشا بقبول أربعة من الشبان القبط الأذكياء في المطبعة الأميرية ليتدربوا على العمل ويكونوا على استعداد لتشغيل المطبعة الجديدة. كذلك كان هناك تعهد ما بين البطريركية وقلم المطبوعات الأميرية لتجهيز الحروف وطبع الكتب. وما زالت بالمكتبة البابوية بالقاهرة أربعة خطابات تؤيد هذا التعهد وهي :

ناظر قلم الروضة والمطبوعات رفعتلو بك

المائة واثنين وأربعون رطل حروف الميينين أعلاه البالغ مقدارهم بالاقعة إحدى وخمسين وربع لازمين لاشغال الكتب الجارية طبعتها الحروف بالمدارس وحيث أن الأمر كما ذكر تؤمل تدارك تلك الاصناف من محل وجودهم أفندم .

رئيس مطبعة الحروف
موسى شرف (ختم)

عموم مكاتب أهلية وكيلي عز قلو أفندم حضر تلى .
الاصناف الموضحة يمينه لزومها ضروري للطبعة ومقتضى الآن تداركها فتؤمل صدور الأمر بما يقتضى أفندم .
ناظر مطبوعات وروضة

على فهمي (ختم)

٢٧ الحجة سنة ١٢٩٢ هـ .

جناب ناظر بطريخة الأقباط أنار مؤذكس .
كنتعهد جنابكم يلزم أن توردوا بمطبعة المدارس الخمسون أقة رصاص السابق التحرير لجنابكم بتوريدا مع الواحد وخمسون أقة وكسور الواردين في افادة
حاضرة ناظرها هذه الرقيمة ٢٧ الحجة سنة ١٢٩٢ هـ وبموجب مند الاستلام
تصير المحاسبة وفقاً للأصول الجارية .
ناظر معارف وأوقاف م .

٢٩ الحجة سنة ١٢٩٢ هـ .

ولادنا الخواجه رزق جرجس

اطلاع حضرتكم على شرح سعادة ناظر المعارف والأوقاف باطنه رقم ٢٦

الحجة سنة ١٢٩٢ نمرة ٤٣ سايرة كاف وبمعرفة جنابكم بحري المفتضى لما هو

لازم ودمتم ؟

بطريرك الأقباط (١)

وهذه الخطابات تدل على أن البابا الاسكندري وضع الخطبة اللازمة لسير
المطبعة حالما تصل ، وهي تدل أيضاً على تلهفه لنشر العلم . لأن الكتب المخطوطة
تستلزم الوقت الطويل وتمنحها غالباً بالاضافة إلى ما قد تحويه من أغلاط نتيجة
لجهل الناسخ أو لاماله .

ويوم أن وصلت الباخرة الحاملة للطبعة إلى ميناء الاسكندرية كان أبو
الاصلاح في دير الأنبا أنطوني فأرسل إلى وكيل البطريركية يطلب إليه استقبال
المطبعة استقبالا حافلا فيلبس الكهنه والثمامة ثيابهم الكهنوتية التي يرتدونها
وقت تأدية الشعائر المقدسة ويسرون أمامها وهم يترنمون بالألحان (٢) . ومرة
أخرى ثار عليه بعض أبنائه زاعمين أن قيل هذا العمل بدعة . ولما هاد من الدير

(١) توفيق أسكاروس . . . ٢ ج . ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٢) وقد حلفت مجلة الهلال على هذا الموضوع بقولها : « والاحتفال بالمطابع الجديدة
دليل على احترام العلم والرغبة في احرازه . وأول احتفال جرى من هذا النوع في الديار المصرية
احتفال الأنبا كيرلس الرابع بطريرك الأقباط الارثوذكس المتوفى سنة ١٨٦١ وهو من
أكبر رجال الاصلاح من طريق القويم . فإنه أول من أنشأ مدرسة قبطية ومطبعة وطنية ولم
يكن في مصر غير المطبعة الاميرية فبعث إلى أوروبا باستحضار مطبعة فلما علم بوصولها إلى ميناء
الاسكندرية وكان هو في الدير بالجبل بعث إلى وكيل البطريركية بمعهده بأمرة باستقبال
تلك الادوات عند وصولها إلى القاهرة باحتفال رسمي يقوم فيه الثمامة بالملابس الرسمية
المنتهى بالخدمة الكنائسية يرتلون التراتيل الروحية . وكان لاستقبال تلك المطبعة احتفال
تحدث الناس به زماناً لفرايت » . توفيق أسكاروس . . . ٢ ج . هامش ص ٨٩ - ٩٠ .

أعربوا له عن رأيهم هذا . أجايم افوره : ولو كنت في الاسكندرية ساعة وصول المطبعة لرقت أمامها كما رقص داود قديماً أمام تابوت العهد^(١) . وإذا رأى الدهشة مرتسمة على وجوههم قال لهم : دلت أكرم آله من الحديد ولكني أكرم المعرفة التي ستنشر بواسطتها . فاقنعوا واعتذروا له عما بدر منهم .

٢٢٥ - ولما كان يستهدف بالمطبعة نشر الكتب بسرعة وكثرة ، فقد وجه

اهتمامه بعد ذلك إلى تنظيم المكتبة البابوية التي كان سلفه العظيم قد أنشأها . فأصدر أمره بمجرد كل الكتب التي كانت موجودة بها آنذاك واصلاح الناف منها ووضع كل صنف منها مع ما يضاهيه والصاق ورقة على كعب كل كتاب عليها اسمه واسم كاتبه . ثم اختار خزنة داخل القاعة الكبيرة بالفلاية البابوية ووضع بها ذوايب من الخشب مرتكئة إلى جهتيها القبليّة والبحريّة ، فرتب واحداً وعشرين دولاباً على هذا النحو^(٢) .

وعلى الرغم من نشاط البابا المرقسي وعمته في نشر العلم بمختلف الوسائل فقد

افتتح الكاثوليك مدرسة خاضعة لرعاية الرهبان الفرنسيين^(٣) . فاعترضهم آنذاك في فتح هذه المدرسة إن لم يكن غير السعي وراء اقتناص أولاد القبط ومناصفة راعيهم الساهر عليهم ؟ ومن الواجب على كل قبطي أن يتعمق فيما قاله أندرو واطسن : كان سعيد أميراً طيباً مستنبهاً . . . ولم يأت وقت منذ ألف ومائتي عام أكثر ملامحة للعمل التبشيري . . . فهذا الأمير هو القديس الحامي للارسالية الأمريكية . . .^(٤)

(١) وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب ٢٥ صموئيل ٦ : ١٤ .

(٢) نولتي أسكاروس . . . ج ٢ ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٣) جرجس سلامة . . . ص ١٣ .

(٤) وايم سليمان : المكتبة القبطية نواجه الاستعمار والصهيونية ، حيث يورد نص

قول واطسن ، Andrew Watson " The American Mission in Egypt "

٢٢٦ - ولقد أدرك أبو الإصلاح في الوقت عينه أن الكامن الراعي لمسؤوليته الخادم للشعب هو دعامة الحياة الروحية . فكان يعقد اجتماعات أسبوعية يلتقي فيها بكهنة القاهرة ، يستمع إلى اقتراحاتهم واختياراتهم وشكاواهم ، ويناقشهم في العقيدة وفي الرعاية . فقد كان موقفاً بأن الإصلاح الشامل ينبغي أن يبدأ برجل الدين وينتهي إلى الطفل ، كما يبدأ بالطفل وينتهي إلى رجل الدين . فالإصلاح الحقيقي إذن يجب أن يسير في الاتجاهين معاً لا في اتجاه واحد لقد انتصر أبو الإصلاح القبطي للعلم ، العلم للولد وللبنت ثم العلم لرجل الدين . فكان جيلاً

" 1854 - 1896 " p . 833 where he says that " Saïd Pasha was the Patron Saint of the American Mission " .

وما يجدر ذكره أن سيد باشا هو الذي منع دلجس امتياز قناة السويس : منه له خلال رحلة صحراوية من غير تمجيس ولا تفكير . وقد علق دلجس نفسه بشيء من الصحرة على هذا الواقع فقال : « جمع سيد باشا قواد جنده وشاورم في الأمر ، ولما كانوا على استعداد لتقدير من يجرد وكوب الحبل ويقتز بجواده على الحواجز والحدائق أكثر من تقديرهم للرجل العالم المثقف انحازوا إلى جاني ، ولما عرض عليهم الباشا تقريرى عن المشروع بادروا إلى القول بأنه لا يصح أن يرفض طلب صديقه ، وكانت النتيجة أن منحت الباشا ذلك الامتياز العظيم » من كتاب دلجس « أصول قناة السويس » ص ١٥ . أوردها عبد الرحمن الراضى في كتابه « عصر اسماعيل » ج ١ ص ٦٠ . ولقد أسرف سيد باشا في التساهل مع صديقه الفرنسى حتى لقد خول للشركة التى ألفها نزايبا تجعلها تشارك الحكومة المصرية في حقوق ملكيتها العامة وسيادتها . ولقد شهد الاجاب أنفسهم بفداحة الثمن الذى دفعته مصر في حق القناة فيقول مسيو كوشيرى (Cochéris) الفرنسى مثلاً - « إن بدء الارتيبات المالية والتدخل الاوروبى المشنوم في شئون مصر يرجع في الحقيقة إلى سنة ١٨٥٤ وهى السنة التى منح فيها امتياز قناة السويس الى السيد دلجس » من كتابه « المركز الدولى لمصر والسودان » ص ٦٧ ، انظر أيضاً : عبد الرحمن الراضى (شرحه) ج ١ ص ٥١ - ٦٩ . ولقد أحس سيد باشا بعد ذلك بالارهاق والمصر فأخذ يتامل ويقول لللائمه ومواخذه : « إنما أعطيت الامتياز بلا ترول صدق وهو فرلسارى فخطبوه أو خاطبوا حكومتهم . أما أنا فلا أستطيع - حسب امتياز أعطيت » . من كتاب « تذكارات أر بين طاماً » لفردينان دلجس أوردده الياس الايوبى في كتابه « تاريخ مصر في عهد الخديوى اسماعيل باشا » ج ١ ص ٢٤٢ - فاشبه موقفه بموقف هيروودس حين أسس بقطع رأس يوحنا المعمدان ارضاء لطلبته التى رفضت أماءه ا (مرفس

ببطريك رومانى أن يرفع من قدر العلم ويعلى منارته ... وقال الرب يخاطب
السكينة على فم هوشع النبي قد هلك شعبي لعدم المعرفة . فيما أنك رفضت المعرفة
أرفضك أنا أيضاً فلا تكون لى كاهناً ...^(١) . وكان يركن فى توجيه المناقشات
الاسبوعية للسكينة إلى القمص جرجس ضبيع^(٢) خادم كنيسة دير الملاك البحرى
(بحدائق القبة) الذى كان متضلماً فى العلوم العقيدية وكتب كتاباً بعنوان
« المختصر فى تعليم دين المسيح المنتصر »^(٣) .

وما يجدر ذكره أن الانبا كيرلس كان صديقاً لكثير من علماء الأزهر
وللاستاذ الأكبر ، وكان يعقد حلقات مذاكرة ومناظرة علمية مع كبار العلماء
فى جو من الألفة والمحبة والسباحة والكرامة ، وكان السادة العلماء يبادلونه
حباً بحب^(٤) .

٢٢٧ - وبعد ذلك وجه انتباهه إلى الأوقاف وإدارة البطريكية فأنشأ لها
ديواناً . وعهد إلى المسئولين عن الأوقاف بمراجعة دخلها وخرجها وتقديم التقارير
عنها . وعين لرياسة هذا العمل إبراهيم أفندى خليل . وإلى جانب هذا العمل
الإدارى أنشأ قسماً يختص بالأعمال الدينية والشرعية تحت رعاية أحد السكينة
ورياسة مطران مصر . كذلك أمر بإنشاء سجلات لحصر جميع الأوقاف بها من
واقع الحجج الموجودة وأشرف بنفسه على هذا العمل .

(١) من خطاب دكتور وهيب عطالله (الآن نيافة الانبا أهر بنور يوس) لى حفل الذكرى
المنوبة الاولى لابى الاصلاح ص ٢٠ ، هوشع ٤ : ٦ .

(٢) هذا القمص والد لارخن معروف هو عنا بك جرجس ضبيع من رؤساء حسابات المالية
- توفيق أسكاروس ... ج ٢ ص ١٣٨ .

(٣) ترى من عنوان هذا الكتاب أنه كان من بين كهنة القبط (لا رؤساء كهنتهم فقط)
من اشتغل بتوضيح العقيدة لشعبه فهم جاهدوا على مختلف المستويات . وهنا يجب أن نذكر أن
ذاك الذى لا ينسى كأس ماء بارد لن يلقى تعب أولئك المجاهدين - بل إننا نرى تذكره
ايام فى هذه النهضة التى نعيشها الآن .

(٤) من خطاب عهد الحليم إلياس نصير فى حفل الذكرى المنوبة الأولى ص ٦٩ .

٢٢٨ - ثم حدث أن قام نزاع بين حكومة مصر وحكومة الحبشة على الحدود
الفاصلة بين الدولتين إذ كان سلطان مصر آنذاك يشمل القطر السوداني بأكمله .
فراى محمد سعيد باشا أن يوفد الأنبا كيرلس ليتفاهم مع النجاشى لما له من دالة
بوصفه الأب الروحى للأحباش وبالطبع ابى البابا المرنسى طلب الوالى زغم ادراكه
لوعورة السفر التى اختبرها حين سافر قبل بابويته . وكان سفره مفاجئة لولاده
إذ لم يعلموا به إلا عند قيامه . وقد جهز له سعيد باشا سفينة وأوفد معه اثنين من
الأغوات الترك . فكانت فرصة اتبرزها أبو الاصلاح المتطلع درماً إلى المعرفة
ليتمل منها اللغة التركية خلال السفر .

وكان بدوء الوالى سعيد إلى البابا كيرلس الرابع من أجل احلال العداقة بين
الحكومتين المصرية والحبشية محل العداة ، وتجنباً للشرب حرب بينها ، أمراً
طبيعياً يمشى تماماً مع السياسة التقليدية التى جرت عليها الحكومات المصرية من
قبل كما يتوافق مع الدور الذى لعبته الكنيسة القبطية وما زالت تؤديه بين
أبنائها المختلفين (١) .

٢٢٩ - ولقد كان الانجليز حاقدين عليه لانتصاره عليهم فى سفره الأول
لحبشته فراءوا أن ينتهزوا الفرصة ليقوموا برجل الله . فأوعزوا إلى سعيد باشا أن
يذهب على رأس جيشه إلى الخرطوم لان البابا قد ينضم إلى النجاشى فى مطالبه
لكونه من أبنائه . وفى الوقت عينه قالوا لثيودورس امبراطور الحبشة بأن
البابا إنما جاء لينخدر أعصابه ويهين الفرصة لسعيد باشا لان يحتل ما يريد اخذلاه
من الحدود الحبشية . وكان ثيودورس هذا رجلاً عنيفاً مندفعاً لا يعرف الاعتدال

(١) شرح زاهر رباح ص ٣٨ ، قارن بين هذه الوساطة وبين ابفاد الخليفة المستمل
الأنبا ميخائيل الرابع إلى النجاشى لتواضته فى أمر مياه النيل فى الربع الأخير من القرن الحادى
عشر - انظر ما جاء من هذا الموضوع فى ج ٣ من هذا الكتاب ص ١٢٦ - ١٢٧ .

في أي شيء . فهو حين سمع باقتراب الأنبيسا كيرلس من حدوده خرج لاستقباله في موكب حافل على مسيرة ثلاثة أيام من العاصمة . ثم دخل به إلى مملكته في هذا الموكب الوجيه ولم يسكد الأب البطريرك بفاتح الامبراطور في المهمة التي جاء من أجلها وهي ايقاف اعتداء الاحباش على الاملاك المصرية وتعيين الحدود بصفة نهائية حتى ابدى استعدادهم للاستجابة وحرر مشروع اتفاق بالصلح لتوقيع . وزاد على ذلك بأن طلب خبراء مصريين لصنع الاسلحة لجيشه (١) . ولكن ما أن سمع كلام الروشاة ووجد أن الجيش المصري قد وصل فعلا إلى الخرطوم حتى تطاير غضبه وقبض على البابا والقاه في سجن منفرد وأبعد عنه كل مرافقيه . بل لقد بلغ به الغضب أنه كان يريد أن يقتله . إلا أن الله تعالى أقام لصفيته من الملكة مدافعا ، فهي قد طلبت إلى زوجها أن يتحمل قائمة : « انتظر لنا كد من صحة هذا الكلام . فالرجل مسجون وهو تحت أمرك وبممكنك قتله في أي وقت . أما إن قتله ثم ثبت كذب هذه الأقوال فلن تستطيع اعادته إلى الحياة » . ووافقها شيوخ الملكة فانصاع ثيودورس لمشورتهم . ثم تمكنت الملكة أيضا أن تحصل على الإذن لرجل الله بالكتابة فأرسل من سجنه رسالة إلى محمد سعيد يرجو منه مغادرة الخرطوم لأنه نجح في وساطته (٢) . فسمع الوالي لطلب البابا وعاد بجيشه إلى القاهرة . وعند ذاك أدرك ثيودورس خطأه . وباندفاعه المعتاد ذهب إلى البابا حاسر الرأس حافي القدمين ، ثم سقط عند قدميه يقبلها ويطلب الصفح عما بدر منه . وفي الحال قبّل البابا رأس الملك النادم . ثم جرى إليها بورقة سجل فيها الامبراطور عهده بالحدود التي حددها أبو الاصلاح ووقع عليها وسلمها له وما أن أخذ البابا وثيقة العهد الملكي حتى استأذن في العودة . لحمله ثيودورس الهدايا

(١) من خطاب زاهر رياض في حفل الذكرى ... ص ٤١ .

(٢) لقد شابه كيرلس الرابع سيمه الأول الذي كتب من سجنه رسالة إلى ثيودورس يوس

الصغير ، أنظر ج ١ من هذا الكتاب الفصل المنون « جامود الدين » .

الثينة له ولعميد باشا وطلب منه البركة . ثم ارسل معه كاهنه الخاص ووزيراً
من وزرائه ليحملها في عرديتها لص الوثيقة بعد أن يوقع عليها سعيد باشا ووصل
أبو الاصلاح إلى القاهرة بعد غيابه عنها سنة ونصف . وامتلات القلوب فرحاً
بعودته فصار موكب من المكنة والشمامسة بملابسهم الكهنوتية رافعين الصليب
جهازاً يتبعهم العلمايون . وأقيمت الولائم ووفدت الوفود من مختلف الجهات
لتهنئته بسلامة العودة . وهكذا فشل الانجليز للمرة الثانية أمام صمود رجل الله
واخلاصه . ولكنهم ظلوا على حقدهم وظلوا على مناصبتهم العدا . فاحتشاروا
الباشا بما وصفوه له من مظاهر الترحيب والتبجيل التي أبداهما له الشعب . فاستدعاه
وسأله عن الموجب لرفع الصليب في الشوارع . اجابه بأن الاذن في رفعه كان
قد صدر من محمد علي باشا نفسه منذ حادثة الشهيد سيدهم بشاي علي أن البابا استشف
ببصيرته أن سعيد باشا قد تغير من نحوه .

ولقد زعم بعض القبط - بعد أن أبرمت المعاهدة بين حكومتى مصر والحبشة -
أن الاجباش قد يكونون قوة تساعدكم ، وبالفعل أعربوا عن زعمهم هذا للبابا
كبراس . واماكنه قال لهم : يجب أن تدركوا أن الاعتماد على الله وحده .
فالاجباش مع كل انتفاعهم منا يطعمون في المزيد . ثم وصف لهم كل ما الحقوا
به من اهانات وكل محاولاتهم للاستيلاء على دير السلطان .

٢٢٠ - على أن امتعاض الباشا لم يقف حائلاً دون سير الباشا في متابعة
مجهوداته الاصلاحية فقد قطع على نفسه العمد بخدمة ابنائه إلى النفس الاخير .
ومع أنه قال أن الاصلاح يحتاج إلى عمر متوشاح وصبر أبوب ، فإنه اندفع
فيه بقوة وباعة مجال لعله ينجز أكبر مقدار منه كأنما أحست روحه بسرعة
الاجل . فسأل أولاً - بعد عودته - عن المدارس واطمان إلى حسن سيرها .
وكان قد استأن من المعلم برسوم واصف عليها في غيابه . وأنه ليجد بنا معشر القبط

الاعتزاز بأن باباواتنا لم يكتفوا بعدم الادعاء بالعصمة بل لقد بلغ بهم التواضع إلى حد أن الواحد منهم كان يعترف بخطأه جهاراً دون تردد ودون زعم باطل بأن مثل هذا الاعتراف ينقص من قيمته . وما يؤثر عن أبي الاصلاح أن وشي الواشون بالمعلم برسوم واحف لديه واحس هذا الارخن بأن باباه غاضب عليه . فرأى أن يحصل في كنيسة الأرمن بازاء هذا الغضب . ولاحظ الأب الواعي غياب ابنه . فكتب إليه لساعته . وما جاء في خطابه هذه الكلمات :
تحررت عن الموضوع فوجدت نفسي غطناً ومغشوشاً فأرجو مسامحتي لأنني لم أكن معصوماً عن الخطأ إذ لم أخرج عن كوني بشرياً . الحقيير كيرلس . . . ثم عاد فكتب له ثانية وقال له : وإن كان الاوفق حضوركم عندنا بوقت معلوم لتكلم بمفاهيماً عن ارادتكم وطلبكم ولا يكن عندكم فكرة من قبلنا وما تفسير قلبنا والكلام المذكور ماقلناه أبداً وإن كنا قلنا شيئاً فهو ليس مفاهيراً للطبيعة بل نحن وأنتم بشر وأنا لو احد خاطيء . وربنا يرحمنا جميعاً . الحقيير كيرلس (١) . . .
وبهذا التواضع المجيب صالح ابنه . وما لاشك فيه أن مثل هذا التواضع لا يصدر إلا عن قلب بفيض محبة ، وهو يزيد من كرامة البابا في النفوس .

ولم يقتصر تواضعه على اعترافه بخطأه فقط بل كان يرفض سجود الناس له حين يتقدمون للسلام عليه قائلاً لهم : « هل أنا صنم جئتم لتسجدوا له ، ١٤ وإذا ما كان وقت التبخير أثناء الشعائر الدينية وتقدم إليه الكاهن به كان يقوم إكراماً لهذه الخدمة قائلاً بأن الغرض من تقدم الكاهن بالبخور إليه هو رجاء صامت بأن يطلب (البابا) إلى الله أن يقبل البخور من الكاهن الخديم . وأن البخور

(١) جرجس فلوثاوس مؤرخ : أبو الاصلاح ص ١٨١ - ١٨٢ ، راجع أيضاً سيرة البابا نينوفيلس الكبير في ج ١ من هذا الكتاب بعنوان : « بنيم من ممفيس يحتل السدة المرفئية » .

الذي هو صلوات القديسين حينما يمر الكاهن به أمام الأيقونات إنما هو لنفس
الفرض . وفي الوقت عينه يمر به وسط الشعب مبخراً إياه لمدفن : الأول وجاء
إلى الله بأن تشمل صلوات القديسين الشعب المجتمع بالسكنيسة ، والثاني أن يرفع
هؤلاء المصلون ابتهالاتهم لتمزج بصلوات القديسين فتتألف من ضراعات الكنيسة
المنتصرة والسكنيسة المجاهدة وحملة من التفرُّب إلى عرش الله . لحقاً
إن هذا الأب كان قائداً وقدوة معاً .

٢٢١ - ثم رأى ضرورة تجديد الكنيسة المرقسية بالأزبكية ليجمعها لائحة
بصدارتها . وبالفعل كان يوم الخميس ٢٩ برمودة سنة ١٥٧٥ ش الموعد الذي
حدده لوضع الحجر الاساسى للبناء الجديد بعد هدم القديم . وقد دعا للاحتفال
به رؤساء الكنائس وكبار رجال الحكومة فلبوا دعوته . وكان احتفالاً
له روحه .

٢٢٢ - ومن طريف ما حدث له أنه كان جالساً ذات صباح في حوش الكنيسة
المرقسية يرقب البنائين ويستحشهم على مرعة العمل وإذا بمدوب البابا الرومانى
يدخل عليه ومعه يوحنا مسرة (المترجم الاول بالعنصلية الانجليزية) ومن دون
سابق موعد . وكان الهدف من هذه الزيارة المفاجئة هو أن يعرض المدوب
الرومانى على البابا المرقسى انضواءه تحت لواء البابوية الرومانية . فبعد أن أمر
أبو الاعلاح باحضار المرطبات والقهوة لضيافته الشغل عنهما بالمطالعة فى انجيل
كان معه إذ كان قد استشف الهدف الرومانى من الزيارة قبل أن يفوه الزائر بكلمة
فسأله يوحنا مسرة عما يفعله . اجابه : أنت ترى أننى مشغل باقامة كنيسة
جديدة بدلا من القديمة . وقد نفذ المال الذى معى . فأشار على بعض أحبائى
أن أحذر حذو بابا رومية فأبيع صكوك الغفران وبذلك أحصل على مبالغ

طائلة أستكمل بها كنيستي بسرعة . ولستكني آثرت أن أبحث عن آية في الإنجيل تبرر هذا العمل قبل أن أقدم عليه . فإذ دبرتم قد جثتما الآن يمكنني الاستعانة بكما بدلا من اضياع الوقت في البحث عن الآية المطلوبة . وترجم يوحنا صرة الكلام البابوي إلى أن وصل إلى الجملة الأخيرة لخار في أمره وسكت . وبالتالي لم يجرؤ على مكاشفته بسبب الزيارة وانصرف الاثنان لساعتها (١) .

٢٢٣ - ولقد كان البابا كيرلس الرابع يتمتع بمكانة ممتازة عند بطريرك الروم الارثوذكس - واسمه كالينيكوس - إلى درجة أن هذا البطريرك ائتمنه على رعاية شعبه عندما سافر لفضاء بعض الوقت في أثينا .

كذلك حدث أن استدعاه سعيد باشا ذات يوم ليعرض عليه مشكلة خاصة بالسيدة حرم أسكاروس أفندي قسيس صهر باسيلوس بك (ابن المعلم غالي) وقال له : « إن هذه السيدة وعائلتها يرغبون في أن تكون الحكم بينهم ويرتضون بقضائك مع كونهم تابعين للكنيسة الكاثوليكية . والسؤال الذي يرجون اجابته منك هو : هل تعطى المرأة ميراثاً متساوياً كالرجل أو تعطيا نصفه ؟ قالتفت أبو الاصلاح إلى أصحاب الدعوى وسألهم : « حينما تفعل المرأة الصلاح فهل يعطيا الله تعالى المثوبة من عنده أم لا ، ؟ اجابوه : « نعم يعطيا . » فماد يسألهم : « وهل يكون جزاؤه إياها ناقصاً لأنها امرأة ، ؟ اجابوه : « طبعاً لا - إنه يعطيا الجزاء الذي تستحقه كاملاً . » فقال لهم : « مادام الله يمنح المرأة الثواب

(١) ترى من هذه الحادثة أن كنيسة رومية التي كانت تتذرع أحياناً بجمل الكنيسة القبط وأحياناً أخرى بأن القبط ينوون تحت الاضطهاد لسكى تصيد منهم من تستطيع تصيده قد أقدمت على افتتاحها عينه في هذه الفترة مع وجود رئيس كهنة واع ومع اندام الاضطهاد . أما سكوك الففران فكانت رسائل يمنحها الحبر الروماني نظير مبالغ طائلة من المال وتتضمن هذه الرسائل تملك أصعابها لبيت أو لقصر في الجنة تبعاً للبلغ المدفوع منه - أي أنه يمكن تسيبها في عصرنا « يخلو الرجل » - ولكن في الجنة لا على هذه الأرض .

كاملاً أفلا يحدر بمن يؤمنون به أن يعملوا مثله ويطيعوا أوامره ، ؟ فقبل
المحتكون إليه مشورته وأعطوا اخوانهم حقوقهم كاملة .

ومن دواعي نخزنا أن اهتمام البابا المرقسي بشخصية البنت القبطية لم يقتصر
على تعليمها وعلى اعطائها حقها في الميراث فقط بل قرر عدم تزويجها قبل الرابع
عشرة من عمرها ، فهو بذلك قد سبق قانون تحديد سن الزواج في مصر بمائة
عام . كذلك قرر أن يعترف العروسان اعترافاً صريحاً للآب الكاهن بالرضا
الناتج عن الزواج قبل اتمامه حتى لا يكون إكراه أحد الطرفين سبباً في النزاع
والشقاء بعده . ورأى أن يستبدل عقد الإملاك ، بمجرد التراضي واد الجبنوت ،
(أى تلاوة الصلاة الربية) ، لأن الأول عقد يصعب حله إلا تحت ضغوط
شديدة ، وقد يؤدي إلى زواج غير مرغوب فيه . أما التراضي فسهل حله .
والواقع أنه أقدم على هذا القرار إنصافاً منه للرأفة لأنها هي التي كانت تقع تحت
الإكراه في أغلب الأحيان .

٢٢٤ - ولقد هيا الله لهذا البابا المقدم فرصة تظهر فيها بسالته بأكثر وضوح

إذ كان قد صدر فرمان من السلطان التركي في ١٨ فبراير سنة ١٨٥٦ يعرف
د بفرمان الاصلاحات الخيرية ، يقضى بوجوب المساواة بين رعاياه . فقد نصت
الفقرة الثالثة عشرة منه على ما يأتي : « ويكون انتخاب وتعيين خدمة ومأموري
سلطتنا السنية منوطاً باستناب إرادتنا الملوكية فيصير قبول تبعه دولتنا العلية
من أى ملة كانت في خدماتها أو مأمورياتها بحيث يكون استخدامهم في المأموريات
بالتطبيق للنظامات المرعية الاجراء في حق العموم بحسب استعدادهم وأهليتهم » .
بينما تنص الفقرة الرابعة عشرة على الآتي : « وإذا قاموا بإيفاد الشروط المقررة
بالنظامات الملوكية المختصة بالمكاتب التابعة لسلطتنا السنية بالنسبة للسنة والامتحانات

يصير قبولهم في مدارسنا الملكية والمعسكرية فلا فرق ولا تمييز بينهم وبين المسلمين .
أما الفقرة الرابعة والعشرين فتقول : . . . وكما أن مساواة الخراج تستوجب مساواة
سائر النكاليين والمساواة في الحقوق تستدعي المساواة في الوظائف فالمسيحيون
وسائر التبعة الغير مسلمة يدعون نعمة قرعة مثل المسلمين ويجهرون على الانقياد
للقرار الصادر أخيراً . . . كذلك ورد في الفقرة السابعة والعشرين ما يلي :
و. وتنخب أعضاء المجالس الموجودة بالولايات والمديريات من التبعة المسلمة
والمسيحية وغيرها بصراحة صحيحة ولاجل التأمين على ظهور الآراء الحقيقية سيصير
التشبيك في اصلاح الترتيبات التي تجري في حق تشكيل هذه المجالس . . . فلما اطلع
الانبا كيرلس على هذا الفرمان ذهب إلى سعيد باشا وطلب إليه تطبيقه بالفعل على
الاقباط تبعاً لكفاهتهم فهم مصريون تربطهم مع المسلمين رابطة الوطنية والجنسية .
كذلك طالبه بقبول الشباب القبط في المدارس العليا كالطب والهندسة . . . واقد زعم
البعض أنه إنما ذهب إلى الوالي ليطالب اعفاء القبط من الخدمة العسكرية وسأله عن
ذلك . أجاب الباشا المصري الصميم : . . . حاشا لله أن أكون جباناً بهذا المقدار
لا أعرف للوطنية قيمة أو أن أفترى على أعز أبناء الوطن بتجردهم من محبة وطنهم
وعدم الميل لخدمته حق الخدمة والمدافعة عنه . فليس هذا ما أطلبه . إنما أطلب
المساواة في الحقوق وبالتالي المساواة في الواجبات . . .

٢٣٥ - ومن مزاعم بعض اللاأرثوذكسيين أنه حين هدم المرقسية القديمة
ليقيم مكانها كنيسة تليق بالكروسي الاسكندري جمع الايقونات التي كانت قزيناها
وكوّمها في كومة واحدة وأشعل فيها النار أمام جمع من الشعب . ثم خطب فيهم
وانتهى إلى القول : . . . أنظروا هذه الصور الخشبية التي تعودتم احترامها لتدرجة
العبادة - ها هي صارت رماداً لا تنفعكم . فالله وحده هو الذي يستحق العبادة
والسجود . . . وليس عن شك في أن هذه المزاعم باطلة لان أبنا اصلاح كان

مشجراً في تعاليم كنيسته القبطية الارثوذكسية ، عارفاً تمام المعرفة أن الايقونات ليست سوى وسيلة فنية تعاون المؤمن على ادراك المعاني الروحية الخفية . فالؤمن عند تأمله ايقونة مار مرقس مثلاً يؤدي تأمله إياها إلى التمعن في سيرة هذا الرسول وجهاده التبشيري ثم استشاده في الحماية . فالايقونة كما علم آباؤنا نافذة تمكن المتأمل فيها من أن يطل على السماء . ولو كان البابا كيرلس الرابع يعيب على شعبه وعبادة ، الصور كما يقولون فلماذا تركها في كل كنائس كرازته ؟ ولماذا زين بها كنيسة الملاك غبريل التي بناها بحارة السقاين وبني مدرستي البنات والأولاد في نطاقها ؟ فلقد جاء في ختام سيرته أنه كان شديد الاعتصام بقوانين الكنيسة واعتقادها . إن أبا الاصلاح حافظ على العقيدة وعلى التقاليد الكنسية الاصلية . ومنها تزيين الكنائس بالايقونات - فهو لم يتعرض باصلاحاته إلا لما هو سقيم ، فداوى الجهل بالعلم وسعى إلى سحق الجبن بالشجاعة .

٢٣٦ - ومن مآثر شجاعته أن أتاه القمص يوسف موسى كاهن كنيسة ميت غمر يشكو من أن أولى الأمر استصدروا فتوى شرعية مؤداها أن باب كنيسته أعلى من المقرر فهدموه . فرجا منه البابا أن يلحق به عند ذى الفقار باشا . وما أن استقر البابا عند مضيفه حتى وافاه الكاهن ، فسأله : وما الذي جاء بك إلى هنا ؟ ، أجابه : الحق أني جئت أشكو لان حكومتى تزيدني أن أجعل باب الكنيسة منخفضة إلى حد أن الرجل الذي يريد الدخول لابد له من أن ينحني ، قال له البابا : عليك الطاعة مادمت محكوماً وليس لك ملك يدافع عنك .

وما كاد ذر الفقار باشا يسمع هذا القول حتى قام لفوره وقابل سعيد باشا وروى له ما سمع ثم قال : لا يليق أن نسمع بمثل هذه الامور في أيام عدلك . فلم يأمر الوالي بترك الحرية للقمص يوسف موسى ليهتصرف في كنيسته كما يترامى له فقط ، بل أمر باعادة بناء الباب على نفقة الحكومة . وحينما رأى أهالي دقادوس

ما حدث تشجعوا بدورهم ونقلوا باب كنديستهم من الجهة القبليّة إلى الجهة الغربيّة وجعلوه مرتفعاً إلى درجة لم تكن ممكنة قبل ذلك . كما أن أهالي طنطا والمحمودية قاموا ببناء الكنائس في مدينتيها وكانوا محرومين منها مدى السنين الطويلة .

٢٢٧ - على أن سعيد باشا رغم وعوده للبابا كيرلس بالنظر في تنفيذ نصوص الأفرمان ما طرأ في التنفيذ الفعلي واستغف البابا المرقسي تباعد الوالي وتباطؤه بازائه . فقرر الذهاب إلى دير الانبا أنطوني حيث تشاغل بتعمير بعض مبانيه . وأخذ معه كالينيكوس بطريرك الروم وكذلك بطريرك الأرمن الأرثوذكس . ذلك لأنه وضع نصب عينيه إيجاد وحدة بين الكنائس الأرثوذكسية . وسافر هو ورفيقاه ورجالهم إلى بوش حيث قضوا بعض الأيام انتظاراً للقافلة التي توصلهم إلى الدير . وكان مسيو ساباتييه قنصل فرنسا بمصر قد ذهب لمقابلته قبل مغادرته القاهرة وعرض عليه التوسط بينه وبين سعيد باشا إن هو أعطاه تصريحاً بدخول الرهبان اليسوعيين إلى الحبشة . فاعتذر له عن ذلك وغادر القاهرة إلى بوش . فأضمر ساباتييه له الشر وأوقع بينه وبين سعيد باشا . هذا من جهة ومن الجهة الأخرى سمع جنرال موري قنصل إنجلترا بسفر الأبحار الثلاثة فرأى أن يستغل الفرصة هو أيضاً للايقاع بأبي الإصلاح الذي انتصر على الدسائس الإنجليزية مرتين . فذهب إلى سعيد باشا وأبلغه أن كيرلس ينوي التحالف مع الروم والأرمن . فإن نجح في ذلك دخل الروس ضمن هذا التحالف لأنهم مع الروم . وعند ذلك سيصبح كيرلس أقوى سيطرة منه نتيجة لمؤازرة روسيا له . وبالطبع صدق الوالي هذه الأراجيف ، وبخاصة لأن ساباتييه كان قد لمح إلى شو . منها قبل ذلك . فأرسل رسولا إلى مدير بني سويف يقول له أن يطلب إلى كيرلس العودة حالا لأنه في حاجة إليه . وذهب المدير إلى بوش وأبلغه الرسالة . فقال له رجل الله : إني ذاهب مع رفاقي إلى الجبل الشرقي وحينما نعود أذهب إلى الباشا . وخاف المدير

أن يرد على الباشا بهذا الرد فقال للباشا : واكتب بخطك هذا الكلام الذي تقول له .
فكتب له الرد ووقع عليه وأرسل المدير هذا الرد المكتوب إلى سعيد باشا مع
رسوله . فتزايد حنق الباشا على الأتبا كيراس وأضر له السوء من تلك الساعة .
وهكذا نجد أن فرنسا وإنجلترا - كليهما - ساهما بنفوذهما على ايقاع الأذى برجل
الله لا لسبب إلا لأن كلا منهما وجد في كيراس الرابع رجلا قوى المزينة
يستهدف النهوض بالشعب المصرى عامة وبالشعب القبطى خاصة ، كما يحرض
الحرص كله على استقلال كنيسته والشعب الناهض لا يسهل استعباده ، وهما
ببغيان استعباد شعب مصر والسيطرة حتى على حاكمه . إذن فليقط كيراس الذى
يروم الملا لهذا الشعب . ومن حسن حظهما أن سعيد باشا كان رجلا من السهل
استشارته والتأثير عليه وبخاصة لأنه كان ميالا جداً إلى الأوربيين . فكتب كل
منهما دوره في هذه المأساة دون تردد ولا تراجع . وما دام الهدف هو امتداد
نفوذ فرنسا أو نفوذ إنجلترا فلماذا التردد ؟ هل لأن الرجل الواقف في طريقهما
هو بابا الاسكندرية ؟ ولكن كلما عظمت مكانته كلما كان انتصارهما مضاعفاً .
وبهذه الأفكار في ذهن كل منهما على حدة التفتيا عند هدف واحد هو إثارة الحقد
والضغينة في قلب سعيد باشا على الرجل الذى كان يوقره ويشق به إلى حد اثمانه
على التصالح مع الحبشة والذى كانت مساعيه - بياً في حقن دماء المصريين والاحباش
بتفادى الحرب التى كانت واقعة حتماً لولا وساطته .

٢٣٨ - وقضى أبو الاصلاح ورفقة آؤه ستة أشهر بالدير . وما كاد يصل إلى

القاهرة حتى جاءه رسول من الوالى يستدعيه إلى القصر . ولما لم يلب الرسالة جاءه
رسول ثان فثالث . فلم يجد بداً من الذهاب وبعد ساعة عاد إلى الدار البابوية
مغموماً إذ كان قد فهم من حديث الاغارات بالتركية أنهم درسوا له الهم في فنجال

القهوة فرفض أن يشربه ^(١) . ولكن غمته النفوس بلغ به حداً جعل الحمى تصيب جسمه . ولما سمع الوالى بذلك ادعى الالف لمرض رجل الله فأرسل إليه طبيباً الخاص وكان فرنسياً . إلا أن البابا رفض دواء هذا الطبيب الموفد إليه من يضمرون له سوء . وحين علم سعيد بهذا الرفض استعان بإثنين من أخصر أصدقاء البابا ليكونا بمثابة يهودا الأسخر يوطى وأوفدهما إليه ومعهما الطبيب الفرنسى ذاته . وهذان « الصديقان » هما وكيل بطريركية الأرمن والحواجة يوحنا مسرة ^(٢) اللذين قصداً إليه للسؤال عنه وبصحبتهما الطبيب الذى امتدحاه وطلبا إلى رجل الله النزول على نصيحته لأنه موثوق به . فصدق مشورتها ارتكناً إلى صداقتها وتناول الدواء من الطبيب « الموثوق به » . وما أن استقر الدواء في معدته حتى أدرك أن صديقيه قد غدرا به - مضيفين غدراً إلى غدر القنصلين والوالى . وأحس بالمنية تدب إلى جسمه . وما كاد الزمن يصل إلى ليلة الأربعاء ٣٠ يناير سنة ١٨٦١ حتى استودع روحه يدى الآب السماوى فلم تدم باباويته غير سبع سنين وثمانية أشهر ^(٣) . وعلى ذلك قال البابا كيرلس الرابع قد نال إكليل الشهادة

(١) يقول البعض أن الفنجال المسموم وقع من نصيب وكيل البطريركية الذى ما أن عاد إلى بيته حتى بدت عليه أمراض النسم ومات في نفس الليلة . فأدرك أنه هو الذى كان متصوداً وأن السهم طاش .

(٢) حلبي الأصل استقر بمصر عقب الاضطهادات التى اشتدت على الروم الكاثوليك في مطلع القرن التاسع عشر واشتغل ترجماناً في السفارة الإنجليزية . ومن الغريب أنه كما زعمت مسز بوتشر أن أبا الإصلاح تعلم في مدرسة إنجليزية ولها نلقن الرغبة في النهوض بشبهه زه . هذا الحلبي أنه هو الذى أشار على هذا البابا المرقسى بإنشاء كلية لتهديب الفسء القبطى فأصغر لمشورته ترى هل لهذا السبب خاله في النهاية ؟ - توفيق أسكاروس ج ٢ ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٣) هناك تشابه كبير بين أبى الإصلاح وسبب الثالث : فكلاهما راهب داود وكلاهما البابا كيرلس . وكان كيرلس الثالث متضلماً من العقيدة كتب الرسائل المنقبضة لأولاده في الحبنة وفي دمشق ، وأنشأ مطرانية القدس ورسم لها أول مطران باسم إسيليوس (أيضاً) . وازدهر عصره بالمطامير من الآساقفة والأراخنة . ودامت باباويته سبع سنين وتسمه أشهر (راجع ج ٣ من هذا الكتاب الفصل المعنون « مياه معسكرة » ص ٢٠١ - ٢٢١) . بينما وجدنا أبا الإصلاح ولوهاً بالعلم منجماً له ، ودامت باباويته سبع سنين وثمانية أشهر . فحقاً إن الحياة لا تقاس بالأيام والبالى .

وانضم إلى ذلك الجمهور الوفير من أولئك الذين جادوا بدمائهم في سبيل عقيدتهم
فزادوا ازدهاراً في القلوب .

٢٣٩ - ولقد كانت لموته رنة أمي دوت في أرجاء الوادي من شاطئ البحر
الابيض إلى النوبة فالسودان والحبشة ، إذ وجد فيه الجميع أباً عطوفاً ساهراً
وبمخاصة المنقطعين وذوي البيوت المستورة . وكان تجيزه باحتفال مهيب اشترك
فيه كبار رجال الدولة ورؤساء الكنائس المختلفة . ومن العجب بمكان أن وكيل
البطركية الأرمنية الذي ساهم بنصيبه في التمجيل على أبي الاصلاح قد رثاه وسط
الجمع الحاشد باللغة التركية ا

وبعد الانتهاء من الشعائر الكنسية ذات الرهبة الخاصة دفنوه في مقبرة جديدة
كان قد أعدها لنفسه تقع ما بين الكنيسة الكبرى التي لمارمرقس والكنيسة
الصغرى المجاورة لها والتي لاسطامانوس أول الشهداء^(١) .

وهكذا مرت باباوية الابا كيرلس الرابع مروراً سريعاً ولكن آثارها
ما زالت باقية - وما زالت ذكراه تبعث في النفوس هزة هي مزيج من الأسى والغبطة ،
كما تنفخ المزيمه داخل كل نفس متطلعة نحو ازدهار الكنيسة والتسامي بالروح .

٢٤٠ - لم تصل هذه المطبعة التي كان الابا كيرلس الرابع يريد أن يرقص طرباً
إلا في أواخر باباويته إذ لم تمهله الايام لينعم بإنجازها . وبعد استشهاده ظلت
معطلة إلى أواخر رياسة خلفه الابا ديمتريوس الثماني . وعند ذلك تقدم إلى
قداسته أخوان هما رزق بك لوريا^(٢) وأخوه ابراهيم جرجس لوريا وطلبوا إليه

(١) أبو الاصلاح الجرجس في لوتارس هوض ، نوايح الأقباط ومشاهيرهم في القرن
التاسع عشر التوفيق أسكاروس ج ٢ ص ٦٠ - ١٩٧ .

(٢) لوريا اسم تلجر أختاب ابطالى كان رزق بك شريكاً معه في تجارته . وحدث
أن ترك لوريا القطر المصري وطأ إلى لاده . فاستقل رزق بك بالدمركة وشاع عنه اسم
رزق لوريا . ويحل هذا المزج قد حدث لعدد من الأقباط مثل المعلم يوسف الالني والمعلم
منقربوس المورلي ...

احتجارة المطبعة لاستخدامها فيما يعود بالنفع على القبط فقبل طلبها . فنقلها من
الدار الجابوية إلى دار وقف الأبناء أنطوني . ثم وجد أن الحروف غير كافية
للمعمل فكانوا حفاراً ماهراً اسمه موسى محمد بمثل قاعدة للحروف ، فأُنجز لها قاعدتين :
الكبيرة لطبع الكتب الكنسية والصغيرة لطبع الكتب الأخرى .

ثم حدث أن شب حريق في متجرهما فتركا الاتجار بالخشب وانصرفا إلى
تشغيل المطبعة . وأول ما طبعوه « القطارس » ، (أى فصول العهد الجديد التى تتلى
في الكنائس مرتبة على أيام السنة ، تبعته خطب أولاد العسال ومواعظهم .

ثم طرأت على خاطر رزق بك فكرة كانت من غير شك من وحي الروح
القدس . وهى إصدار جريدة أسبوعية . فذهب هو وأخوه إلى ميخائيل عبد
السيد^(١) وتفاهما معه على تأسيس الجريدة المرغوب فيها وتسميتها بجريدة
الوطن^(٢) وبالفعل تم الاتفاق بين ثلاثتهم وانتخبوا لجنة لإدارة الجريدة تحت
رياسة ميخائيل الذى أصبح رئيساً للتحرير يعاونه جرجس افندى ميلاد ناظر
المدرسة الانجليزية سابقاً ويسى بك عبد الشهيد الذى كان قاضياً فى المحاكم الأهلية
ومعها تادرس بك ابراهيم الذى كان قاضياً هو أيضاً . واختص ابراهيم لوريا
بالادارة وأخوه رزق بمباشرة طبع الكتب الدينية . وفى سنة ١٨٧٥ نقلت
المطبعة من مكانها إلى بيت الوقف فى شارع كلوت بك ثم أصبحت تعرف باسم

« مطبعة الوطن القديمة » سنة ١٨٨٣ .

ونجحت الجريدة كما أخذت الكتب فى الانتشار فرأى رزق بك وأخوه
ابراهيم وجوب الشاء مكتبة تكون مركزاً لبيع الكتب وترويجها بسهولة .

(١) هو أحد القبط الذين لا يتجاوز هدم أصابع اليد الواحدة الذين تعلموا فى الأزهر .

(٢) من المهم أن نعرف أن جريدة الوطن سبقت جريدة الأهرام - أى أنه حتى لم يبدأ

الصحافة كان لقطب نصيب البقي .

فأسرها على هيئة شركة تتكون منها ومعها ميلاد جرجس وميخائيل عبد السيد
وحنا خير وبسبب عبد الشهيد . وقد استمرت هذه المكتبة مفتوحة إلى أن تبع
ابراهيم لوريا ، وكانت معروفة آنذاك بكتبخانة الوطن . ومن الكتب التي
طبعت : كتاب روضة الفريد وسلوة الوحيد لابن كليل ، الحولاجي وما يستتبعه
من كتب خدمة الشماس ، والاكليل والمعمودية ، وكتاب الصبيح في آلام
المسيح للسلامة بطرس السدمتي ، والقول الصريح في تثليث الاقانيم وتجسد
المسيح وتفسير رسالة رومية لابن كاتب قيصر ، والاجبية ، ومزبل الفم لايليان
مطران نصيين ، ووفيات الاعيان لابن خلكان ، وكتاب الاحكام السلطانية ،
وحن المحاضرة ، والذريعة في أصول الشريعة ، وقوانين الدواوين ، ومطالع
البدور ، ^(١) وغيرها من الكتب العلمية والطبية . وبالإضافة إلى كل هذه
الكتب العربية فقد أبدى رزق بك وأخوه ابراهيم عناية خاصة بالحروف
القبطية واستحضار واعداد قوالب وعدد لصبها . فنجما أيضاً في نشر عدد من
الكتب بالقبطية .

وكان لابراهيم لوريا ولدان هما حبيب وتادرس . هذان استلما العمل
بالمطبعة بعد وفاة عمهما وأبيهما وظلأ في هذا الجهاد المثمر إلى ٢١ أكتوبر سنة
١٩٠٣ حين أمر أرمانوس بك حنا مراقب البطريركية القبطية باستعادتها . ولما
تسلما باعها على أنها حديد خردة بجنيمات قليلة ^(٢) ، فحق قول الرب عليه ، مادخلتم
والداخلون منعموم . لأنه حتى لم يحتفظ بها كأثر من آثار أبي الاصلاح ليكون

(١) يتبين لنا من هذا السجل غنى الفكر القبطي وتنوع إنتاجه ، كما يتبين لنا أن القبط
والوا السكعابة على مختلف الصور .

(٢) جرجس فليوتاس موز : « أبو الاصلاح » ص ١١٨ - ١٢٤ ، توبنيق
أسكاروس ، ص ٢٦ ، ١٥٢ - ١٥٥ .

مرآها حافظا لكل سائح نحو المعرفة . ونظمت المطبعة في جيلها ، أيضا ، ومن يدري فقد كان من الممكن أن تستمر في الخدمة مدة أطول . والعجيب أنها شابت من اشتراها : فهو قد تأمر عليه البعض فكانوا السبب في تقصير سني جهاده ، وهي قد اغتالها ، أرمانوس بك حنا فلم يتركها في أيدي مستثمريها بل أخذها منهم لا بشئ : إلا لينبيها خردة ولكن الله الذي لا ينسى تعب المحبة قد جعل الرجل الذي اشتراها ملء السمع والبصر حتى الآن كما جعل ذكره تملأ الأرجاء أما هي - المطبعة - فما لاشك فيه أن الكتب التي صدرت عنها والجريدة التي انتشرت بواسطتها : هذه وتلك كانت سببا في نشر الثقافة القبطية واستنهاض الهمم وتحريك الأنظار نحو فجر جديد . حفا إن الله عجيب في قديسيه .

٢٤١ - أما المدارس التي افتتحها أبو الاصلاح فهي : - المدرسة الكبرى للبنين - في ساحة الكنيسة المرقسية بالازبكية ، ٢ - مدرسة للبنات بجوارها (أغلقت بعد حياته) ، ٣ - مدرسة البنين بحارة السقاين ، ٤ - مدرسة البنات بالحى عينه ، ٥ - مدرسة المنصورة للبنين (بمدينة المنصورة - أغلقت بعد حياته) ، بالاضافة إلى المدرسة التي كان قد أشأها بعزبة دير الانبسا أنطوني بيوش ، والمكاتب العامة في كل دير لتعليم الاهالى إلى جانب الرهبان .

ونورد هنا بعض كبار الشخصيات الذين تخرجوا من مدارس أبي الاصلاح لضيق المقام عن ذكرهم كلهم : أولا - خريجي المدارس الكبرى : ١ - محمد توفيق الساوى باشا من كبار موظفي الدولة ، ٢ - عبد الحميد مصطفى باشا وكيل المالية ، ٣ - محمد عبد الرازق باشا وكيل الداخلية ، ٤ - الدكتور سيد كامل سكرتير عام بنك مصر ، ٥ - عبد الكريم روفف بك المحامى ، ٦ - المستشار أحمد شرف الدين بك ، ٧ - اسماعيل زهدى المحامى ، ٨ - حسن كامل الشيشيني

باشا مدير عام بنك التسليف الزراعى . وهم من ثاروا على تشدد المستشار
الانجليزى دنلوب فأمر باخراجهم من المدارس الاميرية فرجبت بهم مدارس
القبط وبالتالى تعلموا فيها .

- ٩ - المستشار مينا بك ابراهيم ، ١٠ - اسماعيل باشا حنين وكيل وزارة
المعارف (التربية والتعليم الآن) ، ١١ - المستشار سليمان بك يسرى ، ١٢ - وهى
بك تادرس الشاعر ومدير المدارس القبطية (تعلم فى الازهر ايضاً) ، ١٣ -
ميخائيل عبد السيد الاديب ورئيس تحرير جريدة الوطن ، ١٤ - باسيل بك
روفائيل الطوخى من اعلام اللغة القبطية ، ١٥ - يعقوب بك نضلة روفيلة
المؤرخ ، ١٦ - ابن عمه برسوم بك جريس روفيلة كان قاضياً بالمحاكم الاهلية ،
١٧ - حبشى بك مفتاح من كبار موظفى السكة الحديد ، ١٨ - المستشار حنا
باشا نصر الله الذى اشتغل فى المسالية اولاً ثم مستشاراً فى الاستئناف الاهلى ،
١٩ - تادرس افندى حنا الجزاوى الذى كان باشكاتباً لعنابر السكة الحديد ثم
عين ضمن التلفراجية لخدمة ملكة فرنسا أيام افتتاح قناة السويس ، ٢٠ - برسوم
بك يعقوب رئيس قلم تفتيش الصيارف ، ٢١ - فرج بك جودة كان من كبار
موظفى مصلحة الفئارات بالاسكندرية وله خدمات جليلة لمدرسة الاقباط بهذا
الشرف ، ٢٢ - ميخائيل افندى فهمى كان مترجماً فى نظارة الحقانية (وزارة العدل
الآن) ومن المقربين الى شريف باشا الفرنساوى ، ٢٣ - حبيب فرج مليكة والد
الصحفى النابه ترفيق حبيب (الذى كان معروفاً بالصحفى المجوز) ، ٢٤ - القمص
حنا مرقس والد مرقس باشا حنا الوزير وعضو الوفد المصرى ، ٢٥ - ميخائيل
بك تادرس من كبار موظفى الدائرة السنية ، ٢٦ - خليل باشا ابراهيم المحامى -
بانى كنيسة السيدة العذراء التى تجلت فيها والدة الإله من ٢ أبريل سنة ١٩٦٨
وظلت تعجل أكثر من سنتين ورآها الآلاف من الناس: قبط ومسلمين وأجانب،

٢٧ - سعيد زقبة عمدة النخيلة ، ٢٨ - تادرس بطرس شلبي من كبار موظفي
السكة الحديد ، ٢٩ - حبيب شلبي من الأعيان وباسمه شارع في الفيحاء ، ٣٠ - رزق
الله بك فرج - وقد تبرعت أمه وزوجته بعد وفاته بثلاثة وأربعون فداناً للجمعية
الخيرية القبطية الكبرى وكانت كل ما تمتلكان ، ٣١ - عوض بك أبادير ناظر
محطة الاسكندرية ، ٣٢ - بطرس بك أبادير من كبار موظفي السكة الحديد ،
٣٣ - اسماعيل حمزة المحامى بالاسكندرية ، ٣٤ - جرجس بك يوسف ملطى
الدمشورى باشكاتب محكمة الاستئناف الأهلية وهو ابن المعلم ملطى قاضى الديوان
الكبير فى عهدى المماليك والحلة الفرنسية ، ٣٥ - جرجس عصفور من كبار
موظفي السكة الحديد ووالد جفرى عصفور رئيس جمعية ثمرة التوفيق ، ٣٦ -
رزق الله بك غـربال وكيل إدارة السكة الحديد ، ٣٧ - المستشار جيس باشا
أحمد ، ٣٨ - دكتور ابراهيم بك حلى كان مدرساً بالمدرسة الكبرى ومتزوجاً
ومع ذلك دخل مدرسة الطب وبعد تخرجه عينوه مديراً لصحة السويس ،
٣٩ - المعلم عريان جرجس مفتاح الذى قيل عنه : « أن أول رجل تولى تدريس
اللغة القبطية بالمدرسة الكبرى هو عريان جرجس . وقد ألف أجرومية لهذه
اللغة على النسق العربى ضمنها قواعد الإعراب مع سلسلة من الجمل والمحاورات .
ولقد نبغ على يديه عدد من التلاميذ الغيورين ذوى العقول المنفتحة منهم : برسوم
ابراهيم الراهب الذى ترجم الكثير من الجمل والمحاورات من العربية إلى القبطية
وحنا يوسف حنا الذى اهتم بجمع مصادر الأفعال وكتب قاموساً قبطياً (١) .

ثانياً - خريجي مدرسة حارة السقاين : ١ - بطرس باشا غالى الذى وصل
إلى رئاسة الوزارة ، ٢ - يوسف باشا وهبة وهو أيضاً وصل إلى رئاسة الوزراء ،
(١) عن خطاب عبد الحليم الباس نصير فى حفل الذكرى الثوبى الأولى لأبى الإصلاح

٣ - عبد الحنان ثروت باشا من أقطاب السياسة المصرية الذين اشتركوا في
المفاوضات مع الانجليز ليجلوا عن مصر ورئيساً للوزارة ، ٤ - دكتور (طبيب)
طلعت منصور ، ٥ - ابراهيم بك منصور رئيس الجمعية الخيرية القبطية الكبرى ،
٦ - القمص بولس الكبير وكيل بطريركية القبط ومدرس الرياضة بمدرسة حارة
السقاين ، ٧ - قليني فهمى باشا من أعيان المنيا ، ٨ - كامل عوض سعد اقه رئيس
جمعية التوفيق ، ٩ - المستشار ابراهيم يحيى باشا رئيس مجلس الشيوخ ، ١٠ - ابن
الدكتور على يحيى بك ، ١١ - حسين رشدي باشا رئيس مجلس الوزراء ثم رئيس
مجلس الشيوخ فرئيس وفد مصر إلى المؤتمر البرلماني الدولي المنعقد في باريس في
أغسطس سنة ١٩٢٧ ، ١٢ - سعد بك عبده من كبار الأراخنة الذين أزرروا أبا
الأصلاح بكل اخلاص^(١) .

وما يجب ذكره أن الأحداث المتفايرة التي استبذت ببلادنا كانت قد أدت
إلى إبطال استعمال التقويم القبطي إلا في الزراعة . فأعاد الأنبا كيرلس استعماله
إبتداءً من أول أيب سنة ١٥٧١ ش^(٢) .

† † †

(١) جرجس فيليبوتوس عوض « أبو الأصلاح » ص ٢٦٥ - ٢٧٧ ، ويوسف أني
لم أذكر على أسماء الخريجات ، وأغلب الظن أن غالبية من زوجات وأمها ، ومن يدري لم ربما
كانت من بينهن من اختارت حياة الرهبنة . وأغلب الظن أيضاً أنهن كن مثاليات في تأدية
رسالتهم نتيجة لفرية التي تلقينها في المدرسة التي واجه الترم لافتتاحها .

(٢) كامل صالح نخلة « سلسلة ... » الحلقة الخاصة ص ٢١٥ . ٢١٠ - ٢١٧

تعليق على صيغة البابا كيرلس الرابع « البطريرك ١١٠ »

ماذا كانت وظيفة المطران العام ؟

لم يكن أسقفاً كباقي الأساقفة إذ كانت له صفة العمومية . وكان مسئولاً عن الكرازة كلها ، كما يتضح ذلك من منشوراته الرعوية ومشروعاته العامة و كما يتضح أيضاً من تصريح الخديوي الذي وافق فيه على أن يكون أباً كبيراً من مطراناً على طائفة الأقباط ، أي على الشعب القبطي كله وقد وضعها أيضاً بقوله :

يدير أشغال البطر كمنهانة « وكبل بطريرك ، حيث لا يوجد بطريرك . أي

أن أباً كبيراً باختصاص كان يقوم بعمل بطريرك ولكن بأقباط مطران عام .
فهل أنقصه لقب شيئاً ؟ وماذا كان وضعه في القوانين الكنسية ؟

كثيرة هي قوانين الكنيسة التي تقطع الأسقف الذي يتداخل في أعمال أسقف آخر و كمثل ذلك أرجع إلى القوانين ١٢ و ٢٣ و ٢٦ من الكتاب الثاني لقوانين الرسل أو إلى القانون الثاني لمجمع القسطنطينية المقدس الذي يمنع الأساقفة من « تعدى حدود ابيارشياتهم متطاولين على الكنائس الخارجة عن حدودهم .

لم يكن أباً كبيراً إذا أسقفاً محدوداً بابياريته خاصة لا يتعدى حدودها كباقي الأساقفة وإنما كان له اشرف عام على الكرازة كلها ، فباي سلطان فعل هذا ؟

الأمر بسيط : إن المطران « المطروبوليت » عبارة عن رئيس أساقفة وقد بما كان يوجد في كل ابيارشية عدد من الأساقفة تحت رئاسة مطروبوليت أي مطران .

(١) من كتاب « سلسلة تاريخ ابيابارات . . . بطاركة الكري في الاسكندرية » الجزء الخامس ص ١٩٧ - ٢٠٠ - المطبوع بمطبعة دير السريان سنة ١٩٥٤ .

وقد نظرت المجامع المكونية المقدسة إلى المطران كرئيس أساقفة وأعطته سلطاناً على أساقفة ايبارشيتيه (أرجع إلى القوانين ٤ و ٦ لمجمع نيقية المقدس والقانون الثاني لمجمع القسطنطينية المقدس ، والقانون الاول لمجمع افسس المقدس) . وبقى القوانين الكنسية نظرت أيضاً إلى المطران كرئيس أساقفة (انظر انطاكية و بامبيلوس ٤٦) .

لم يكن ممكناً أن يرسم اسقف من غير رأى المطران . وهكذا يقول القانون السادس لمجمع نيقية المسكوني المقدس ، أيما اسقف سيم من غير رأى المطر وبوليت ، قد أمر المجمع العظيم بأن مثل هذا لا ينبغي أن يكون اسقفاً ، بل لم يكن الاسقف يستطيع مباشرة أى أمر من الامور الكبيرة فى ايبارشيتيه بدون رأى مطرانه وهكذا يقول القانون التاسع لمجمع انطاكية المقدس ، الاسقف لا يباشر فعل أمر البتة من دون اسقف المطرانية ، والقديس باسيليوس الكبير يسمي المطر وبوليت ، كبير الاساقفة : (القانون ٤٦) .

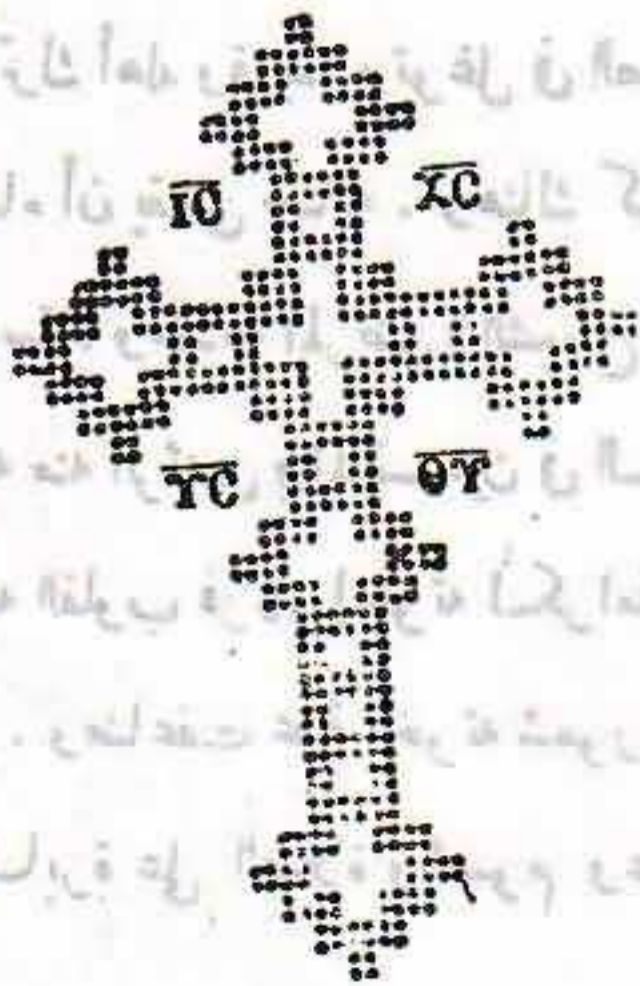
إذن فقد كان أبنا كيرلس رئيس أساقفة بحكم القانون الكنسى وبصفته العامة من حيث مسئوليته عن الكنيسة القبطية كلها ، كان رئيس أساقفة الكرازة المرقسية كلها . وكان الاساقفة راضين عن رئاسته فقد ذكروه بانفسهم للبطريركية وكتب كل منهم ، أنا (فلان) ارتضيت ... ، وكان الشعب أيضاً راضياً عن هذه الرئاسة .

ومن هو بطريرك الكرازة المرقسية ، اليس هو رئيس أساقفتها كما هو واضح من لقبه الرسمى ؟ ومن كان أبنا كيرلس ، ألم يكن رئيس أساقفة الكنيسة القبطية ؟ إذن فقد كان بطريركاً من غير هذا اللقب . والبطريركية وظيفة وسلطان وليست لقباً .

كان الخديوي يتخوف من هذا اللقب . ولذلك أعطوا الأتيا كيرلس لقباً
 آخر لا يتخوف منه الخديوي ، الذي لو كان على علم بقوانين الكنيسة ونظمها
 لعلم أن بطريك الكنيسة ، ورئيس أساقفتها ، ومطرانها العام ، إن هي إلا
 مترادفات لمعنى واحد ووظيفة واحدة . بل إن بطريك الاسكندرية كان يلقب
 أحياناً أسقف الاسكندرية وكذلك كان كل بطاركة الماسلم (أنظر القانون
 لمجمع نيقية المقدس ، والقانون الثاني لمجمع القسطنطينية المقدس) .

إذن كل ما عمله الأساقفة ليلة ٢٨ بشفن سنة ١٥٧٠ الموافق ٤ يونية سنة
 ١٨٥٤ م (وهو تاريخ تنصيبه بطريكاً) هو أنهم أعطوا أتيا كيرلس لقباً
 وليس سلطاناً كهنوتياً أزيد من سلطانه .

فإن هذا التاريخ لم يغير شيئاً من وظيفته أو سلطانه أو درجته أو حجه .



لكنه ، في هذا التاريخ ، أعطوا الأتيا كيرلس لقباً
 غيراً من لقبه السابق .

حامل شعلة جرىء

٢٤٦ - دير السلطان مرة أخرى

٢٤٢ - قنائة باسيليوس ورهبته

٢٤٧ - تعبير شامل

٢٤٣ - رسالته مطرانا

٢٤٨ - «أبوك الذي يرى في الخطاه»

٢٤٤ - وداعة الحمام وحكمة الحيات

٢٤٩ - صورة مشرفة

٢٤٥ - الأبوة الخانية

٢٤٢ - وثيقة شبه آخر بين كيرلس الثالث والرابع هو أن كلا منها اختار اسم

«باسيليوس» ليطلقه على الراهب الذي اختاره كي يحمل منه مطرانا على مدينة

ملك الملوك. والرجل الذي اصطفاه أبو الاصلاح وولد في قرية الدابة التابعة لمركز

فرشوط بمديرية قنا سنة ١٥٣٤ ش^(١). ولما كان أبواه من المتمسكين بالدين الساعين

نحو الكمال فقد غذياه بالتعاليم الروحية مع الابن. ثم سله أبوه إلى معلم ورع مبتلىء

صلاحاً ليعلمه ويهذبه. فكان هذا المعلم مدرساً ونموذجاً في آن واحد فتعلم منه

تليذه أن يتمعن في الكتاب المقدس وفي سير الآباء وتعاليمهم. وكلما نما نمت معه

الرغبة في الذسبه بالقديسين الذين يطالع سيرهم ويميش بروحه معهم. فلما بلغ

الخامسة والعشرين من عمره ترك أهله وقريته وتوغل في الصحراء الشرقية إلى أن

بلغ دير أبي الرهبان حيث شاء أن يقضى حياته. وهناك كرس وقته وطاقته

للدرس والتأمل في السير المقدسة، ولخدمة المرضى والشيوخ من إخوته الرهبان،

والطاعة عن رضو لما يطلبه منه الرئيس والمتقدمين في السن. وهذا التكريس

الارادى المستمر اجتذب إليه القلوب فزكاه إخوته لكرامة الكهنوت بعد ست

سنوات من انضمامه إلى الدير. وضاعفت محبة اخوته شعوره بالواجب وتقديره

للكرامة التي نالها فزادته مشابرة على الصلاة والصوم وعلى خدمة إخوته

وارشادهم وتعاليمهم.

(١) من الغريب أن أحداً لم يذكر اسمه للملأمان ولا الرهباني أو الكهنوتي، فربما

كان باسيليوس من البداية.

ولقد تحقق فيه قول رب المجد ، من له يعطى ويزاد ، فهو قد ازداد تفانياً في خدمة إخوته ، وهم قد ازدادوا تقدير آله فاخثاروه رئيساً عليهم بعد رسامته قسماً . وكان ذلك بعد ثلاث سنوات من رسامته قسماً . وتضاعفت وداعته وقاضته عليه الزعامة الإلهية فازداد تفانياً في الخدمة والحماية وإطاعة الرهبان عن محبة ورضى . وكذلك وجه عنايته بالوقف إلى حد أنه استطاع شراء أطيان جديدة وضمها إلى أملاك الدير (١) .

٢٤٣ - ثم حدث سنة ١٥٧١ ش أن شغل الكرسي الأورشليمي فرأى الأنبا كيرلس الرابع أن خير من يشغله هو رئيس دير الأنبا أنطوني ، فاستدعاه ورسمه باسم باسيلوس . وكان يتبع هذا الكرسي آنذاك مطرانية القبطية وجزء من الغربية ثم القليوبية والشرقية . والمعجب المعجاب أن جهاده كان يتزايد مع تزايد كرامته : فقد خدم وهو قس ، وزادت خدمته وهو قمص ، واشتدت وهو رئيس للدير ، ثم تضاعفت أضافاً وهو مطران . فكان يتفقد الجائع والعريان والمريض والمسجون والغريب من غير تفریق بين مسيحي أو مسلم أو يهودي ، كما كان أباً لليتيم وقاضياً للأرملة : مع هؤلاء جميعاً كان المشفق الوديع .

٢٤٤ - على أنه جمع بين وداعة الحمام وحكمة الحيات عملاً بوصية سيده كما تبينه لنا الواقعة التالية وهي أنه ليس للروس شبر داخل كنيسة القيامة المقدسة . وتأمل فنصل الروس يمنة ويساراً فوجد أن المكان الأول لليونان وهم الكنيسة الام بالنسبة له . أما المكان التالي مباشرة فهو للقبط . وزعم في خيلاته أن القبط مغلوب على أمرهم فمن الممكن التقدم إليهم بمرض يحمل في طياته الإغراء السكاني . وهذه الخيالات المترقصة داخل ذهنه قصد إلى مقابلة الأنبا باسيلوس . وبعد

(١) هنا مثل على أن الروحانيين يستطيعون الانشغال أيضاً بالأمور المادية دون أن

يؤثر هذا الانشغال على روحانيتهم .

أحاديث عامة قال له : و إنني مستعد لأن أرض لك هيكلك الملاصق للقبر المقدس
بالجنيات الذهبية من أرضه إلى سقفه إن بعثني إياه . فسأله المطران الوقور :
و كم من الجنيات يمكن أن يكون هذا الترخيص ؟ . أجابه في شيء من الزهو :
و مليونان من الأصفر الرنجان ، فابسم رجل الله في هدوءه وقال : أتريدنا أن نقسبه
ببهرذا الأسخريوطي و نبيع سيدنا بدراهم ١٤ و أصيب القنصل الرومي بذهول
أفقدته المقدرة على النطق فأنصرف لتوه .

٢٤٥ - وكان السفر إلى الأراضي المقدسة آنذاك من المشقة بمكان سواء كان
عن طريق البحر الأحمر أو البحر الأبيض المتوسط . وكان الأبيسا باسيليوس
يختار الطريق الثاني فيركب المركب من دمياط إلى يافا ، و من يافا يركب عربة
إلى القدس . و حدث ذات مرة أن ذهب إلى يافا كالمعتاد و وصلها قرب الغروب
عما اضطره إلى المبيت فيها . و عرض الأرم من عليه المبيت عندهم لأن القبط لم تكن
لهم أملاك بذلك الميناء آنذاك . و لكنه رفض و أعلن أنه سيبيت في العراء مع
أولاده إذ قد و جدم متجمعين تحت الأشجار . و تخرج أهل المدينة و أعلنوا له
استعدادهم لصل ما يراه ملائماً . قال لهم : و إن كنتم تريدون حقاً أن ترضوني
فابحثوا لي عن منزل أشتره فأوى إليه أنا و أولادي . إذ كيف يناسم إلسان على
صرب و داخل حجرة بينما أحشائه في الشارع ؟ ، و تنفيذاً لهذه الرغبة جاءوه بعد
ساعة أو ما يزيد بقليل يخبرونه بأن هناك منزلاً تحيط به بساتين (١) رضى صاحبها
أن يبيعه له . و هذا البيت قائم على ربوة مرتفعة يمكن الجالس في شرفتها أن يرى
المدينة ممتدة أمامه إلى الشاطئ . و كان صاحب البيت مهمم فتفاوض الراعي
اليعقظ معه و اتفق على أن يدفع له تلك المبلغ ثم يأتي له بالباقي على سنتين متواليين .
و تمت الصفقة . و ألف القبط لأبيهم الروحي موكباً و ساروا جميعاً بترنمون

بالترانيم الكنسية إلى أن وصلوا للبيت الذي أصبح ملكاً لهم فأقام الأنبا باسيليوس صلاة الشكر ثم صلى على ماء ورش به البيت والبيارة وبات الجميع تلك الليلة معاً. وفي الصباح ذهبوا إلى مدينة الملك العظيم، وارتفعت صلواتهم في ذلك الموسم بأكثر حرارة وعرقان. وجمعوا كل ما استطاعوا جمعه من المال وقدموه لمطرانهم تقديراً لعطفه ومحبته. فلما انتهى موسم القيسامة المجيدة وطاد الأنبا باسيليوس إلى مصر ذهب إلى باباه وقال له: «أرجوك أن تعيدوني إلى الدير فليست بقادر أن أقوم بأعباء المطرانية التي شئت أن ترفعي إليها، وبالطبع استفسر أبو الاصلاح عن السبب لهذا الطلب الغريب، ولما عرف أعطاه مبلغاً من المال. ثم قصد إلى بيت واحد من كبار أغنياء المنصورة فلما قدموا له القهوة رفض أن يشربها إن لم يرصوا له الصينية بالجنيهات الذهب. ومن غير سؤال ولا تردد رخصوا له الجنيهات فجمعها. وبعد أن شرب القهوة أوضح لهم السبب في طلبه. وبمثل هذه الوسائل استطاع أن يجمع المبلغ المطلوب قبل موعد القديس التالي. فلما وصل إلى يافا وجاء أهلها للسلام عليه ومن بينهم الرجل الذي باع له البيت وقدم له المبلغ المتبقى عليه. وبأزاء هذه السرعة في دفع الدين تنازل له الرجل عن عشره وخلال اقامته في الأراض المقدسة في هذا الموسم الثاني شرع في بناء كنيسة في ركن من البيارة وأتمها في حياته. ثم لما بلغ نهاية الشوط على هذه الأرض دفنوه تحت المذبح هناك. أما البيارة فحفر فيها بئراً ارتوازيّاً وأقام إلى جانبه آلة بخارية لريها بسهولة وهكذا أصبح للفيط مكان ممتاز في يافا ما زال ملكاً لهم ولو أن الاسرائيليين خلعوا أشجار البرتقال كلها من بيارته كي لا تكون مخبأً يلبأ إليه الفدائيون العرب.

٢٤٦ - ولم يكتف بالشراء والبناء والتجديد، ولكن واجه بدوره تعنت

الاحباش فيما يتعلق بدير السلطان. فدار على خطة أسلافه بأن كافح كصاح

الابطال لاشتباه الدير في ملكية القبط . وعلى الرغم من تعاضد بعض الدول الغربية للأجباش فقد استمر في جهاده وقابل المسئولين من رجال حكومات روسيا وانجلترا ومصر ، ونجح في النهاية في الحصول من السلطان عبد الحميد على حكم تثبيت ملكية القبط للدير .

وهناك حجة في يد القبط في ١٧ ذى الحجة ١٠٩٥ هـ نشرها القمص جرجس النقادى الانطونى في آخر الدليل الذى كتبه عن مزارات القدس التابعة للأقباط قال فيه : وكان اطائفة الحبش قد بيل فضة اخذه الارمن لكونهم كانوا واضعين اليد على مواضع الحبش ومن أغرب ما يروى أن بدير السلطان شجرة اتخذها الاجباش اثباتاً لدعواهم فيقولون إنها الشجرة التى وجد فيها ابراهيم الخليل كبشاً مربوطاً فدى به ابنه اسحق ولهذا يكون الموضع موضع قربان الخليل . وبطلان الدعوى ظاهر لا يحتاج إلى دليل . فقد مضى على ابراهيم الخليل إلى اليوم نحو أربعة آلاف سنة . فن أين لشجرته أن تبقى إلى اليوم ؟ زد على هذا أنه جاء فى التوراة أنه قدم ابنه على جبل الموريا حيث بنى هيكل سليمان لا على جبل صهيون حيث بنى دير السلطان

وبعد حديثه عن دير السلطان والمنازعات التى لم تنته بعد حوله أورد توفيق اسكاروس سجلاً بأملك القبط فى لاراضى المقدسة مبتدئاً بذكرى كنيسة بناها مقارة النبر اوى بأمر الانبا ياكوبوس (البابا الاسكندرى الحمين) تعرف بكنيسة المجدلانية ، ثم عمرها منصور اليعقوبى التلبانى فى عهد البابا كيرلس الثانى (البابا الاسكندرى السابع والستين) . ثم انتقل بعد ذلك إلى أن للقبط مبرة عظيمة هى امتلاكهم هيكل ملاًصفاً للقبير المقدس يقع غربيه . ويعلق على ذلك بقوله : وما المأمل يرى ان اياً اوروبية كبيرة ليس لها أملاك أو حصص ولو حزئية فى هذه الكنيسة

(القيامة)، ومن ثم أخذوا يتحكّمون ويتصدون لهؤلاء الذين هم في ظنهم وحيطاء
واطيء، معتقدين أن ليس لهم من يقوم بالدفاع عن صواحبهم والذود عن حقوقهم.
ولكن الله قيض لهم الأنبا باسيليوس... وكذلك أورد سجلاً خاصاً به صور
د حجج ومضابط وأوامر بأحكام الوقف بالقدس الشريف وإيراد البطريركخانة
بتصديق أنبا باسيليوس مطران القياامة رقم غرة برمودة سنة ١٥٩٨ ش يتضمن
اثنين وخمسين حجة. وجميع هذه الحجج مصدق عليها إما من منصرفي القدس أو
القضاة الشرعيين أو السلاطين العثمانيين. وتصديقهم لم يأت عفواً بل كان نتيجة
لمسعى المتواصل الذي بذله الباباوات أو مطارنة القدس. فحق لنا هنا أن نهتف
مع النبي: وكيف يطرد واحد ألفاً ويهزم اثنان ربوة لولا أن صخرهم بأعهم
والرب سلهم. لأنه ليس كصخرنا صخرهم ولو كان أعداؤنا القضاة... فما
أعجب عمل الله الذي تجلت قوته في ضعف القبط.

٢٤٧ - وفوق هذا فقد جدد الأنبا باسيليوس كنيسة القياامة وشيد بجوارها
ديراً كبيراً على اسم الأنبا أنطوني وبعد ذلك أحاط الهيكل الذي يملكه الأقباط
والملاصق بقبر المقدس بسياج من الحديد المزخرف المفرغ. ولكن حيثما في
البناء لم تقتصر على القدس وباقا بل امتدت إلى الأيبارشيات الخاضعة له في مصر.
فشيده الكنائس التالية: ١ - كنيسة المنصورة سنة ١٤٨٤، ش، ٢ - كنيسة
طوخ طنبشا سنة ١٥٨٥، ش، ٣ - كنيسة الست دميانة سنة ١٥٨٧، ش،
٤ - كنيسة بلقاس سنة ١٥٨٧، ش، ٥ - كنيسة كفر نقباس سنة ١٥٩٥، ش،
٦ - كنيسة نبروه سنة ١٥٩٥، ش، ٧ - كنيسة بور سعيد سنة ١٦٠١، ش،
٨ - كنيسة القفلزم سنة ١٦٠١، ش، ٩ - كنيسة القشيش سنة ١٦٠١، ش،
١٠ - كنيسة أهنو سنة ١٦٠٢، ش، ١١ - كنيسة كفر سمري سنة ١٦٠٢، ش،

١٢ - كنييسة كفر يوسف شحاتة سنة ١٦٠٧ ش ، ١٣ - كنييسة كفر الحبير
سنة ١٦٠٨ ش ، ١٤ - كنييسة بنا سنة ١٦١٠ ش ، ١٥ - كنييسة السويس سنة
١٦١٤ ش ، وقد وجد بعض الكنائس بيوش ودمياط وسمنود في حاجة إلى
الترميم فأصلحها وجدد عمارتها .

٢٤٨ - وبما أنه اعتاد تفقد شعبه في مختلف الايبارشيات التابعة له ، فقد كان
يعرفهم ويعرف احتياجاتهم . ولذلك فقد خصص مراتب شهرية لخمسين عائلة
يصرفها لهم عينا أو يبعث بها إليهم في شكل حوالات بريدية . وهذه المراتب
ظلت طي الكتمان إلى أن انتقل إلى الدار الباقية وعندما انكشف سرها .

وكان من بين أولاده رجل موسر سخي في تقدماته . وحدث أن انقطع هذا
الرجل لجأة عن زيارة أبيه الروحي . فلما سأل عنه علم أن السبب في غيابه هو
الضيق المالي الذي أصابه . فأرسل يطلبه . ولما مثل بين يديه أعطاه خمسة جنيهات
لتغطية مصروفات السفر وخصص له راتباً شهرياً . وبدأ التملل على وجه الرجل
فقال له رجل الله : لا فضل لي إطلاقاً . فهذا مالك . والكتاب يقول لنا من
يمطي الفقير يفرض الرب . وأنت قد أعطيت الكثير للفقراء . فهذا مالك الذي
يرده إليك الرب لأنه لا يندى كأس ماء بارد .

ولقد أمد الله في عمره فظل في جهاده بلا هوادة مدى ثلاث وأربعين سنة .
ولكي يدرك القارىء إلى أي حد تفانى هذا الراعي في خدمة كنيسته تقدم مثلا
واحداً يتلخص في أنه أصيب بنزيف أثناء انهماكه في مباشرة الأعمال وهم يبنون
له الابنية الملحقة بكنيسة القيامة . وحدث أن ذهب لزيارته القمص عبد المسيح
رزق خادم كنييسة المنصورة فأشفق على أبيه الروحي واقترح على البنائين
بالكف عن العمل ريثما يستعيد صحته . فلما علم بالامر طلب أن يحملوه على كرسي

وينزلوا به حتى يباشر العمل رغم مرضه قائلاً إن واجبه له المكان الأول من نفسه
ولن يمنعه عنه غير الموت . وهذا الصبر من طاقته بلا حساب انتهى به إلى
المرض بالفالج مما أقعده عن العمل . فاختار أحد رهبانه هو القمص عبد المسيح
السنابى وكتب له تزكية أرسلها إلى البسبا كيرلس الخامس الذى رسمه أسقفاً
باسم نيموثيوس فى ٢٣ اغسطس سنة ١٨٩٦ م . ومع ذلك فقد ظل الانبا
باسيليوس المرشد والموجه والمناضل عن حقوق شعبه إلى أن استودع روحه بين
يذى الآب السهارى يوم الأحد ٢٦ مارس سنة ١٨٩٩ عن اثنين وثمانين سنة .

٢٤٩ - وهكذا نجد حياته صورة مشرقة تملأنا اعزازاً بهذه الكنيسة التى
لم تتحمل آباؤها الضيق والاضطهاد فقط بل تحملوا الافتراء أيضاً وصمدوا صمود
الاهرامات الثابتة فى وادىهم ، فأوضحوا بشبانهم الصامت انتصار الحق على الباطل (١) .

وما يجدر التأمل فيه أن مطران المنيا آنذاك - الانبا ياكوبوس - رأى وجوب
المحافظة على حق الفلاحين وكانت القاعدة المتبعة فى ذلك الوقت أن الاطيان التى
لا تزرع تظم إلى الدائرة السنوية (أى التى يمتلكها الوالى) . فكان إذا انحسر النيل
عن الاراضى التى غطاها بفيضانه يسارع الانبا ياكوبوس باحضار البذور ويزرع
الارض بيديه إلى أن تنجح فى ربطها على المزارعين سنة ١٨٥٦ (٢) . وهذا دليل
ضمن الأدلة العديدة على شجوية الكنيسة القبطية وعلى تشارك الآباء والابناء فى
مختلف أحداث الحياة . ولما كان الشئ بالشئ يذكر أقول إننى رأيت بعينى الانبا
ياكوبوس (مطران الكرسى الأورشليمى من سنة ١٩٤٧ - سنة ١٩٥٧) حينما

(١) « تاريخ الكرسى الأورشليمى » مقال اسكامل صالح نخبه نشره فى مجلة النهضة
المرقسية جدد مارس سنة ١٩٥٤ ص ٩٠ وأبريل سنة ١٩٤٥ ص ١١٩ - ١٢٠ ، تولى
اسكاروس ٢٠٠٠ ص ١٩٧ - ٢٧٩ .

(٢) « الكنيسة القبطية فى مواجهة الاستعمار الصهيونى » لوليم سليمان ص ٣٥ .

كان يستيقظ مع الفجر وينزل بجلبابه وطاقيه ليكنس ويمسح أرض كنيسة الانبا
انطوني وساحتها الواسعة التي تحيط بها غرف المقدسين . هذا في حين انه كان
يجلس على الكرسي الاسقفي بقاعة الاستقبال الفسيحة في وقار وعزة عند استقبال
قناصل الدول وموظفي الحكومة .

والى جانب البابارات والاساقفة وقف الكهنة والشعب . ولو ان معرفتنا
بالفستين الاخيرتين ضئيلة للغاية . على انه ما من شك في ان قمة الحرم ما كانت
تعلو نحو السماء لو لم يكن تحتها تلك السكتلة المتراحة من البيضان القوي . ومن
المعلومات الضئيلة التي بين ايدينا نعرف ان رئيس دير السيدة العذراء الشهير بالسريان
الذي عاصر ابا الاصلاح كان القمص عبد القدوس . وخلال رياسته جدد كنيسة
السيدة العذراء بالمغارة كما اصلاح سفالة الحصن . كذلك استحضر للدير كل
مستلزمات الطاحونة . ولقد قامت بينه وبين القمص داود الانطوني صداقة وثيقة
حتى انه كان ضمن الموقعين تزكيتته التي فاز بها واصبح كيرلس الرابع . وحدث
اثناء رياسة القمص داود لدير الانبا انطوني ان حلت بالدير ضائقة مالية .
فاستنجد بصديقه القمص عبد القدوس الذي اخذه الى الخزانة وفتحها له وقال :
خذ يا اخي كل ما تحتاج اليه . وبالفعل مد يده واخذ كفايته . فلما فاز بالبابارية
اراد ان يهبراً لصديقه عن عرفانه بحميلة فعرض عليه ان يرسمه اسقفياً . ولكن
القمص عبد القدوس رفض رفضاً قاطماً . وبازاء هذا الاصرار عرض عليه البابا
توسيمع دير السريان الذي كان آنذاك اصغر اديرة وادي انطرون حجماً . وارسل
ابا مستلزمات البناء ولكن المنية لم تم له لينفذ وعده . وما زالت العربية التي كان
قد ارسلها لنقل الحجارة موجودة في الدير حتى الآن .

† † †

استمرار السعى

١- الانبا ديمتريوس الثاني

- ٢٥٠- أهمية الوعي بالتاريخ
٢٥١- ذهول ثم الثقة
٢٥٢- رسالة على جانب من الطرافة
٢٥٣- الاجماع على رئيس دير انبا
٢٥٤- باكورة الجهاد البابوي
٢٥٥- بداية تفاعل السيطرة الغربية
٢٥٦- مخلب القط
٢٥٧- رعاية اسماعيل للمدارس القبطية
٢٥٨- رحلة بابوية الى الصعيد
٢٥٩- « قلب السلطان في يد الله (١) »
٢٦٠- سعى للتعمير
٢٦١- الشهادة لمدارس القبط
٢٦٢- بروز مصر
٢٦٣- نياحة الانبا ديمتريوس الثاني
- ٢٥٠- كتب محمد عبد الطيف يقول: « تاريخ الامة هو قيمتها في الحياة، وميزان تقديرها بين الامم، ومادة وجودها وسمودها في معركة البقاء والنماء، فلا يمكن لامة ان تبقى على طريق الحياة وهي متحللة من تاريخها، ولا ان تسير إلى غابتها ثابتة وهي منفصلة بحاضرها عن ماضيها، ولا ان تقف في غمرة الاحداث شائعة وهي تجهل آباءها وأجدادها. »
- على أن هذا التاريخ ليس بذى قيمة في ذاته مهما بلغ من اجماد واحتوى من رجال إلا إذا كان بكل ما بلغه واحتواه معنى يمس الأ نفوس أبناء الامة ويحرك عقولهم وقلوبهم للعمل في منفعة هذا الامة. والتمكين لها بكل ما تأتي به من التطور من قوة، وهذا المعنى هو الرباط الذي يربط الامة دائما بوحدة أهدافها الوجودية، فهي لا تنفك بهذا المعنى تأخذ من ماضيها لحاضرها، وتتحرك من قاعدة هذا الحاضر إلى ما تنشده وتطلبه من مستقبل.

فاذا علمت من هذا أن التاريخ هو المعنى الذي يقوم عليه وجود الامة، وأنه

روح الماضي الذي تطور به الامة إلى المستقبل ، أدركت المر الخطير فيما صنعه الاستعمار يوم دم بلادنا فأخذ يعمل جاهداً على فصل الامة المصرية عن تاريخها ، وبكافح كفاحاً وقحاً في شريعة العلم تزيف أجداد هذا التاريخ وتزوير الحقائق في عمل رجاله وأبطاله ... (١) .

واقف ككشف لنا التمن في باباوية أبي الاصلاح ان الغربيين لم يكافحوا لتزيف التاريخ فحسب بل وصلوا إلى تزيف جساد أبناء مصر حتى وهم بعد على قيد الحياة ، ولم يكافحوا في سبيل هذا التزيف أيام استعمارهم إيانا وإنما بدأوا كفاحهم الوقح قبل أن يستعمرونا بالفعل متستريين حتى خاف الدين للوصول إلى هدفهم . على أن الله الذي لا يدع نفسه بلا شاهد قد أقام من جنس المزييفين أشخاصاً يعلنون الحق جهاراً (٢) ومن هنا أن الاران لان تفتن في تاريخنا وتذكر واقعيته لتتخذ من تفتننا وادراكنا قاعدة الانطلاق نحو المستقبل .

٢٥١ - ومن هنا أيضاً يليق بنا أن نتابع السياج التاريخ لنجد أنه حين خلا الكرسى المرقسى باستشهاد أبي الاصلاح اصيب القبط بنوع من الذهول أدى إلى أن يظل هذا الكرسى العظيم شاغراً مدة سنة وأربعة أشهر ونصف . وحدث في أواخر هذه الفترة أن اجتمع مطارنة اورشليم ومصر ومنفلوط واتجهت انظارهم إلى ضرورة اختيار الراعي الاول . فاستدعوا الاراخنة الذين كانوا على صلة بهم وتناقشوا معهم في هذا الموضوع الحيوى . واستقر الراى على وجوب دعوة الانبا . يؤنس أسقف المنوفية (وهو القس برسوم الانطونى الذى كان قد رافق الانبا كيرلس الرابع في رحلته الاولى إلى الحبشة) فكتبوا إليه يدعونه وليكنه لم يرد عليهم .

(١) من مقال له نشره في جريدة الأخبار يوم الأربعاء ١٢ يونيو سنة ١٩٧٤ بعنوان « تاريخنا الذى ضاع » .

(٢) مثل كتاب : Throop : Criticism of the Crusades

٢٥٢ - فلما استبطأوه بعثوا إليه بالرسالة التالية : وطلع شمس المعارف
وقرأها ، وكوكب طموس الاكبروس وبدرها ، وغرة الأئمة المفضلين الروحانيين
ونصرة الآباء المكملين المنتخبين ، مصباح البيعة الارثوذكسية وأمين الاسرار
السامية القدسية ، ينبوع الفضائل الزاهرة وذو الخلال النسكية البارعة .

قدس الاخ الحبيب المطران الانبا يونس صاحب كرمى المنوفية :

لا زال محفوظاً بالعناية الربية ملحوظاً بالمكارم السيدية . ولا برج مبتهجاً
بنجاح رعيته مسروراً بطمانينة وهدوء كرازته . بشفاة الست مرتيم ذات
القدس والطهارة ومعدن العفة والبرارة . وطلبات الرسول الطاهر مار مرقس
الانجيلي كاروز الديار المصرية . والاب الطوباني أبنينا انطونيوس كوكب
البرية . آمين .

و اما بعد القبله الروحيه الطاهره واهداء وجوب التكريمات اللائقة للحضرة
الفاخرة . ثم تقدم السلام القلبي لآخوتكم . والشوق الحقيقى الوافر نحو محبتكم .

فالذاعى للدراسة (أولاً) لافتقاد الخاطر الشريف الباهى للود النقي والحب الإلهى
(ثانياً) نخبير قدسكم أنه قبل تاريخه فى ١٩ توت سنة ١٥٧٨ ش كتبنا لقدسكم
خطاباً مفيداً أنه بحسب الاقتضى ستلزم الحال لحضور حضرتكم إلى المحروسة
بالقلاية البطريركية لأجل باجتماعنا بجمعية البطاركة خاتمة تصير المداواة والمرأوية
مع بعضنا بإرادة المسيح إلهنا بصير انتخاب من يريد الله تعالى بطيركا للطائفة
بحضور حضرتكم . وأكدنا عنه سرعة حضوركم قبل بوقت لاتمام اللازم . ومن

التاريخ المذكور لفساية هذا اليوم ونحن منتظرين لشريف القلاية بقدمكم .
وحاصل منا غاية المراقبة لقدم قدسكم لإجراء ما ذكر .

و حيث صار تأخير حضوركم قدر كذا فاقضى تحرير هذا لآخوتكم على

قبول الاستعجال عنه بتشريف قدومكم لهذا الطرف بسرعة لاتمام ما سلف ذكره
بمضورنا جميعاً بتدبير إلهنا الصالح . ونعمة ربنا يسوع المسيح تصحبنا جميعاً .
والشكر لعظمته دائماً أبدياً آمين .

تحريراً في ٣ بابة سنة ١٥٨٧ ش .

أثناسيوس باسيلوس داعي صالح دعاكم

أسقف (١) منفلوط مطران القدس الشريف بطرس مطران مصر

وفي أثناء هذا تصادف ورود خطاب قدسكم رد ما أرسل لحضرتكم وبه
تعتذرون عن عدم امكانكم الحضور بداعي كثرة المياه وتقطيع الجسور . ولدى
تلاوته بمضور حضرات اولادكم عمدة الطائفة أعني جمعية البطر كخانة فلم يقبلوا
ذلك وخرجوا لقدسكم عن الحضور بما فيه الكفاية . ولأجل ذلك لزم التحشية .
وحضر مسطره ولدكم القمص حنا يقبل أياديكم مع التماس صالح دعاكم وأطال
الله بفساكم .

(صورة طبق الاصل محفوظه)

طالب دعاكم

ولدكم القمص حنا خادم أنطونيوس (٢)

بمكتبة الدار الباباوية)

٢٥٣ - واستجاب الأنبا يؤلس لهذه الدعوة الملحة . وما أن انتهى الجميع من

التداول حتى انتهت كلتهم جميعاً إلى اختيار القمص مينخائيل عبد السيد رئيس دير

الأنبا مكاري الكبير للمكرامة الكهنوتية العظمى . وأقيمت شعائر الرسامة الجليلة

في ٩ بؤونة سنة ١٥٧٨ ش فأصبح هذا القمص المكاري البابا المرقسي الحادي عشر

(١) تجدر الإشارة إلى أن الأسقف وقع بامضائه قبل المطرانين مع أن أحدهما مطران

القدس ، وفي هذا دليلاً : الأول أن الرتبة الكهنوتية واحدة ، والثاني تقدم الأسقف لأن
مراعاة المدة التي قضاها الإنسان في الكهنوت كان معمولاً بها منذ العصر الرسولي .

(٢) كامل صالح نخلة : « سلسلة . . » الحلقة الخامسة ص ٢٢٨ - ٢٣٠ ، ومما تجدر

الإشارة إليه مدى تغير التعبيرات القنوية خلال قرن من الزمان .

بعد المئة باسم ديمتريوس الثاني وقد وصفه معاصروه بأنه كان «شهماً عاقلاً محباً
للمعلوم فاعتنى بترتيب المدارس وبالغ في وضعها على النحو الذي نجاه كيرلس...»^(١).

٢٥٤- وأول زيارة قام بها البابا ديمتريوس كانت لسعيد باشا الوالي الذي هنا
على الكرامة التي نالها ثم قال له : « لا تفعل مثل سلفك ، بل كل ما يلزمك قل لي
عليه مباشرة وأنا مستعد لأن أؤديه لك » . وليس من شك في أن المتأمل في هذه
الملحوظة يستشف شيئاً من الأسو ضمناً . ومن يتدبر ما إذا كان حدث لو أن الأبا
كيرلس لم يرد دعوة الوالي وذهب إليه قبل التوجه إلى الدير ؟ ولكن لنندع هذه
المخاطر جانباً لأننا لن نستطيع الوصول منها إلى رد حاسم لسكي لسير مع البابا
ديمتريوس وتابع خطراته . فنجد أنه وجه نظراته الأولى إلى الكنيسة المرقسية
التي كان أبرز الإصلاح قد شرع في تجديدها فأتم بناءها ثم زخرفها^(٢).

٢٥٥- ولما رأى الغربيون هذه البداية الحسنة التي استهل بها الأبا ديمتريوس
الثاني عهده رأوا أن يقللوا من قيمة هذا النشاط . فذهب القنصل الأمريكي لمقابلة
سعيد باشا ورجا منه أن يمنع الارسالية الأمريكية منزلاً أو قطعة من الأرض .
فقبل الوالي رجاءه وأهدى للارسالية مبنى كبيراً في أول شارع الموسيقى (الذي كان
الشارع الرئيسي آنذاك) ، وكان ذلك في سنة ١٨٦٢م أي في نفس السنة التي تمت
فيها رسامة البابا المرقسي . ومن العجب بمكان أن الارسالية الأمريكية انتفعت
بالمبنى الذي جعلت عليه مجاًناً خلال عهد سعيد ، فلما آل العرش إلى اسماعيل باشا
باعته له بمبلغ سبعة آلاف جنيه^(٣).

(١) « السكان » لميخائيل شاروويم ج ٤ ص ١٧٧ .

(٢) ظلت هذه الكنيسة البابوية على ما أرساها عليه البابا ديمتريوس حتى عهد الأبا
كيرلس السادس (البابا ال ١١٦) الذي رممها وجدها .

(٣) « الكنيسة القبطية في مواجهة الاستعمار والصهيونية » لوليم سليمان ص ٢٥ نقلاً

من كتاب : Earl E. Elder : " Vindicating a Vision ... " p . 28

تم تولى اسماعيل باشا حكم مصر في ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ . وكان رجلاً واسع الأفق يستهدف النهوض بالبلاد . فكان يستخدم الاكفاء من الرجال سواء اكانوا مسلمين أم قبطاً . إلا أن ميله للأوروبيين والامريكيين طغى عليه طغياناً أفقده عرشه في النهاية . فانهزوا وفرصتهم وأخذوا ينشرون مدارسهم : لا في المدن فقط بل في القرى أيضاً . وكانت خططهم موضوعة بحيث تضي على نشاطهم نوعاً من المهابة وتتلخص في أنهم كانوا يبدؤون دائماً بافتتاح مدرسة في البقعة المختارة . والمدرسة طبعاً مكان تتطلع إليه الابصار وبخاصة في عهد اسماعيل الذي سعى بكل جهده إلى نشر التعليم على مختلف مستوياته . فيجد المصريون مدرسة فيها المعلمون (أو المعلمات) الذين تركوا الأهل والوطن وجاءوا خصيصاً لخدمتهم . وهذا الموقف في حد ذاته ينتزع التقدير للتضحية المبذولة . ويدخل أولاد المصريين (وبناتهم) هذه المدارس فيجدوا فيها كتباً ووسائل ايضاح تبهرهم فيزداد تقديرهم لأولئك المرسلين وفوق ذلك فالفقراء يمكنهم أن ينالوا العطف بتخفيف المصروفات عليهم أو حتى بالمجانة . وبكل هذه الوسائل ، المثل ، تصبح المدرسة الأجنبية في أعين المصريين أشبه بالواحة المثمرة وسط الصحراء القاحلة . وأخذت هذه المدارس الفرنسية والإيطالية (كاثوليكية) والانجليزية والامريكية (بروتستانتية) تنتشر في أنحاء مصر وبخاصة في الصعيد .

٢٥٦ - ومن المؤلم أنه كانت قد قامت فتنة دينية في سوريا أدت إلى تمكين السيادة الغربية هناك (١) . وعلى أثر هذه الفتنة جاء المرسلون الامريكيون إلى مصر ومعهم مجموعة من السوريين الذين استمالوهم إليهم . فكان هؤلاء السوريون التسكينة التي استند إليها الامريكيون في عملهم بين المصريين . فإنهم اختطوا خطة

(١) مصطفى الخالدي وحمز فروخ : « التبشير والاستعمار في البلاد العربية »

مماثلة في بلادنا لتلك التي حدثت في سوريا لجموع الفارس الحكيم (أحد الوافدين السوريين) يشير فتنة كبيرة في أسبوط اتخذتها سلطات واشنطن ذريعة لتطالب إلى إسماعيل باشا تعزيز مركز المبشرين وأعوانهم . ومن هنا سرى شعور في مختلف الجهات بأن المرسلين إنما جاءوا للشر النفوذ الاجنبي في مصر ^(١) .

٢٥٧ - ومقابل هذا السطو الاجنبي المتزايد من خلال الدين والعلم نال القبط بعضاً من عناية إسماعيل باشا إذ قد منحهم جملة من الاراضي الزراعية ثم أصدر أمره إلى وزارة المعارف العمومية ، ^(٢) بإجراء امتحان تلاميذ المدارس القبطية بعد امتحان تلاميذ المدارس الاميرية . والطريف أنه بمناسبة الامتحان (في المدارس القبطية) كان يقام احتفال عظيم يدعى إليه العلماء والامراء وكبار القوم يتقدمهم مفتي الديار المصرية نفسه .

٢٥٨ - ثم تفتنت الحكومة المصرية لحركة المدارس الاجنبية فأدركت انها إنما تستهدف اضعاف الروح الوطنية والفرقة بين عنصرى الامة فأصغت إلى رجاء الانبا ديمتريوس بأن يقوم برحلة راعوية يهيب فيها بشعبه أن يتمسك بعقيدته الارثوذكسية التي تسلبها عن الآباء ^(٣) . وتحقيقاً لرغبة هذا البابا السامر أصدر إسماعيل باشا أمره بشيئة باخرة حكومية ليسافر عليها البابا المرقسى ورجاله . وبالفعل استقلها واستصحب معه اللاهوتى الكبير الايفوماكس فيلوثيموس عوض خادم الكنيسة المرقسية بالازبكية وعدداً من الآباء والشمامسة . وأخذوا يتنقلون بين مدن انصعيد وقرراه إلى آخر حدود مصر الجنوبية . واستغرقت رحلتهم ثلاثة

(1) D. Watson : "The American Mission in Egypt" pp. 126 - 136, 332 and 442 .

(٢) أو وزارة التربية والتعليم .
(٣) ما أبدت هذه الصورة من تلك التي رسمتها لنا الدعايات الأجنبية فأدخلت في روحنا أن رعاتنا كانوا جهة خاملين !

شهور اجتمعوا خلالها بالشعب القبطى فى كل الجهات التى زاروها . وأزرتهم
النعمة الإلهية فنجحوا فى استرداد أبناء الكنيسة المصرية إلى أمهم الرؤوم ومن
دواعى اعزازنا أن صفحات كتب المرسلين تمتلئ بوصف الجهود التى بذلتها
الكنيسة القبطية لتجميد نشاطهم فى وادى النيل كله وتكثف شعب الكنيسة
بأجمعه لمواجهة الوافدين (١) .

ثم قام المرسلون بحملة عضادة بلغت من العنف درجة بعيدة عن التصديق :
ذلك أنهم نجحوا فى استفزاز ثلاثة من رجال القبط الذين انضموا إليهم ، ثلاثة
ليسوا من الجبهة ولا من العامة وسكنهم من بيوت معروفة - أحدهم من بيت
ويصا وثانيهم من بيت الزقيم وثالثهم من بيت جبل . وقد دفع الاستفزاز هؤلاء
الثلاثة إلى أنهم ذهبوا بعد منتصف الليل إلى كنيسة المطرانية ليحاولوا احراقها
لأنها كنيسة تزخر بالخرافات وبالتهاليم الوثنية المتشابهة داخل المسيحية (
(وكان ذلك سنة ١٨٦٥) . ويبدو أن التراث الذى ملاحم هؤلاء الرجال
ملاحمة مما يفعلون لأنهم افرغوا علبه كبريت كاملة دون أن ينظفوا اشعال
النار ، وكان اسقف أسبوط (واسمه مكار يوس) آنذاك مضادا أن يهمل صلاة
باكر فى الكنيسة لا قلايته . وحين قام فجر ذلك اليوم وقف ملك الرب أمامه
وقال له : « عد إلى عندك فالوقت لا زال مبكرا ، وأطاع الاسقف الأمر وعاد .
وكان هذا الانذار الإلهى صوتا للرجل من أن يؤذيه المعتدون على الكنيسة . ولما
وجد الرجال الثلاثة أنهم عاجزون عن احراق الكنيسة قطعوا الستار ورءوا
بالايقونات على الارض . فلما أصبح الصباح وانتشر خبر هذا الاعتداء على الكنيسة
من رجال حرص أبائهم واجدادهم على هذه الكنيسة سرت موجة من الغضب
أدت إلى أن يصدر إسماعيل أمره بنفى الممتدنين الذين لم ينجحوا من الاعتراف
(١) ولهم سليمان : « الكنيسة ... » س ٢١ نقلا من أندرو واطن .

بفعلتهم . واسكن قباصل الدول البروتستانتية (الامريكية والانجليزية) سعدا لدى الخديوى الذى قبل وساطتهم وأصدر أمره بالمغفرة . وكان عنوه هذا سبباً فى جعل المتخرفين أن ينضموا إلى الكنيسة البروتستانتية التى أسسها هوج الاسكتلندى (١) .

٢٥٩ - ثم حدث أن جاء السلطان عبد العزيز لزبارة مصر تلبيةً لدعوة إسماعيل باشا وخلالها أنعم عليه بلقب « خديوى » واحتفاءً بمقدم السلطان دعا الخديوى مختلف الناس إلى قصره لتحية ضيفه الكبير . وكان التقليد السلطانى يقضى بأن من يمثل بين يدى السلطان عليه أن يقبل هدب ثوبه . فلما وصل البابا المرقسى إلى حيث جلس عبد العزيز قبّل صدره ناحية القلب . فأصيب الحاضرون بدهشة لهذا المسلك وسأل السلطان عن معناه . وكان القمص سلامه وكيسل البابوية مع باباه آنذاك وهو يجيد التكلم بالتركية (٢) . فترجم كلام باباه مجيئاً على السؤال السلطانى بقوله : « فى كتابنا المقدس آية تقول أن قلب الملك فى يد الله . فأنا بتقبيل صدركم إنما قبّلت يد ملك الملوك وسلطان السلاطين » . فأشرح عبد العزيز وابتسم سروراً . وبأزاء رضى السلطان قرر الخديوى إسماعيل أن يمنح البابوية القبطية ألفاً وخمسمائة فدان من أملاك الحكومة للصرف منها على المدارس وغيرها من المرافق القبطية ، بخلاف النفقات التى كانت يده الكريمة تمتد بها إليهم من وقت لآخر (٣) . فكانت هذه الهبة السخية مدعاة إلى ازدهار المدارس واتساع عملها .

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص ص ٧٢٢ - ومما يذكر فى هذا الصدد أن لجنة البعثات التابعة للمعهد المائى للدراسات القبطية كانت تصفى صباح الأربعاء الثانى من مايو سنة ١٩٦٦ إلى محاضرة للأنبا صموئيل أسقف العلاقات العامة ذكر فيها هذا الحادث . فقاطعه احدى الحاضرات بقولها : « مش معقول ا » أجابته - ا شابة من بيت وبصا لساعتها فائلة : « ايوه جدى كان واحد من الثلاثة ا » . ولا يحتاج مثل هذا الحدث إلى التعليق .

(٢) هذا أيضاً مثل من أن الكنيسة القبطية كانوا متعلمين بخلاف الصورة العالقة فى أذهاننا نتيجة للدهابات المفروضة .

(٣) « عصر إسماعيل » لالباس الابوي ج ١ ص ٢١٠ - ٢١٢ .

٢٦٠ - وكانت للبابوية القبطية إذ ذاك اثنتي عشرة مدرسة بالقاهرة وواحدة بمصر العتيقة وواحدة بالجيزة ومدرستان بالاسكندرية (بين بنين وبنات) يتعلمون فيها اللغتين القبطية والعربية والحساب ومبادئ الهندسة والتاريخ والجغرافيا ومبادئ المنطق والألحان الكنسية ثم الفرنسية أو الإنجليزية أو الإيطالية. ويجدر بنا أن نلاحظ أن المشوارين عنها جعلوا القبطية لغة أساسية، وذلك بخلاف ما حدث بعد الاحتلال وانتشار المدارس الأجنبية .

٢٦١ - ولما كانت وشهادة الذين هم من خارج ، ذات وقع خاص فإننا نورد هنا ما سجله الياس الأيوبي في حديثه عن المدارس التي نشرها الأمر بكيون فقال :
« وكانت مدرستهم الكبرى لأصفيان بمصر في بادية الأمر في يد أقباط اعتنقوا البروتستانتية ، ولم يكونوا يحسنون الإدارة ولا التعليم . فكان كلاهما مختلا ، بخلاف مدرستي البنات في حارة السقاين والأزبكية (للأقباط) فإنها كانتا من خيرة معاهد ذلك العصر . »^(١)

كذلك وجد البابا ديمتريوس الثاني الفرصة مواتية لبناء السكن البابوي إلى جوار الكنيسة المرقسية من ناحيتها الغربية^(٢) . ولما انتهى من بنائه أكمل العمارة التي كان قد بدأها في عزبة دير الأنبا مكاري الكبير أيام رياسته لهذا الدير .

٢٦٢ - وما يجدر ذكره أن مصر في السنوات الأولى من حكم اسماعيل أصبحت لها مكانة خاصة بين الدول ومن مظاهر هذه المكانة أن الخديوي تفاوض رأساً مع الدول الأوروبية في موضوع استبدال المحاكم القنصلية بالنظام القضائي

(١) شرحه ج ١ ص ٢٢١ .

(٢) ظل هذا السكن مقراً للباباوات المرقسيين إلى نباحه الأنبا كيرلس السادس (البابا

ال ١١٦) إذ قد نقله الأنبا شنودة الثالث إلى جوار الكاتدرائية المرقسية العظمى بأرض الأنبا رويس .

المختلط . كذلك جعل مصر تشترك في معرض باريس حيث أقيم به قسم خاص لها
جمع بين صنوف البهجة والعظمة وافتتحت الانظار إلى الانتاج المصرى
وامكانياته (١) .

ومن مآثر اسماعيل أيضا أنه استهدف استغلال الكفاءات : صحيح أن
الوظائف العليا كمدبرى المديرية مثلا ظلت في أيدي الترك ، ولكن الوظائف
الأخرى كانت مفتوحة للجميع - للمسلمين والقبط (٢) . ولهذا السبب نجد أن عدداً
من الأراخنة قد برز في هذا العصر .

٢٦٣ - على أن العمر لم يمتد بالانبا ديمتريوس الثاني كما امتد بسميه الأول (٣) .
فلم تستمر بابويته غير سبع سنوات وسبعة شهور وثلاثة أيام وكان انتقاله إلى
عالم النور ليلة عيد الفطاس ١١ طوبة سنة ١٥٨٦ ش . ولقد اشتركت الحكومة
المصرية ورؤساء الطوائف المسيحية مع الأقباط في احتفالهم بجنائزته .

وعلا بالتقليد الكنسى اختير الانبا مرقس مطران البحيرة ليكون قائم مقاماً
بطريركياً إلى أن يتسلم البابا الجديد مهام كرامته . على أن الكرسي المرقسى ظل
شاغراً أربع سنوات وتسعة أشهر وأربعة عشر يوماً (٤) .

+

(١) مصر اسماعيل « لعبد الرحمن الرافى ج ١ ص ٨٣ - ٨٤ » .

(٢) الياس الايوبى ج ١ ص ٦٢

(٣) انظر « ديمتريوس الكرام فى ج ١ من هذا الكتاب .

(٤) كامل صالح نخلة : « سلسة .. » الحلقة الخامسة ص ٢٢٨ - ٢٣٤ ، ويوسفى

أنفى لم أذكر على ترجمة أى من المطارنة الذين ساندوا هذا البابا فى سعيه البناء .

ب - ثلاثة من الكهنة الشيطانيين

٢٦٤ - الايفونمانس فيلوثاؤس

٢٦٥ - الايفونمانس تادرس مينا

٢٦٦ - القمص عبد الملك الهوارى

٢٦٤ - رأت عيناه النور في مدينة طنطا سنة ١٨٢٧ م ، وأبوه المعلم بغدادى صالح من أراخنة تلك المدينة ، وأمه الست مريم من عائلة النجارين بسبرباى .
تلقى العلم فى الكتّاب تبعاً للتقليد القبطى آنذاك . فلما انتهى من هذه الدراسة التحق أبوه بالعمل فى محل كبير للتجارة حيث تمرن خلال عمله على الأعمال الحسابية والتجارية . وبعد سنة واحدة من العمل رفاه صاحب المحل إلى باشكاتب اللغة العربية - إذ كانت اللغات الأوروبية المختلفة قد بدأت تظهر مذاك فى مختلف المحال والمصالح الحكومية . وفى تلك الفترة واظب على تعلم الإيطالية إلى أن أجادها .
ثم حدث أن زار سعيد باشا الوالى مدينة طنطا سنة ١٨٥٥ م فقابله الأراخنة ورجوا منه أن يأذن لهم ببناء كنيسة لأن كنائسهم القديمة تهدمت ولم يتمكنوا من إقامة غيرها . فأعطاهم سعيد باشا فرماناً يخولهم الحق فى بناء كنيسة . ولكن رجال الحكومة المحايين أقاموا المراقيل الجمّة فى سبيل تنفيذ فرمان . فانتخب القبط المعلم فيلوثاؤس ومعه المعلم عوض صليب البيراوى اينوبا عنهم فى مقابلة سعيد باشا ووسط شكواهم أمامه . فسافر أربع مرات إلى الاسكندرية لهذا الغرض . وقد عاونهما فى مهمتهما المعلم فيلوثاؤس بشاى كانب الوالى . وبهذا السعى المتواصل نجحوا فى وضع الحجر الأساسى فى ١٦ أيدب سنة ١٥٧١ ش بحضور رجال الحكومة . وتم بناء الكنيسة بهمة وصراحة حتى أن أول قداس أقيم فيها فى يوم الاحد ١١ باه سنة ١٥٧٢ ش (أى أنهم لم يستغرقوا غير سنة وثلاثة شهور لإتمامها) .
ثم صدر الأمر بضم مديرتى الغربية والمنوفية معاً وإطلاق اسم روضة

البحرين ، على المديرية الجديدة على أن تظل طنطا العاصمة . وفي تلك الآونة تعيين فيلوثاؤس في قلم المرحلات - وكان ذلك سنة ١٨٥٥ . وذهب في تلك السنة لزيارة صديقه المعلم عريان مفتاح في القاهرة ، وذهب الصديقان معاً لنوال بركة كيرلس الرابع . وقد أعجب البابا الكبير بفصاحة فيلوثاؤس وجرأته على التحدث فاقترح عليه الدخول إلى المدرسة الكبرى لتعلم الدين واللغة القبطية وغيرهما من العلوم . وأطاع الشاب اقتراح باباء وظل دائماً على التعلم واكتساب المعرفة إلى أن عينه البابا ناظرًا للمدرسة التي أنشأها في المنصورة . ولكنه اضطر إلى تركها بعد سنتين على أثر إستهاد أبي الإصلاح ، فعُين المدرس الأول للغة القبطية في حارة السقاين والثاني في المدرسة الكبرى .

ثم أحس أمالي طنطا بأنهم في حاجة إلى كاهن مدرك لقيمة الرهاية فوقع اختيارهم على فيلوثاؤس وأفصحوا عن رغبتهم إلى أنبا يونس مطران المنوفية . فأرسل إلى القاهرة يطلبه بحجة أن عنده كتاباً يريد أن يصححه وبالطبع لم يوافق . وذهب . وفيما هو منفصل بالكتاب وضع المطران عليه اليد ليربطه عن العودة . وفي يوم الأربعاء ١١ يونيو سنة ١٨٦٢م أقيمت الشعائر المقدسة لتكريسه بحضور أنبا اثناسيوس أسقف أبو تيج وعدد من الكهنة والشمامسة والآراخنة من شعب طنطا الحاملين زكيت . وكان ذلك في كنيسة مار جرجس بحارة زويلة (بالقاهرة) ومن العجيب أن البابا ديمتريوس الثاني رسم بعد ذلك بأربعة أيام فرأى الاحتفاظ بالقص الجديد . ونتيجة لهذا الرأي ظل القس فيلوثاؤس شهراً في القاهرة ذهب بعده وفقد من طنطا يلتمس من البابا إعادة كاهنهم اليهم . فقبل رجاءهم وأعادهم معهم . ومن نعمة الله أن القمص تادرس ابن المعلم عوض صليب البيراوى كان كاهناً آنذاك في طنطا فتعاون الاثنان معاً داخل الكهنوت كما كان أبو القمص تادرس قد تعاون مع المعلم فيلوثاؤس أيام أن جاهدوا معاً لبناء الكنيسة في طنطا .

ومن أبرز صفات القس فيلوثاؤس مقدرة الخطابية فكان يستأثر بقلوب سامعيه كلما وقف بعضهم . ثم رفقه العناية الإلهية إلى زيارة القديس في موسم القيامة المجيدة من سنة ١٥٧٩ ش ، فكان الخطيب الموقر في مختلف مناسبات أسبوع الآلام بما أكسبه مكانة خاصة في قلوب محبي العقيدة الأرثوذكسية التي كان يوضحها بجلاء تام . فبعد عودته من القدس بما يقرب من سنة وانصف رسمه مطرانه وأيقومانسا ، (أي قساً) .

وحدث أنه ذهب لزيارة الأراض المقدسة للمرة الثانية سنة ١٨٦٦ م ، وبعد الابتهاج بتعميد القيامة المجيدة قصد إلى بيروت ومنها إلى دمشق . وقد لاقى في كلتي المدينتين كل إكرام وتعمير لجراته في توضيح العقيدة الأرثوذكسية . وقد منحه البطريرك الأناطلي الفرصة لتأدية شعائر القديس الإلهي تبعاً للأطقس القبطي في كنيسة السريان الأرثوذكس بدمشق وحضر القديس جمع من مختلف الكنائس أبدوا بعدها تقديرهم له حتى لقد ظل بعضهم يكانبه فترة طويلة بعدها .

وعندما قام البابا ديمتريوس الثاني برحلته الرعوية إلى الصعيد لافتقاد شعبه حرصاً عليه من تلاعب المتلاعبين اصطحب معه الإيقومانس فيلوثاؤس . وخلال هذه الرحلة كان يقف في كل مكان ليبين للقبط قيمة تراثهم الروحي . بل إنه في مرة من المرات ظل يتحدث ثلاث ساعات متوالية مبرهنناً على صحة العقيدة الأرثوذكسية . وأصفى إليه الجميع باهتمام بالغ إلى أن انتهى وعندها قال لهم الأب البابا ديمتريوس : وإن كل ما قامه الخنايب هو معتقد الكنيسة القبطية الصميم فاثبتوا على هذا التعليم القويم .

كذلك كان الأب ديمتريوس الثاني يستدعيه في كل فترة من فترات امتحانات المدارس القبطية - إذ كانت الحكومة تهتم بها اهتماماً خاصاً . وفي الليلة التي اتقل

فيها البابا إلى الفردوس أرسل الأراخنة تلمزافاً يستدعونه . لجاء ووقف يوثى
بابا، في أثناء شعائر التجنيز . وبعدها طلب إليه هؤلاء الأراخنة أن يشرف على
المدارس القبطية بالإضافة إلى عمله الراعى في طنطا فنزل على رغبتهم ووجه
عناية كبرى إلى تلك المدارس .

وفي الجفلة التي أقيمت بمناسبة الامتحان - في ٦ فبراير سنة ١٨٧١ م - وقف
تخليياً كالمعتاد . ثم كتب مقالا في مجلة الجنان ، يصف فيها هذا الامتحان تقطف
منها ما يلي : .. حينئذ تخطر وماضيين إلى مجلس الاختبار . وأصوات الموسيقى
تعاذهم بتواقيع الفخر والاعتبار . إلى أن انتظم عقد ذلك المجلس الأيس .
وتعطر المقام بفوحات عير أنسهم النفيس . وكان ذلك النادي حافلا بيدور
الحكومة السنية الإسماعيلية . وغرر الدولة العزيزة العلية . حضرة المولى الأستاذ
شيخ الجامع الأزهر مفتي أفندي الديار المصرية . وحضرة الأستاذ العلامة مفتي
مجلس الأحكام القطرية . وحضرات الذوات الكرام سعادتلو شريف باشا ناظر
الداخلية . وسعادتلو منصور باشا صهر الحضرة الخديوية العلية . وسعادتلو
إسماعيل باشا صديق ناظر المالية . وسعادتلو عبد الله باشا فكري رئيس مجلس
الأحكام المصرية . وسعادتلو راتب باشا رئيس مجلس شورى النواب . وسعادتلو
حافظ باشا ناظر الدائرة السنية الرفيع الجناب . وسعادتلو بهجت باشا ناظر المدارس
والإشغال الميرية . وسعادتلو أحمد باشا صادق محافظ مصر . وسعادتلو ثابت
باشا وكيل الداخلية . وعزتلو محمد بك سيد أحمد ناظر قلم عربى الداخلية ومصر
كاتب المجلس المحصوحى الأكرم . وعزتلو مصطفى بك وهبته مصر كاتب مجلس
شورى النواب الأثم . وعزتلو إسماعيل بك الفلكى ناظر الهندسخانة والرصدخانة .
وعزتلو السيد بك صالح مأمور إدارة المدارس الميرية المصانة . وعزتلو شافعى
بك رئيس مدرسة الطب الشهير . وعزتلو عباس بك ناظر قلم تركى الداخلية .

وحضرات الأمراء والأعيان والتجار . حضرة يوسف عبد الفتاح شاه بندر تجار مصر وباقي حضرات الأعيان أولى المحامد والفخار . ووجه الملة المختبرين الفخام . وسيادة السيد المطران وكيل البطريركية الكلي الاحترام . وقد شرف كل في مكانه . وأخذ افتتاح الامتحان في إيبانه . وكان المترأس عليه من أجزال المولى نعمه لديه . سعادة رفاعة بك رافع الشائع سني صيته الذائع . تقدم التليذ الابتدائي تاليا خطبة استفتاحية . من قلم مصفى افندى رضوان خوجا أول فرانسوى ذى الفصاحة الالهية . وكان التليذ يوسف وهبة أفندى النجيب . الذى أجاب بإيضاح اللفظ والمعنى المصيب . وتلاه التليذ يسى أفندى هبة الشهيد الفصحن البارح المجيد ... (١) .

ثم عندما استقر رأى بعض الأراخنة على وجوب انشاء مجلس من الشؤون بمرافق الكنيسة كان الايفورمانس فيلوثاوس من أوائل الساعين إلى انشائه لاقتناعه بأن الشورى خير سبيل للوصول إلى الاصلاح (٢) . ولما تألف المجلس بالفعل

(١) قصدت تسجيل هذا الجزء من المقال لهدفين : أولها اظهار مدى اهتمام رجال الدرقة آنذاك بامتحانات المدارس القبطية كما يبدو ذلك واضعاً من سجن الأسماء الواردة ، وثانيها المقارقات بين ما كانت عليه الامتحانات وما هي عليه الآن . والتليذان المذكوران صارا قاضين فيما بعد الأول بالمهكمة المختلطة بالاسكندرية والثانى بالمهاكم الأهلية .

(٢) كانت الشورى هي خطة الكنيسة القبطية منذ نشأتها بدليل أن قوانينها الاصلية جعلت السلطة العليا في المجمع لاني البابا (مها عظم قدر الباباوات) ، وأنها ضلت وجوب انتخاب الشعب لرئاسته بمختلف درجاتهم : السكاهن والأسقف والبابا . بل لقد أعلن الأنبا نينوفيلس الكبير (البابا الاسكندري الثالث والمشرون) أن انتخاب الرعاة محصور في الشعب وما على الاواقفة غير وضع اليد ورسامة الخنار منه . ولئن حصل في بعض الفقرات تقصير في تنفيذ هذا الاشراف الكنسى الأصيل فلا يبرر هذا التقصير المآسى التى حدثت نتيجة التنازع بين من هم المفروض فيهم أنهم أراخنة وبين رجال الكهنوت . ثم علينا أن ندرك أن التقصير لم يحدث من جانب واحد : فكان أحيانا من جاب رجال الدين وأخرى من الأراخنة خاصة والشعب عامة . راجع ما كتبه الأنبا شنودة (أسقف القوية الكنسية) في الكرازة بعدد أكتوبر سنة ١٩٦٥ ص ٢ بعنوان « من حق الشعب أن يختار راعييه » ليتدرك مستواينك بإزاء الكنيسة .

حدث أن تمّدى بعض الرعايا في الصعيد على الكنييسة فرأى المجلس أن خير من يستعرض موضوع هذا التمّدى على المسامح السنية هو الايفومانس فيلوثاوس (١) . فذهب إلى قصر الخديوى إسماعيل وقابله شخصياً وبقى معه نصف ساعة استعرض خلالها تفصيلات الحادث بفصاحته المعهودة فكانت النتيجة أن أمر إسماعيل باشا بانصاف المظلومين ومعاقبة المعتدين . وعلى أثر ذلك قرر المجلس الملى فى جلسته المنعقدة يوم الثلاثاء ١١ بابه ١٥٩١ ش (١٨٧٤/١٠/٢٠) بانتخابه واعطاه الكنييسة المرقسية وناظراً على مدرسة دينية مزعم انشاءها . إلا أنه بعد شكره إيام على ثقتهم استمهلهم ريثما تم الانتخابات البابوية .

• • • • •
وفى يوم الأحد ٢٣ بابه سنة ١٥٩١ ش أقيمت الشعائر المقدسة التي رفعت الراهب يوحنا الناسخ إلى الكرامة البابوية فأصبح الانبا كيرلس الخامس البابا المرقسى الثانى عشر بعد المئة . وبعد اعتلائه الكرسي المرقسى بمحوالى أربعة شهور (أى فى أمشير من السنة عينها) افتتحت المدرسة الدينية المرموقة فى حفل حافل دارت فيه الخطب والتهانى وعين الايفومانس فيلوثاوس ناظراً عليها وخادماً للكنييسة المرقسية . إلا أن المدرسة لم تستمر طويلاً بسبب المنازعات التي قامت بين المجلس الملى والبابا كيرلس الخامس . فاقصر عمل الايفومانس فيلوثاوس على الرعايا الكهنوتية .

وفى ٢٤ بؤونة سنة ١٥٩٧ ش (١٨٨١/٦/٢٩) أنعم الخديوى توفيق باشا بالنيشان المجيدى من الطبقة الاولى على الانبا كيرلس الخامس ، وبالنيشان عينه من الطبقة الخامسة على الايفومانس فيلوثاوس . وفى هذا المنح تقدير من (١) أى أنهم رغم كونهم نواب الشعب لم يجدوا محامياً يدافع عن الشعب فهو الكامن .

الخدوي لخدمات الكاهن الذي لشط في العمل على استرجاع القبط الذين زاغوا إلى أمم الحنون الكنيسة القبطية المصرية الصميمة .

ولقد داوم على هذا النشاط إلى حد أن أهالي أسبوط المخلصين لكنيستهم بعثوا إليه في شهر بابة سنة ١٦٠٠ ش أن يذهب إليهم ليوجههم ويعلم مستهدفاً استعادة القبط الشرادين . فمرض موضوعهم على البابا كيرلس الخامس الذي شجعه على تلبية طلبهم . فمضى خمسة وأربعين يوماً مواظباً على التعليم وتوضيح العقيدة في اجتماعات نهائية وليلية . وأزرته النعمة الإلهية فنجح في مهمته نجاحاً بالغاً . وفي عودته زار عدداً من البلاد التي مرَّ بها وقام فيها بنفس الرسالة . لحق عليه قول بولس الرسول : « أما الشيوخ المدبرون حسناً فليحسبوا أهلاً لكرامة مضاعفة ولا سيما الذين يتمنون في الكلمة والتعليم » (١) .

وبعد أن استراح من هذه الرحلة وفرح بزواج ابنته من المؤرخ جرجس فيلوثاوس عوض طرده الحنين إلى الجهاد في سبيل الكنيسة وتدعيم عقيدتها . فسافر إلى الصعيد مرة أخرى وصل فيها إلى أسوان فالشلالات . وقد كسب خلال هذه الرحلة الأنفس الكثيرة مجتذباً إياهم إلى العقيدة القويمة . وقد قضى شهرين في هذه الرحلة تنقل خلالها في مختلف البلاد . وبين عاد إلى أسبوط كان زحام الناس على سماعه شديداً إلى حد أن البعض كان يجلس على الشبايك . ولقد فرح القبط بثمار جهاده أيما فرح .

على أن جهاده المتواصل في مختلف البلاد المصرية لم يعقه عن التأليف ، فوضع

(١) هنا أيضاً مثل واضح عن تيقظ آباء الكنيسة القبطية وذودهم من عقيدتها . فان تسامح البعض لما إذا إذن نجحت الارسلات الأجنبية في اقتناس عدد من القبط نجيبهم بيت الشعر المأنور :

عدة كتب ما زالت بين الأيدي بحمد الله . وهذه الكتب هي : ١ - كتاب نفع العبير في الرد على البشير - وهو كتاب يذود فيه عن عقيدة الكنيسة القبطية فيما يختص بتجسد الكلمة الذي جمع بين اللاهوت والناسوت . يثبت بالبراهين المنطقية والكتابية أن هذه العقيدة هي التي سلمها الرسل للمؤمنين . وقد وضع هذا الكتاب على أثر مناقشة دارت بين مجموعتين من الناس يعرف بمجموعة منها باسم « أولاد البشير » . ٢ - كتاب الحجة الأرثوذكسية ضد الالهجة الرومانية - ينفي فيها مزاعم رومية عن الأولوية ويدحض البدع التي ابتدعتها تلك الكنيسة . ٣ - خطبة عن ميلاد المسيح - أوضح فيها صحة العقيدة باللاهوت المتناس وشرح النبوءات التي وردت عنه . ٤ - خطبة عن القيامة - هي استكمال لحديثه عن الميلاد العجيب . ٥ - مختصر التعليم المسيحي - لتعليم المبتدئين ، وهذا الكتاب طبع عدة مرات لنفاذه المرة بعد المرة . وآخر طبعة كانت على نفقة البابا كيرلس الخامس . ٦ - نبذة بعنوان « الله الواحد » . ٧ - نبذة بعنوان « حكمة الشريعة في ترجمة صلوات البيعة » . ٨ - الخلاصة القانونية في الأحوال الشخصية - وضعه تلبية لطلب نظارة الحقانية (وزارة العدل) إلى البطريركية بالاجابة على مسائل في الأحوال الشخصية . ٩ - نبذة تاريخية عن « تنمة الكلام على الكنائس والاديرة المصرية » ، كان قد طلبها منه على باشا مبارك ناظر المعارف (وزير التربية والتعليم) وأدرجها ضمن كتابه الضخم « الخطط التوفيقية » ، في جزئه السادس . ١٠ - كتاب في الوعظ . ١١ - مقالات عديدة نشرها في مجلات ذلك العهد مثل « الهدية » ، و « الجنان » ، و « النحلة » ، و « الحق » ، و « التوفيق » ، كان يجيب فيها على الاسئلة الشرعية والدينية .

وحدث في ٢٤ طوبة سنة ١٦١٦ ش " (١ / ٢ / ١٩٠٠) أن رأى الخديوى

(١) بلاخط هنا استعمال التاريخ القبطي باستدراك تبعاً لتوجيه أبي الإصلاح

عباس حلي الثاني أن يكافئه على خدماته الرفيرة فأنعم عليه بالنيشان العثماني من الدرجة الرابعة وألبسه إياه بيده شخصياً . وكان ذلك بمناسبة ذهابه إلى القصر الخديوي للتنهية بميد الفطر . وهكذا نجد - ابتداءً من حكم محمد علي - امتيازات كريمة عديدة من حكام مصر نحو بنيها القبط .

وبعد هذا الجهاد غير المنقطع خلال ثلاث وأربعين سنة لبى نداء ربه وانتقل من هذه الدار الفانية ليعيش في الباقية . وكان ذلك في يوم الخميس ١ برمبات سنة ١٦٢٠ ش (١٠ / ٣ / ١٩٠٤) . وقد سمرت موجعة من الحزن لفقدته فاجتمع رجال البطريركية حول جثمانه وأدوا له خدمة المحبة وجزوه ودفنوه على حساب الكنيسة التي خدمها السنين الطويلة . كما أن الخديوي - عباس حلي - أوفد مندوباً عنه ليقدم تعازيه وهو عزتلو حلي بك جاهين الذي سار في موكب الجنائز لغاية باب الكنيسة المرقسية ^(١) . وخير ملخص لحياة هذا الخادم الأمين قول الكتاب و ذكرى الصديق للبركة . . .

٢٦٥ - كان الايفومانس تادرس مينا كاهناً لكنيسة مار مينا العجايبى بفم الخليج فأهم بترميمها وتجديدها وترتيب المنازل المحيطة بها ترتيباً متناسفاً كما أنه كان نشطاً مجتهداً ذا قدرة على العمل بلا كلل . تولى إدارة البطريركخانه عدة سنوات كان فيها صاحب الكلمة المسموعة النافذة . وحينما قام النزاع بين رجال المجلس الملى ^(٢) وبين البابا كيرلس الخامس أعطى ولاءه الخالص لباياه إلى حد جعل خصومه يقولون عنه ، كان يمكن أن يكون من أعظم الرجال لو أنه استعمل مقدراته الفسائقة في الإصلاح . (أى مع رجال المجلس الملى ومشايخهم) اشم

(١) راجع تفاصيل سيرته في كتاب « تاريخ الايفومانس فيلوناؤوس » لجرجس فيلوناؤوس موز .

(٢) ذكرت هؤلاء أولاً (مع جزيل احترامى للبابا) لأنهم هم الذين تعدوا على تقاليد الكنيسة وعلى الحق الواجب مراعاته . والملاحظ أن ذكرناهم عنهم توضح هذا .

اعتزل الخدمة في البطريركية وتفرغ لشئون كنيسة . فأضاف إلى مهارتها إضافات جديدة . وكان على جانب كبير من الجرأة حتى أنه كان يجد حلاً لكل مشكلة من المشاكل الشرعية التي تعرض عليه دون أن يخشى سطوة القانون ودون أن يصبأ بما قد يصيبه هو شخصياً نتيجة للحل الذي ارتضاه ونفذه (١) .

٢٦٦ - كان رهبان دير السيدة العذراء المعروف بالمرق لا يزيدون على أفراد قليل في أواخر القرن الثامن عشر . والغريب أنه لم يوجد بينهم واحد حصل على رتبة القسسية . فكان بأنهم كاهن من القوصية أو من السراقة ليؤدى لهم شعائر القداس الإلهي أيام الآحاد والأعياد . ثم حدث أنه قال أحدهم كرامة الكهنوت - وهو القمص عبد الملاك الهوارى - فاختير رئيساً . وكان يتميز بالحزم والشجاعة وعمق التفكير فحرر الرهبان من الحاجة إلى كهنة البلاد المجاورة . ومما يرويه عنه معاصروه والذين عاشوا تحت رياسته أن الضم اشتد بالرهبان وضائق بهم السبل فاستصحب القمص عبد الملاك الهوارى خمسة عشر راهباً وذهبوا جميعاً إلى اسطنبول حيث التمس مقابلة السلطان . فلما حظى بالدخول إلى حضرته استعرض معه كل ما يلاقيه الرهبان من شدة وظلم . وأصفى إليه السلطان حتى أتم حديثه ثم أعطاه فرماناً يحدد أملاك الدير ويصون استقلاله كما يصون رهبانه من بطش الحكام . ومع كل هذه الخدمات فقد حدث أن اشتكاه بعض الرهبان إلى الأنبا ديمتريوس الثانى فلما استمع إلى شكواهم وجدها تافهة إلى حد أنه أطم زعيمهم على خده وحكم عليه بالذهاب إلى دير البرهوس (بوادى النطرون) بدلا من العودة إلى ديره . أما بقية الرهبان فقد أهدم إلى ديرهم بعد أن زودهم بتصيحته وبركته الأبوية (٢) .

(١) « تاريخ الايخومانوس . . . » لجرجس فيلوثاؤس مؤرخ ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٢) الأديرة . . . لصموئيل تاوخرس السريانى ص ٢١٤ - ٢١٥ .

ج - أراخنة هذا العصر

٢٦٧ - يعقوب بك نخلة روفية ٢٦٨ - بعض معاصريه

٢٦٧ - تخرج يعقوب من المدرسة الكبرى التي كان قد أنشأها أبو الإصلاح . ثم اشتغل مدرساً للغتين الانجليزية والاطالنية في المدرسة التي تخرج منها ، ثم أصبح ناظرها . وبعد ذلك عينته الحكومة في المطبعة الاميرية فاكسب من الخبرة ما أهله لأن يكون رئيساً لمطبعة جمعية التوفيق عندما تقرر إنشاء هذه المطبعة ، وفي الوقت عينه كان مرشداً في إنشاء مطبعة الوطن القديمة وجريدها . ثم نقله المسئولون إلى وظيفة كبرى في مصلحة الاملاك الاميرية وأنعم عليه الخديوي برتبة البكوية . ورأى بعد ذلك أن يعتزل العمل الحكومي وذهب إلى الاسكندرية حيث قضى سنتين استدعته بعدها الحكومة وعينه سكرتيراً لإدارة سلك حديد القيوم . وأثناء إقامته بتلك المدينة خدم كمناس الايبارشية هناك كما أسس فيها مدرستين وفرعاً لجمعية التوفيق . ومما يجدر ذكره أنه حين كان يعمل بالمطبعة الاميرية لم يعقه عمله الحكومي عن خدمة كنيسته فأسس مدرسة قبطية بالفجالة أصبحت فيما بعد الأساس الذي قامت عليه مدارس جمعية التوفيق إلا أن أعظم خدمة أسداها لوطنه وكنيسته هي كتابه « تاريخ الامة القبطية » الذي ما زال حجة يستند إليه الكتاب في عصرنا هذا . ومن الواضح أنه كان كالمعلمة الدؤوب إذ قد وضع كتابين آخرين غير كتاب تاريخه العظيم : أولهما « التحفة المرضية في تعليم الانكليزية العربية » ، وثانيهما « الابريز في تعلم لغة الانكليزية » . ووضع لكل فريق طريقة نطق الفاظ اللغة المراد تعلمها بلغة الطالب الساعي إلى تعلم اللغة الأخرى . وبالإضافة فقد وضع « قاموس الاصطلاحات » الذي ظل مخطوطاً لم يطبع . وإلى جانب أعماله العديدة التي ذكرناها فإنه فاز بمضوية المجلس

الملى الذى جرت انتخاباته فى ٢٢ مارس سنة ١٨٨٢م ثم أعيد انتخابه فى ٢٩ يونيو سنة ١٨٩٢م . وبين سنتى الانتخابات اشتغل عضواً فى قوميون المدارس . ونشط أيضاً فى تأسيس « النادى القبطى » . ولم يكتف بذلك بل أسس نادياً علمياً أطلق عليه اسم « النادى المصرى - الانجليزى للمحاورات »^(١) ، استهدف منه تمكين المصريين من النضال فى اللغة الانجليزية ، فكان يرأس الاجتماع استاذ انجليزى خبير بأداب لغته القومية . ثم يتناقش أمامه الشبان المصريون ويتحاورون باللغة الانجليزية فى موضوع معين . وفى النهاية يعلن الرئيس اسم (أو أسماء) من أجاد منهم .

واقدر شاء الله أن يمد فى عمره فنشأ فى عهد كيرلس أبى الاصلاح وخدم تحت رياسة البابا ديمتريوس الثانى وخلال الفترة الاولى من باباوية الانبا كيرلس الخامس إذ قد انتقل إلى دار الخلود سنة ١٩٠٥م^(٢) .

٢٦٨ - أما بعض معاصريه فهم : وهبه بك الجيزاوى - كان رئيساً لكتبة وزارة المالية كما أنه اشتغل بالحركة الكنسية الاصلاحية ، قادر من عربان من أعيان أم خنان (بالجيزة) - كان رئيساً لديوان المالية واشتغل بعض الوقت فى الخرطوم ، وفرق هذا فقد كان سخياً فى معاملة إخوته الفقراء ، لم يعطهم من ماله فى حياته فقط بل أوقف عليهم جزءاً من أملاكه أيضاً . وقد برز اولاده الأربعة فى الحياة العامة وهم : ١ - عربان بك تادرس - كان باراً قنياً محباً للفقراء ، وقد وصل إلى رياسة كتبة وزارة المالية ، ٢ - باسبلى باشا تادرس - كان مستشاراً فى محكمة الاستئناف الأهلية ، فلما أحيل إلى المعاش اختير لأن يكون الرئيس القنصرى للمحاكم المختلطة ، ٣ - سيدم أفندى تادرس - اشتغل بالأعمال الحرة وكان

(1) Anglo - Egyptian Discussion Club .

(٢) تاريخ . . . لجرجس فلوثاؤس موسى ص ١١٧ - ١٢٨ .

من كبار موظفي البنوك الأجنبية ، - كركور أفندي تادرس اشتمفل بإدارة
اطيان العائلة ، سعد بك ميخائيل هبده - من خريجي مدرسة حارة السقاين . كان
من كبار موظفي الحكومة وقد ساعم بنصيب وافر في بناء كنيسة الملاك غبريال
(بذلك الحى) ، وأبدى اهتماماً بالذمأ بتلاميذ مدرسة حارة السقاين إلى حد أنه
كان يعطيهم الكسوة ، مرقس بك يوسف من أراخة مدينة طنطا - اشتمفل في
مركز مديريتها إلى إن أصبح كبير كتبتها . أسس الجمعية الخيرية القبطية وبني مدرسة
الاقباط الكبرى هناك كما ساعم مساهمة فعالة في تجديد كنيسة السيدة العذراء
وأوقف الاطيان للمصرف عليها وعلى المدرسة ، ابراهيم بك روفائيل الطونجى من
طوخ النصارى بالمنوفية ، تنقل في دوائر الحكومة ووظائفها إلى أن عين مستشاراً
في محكمة الاستئناف الأهلية . وقد كان لاهوتياً ضليعاً كتب ستة مؤلفات دينية في
مختلف الموضوعات كما أنه راجع كتاب تفسير مفر الرقيا لابن كاتب قيصر
واستدرك ما فيه من خطأ ثم أعاد طبعه . فاز بعضوية المجلس الملى الأول سنة
١٨٧٣م ، ووضع مع زملائه في تلك السنة لائحة بنظام واختصاصات هذا المجلس .
ونجح أيضاً في انتخابات سنة ١٨٩٢ بعد إعادة تنظيم المجلس وتشكيله^(١) ، فخلقه
بمقرب ابن المؤرخ يعقوب نخلة روفيلة - تخصص في دراسة أعمال السلك الحديدية
في فرنسا ، فلما عاد عينته الحكومة بتلك المصلحة ، برسوم بك جريس - كان قاضياً
بالمحكمة الأهلية بأسسوط ، عزوز أفندي منقر يوس البياضى - كان من العاملين على
الإصلاح ، وله ابن من الأدباء المعروفين اسمه توفيق أفندي عزوز . جندى بك
يوسف القصبجى - كان من موظفي الحكومة ومن الأعضاء العاملين في الجمعيات
القبطية^(٢) ، عزتو تادرس بك ابراهيم - كان قاضياً من الدرجة الأولى في المحاكم

(١) كامل صالح نخلة : « سلسلة ... » الحلقة الخامسة ص ٢٣٥ - ٢٣٩ و ٢٤٣ - ٢٤٤

(٢) « تاريخ . . . » لجرجس فيلوتاؤس موسى ص ١٧٨ - ١٣٠ .

الأهلية ، تادرس شلبى الذى تربى فى المدرسة الكبرى ، وكان من العاملين المجاهدين فى الكنيسة باذلاً الجهد والمسال فى تعمير الكنائس والأديرة وبمخاصة الكنيسة المرقسية بالازبكية . ثم أقيم وكيلاً طاماً على إدارة البطريركية . ومع كونه ذا كلمة نافذة فقد كان متواضعاً هادئ الطبع ، محناً محباً ومحجوباً من الجميع ، دميان بك جاد شبيحة - كان له مكانة خاصة لدى الحديوى اسماعيل ورجال حكومتهم لتواضعه ومحبته للجميع ، ولسخائه فى العطاء من غير تفرقة بين قبطى ومسلم . ويمكننا تقدير مكانته متى عرفنا أن دواوين الحكومة تعطلت يوم وفاته ، وأن الأمراء والوزراء ساروا فى جنازته (١) .

الشقيقان ابراهيم بك وصالح نخلة - إن المعلم نخلة ابراهيم كاتم سر شريف باشا الكبير والذى خدم فى عهد البابا بطرس الجاولى ، قد ربى أولاده أحسن تربية ممكنة آنذاك . فأسسهم من البداية على المبادئ المسيحية ومعرفة العقيدة الأرثوذكسية ، ثم علمهم الكتابة والحساب ومسك الدفاتر والالتقاء بالاضافة إلى اللغة القبطية ، ولما انتهوا من الدراسة وبلغوا سن الشباب برز منهم اثنان هما ابراهيم (الابن الأكبر) وصالح (الذى يليه) . واشتغل الأول فى إدارة شئون دائرة الشرى الشهير الكونت زغيب الذى كان يقطن الاسكندرية . بينما اشتغل الثانى فترة قصيرة فى بنك قطاوى بالاسكندرية ثم ترك هذه الوظيفة ليشغل وظيفة رئيس الحسابات بدائرة الأمير فاضل باشا بالاسكندرية أيضاً . ولكنه لم يلبث أن ترك هذا العمل أيضاً ليعمل رئيساً لحسابات الدائرة البلدية .

وقد خدم هذان الشقيقان الكنيسة فى صدق وولاء ، ورأسا العمل على

(١) شرحه ص ١١٢ - وهذا الكنف رغم نصوره بين لنا مدى بقلطة القبط ونشاطهم فى مختلف الميادين .

تشييد كاتدرائية عظمى بالاسكندرية تليق بمكانة البشير الشهيد . وتعاون معها
قبط المدينة فأعادوا بناء هذه الكنيسة بشكل أبهج قلوب المؤمنين .

ثم رأى ابراهيم بك واخوه صالح أن المدرسة أجدى وسيلة لنهوض بالشعب ،
فقاما ببنائها . ثم افتتحاها على النظام البيداجوجى الحديث . فكانت لهذه المدرسة
المكانة الاولى إذ لم تكن هناك مدارس مصرية غير مدرسة رأس الثين والمدرستين
النتين أقما في عهد البابا ديمتريوس الثانى . وقد افتتحها الشقيقان لجميع المواطنين
بغير تفرقة بين قبطى ومسلم كما كانت العادة في بقية المدارس القبطية . لذلك ذاع
صيتها لجاءها الطلبة من مختلف الجهات حتى لقد تنلذ فيها أبناء الطوائف الاجنبية .

كذلك نظم ابراهيم بك واخوه صالح الدار البابوية فعديلا بناءها وشيئدا
طابقا أعلا ليكون سكناً للبابا عند ذهابه إلى الاسكندرية . ولما كمل بناؤه
فرشاه بأجمل الاثاث . ولقد شملهما كل من البابا ديمتريوس الثانى والبابا كيرلس
الخامس بمطفه وزودهما ببركاته . وحينما رأى الانبا كيرلس مدى نجاح ابراهيم
بك وأخيه في عملهما اليومى عين ابراهيم ناظراً على الاوقاف المرقسية وعلى
مدرستها ، بينما عين صالحاً ناظراً على الكنيسة المرقسية ، تقديرأ من قداسه للجهود
التي بذلاها في خدمة أمتها ونشر العلم بين أبنائها .

وانتقل صالح الشقيق الأصغر إلى الفردوس سنة ١٨٨٧ م وهو فى المنصورة
للاستجمام وكان البابا كيرلس الخامس يحبه حباً جماً ، فرأى - تكريماً لذكراه -
أن يضع عمله فى يدي أخيه . ولقد استجاب ابراهيم بك لهذا العطف البابوى إذ
أنه لما قام النزاع بين البابا والمجلس الملى جامد بكل خفقات قلبه لازالة الخلاف .
فكان ضمن من حققوا للشعب رغبته فى عودة باباه من المنفى .

وحدث أن زارت ملكة البرتغال مصر ، وعمل ابراهيم بك كل ما فى وسعه

لراحتها . فلما عازمت على العودة أنعمت عليه حكومتها بنيشان رفيع ، كما أن
الحريوى منحه النيشان المجيدى من الطبقة الخامسة مع رتبة البكوية . وفى الوقت
نفسه عينوه سكرتيراً شرفياً للتصلية البرتغالية بالاسكندرية .

ولم يدفعه هذا التقدير إلى التشاىخ بل ظل على وداعته وعلى التعاون مع بنى
قومه . وحينما كان أرمانيوس بك حنا مدير الادارة البطريركية منهمكاً فى تجهيل
الاسكندرية المرقية بالاسكندرية تعاون ابراهيم بك معه على فرش ارضية
الكنيسة وأرصفها بالرخام الايطالى . ولقد كان فى نيته أيضاً أن يشيد مدرسة
كبيرة فى ساحة الكتدرائية المرقية . فأعد الرسومات الحديثة واستحضر مواد
البناء استعداداً لارساء الحجر الاساسى بعد الاحتفاء بعيد القيامة سنة ١٩٠٦ .
واسكنه - بعد أن اشترك فى صلوات الجمعة الكبيرة وعاد إلى بيته موفور الصحة
هادىء النفس انتقل فجأة إلى الفردوس فجر سبت النور . فعم الحزن القلوب على
فقده واحتفلوا بتشييع جنازته احتفالاً شهيياً رائعاً . ومما قاله صديقه فرانسيس
بك غبريال عميد القبط بالاسكندرية فى تأييده هذه الجملة : « لو عملت لك الامة
تمثالاً لما كافأتك على جليل أعمالك » (١) .

ميخائيل بك شاروبيم - بدأ دراسته فى مدرسة حارة السقاين . وكان مولعاً
بالكتابة منذ صباه فكتب عدة قصص على نمط كتاب « العيون اليواقظ » قبل
أن يبلغ الرابعة عشرة من عمره . ولما بلغها أُعين فى قلم التحريرات الافرنجية بنظارة
المالية واشتغل سنتين أُعين بعدها وترجمها بها فسكرتيراً لاسماعيل باشا صديق . وفى
سنة ١٨٧٦ عين سكرتيراً لمدير الجمرى وكيلاً له . ثم انتدب لادارة جمارك دمياط
فجملها مستقة قائمة على قاعدة ثابتة . وتقديرأ له رفوه أميناً بجرىها . فى سنة ١٨٨٠
أصبح أميناً بجرى بور سعيد . ثم استقال لأسباب صحية وعاد إلى القاهرة . ولم يلبث

طويلاً إذ قد استدعوه وعينوه مفتشاً للرقابة الثنائية (مراقبة إنجلترا وفرنسا) سنة ١٨٨٢ . ثم أقيم قاضياً بمحكمة المنصورة الأهلية سنة ١٨٨٤ ف رئيساً لنيابة تلك المحكمة . وفي يوليو من السنة عينها منحه الخديوي رتبة البكوية ، وفي نوفمبر منها قال من حكومة اليونان وسام « كومن دور » من الدرجة الرابعة . وبعد أربعة شهور فقط منحه إيران وسام الشمس والاسد ، بينما منحه ملك أسبانيا سنة ١٨٨٨ وسام القديس يوحنا من طبقة شفالبيه .

وحدث أن قام صدام بينه وبين رياض باشا في أغسطس سنة ١٨٨٨ لم تنفع فيه وساطة الخديوي نفسه . فاعتزل العمل الحكومي وذهب إلى بني سويف (مسقط رأسه) حيث اشتغل بزراعة أطيانه وعكف على تأليف كتابه الكبير « الكافي » في تاريخ مصر . ثم أرسل إليه مظلوم باشا وزير المالية يستدعيه فقبل كارها ، ورجا منه الوزير أن يقبل منصب مدير مصلحة مساحة أطيان عموم القطر . فاعتذر ثم قبل في النهاية لالحاح الوزير ووكيل الوزارة . فسلباه على الفور المنشورات والأوامر العالية والقرارات الوزارية وكلفاه بعمل قانون يكون إليه المرجع في عمل فك زمام المديرية . فأتم العمل على أحسن ما يرام وعلى ذلك منحه الخديوي النيشان العثماني من الدرجة الرابعة سنة ١٨٩٧ . وظل في عمله هذا إلى سنة ١٨٩٩ حين أصبح ناظر إدارة أملاك الميري الحرة بوزارة المالية . وفي آخر تلك السنة عين مديراً لأملاك الميري بمدينة الاسكندرية وبينما هو فيها منحه نجاشي الجبشة نيشان نجمة الافتخار في أغسطس سنة ١٩٠٠ . وظل بالشر إلى سنة ١٩٠٣ حين استدعته وزارة المالية وعينه ناظراً لأملاكها . واستكنه رأى أن يستقيل لتفرغ لأعماله الخاصة فقبل طلبه . فمضاه إلى تفلج أرضه واستنكر كتابه وتمضية المشروعات الخيرية والأدبية (١)

وهي بك تادرس - من مواليد حارة زويلة في غضون سنة ١٨٦٠ . بدأ
دراسته بمدرسة الأرم من بدرب الجيزة حيث قضى سنتين نال بعدها جائزة منية .
ثم التحق بالاقباط الكبرى التي آنذاك أشبه بكلية عليية . وقد ظل دائماً على تحصيل
العلم إلى أن ظهر في العقد الثالث من عمره استاذاً فاضلاً وكانياً مجيداً وشاعراً
مطبوعاً . ثم انتظم في سلك الترجمة بنظارة المعارف . وخلال عمله نجح في الالتحاق
بالأزهر كما انشغل بالتحريير في مجلة « روضة المدارس المصرية » ، وقد نشر فيها
كتاب « الدر الثمين في تاريخ المارشال طورين » ، و « بهجة النفوس في سيرة
أرتينيثوس » ، و « رسالة الاحترافات الحديثة » . ثم اختارته البطريركية لتدريس
اللغتين العربية والفرنسية بمدرسة حارة السقاين . وخلال عمله تعلم القبطية ودرسها
وصنف فيها ، ودرس أيضاً بمدرسة الروم الكاثوليك . وقد ظل يدير مدرسة
حارة السقاين ثماني عشرة سنة نقلته البطريركية بعدها ليدير المدرسة الكبرى .
ثم نظم المدارس التابعة للبطريركية . وفي سنة ١٨٨٩ نال البكوية ، وبمناسبتها
نشرت نظارة المعارف في الجريدة الرسمية عنه ، انه نال هذا الانعام مكافأة له على
كسب المعارف ونشرها بين العموم . أما كتبه فهي : ١ - « العقد الأنفس في ملخص
التاريخ المقدس » - وهذا ترجمه عن الفرنسية وطبعه بمطبعة الوطن القديمة ،
٢ - « النخلة الوهية في تقريب اللغة الفرنسية » ، ٣ - رسالة بعنوان : « ارتشاف
الراوى من صرف النحو الفرنسي » ، ٤ - « الخلاصة الذهبية في علم العربية » ،
٥ - « مرآة الظرف في فن الصرف » ، ٦ - « عنوان التوفيق في قصة يوسف الصديق » ،
- وهذه قد مثلت بحضور الخديوى توفيق باشا ، ٧ - « الاثر النفيس في تاريخ
بطرس الأكبر ومحاكمة الكيس » - مثلت أيضاً في دار الأوبرا ، ٨ - رواية
تلماك (مترجمة عن الفرنسية) ، ٩ - كتاب باللغة القبطية لتدريس المبتدئين - وهذا
طبع عدة مرات . وله غير هذه كتب لم تطبع ، هي : « تاريخ مصر مع فلسفة

التاريخ وكتاب مطول في فنون الأدب وديوان شعر ونثر (١).

جندى بك إبراهيم - ولد سنة ١٨٦٤ بناحية شندويل (بمصر) وبدأ التعلم في الكتاب. ثم توفي أبوه فأرسله عمه - حين بلغ الحادية عشرة من عمره - إلى القاهرة ليعيش مع أخيه الكبير خليل بك إبراهيم الذي كان في ذلك الوقت يشتغل في دائرة على باشا شريف فأدخله أخوه المدرسة السكرية. ولما وصل إلى الصف الأول فيها رغب في أن يوافق من زملائه جمعية أدبية المناظرة والخطابة. ولكن ناظر المدرسة فرج داود خشي أن يؤدي تجمع الطلبة إلى التمرد الطارىء لحال دون تحقيق هذه الرغبة. فاضطر إلى ترك المدرسة والالتحاق بمدرسة الفرير المجانية حيث قضى سنة واحدة فقط. وكان له صديق اسمه الشيخ القناوى - وهو أحد مدرسي المدرسة السكرية - تمكن بواسطته من الدخول إلى الأزهر للدراسة فيه باسم الشيخ إبراهيم الجندى. فقضى سنة بالأزهر أيضاً. ثم عين بوزارة المالية تحت النمرين، سنة ١٨٨٣، وبعدها بسنة في قلم قضايا الحقانية. ولما تشكلت المحاكم الأهلية عين مختصراً بمكة مصر، فكان أول مستخدم فيها بدأ بكتابة المحاضر. وكان القبطى الأرثوذكسى الوحيد في جمعية الاعتدال (٢) التى كانت آنذاك تحت رئاسة الصحفي فارس نمر كما كانت ميداناً للخطابة والمناظرة. وكان نظرائه ومجادلوه في أغلب الأحيان أحمد بك زكى سكرتير مجلس النظائر والشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد. ولقد انضم إلى جمعية التوفيق وحرر في جريدتها كما حرر في جريدة مصر بعد ذلك. وانتهى به الأمر إلى ترك الوظيفة الحكومية لتركيزه على العمل في جريدة الوطن، التى أصبح رئيس تحريرها (٣).

(١) شرحه ج ٣ ص ٢٤ - ٢٩ - ومرة أخرى نلاحظ نشاط الفكر القبطى فى مختلف

الميادين دون أن يكونوا قد تعلموا فى المدارس الغربية

(٢) هى جمعية أسسها المرسلون الأمرى يكون تستهدف منع المسكرات.

(٣) مشاهير الأقباط فى القرن التاسع عشر لرمزى نادرس ج ٢ ص ٥١ - ٥٢.

يوسف بك وهبى - ولد بالقاهرة سنة ١٨٥٢ ودخل مدرسة الاقباط الكبرى .
وكان ذا قريحة وقادة استطاع ما أن يتقن الفرنسية والانجليزية والعلوم الرياضية .
فما نخرج عين تحت التمرين بقلم المكشبات بوزارة المالية ، وأثبت باجتهاده لياقته
لثنتين رسمياً . فظل على اجتهاده مما أوصله إلى أن يكون كاتباً بقلم الترجمة بنظارة
الحقانية سنة ١٨٧٥ . وحينما تألقت لجنة للتحقيق عما نسب إلى المرابين من عصيان
عين كاتب سر (السكرتير) لهذه اللجنة ، فعمل بنزاهة واستقامة . ولما انتهى من
عمله هذا نال البكوية (من الدرجة الثالثة) وبعد ذلك تألقت لجنة لتضع القوانين
اللازمة للمحاكم الأهلية وعين كاتب سرها أيضاً . وفي الوقت عينه كلف بترجمة
القوانين من الفرنسية إلى العربية فأدى هذه الترجمة بكل دقة نال بعدها الرتبة الثانية
والنيشان المجيدى من الطبقة الرابعة . وفي يوليو سنة ١٨٨٤ وصل إلى درجة رئاسة
قلم الترجمة بنظارة الحقانية ، وبعد سنة رُقى إلى ناظر إدارة الاقلام العربية . ويبدو
أن عمله أَرْضَى الخديوى توفيق فأُنعِم عليه برتبة المتمايز الرفيعة . ثم انتدبه المسئولون
بنظارة الحقانية سنة ١٨٩٠ لتفقد أعمال المحاكم في الوجه القبلى . فلما عاد أبدى
ملاحظاته عما يجب ادخاله عليها من الاصلاحات . ثم فى أواخر سنة ١٨٩٤ عين
مستشاراً بمحكمة الاستئناف المختلطة بالاسكندرية وكان مولعاً بالبحث والتفتيش
فى الكتب والوقوف على الحقائق العملية والأدبية . ونتيجة لأبحاثه الكثيرة
وضع كتاباً فى شرح القانون المدنى بالاشتراك مع زميل له اسمه شفيق بك منصور ،
وآخر فى شرح قانون التجارة مع زميل ثان هو عزيز بك كحيل ، حتى لقد قيل عنه
فى ختام سيرته أنه « دأب على خدمة بلاده وأميره بصدق الولاء ومتمين الوفاء » (١) .
الرياضى المتفنن حضرة جرجس نشاطى الباشمهندس لامتلاك السكة الحديد :

من مواليد الثغر الاسكندرى سنة ١٨٥٢ . وما أن بلغ السابعة من عمره

(١) كتاب مرآة العصر لالباس زخورة ج ١ ص ٢٢٩ - ٢٣١ .

حتى أرسله أبواه لتلقى العلم في فرنسا حيث قضى خمس سنوات عاد بعدها إلى
مدينته ودخل مدرسة أجنبية لمدة ثلاث سنوات . ثم التحق بمدرسة أميرية .
وكانت تجرى آنذاك مسابقات عليية في مختلف المواد الدراسية فكان يتفوق في كل
مسابقة . ثم رأى اسماعيل باشا اجراء امتحان عام تحت رئاسة الجنرال ستون
الأمريكي الذي كان رئيس أركان حرب في الحكومة المصرية . وكان جرجس
غرة النجاح . والتحق بعد ذلك بالمدارس المصرية العليا أعطته بعدها الحكومة
الشهادات التي تدل على عظيم براعته في العلوم الرياضية والفنون الهندسية . ومن
ثم عين مهندساً في تفتيش عموم الوجه البحري في أواخر سنة ١٨٧٢ . ولقد
استلفت عمله المتقن نظر الخديوي اسماعيل فأصدر أمره بتعيين جرجس مهندساً
للمراى الخديوية التي أقيمت في الجزيرة مع الامر بأن يكون القائم بأهم الاعمال
اللازمة للترعة الاسماعيلية كالفناطر والهويسات . ولقد أجمع كل من اشتغلوا معه -
ورؤسائه على وجه التخصيص - على براعته وحسن اتمام عمله .

وحدث أن قامت مشكلة بين كبير كهنة القبط وبين العمدة والمشايخ في سنديس
(بالقلبوية) . وظلت المشكلة سنتين متواليتين انعقدت لها المجالس وتدخل فيها
كبار المنطقة ولكن المشكلة استمرت من غير حل . وعندما صدر أمر عال إلى
جرجس بالتوجه إلى سنديس للنظر في هذه القضية التي أشكلت على كل من
تدخلوا فيها . فذهب لفوره وأخذ يحقق فيها . ولما انتهى من تحقيقه فصل كل
دقائقها للمتخاصمين وأظهر لكل من الفريقين فيما أصاب وفيما أخطأ ، وما يجب
عليه تأديته من الحق وما له من حقه الشخمي وما زال بها حتى أفنع كليهما ووصل
بهما إلى التصالح . فوقعوا على محضر الصلح على مرأى من الجمهور . وامتلا أولياء
الامر دهشة لتوصله إلى الحل وقدموا له شكرهم .

ومن سنة ١٨٨٠ إلى سنة ١٨٨٥ شغل منصب مهندس أشغال رمل الاسكندرية،
عين بعدها مفتشاً لتنظيم مدينة الاسكندرية . وصدر الأمر العالي بأن يشغل
أيضاً في ملاحظة أعمال البناء في سراي رأس التين وسراي رقم ٣ الخاصة بالحدوي
توفيق فأبدى من الكفاءة والنفوق في تأدية كل هذه الأعمال ما جعل رؤسائه
يحبونه وبخاصة لأنه جمع إلى جانب مقدراته العملية الوداعة ومحبة الآخرين . بل
لقد بلغ به الأمر أن عظمت كرامته عند العائلة الحدوية فاخصته بأعمالها .
وزاده التقدير همة فأنشأ الأمرام المباني الواهمة الشاهقة بنفقات لا تتجاوز
النصف مما انصرف على أمثالها . ثم في سنة ١٨٨٩ عين مهندساً في قلم مباني الحكومة
في مصر ، انتقل بعدها إلى مديرية البحيرة فأجرى فيها تحسينات كبرى . ثم نقل
مهندساً في بور سعيد سنة ١٨٩١ مع ضم الاسماعيلية أيضاً إلى عمله . وفي أواخر
السنة عينها أصبح باشمهندساً ومديراً لأشغال حلوان والجزيرة . فأولى حلوان عناية
خاصة ونسّق أبنيتها وشوارعها ومحلات مياهها حتى جعل منها المشقى المفضل
للأمراء وأكابر الدولة . ونتيجة لعمله الفريد رقي في أول فبراير سنة ١٨٩٧ إلى
باشمهندس لإدارة أعمال مديريات المنيا وبني سويف والفيوم . ولكنه لم يبق
بهذه الوظيفة طويلاً إذ قد طلبته مصلحة السكة الحديد في أول أغسطس من السنة
عينها ليكون وكيلها عنها في إدارة أملاكها لاستقامته وعفته وعلو همة ومهارته
الافنية (١) .

(١) كتاب «مرآة العصر» لالاس زخورة ج ١ ص ٣٥٦ - ٣٥٩ .

لمحة عن مصر في هذه الفترة : *مصر بستانها ٥٨٨١ فدان ٨٨١٠ قصب ٤٥٠*

حينما تتلم محمد على مقاليد الحكم بدأ حركة واسعة النطاق للخروج بمصر من فرضي الحكم التركي إلى الاستقرار ، ومن ظلمة الاستبداد المطلق إلى شيء من التعبير الذاتي . صحيح أنه هو نفسه لجأ في كثير من الأحيان إلى البطش ولكنه في الوقت عينه وازن بين التحكم الفردي وبين تبادل الرأي . والكثيرون يأخذون عليه مذبة المماليك التي كانت بالفعل عملاً وحشياً . ولكن يجب أن لا ننسى أنه أراح مصر من مختلف الشرور والآلام التي كالمها أولئك المماليك لشعب مصر . إنما الذي فأخذه عليه نحن فهو بطشه بالقادة الشعبيين أمثال عمر مكرم الذين كانوا له في البداية القوة المدعمة لحكمه . فلما أحس بأنه لم يعد في حاجة إلى تدعيمهم إياه استغنى عنهم بشتى الوسائل . على أنه رغم هذا يجب الاقرار بأن محمد على هو الذي وضع قدمي مصر على طريق التقدم المصري .

أما ابنه إبراهيم فقد شاد لمصر أمجاداً حربية عظيمة ولكنه لم يحكم غير بضعة شهور خلال السنوات الأخيرة من حكم أبيه . ولن نستطيع بحال ما أن نتكهن بما كان يمكن أن يصعله لمصر لو أن الأجل امتد به . ولكننا نعرف أنه كثيراً ما تفاخر بأنه مصري كما أنه كان يقرب إليه المصريين .

ثم حكم عباس الأول فكان غشوماً وأهمل الكثير من المدارس والمنشآت التي تباهى بها محمد على . ومن حسن الحظ أن حكمه كان قصيراً . فلما خلفه سعيد باشا بالغ في تشجيع الأوربيين فأوجد أمامهم الفرصة لاستغلال بلادنا بكل معاني الاستغلال لأنه - حق الذين فتحوا المدارس وشرروا العلم - قد افتروا على عزتنا القومية وأوهنوا من وطنيتنا ، وما هو أدهى . أدخلوا الكثير من البلبلة والشك في العقيدة الأرثوذكسية وساهموا في تفتيت الروابط العائلية خلال الاختلافات المذهبية التي تسربت منهم إلى بعض أفراد هذه العائلات . ثم أن سعيد باشا هو الذي منح دلبس امتياز قناة السويس بشروط غاية في الجور . ولكن اسماعيل نجح في تخفيفها إلى حد بعيد .

ولقد بدأ اسماعيل عهده بدفعة قوية نحو التقدم العلمي والاجتماعي والعسكري .

فنجع في تحويل ظلم المحاكم الفصلية إلى محاكم مختلطة فيها ثوب من العدالة . وجعل مصر دولة مستقلة تظهر في معرض باريس الدولي بصفتها الخاصة وتستقبل الملوك والأمراء في حفلة افتتاح قناة السويس بسيادتها وحدها حتى لقد أصبحت الدول تتعامل معها مباشرة دون الرجوع إلى الباب العالي . وظهر تحول اجتماعي واضح حتى في الملابس والمأكل . وأقيم دار للأوبرا ، كتب الموسيقىكار الايطالى الكبير د فردى ، المسرحية الغنائية ، عابدة ، خصيصاً لتمثيلها فيه وبناءً على طلب اسماعيل باشا نفسه (وهى مسرحية تحكى انتصار قائد فرعونى اسمه راداميس) . ومن أهم التفسيرات فتح مدارس للبنات ومدرسة للفنم والبكم والتعليم القومى ، والشاء دار وقاعة المحاضرات العامة ومعمل الطبيعة والمتحف المصرى ودار الآثار المصرية والجمعية الجغرافية وجمعية المعارف . وشاعت الموسيقى وتأثرت الألحان المصرية بالألحان الأوربية فمألقت منها نغمات جديدة . وظهرت الصحف العلمية كيمسوب الطب وروضة المدارس والسياسة إلى جانب الصحف الاخبارية ، كما ظهرت صحف مزلية كأبو نضارة وحمارة منى . وفوق هذا كله فقد أنشئ مجلس شورى القوانين الذى قام فى نهاية فترته بدور كبير فى معارضة التدخل الاجنبى (١) .

هذا كله داليل ساطع على حيوية الشعب المصرى الذى شاء خالفه أن يمنحه إياها ليستطيع أن يجوز مختلف المتاعب والضيقات والآلام ويخرج منها المرة تلو المرة صاحباً مستعداً للتوثب من جديد . وكانما كل ما مر به من ارضاء كان أشبه بنوم ثقيل أفاق منه رغم ثقله . والنهضة التى دفع بها اسماعيل مصر إلى الامام صورة ناصمه هذه الإفاقة . ولولا تدخل الامم الأوربية ومطامعها وأغراضها الاستعمارية لوأت هذه النهضة ثمارها ولما كانت مصر الآن فى الطليعة . ولكن مادام خالقها قد منحها بركته ، وما دام أنه قد أودعها سر الحيوية التى لا تمهد فلا بد من أن تسير إلى الامام وتقوم كل مرة رغم العراقيل والاهمال .



(١) تاريخ مصر من الحملة الفرنسية إلى نهاية عصر اسماعيل (سنة ١٧٩٨ - ١٨٧٩م)

لأحمد عزت عبد الكريم ص ٢٧٢ .

مناقشات

ان كنيسة القبطية الارثوذكسية معروفة بمحافظتها على التعاليم والتقاليد الرسولية منذ ان تسلمت من مار مرقس الرسول البشير كاروز مصر المحبوبة . وبما حرصت عليه ذلك التقليد القاسى بان السلطة الكنسية العليا لا تتركز في الفرد مما علا روحياً وإدارياً لانه ليس بمعصوم ، فالسيد له المجد لم يلم سلطة خاصة لاي تليذ على حدة . لانه حتى حين قال بطرس : كل ما تربطه على الارض ... (متى ١٦ : ١٩) قلها على مرأى ومسمع من بقية الرسل ، ثم عادية لها للرسول كلهم معاً (متى ١٨ : ١٨) . ومن هذه الكلمات نرى انه اعطى الكل السلطة عينها . ثم عند صعوده الى السماء والتلاميذ شاخصون اليه لم يشر الى اى واحد منهم منفرداً ويقول له : انت ستكون نائبى على الارض ، بل اعطاهم ساعتئذ وصية واحدة مشتركة إذ قال : اذهبوا وتلمذوا جميع الامم ...

فان سأل البعض : واذن فلماذا كرر السيد المسيح سؤاله لبطرس : اتجنبنى يا سمعان بن يونا ... ؟^(١) . وحين اجاب بالايجاب قال له : ارفع غنمى ، (يوحنا ٢١ : ١٥ - ١٨) . اجبنا بان الفادى الحنون اراد ان يرد لبطرس اعتباره ويعيد اليه مكانه كرَسُول ، فسأله ثلاث مرات وأخذ إجابة بطرس ثلاث مرات مقابل الانكار المثلث الذى اكده بطرس باللعن وهو واقف خارجاً يصطلى بينما رؤساء الكهنة يحكمون على سيده . وإن عاود السؤال عما قصد إليه الرب ساعة أن قال : و أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابني كنيسة ، (متى ١٦ : ١٨) قلنا إن الصخرة هي الاعتراف الذى جهر به هذا التليذ حين اجاب المخلص بقوله :

و أنت المسيح ابن الله الحى ، (متى ١٦ : ١٦) . ولو لم يكن الاعتراف بأن

(١) نرى هنا أن الرب ناداه باسمه الأول لا بالأسم الذى أطلقه هو عليه . بطرس .

المسيح ابن الله الحي هو الصخرة ، فكيف قال له الرب بعد هذا بدقائق . وأذهب
عني يا شيطان ؟ (متى ١٦ : ٢٣) . هل من المقبول أن الكلمة المتجسد يناقض
نفسه ؟ حاشا لله . لأن هذا الانتهاز الذي جاء في أعقاب التعبير الأول يرجع إلى
أن بطرس اعترض على ما سيصيب سيده من وقوع في أيدي الكهنة والكتبة
وما سيذيقونه من آلام . لأن مثل هذا الاعتراض هو اعتراض على تحقيق عملية
الفداء التي هي الهدف من تجسد الكلمة . ففي الحالتين يوجه السيد المسيح تعبيره
على الكلمات التي فاه بها بطرس والمعبرة عن حقيقة الخلاص .

هذا من جهة ، ومن الأخرى نجد أن الكتاب المقدس يعهده . القديم
والحديث يتحدث عن الصخرة بوصفها رمز لله تعالى . وكل هذه الآيات توضح
لنا أن بطرس لم يأخذ رياسة معينة - لا هو ولا غيره - تمزجه عن زملائه . بل أن
مخلصنا قال : من أراد أن يكون فيكم عظيماً فليكن للجميع عبداً . فالرياسة في
تعليمه الإلهي هي الخدمة في تواضع . ولقد أدرك الرسل مفهوم هذه الرياسة بعد
أن امتلأوا من الروح القدس . لأنهم - حينما اختلفوا فيما بينهم على ختان الأعمى
قبل صبيغهم بالمعمودية - اجتمعوا معاً في أورشليم وتشاوروا فيما بينهم ، وقدّم
كلّ منهم اختياراته أثناء الكرازة ثم قرروا معاً قبول الوثنيين من غير ختانهم ،
وقالوا عند ارسال قرارهم إلى الكنائس الناشئة : وقد رأى الروح القدس
ونحن ... (أعمال ١٥ : ١١ - ٢٩) . بل انهم ، قبل ذلك ، حين أرادوا أن
يختاروا من يحمل حمل يهوذا الاسخريوطي ، اجتمعوا مع كل المؤمنين بما فيهم
النسوة (أعمال ١ : ١٥ : ٢٦) . وهذا كان الحال أيضاً عند انتخاب استفانوس
وزملائه الشمامسة (أعمال ٦ : ٣) . فالخطة التي سار عليها الرسل هي خطة
التشاور فيما بينهم أحياناً وبالاشتراك مع الشعب أحياناً أخرى ، ولم ينتحل أحدهم

لنفسه سلطة تبرزه عن بقية اخوته . والتعبير المصري للخطة الرسولية هو
والاشتراكية الشعبية . (انظر كتابه (١٩٧٠ : ١٩٧١) في القبطية الحديثة)
وعلى هذه الخطة سار آباء الكنيسة القبطية . فلم يكن البابا الاسكندري يعقد
المجمع المقدس مرتين سنوياً فقط بل كان الرهبان أيضاً يجتمعون جميعاً مرتين في
السنة . وكان الاجتماعان السنويان قاعدة التعامل العادي فإن طرأ ما يستلزم عقد
المجمع المقدس في غير هاتين المرتين ، أرسل البابا يدعو مطارته وأساقفته
للإجتماع معاً . وبما يجب ذكره أن قرارات الاغلبية هي التي تنفذ حتى إن كان
البابا مع الاقلية . والحق الوحيد الذي يتمتع به داخل المجمع هو أنه حينما يكون
عدد المجتمعين مزدوجاً (ثلاثين مثلاً) وانقسم الرأي قسمين متساويين بالضبط ،
يعتبر صوت البابا صوتين ويؤخذ بقرار الفريق الذي معه . ثم لو حدث أن
اجتمع المجمع في غياب البابا فإنه يوقع بأعضائه على قرار الاغلبية ، أو توماتيكياً ،
وقد حدث بالفعل ، في عهد الانبا مكاريوس الثالث (البابا الاسكندري ال ١١٤)
أن اجتمع المجمع لحالة طارئة أثناء إقامة البابا بدير الانبا بولا . فلما طاد إلى
القاهرة وقع بأعضائه على قرار الاغلبية من غير سؤال ولا تردد لمعرفة القانون
الساكن في هذا الموضوع .

فالرياسة في الكنيسة إذن رياسة مجتمعية لا تتركز في شخص مهما علت مكانته .



بعض الآيات التي توضح ان الله « صخرة » .

هو الصخر الكامل صنيعة
 ثلثية ٢٢ : ٤
 ليس صخرة مثل إلها
 ١ صموئيل ٢ : ٢
 الرب صخرتي
 ٢ صموئيل ٢٢ : ٢
 من هو صخرة غير إلها
 ٢ صموئيل ٢٢ : ٢٢
 حتى هو الرب ومبارك هو صخرتي
 ٢ صموئيل ٢٢ : ٤٧
 الرب صخرتي وحصني ...
 مزمور ١٨ : ٣١
 حتى هو الرب ومبارك صخرتي
 مزمور ١٨ : ٤٥
 يارب صخرتي وولي
 مزمور ١٩ : ١٤

إليك يارب أصرخ يا صخرتي
 مزمور ٢٨ : ١
 صخرتي ومعقلي أنت أنت
 مزمور ٢١ : ٢ - ٣
 أقول لله صخرتي
 مزمور ٤٢ : ٩
 إنما هو صخرتي وخلصي
 مزمور ٦٢ : ٢
 وذكر أن الله صخرهم
 مزمور ٧٨ : ٢٥
 إلهي وصخرة خلاصي
 مزمور ٨٩ : ٢٦

إلهي صخرة حاجاتي
 مزمور ٩٤ : ٢٢
 تهتف لصخرة خلاصنا
 مزمور ٩٥ : ١
 لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحية
 ١ كورنثوس ١٠ : ٤
 قابعتهم والصخرة كانت المسيح

فريقا تيمنا
 + + +
 فصلان

الايقونات في الكنائس

نعود إلى موضوع الايقونات مرة أخرى بمناسبة ما قيل عن الانبا كيرلس الرابع وهو برى . منه ، فنقول : إن ما يقوله لنا الكتاب بالكلام تبييننا الايقونة إياه بالألوان وتجعله حاضراً فملاً . ويعلمنا يوحنا الدمشقي عن هذا الموضوع بقوله : « حين تعذبني أفكارى وتمنعني من تذوق المطالعة أذهب إلى الكنيسة وأتمن في ايقونات القديسين والشهداء فيأمر نظري ويحمل نفسي على تسبيح الله . وأتأمل بسالة الشهيد ويلهني حماسه ... فأخر على الأرض وأتعبد لله بشفاعته الشهيد فالشاهد نفسه حاضر ملء بصرى ومسمى في وظيفته الشفاعية ... »

والايقونيون لا يجهلون شيئاً من تكنيكيات العلم التصويرى ولكنهم لا يجعلونها أبداً الشرط لفهم الخاص . فهذا الفن متجاهل تماماً للحقيقة المادية كما تبدو للبصر المادى ، وهو يفرض على الناظر مبادئه الخاصة : انه يطمح الرؤية الحقة ، انه فن تام في حد ذاته وثقافة تجعل الإنسان يحس أو بالحري يخفق باللهب المنبعث من الأشياء . فالايقونة ليست نافذة على الطبيعة ولا على مكان محدد واسكنها العالم الذى يتفتح ويصبح كله بوابة موصلة إلى الحياة الروحية .

ومنذ أن تجسد الكلمة سيطر الوجه على كل شيء : الوجه الذى هو الشكل الانسانى لغير المرتى . والايقونى يبدأ دائماً بالرأس فهو الذى يتحكم في كل الصورة : فالعيون المدسعة ذات النظرة الثابتة ترى ما وراء المسادة - أى أن الروح هى التى تنظر إلينا . والشفتان الرقيقتان مصنوعتان للترنم والتسبيح وللقبلة المقدسة ، والأذنان المستطيلتان تصفيان إلى الصمت ، والأنف ليس سوى حنية دقيقة ، والجبهة واسعة عريضة - تتوهمها الخفيف يعوز سيطرة التأمل الفكرى ، والمسحة

الفاتمة لوجه تمحو كل واقعية وكل حسية فالأيقونيون إذن يعرفون الرؤى
وبقدمونها لنا في الأشكال والمثل التي أعطاهما الله ذاته للناس ، فهم لهذا السبب
يمثلون خلال الصور الأمور المقدسة (١).

+ + +

ومن العادات التي كانت شائعة بين العائلات القبطية تلقين الجيل الكبير للجيل
الناشيء صلوات غير الصلوات الكنسية وغير صلوات الأجيال. ومن هذه الصلوات
طلبتين لفتنا إياهما أننا أوردتهما بالعربي الدارج كما تعلمتها : « أسبحك وأمجذك
مع كل الخليقة . ولا توريني هماً ولا غماً ولا ضيقة . تبعد عني الشيطان مالوش
عندي طريقة . وحياة البنز التي رضعته والبخور التي رفعتة والميكل التي فتحته
تخلصني يا سيدي من كل ذنب عماتة . كما خلصت يونان من بحر الطوفان في بطن
الحوث ثلاث أيام . كما خلصت القمص مع الشمس في رفعة القديس . آمين
كبير باليسون . »

+ « صبح الصبح من غير مفراح . واتهببت من كل الرياح والشرق والغرب
في قبضتك . والاحياء والاموات يستشور رحمتك . يسبحك كل طير طائر .
ويمجدك كل نجم ساير . تسبحك كل نفس خلقتها . خلقتني وأنا لبيك راجعة .
يا فضيحتي لما يقدموا كتابي في السما بالظاهر والنجفي . سامحنى يا الله - لا عندي
صوم ولا صلاة . آمين هليلوليا . »

+ ومن أبداع الصلوات الباقية لدينا تلك الصلاة التي رفعها يونس بن الايج
لينجيه الله من غضب الخليقة (القديس) المستنصر بالله ، وهي : « باسم الله
الرفوف الرحيم وبه نستعين آمين - اللهم إني وجهت وجهي إليك . اللهم إني
فوضت أمري إليك . ليس لي هاجأ إلا إليك . يا عزتي عند شدتي . يا مؤنسني

(١) من كتاب « معرفة الله » لبول افدوكيموف (بالفرنسية) ص ١١٤ - ١٢٥ .

عند وحدتى . يا حافظى عند غربتى . يا ولى نعمتى . يا مرد المردين . يا ملجأ
المساكين يا حامى المقلبين إليك . يا خاذل المردة والشياطين . يا مكوّن
التكوين . يا مدوّن الدواوين . يا صانع الخيرات والحسين . يا خالق الخلق
أجمعين . يا منشئهم من ماء وطين . يا جبار الجبارين . يا بيد الأكامرة .
يا مقوم الدنيا والآخرة . . . أسألك اللهم يا كريم الفعال . يا عظيم السلطان .
يا قديم الاحسان . يا من يفتح بابه إذا أغلقت الابواب . يا حاضر ليس غائب .
يا موجود عند الشدائد والنوايب . . . يا مفرج الكروب . يا غائب المستغيثين
عند المصائب والنوايب . . . يا خالقى أنا فى كنفك ليلى ونهارى ونومى وقصادى
واقرارى وأسفارى . وحياتى ومماتى وجميع ساعاتى وأوقاتى . . . وذكرك يحلولى
وتباركك أشعارى . جيرانا من حركتك وشر عبادك وبلائك . . . اللهم بحق
عزك وجلالك . ورحمتك وجمالك . وبحق قدرة عزتك وسلطانك وبحق
عرشك العظيم الثابت . وملكك القوى الدائم . ورحمتك الكثيرة . . . اللهم
اضرب بينى وبين من يضربنى . وافرج عنى همى وغمى يا مفرج هم يعقوب .
اكشف عنى ضرّى يا شافى ضرّ أبوب . . . اشفى واغلب من يغلبنى يا غالب
غير مغلوب . . . اكفى من لا أطيق شره . وكن لى عوناً معيناً . وحافظاً أميناً .
وناصراً . . . بحق صلوات الست السيدة العذراء مريم والآبا والشهدا والقديسين
. . . حى هو الله . آمنت وتوكلت على الله . وأمرى إلى الله . . . نعم ان العادل
هو الله . ومن توكل على الله يحفظه . وهو حبه ان الله بالغ أمره . . . فإن الله
على كل شىء قدير . وهو السميع العليم . وله الحمد والتعظيم إلى الأبد آمين (١) .

(١) وجدت هذه الصلاة مكتوبة بخط يد جدى لأبى - مينا منقربوس - مع المزمور
الرابع والثلاثين الذى مطلعهُ « خاصم يا رب من يخاصنى . . . » وكان السبب فى غضب الخليفة
وشابة أحد الحامدين لما ينتع به يونس بن الأرخ من حظوة لديه . فعلى هذه الصلاة ليه
أن كل فاهماً لمقابلة الخليفة - ولما تقابل الرجلان تصالحا وتصافيا .

(صلاة رخصتك ففعل فوراً أي
سأله فيما بينه وبين
توسطه)

بسم الله الرحمن الرحيم

أطلب منك يا ستفان الرب يسوع قوتك تهاديني
 و قدرتك تمسني و حكمتك تعلمني و عبيتك تحموني
 و اولادك تحموني و كرامتك تباركني و يكون اهلي
 من السميريد في مسكني يمينك تدفع عني و طريقتك
 ترشدني و خولك يساعدي و طوبى لك يا بصير
 اللهم اني اطلب قوتك و اعطني خوزة الخلاص و سلام
 البهر لا تضر علي عدوي ابرها الرب يسوع كن معي و مع عبي و مع
 ياردي و امانتي و خالتي و في كل امة من امة اني اللهم الكنتني بقدرتك
 و اعطني عزك و كن في قلب من يكلمني او يكاتبني اني اطلب
 لئلا ينقض السوء في عبيدك لئلا ينظر الي بعين الحق و الكرامة
 و في لسانه لئلا يتكلم بالكذب و في اذنه لئلا يسمع الي كلام الاشرار
 اللهم كن معي و مع جميع الصالحين و كل اوان ايمان
 و كن في قلبي لئلا ينحرف عن هادة الحق و في عقلي لئلا يفكر
 بالمساري و في لساني لئلا يتكلم بالكذب و في اذني لئلا يسمع الي كلام
 الاشرار اللهم كن في قلبي

و في مسنتي اني اطلب ابدك بقية
 كما اني اطلب في اي ثوبه كبري

٥٨	٥٩	٦٠	٦١	٦٢	٦٣	٦٤	٦٥
٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	٧٠	٧١	٧٢	٧٣

ات الاسكندرية المذكورين في هذا الكتاب

الملك المعاصرون	مدة الإقامة على الكرسي	
	سنة	شهر
قاصوه الأشرف - السلطان سليم الفاتح	٤٣	-
سليم الثاني	١٥	٤
محمد الثالث	١١	-
أحمد الأول ومصطفى الأول وعثمان	١١	-
مصطفى الأول ومراد الرابع	١٠	-
مراد الرابع وإبراهيم	١٠	-
محمد الرابع	١٠	-
محمد الرابع	١٤	٨
وسليمان الثاني وأحمد الثاني ومصطفى الثاني وأحمد الثالث	٤٣	٣

بالتصميم والجمالية

٧٦٨١ قبة قبة لنگه - قبة لنگه قده ١٤٠٠ خزانة : خليفة طه ب. ب. ب. ب. ب.	٧	٦	١
٧٦٨٢ قبة قبة لنگه - قبة لنگه قده ١٤٠٠ خزانة : خليفة طه ب. ب. ب. ب. ب.	١٨	٢	١
٧٦٨٣ قبة قبة لنگه - قبة لنگه قده ١٤٠٠ خزانة : خليفة طه ب. ب. ب. ب. ب.	٢٤	-	١
٧٦٨٤ قبة قبة لنگه - قبة لنگه قده ١٤٠٠ خزانة : خليفة طه ب. ب. ب. ب. ب.	٢٦	٧	١
٧٦٨٥ قبة قبة لنگه - قبة لنگه قده ١٤٠٠ خزانة : خليفة طه ب. ب. ب. ب. ب.	١٣	٢	١
٧٦٨٦ قبة قبة لنگه - قبة لنگه قده ١٤٠٠ خزانة : خليفة طه ب. ب. ب. ب. ب.	٤٢	٣	١
٧٦٨٧ قبة قبة لنگه - قبة لنگه قده ١٤٠٠ خزانة : خليفة طه ب. ب. ب. ب. ب.	٧	٨	١
٧٦٨٨ قبة قبة لنگه - قبة لنگه قده ١٤٠٠ خزانة : خليفة طه ب. ب. ب. ب. ب.	٧	٧	٥١

كي لا تقوم لجوة بين تواريخ الآباء والتواريخ المعاصرة بالنسبة إلى الفراء.

مراجع الكتاب

- ١ - بقرب نخلة روفيلة : تاريخ الامة القبطية - القاهرة سنة ١٨٩٧ .
- ٢ - هم الاسكندري وسليم حسن : تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر - القاهرة سنة ١٩١٧ .
- ٣ - حسن عثمان : تاريخ مصر في العهد العثماني (سنة ١٥١٧ - ١٧٩٨) ، فصل من كتاب «المجمل في التاريخ المصري» ، ألفه بعض أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول نشره حسن إبراهيم حسن .
أحمد عزت عبد الكريم .
- ٤ - تاريخ مصر من الحملة الفرنسية إلى نهاية عصر إسماعيل (سنة ١٧٩٨ - ١٨٧٩) .
- ٥ - المجتمع الاسلامي والغرب (ترجمه عن الانجليزية مع محمد عبد الرحيم مصطفى) .
- ٦ - الجبرتي على مفرق الطرق - مقال نشره في جريدة الاهرام يوم الجمعة ٢٦/٤/٧٤ بمناسبة المؤتمر الذي انعقد في القاهرة من ٢٢ - ٢٦ أبريل تكريماً لذكرى الجبرتي لمرور ١٥٠ سنة على وفاته .
- ٧ - محمد عبد الرحيم مصطفى : تاريخ مصر الحديث - المطبعة الاميرية سنة ١٩٤٩ .
- ٨ - محمد صبري : تاريخ مصر الحديث - القاهرة سنة ١٩٢٦ .
- ٩ - كتاب تاريخ الامير حيدر أحمد الشهابي - مطبعة السلام بأول شارع كلوت بك - القاهرة سنة ١٩٠٠ .
- ١٠ - ميخائيل شاروويم : السكافي في تاريخ مصر القديم والحديث .
- ١١ - القس منسى القمص : تاريخ الكنيسة القبطية .
- ١٢ - فوزي جرجس : دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العهد المملوكي - القاهرة سنة ١٩٥٨ .
- ١٣ - أنور زقلة . المماليك في مصر .

١٤ - ترفيق اسكاروس : نوابغ الاقباط وشاهيرهم (جز ١ ان) مطبعة التوفيق
بالقاهرة سنة ١٩١٠ - ١٩١٢ .

١٥ - ابياس زخورة : كتاب مرآة المتصر - القاهرة سنة ١٨٩٧ .

١٦ - عبد الرحمن زكي القاهرة - من المعز الى الجبرتي .

١٧ - يعقوب جرجس : موجز تاريخ البطاريكة - باشراف زاهر وياض .

القمص صموئيل تاوضروس السرياني .

١٨ - الاديرة المصرية العامرة - طبعة أولى - القاهرة سنة ١٩٦٨ .

١٩ - الانبا يوساب بن الابع - مقال نشره في مجلة المحبة - عدد نوفمبر ديسمبر

سنة ١٩٦٨ .

٢٠ - المعلم لطف الله المصري - مقال نشره في مجلة المحبة - عدد يوليو سنة ١٩٦٩ .

٢١ - المعلم ملطى يوسف - مقال نشره في مجلة المحبة - عدد يوليو سنة ١٩٦٩ .

٢٢ - كامل صالح نخلة وفريد كامل : تاريخ الامة القبطية .

كامل صالح نخلة .

٢٣ - الجنرال يعقوب واستقلال مصر (الحلقة الثالثة)

٢٤ - سلسلة تاريخ بطاريكة الاسكندرية - الحلقة الرابعة - مطبعة دير السريان

سنة ١٩٥٤ .

٢٥ - سلسلة تاريخ بطاريكة الاسكندرية - الحلقة الخامسة - المطبعة البابوية

سنة ١٩٧٤ (طبعة ثانية) .

٢٦ - تاريخ كرمى الاورشليمى : مقالان متتاليان نشرهما بمجلة النهضة

المرقسية بالقدس - مارس وابريل سنة ١٩٥٤ .

٢٧ - ديمترى رزق : قصة الاقباط في الاراضي المقدسة .

٢٨ - مينخايل مكسى : القدس عبر التاريخ .

- ٢٩ - عارف باشا العارف : تاريخ القدس .
٣٠ - فرانسيس العتر : الامة القبطية وكنيستها الارثوذكسية .
٣١ - عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد علي (جزآن) .
٣٢ - الياس الايوبي : عصر اسماعيل (جزآن) .
٣٣ - وليم سليمان : الكنيسة القبطية في مواجهة الاستعمار والصهيونية صدر عن
وزارة الثقافة .

جرجس فيلوثاؤس عوض .

- ٣٤ - أبو الاصلاح - تاريخ كيرلس الرابع .
٣٥ - الابنومانس فيلوثاؤس .
٣٦ - جرجس سلامة : تاريخ التعليم الاجنبي في مصر .
٣٧ - الأمير عمر طوسون : كتاب البعثات العلمية في عهد محمد علي .
٣٨ - صبحي وحيدة : أصول المسألة المصرية - مكتبة الانجلو المصرية - مطبعة
مصر - القاهرة سنة ١٩٥٠ .

رمزي تادرس .

- ٣٩ - مشاهير الاقباط في القرن التاسع عشر (الجزء الثالث) .
٤٠ - دائرة المعارف القبطية (الجزء الاول) - مطبعة صادق بالمنيا .
٤١ - القمص شنودة الصوامعي البرموسي : تاريخ بطاركة الاسكندرية (مخطوط)
الجزء الثاني .
٤٢ - كتاب مجموعة الخطب التي ألقيت في حفلة الذكرى الثموية الاولى لابي
الاصلاح في القاعة المرقسية بالانبار رويس مساء ٣١ يناير سنة ١٩٦١ .
٤٣ - شفيق غربال : مصر عند مفترق الطرق - مقال نشره بمجلة كلية آداب
القاهرة - المجلد الرابع الجزء الاول مايو سنة ١٩٣٦ (الطبعة الثانية) .

- ٤٤ - القمص ميمصائليل بحر : إقليم النيا في العصر القبطى - مجلة صوت
الشهداء - أعداد يونيو ويوليو وأغسطس سنة
١٩٦٢ ، يناير وفبراير ومارس سنة ١٩٦٤ .
- ٤٥ - القمص أرمانيرس حبشى شتا البرماوى : القري يوسف الزير البرماوى - مجلة
المحبة عدد أبريل سنة ١٩٢٩ .
- ٤٦ - أحمد عيسى : معجم الاطباء - القاهرة سنة ١٩٤٢ .
- ٤٧ - ياقوت : معجم البلدان .
- ٤٨ - محمد فريد وجدى : دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجرى - المجلد السابع .
- الهجرى :
- ٤٩ - مظهر التقديس بخروج الفرنسيين (جزآن) .
- ٥٠ - عجائب الآثار فى التراجم والامصار (اربعة اجزاء) .
- ٥١ - المصح الاغنى فى صناعة الانشا لآبى العباس أحمد القلقشندى .
- ٥٢ - التوفيقات الالهامية .
- ٥٣ - على باشا مبارك : الخطط التوفيقية .
- ٥٤ - ودبع شنودة : مرشد المتحف القبطى .
- ٥٥ - مرقس سمبكة : دليل المتحف القبطى (الجزء الثانى) .
- ٥٦ - القمص بطرس جرجس : من أقوال الانبا بطرس - مقال نشره فى مجلة
الإيمان - يونيو سنة ١٩٥٥ .
- ٥٧ - محاضرة للدكتور عزيز سوربال عطية نشرها فى مجلة مدارس الأحد -
يناير سنة ١٩٤٩ .
- ٥٨ - الانبا شنودة (أسقف التربية الكنسية والكلية الإكليريكية) : من حق
الشعب اختيار راعيه مقال نشر بمجلة الكرازة بميد أكتوبر سنة ١٩٦٥ .

٥٩ - نشرة الجمعية المصرية لدراسة الكنيسة القبطية الأرثوذكسية المركزية بتاريخ ٢٥ بشنس سنة ١٦٥٥ ش (سنة ١٩٢٩) بمناسبة ذكرى ابراهيم وجرجس الجوهري .

٦٠ - مجلة مار مرقس البتنيح القس مرقس شنودة (بطمطا) أعداد سنة ١٩٥٥ وبها مقالات متصلة من كتاب سلاح المؤمن الابا يوحنا بن اللاح .

٦١ - أحمد شوقي (أمير الشعراء) : قصيدة مشروع ٢٨ فبراير { الشوقيات ج ١
قصيدة قف للعلم وقفه التبجيلا . . .

قصة الكنيسة القبطية - الكتاب الاول ، الكتاب الثاني ، الكتاب الثالث ،
الكتاب المقدس بعهديه : القديم والجديد .

فهرس نقش الأزهار في عجائب الاقطار لابن الحسن ابن اياس .

تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين -
طبعته جمعية الآثار القبطية - القاهرة سنة ١٩٧٠ - المجلد الثالث - الجزء الثالث -
(سنة ١٢٢٥ م - سنة ١٨٩٥ م) .

62 - J. Aldridge : Cairo (pub. in Boston 1969) .

63 - M. Poll : From Pharaoh to Fellah - London 1888 .

64 - V. Chirol : The Occident and the Orient .

65 - E. Combe, J. Bainville, et E. Driault : Précis de
l'Histoire d'Egypte, et le Règne de Mohammed Ali
(Imp. de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du
Caire 1933) .

66 - H. Deherein : Histoire de la Nation Egyptienne, V,
l'Egypte Turque .

67 - A. Dunne : An Introduction to the History of Education
in modern Egypt .

68 - J. Graf : Studi E. Testi : Catalogue des Mss. Arabes
Chrétiens Conservés au Cairo (Citta del Vaticano, 1934).

69 - P. M. Holt : Egypt and the Fertile Crescent (15.6 -
1922) Cornell Univ. Press 1966 .

70 - J. - Jurji : The Middle East, its Religion and Culture
(N. Y. Public Library, D - 10, 1814) .

- 71 - G. Macaire : Histoire de l'Eglise d'Alexandrie Depuis St. Marc jusqu'à nos Jours — Le Caire 1894 .
- 72 - A. Watson : The American Mission in Egypt (1854-1896).
- 73 - The Muslim World, A Historical Survey, Part III : The Last Great Muslim Empire — with contributions by H. J. Kissling, F. R. Bagley, N. Barbour, J. S. Trimmingham, H. Braun, S. Spuler, and H. Hartel. Leiden - Brill 1969.
- 74 - A Dictionary of Christian Biography Literature, Sects, Doctrine, by W. Smith, and H. Wace, (vol. I) - John Murray, London 1877 .
- 75 - The Encyclopaedia Britannica, XIV ed. vols. IV and XXII.
- 76 - Description de l'Egypte — T I and II .
Coptic Mss. in the British Museum (according to

Catalogue by Crum) :

- 77 - Ms. 724 — a bound volume of 165 fol.
- 78 - " 857 — " " " " 102 fol :
- 79 - " 764
- 80 - " 840 — forty eight leaves, but with many gaps .
- 81 - " 841 — a bound vol .
- 82 - " 846 — leather binding, found at magdala .
- 83 - " 865 — bound, but imperfect, with many gaps .
- 84 - Vansleb : Histoire de l'Eglise Copte .
- 85 - Extrait du Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, T XX, Le Caire 1921, traduit de l'Arabe par M^{me} Devonshire : القول المتظرف لى سفر مولانا الأشرف لأبى البقاء (New York Pub. Library, O A C, p. v. 41, no. 6 — Oriental section) .

Paul Evdokimou : La Connaissance de Dieu .

مخطوطات محفوظة بمخازن المكتبات القبطية :

- أولا - بالمكتبة البابوية بالقاهرة
٧٠١ - مخطوطة ١٠٦ طقس لاثناسيوس أسقف قوص .
- ٨٦ - كتاب تاريخ الكنيسة لاسقف قوص .
- ٨٧ - مخطوطة ٤٠٧ (رقم مسلسل ٢٤٠) .
- ٨٨ - مخطوطة ٤٠٧ (رقم مسلسل ٢٤٠) .

- ٨٩ - مخطوطة ٤٤٩ (رقم مسلسل ٧٦٧) .
٩٠ - ٧٤ تاريخ .
٩١ - ٢٢٢ (رقم مسلسل ٣٧٩) .
٩٢ - ٤٤٥ (رقم مسلسل ٣٦٧) .
٩٣ - ٢٩٠ (رقم مسلسل ٧٠٥) .
٩٤ - ٧٢٣ (رقم مسلسل ٣٥٧) .
٩٥ - ٦٧٤ (رقم مسلسل ٣٠٨) .
٩٦ - ٧٥٥ (رقم مسلسل ٨٢٣) .
٩٧ - ١٧١ لاهوت .
٩٨ - ٤٨٧ (رقم مسلسل ٨١٨) .
٩٩ - ٦٢٤ (رقم مسلسل ٧٥٢) .
١٠٠ - ١٩١ (رقم مسلسل ٣١) .
١٠١ - ١٨١٥ .
١٠٢ - ٢٦١ (رقم مسلسل ٤٧٠) .
١٠٣ - ٢٢٠ - ٢٩٠ تشمل على ٢١ مقالة للأنبا يوساب بن الأبخ .
١٠٤ - ١٥٢ - معجم لالفاظ طيبة من كلمة علاج، إلى كلمة مرض .
١٠٥ - ٢٢٤ (رقم مسلسل ٢٩٥) .
١٠٦ - ٥٠ تاريخ : كتاب سيرة أنبا باخوميوس وفي آخرها صورة
تزيك القمص داود الانطوني .

ثانياً - بمكتبة المتحف القبطي (بمصر المتينة)

- ١٠٧ - مخطوطة ١٦٣ (رقم مسلسل ١١٥٤) .
١٠٨ - ٦٦ (رقم مسلسل ٤٨) (أدب) .
١٠٩ - ١٢٨ (رقم مسلسل ٢٧٥) (تاريخ) .
١١٠ - ٤٦ (رقم مسلسل ٣٠) (أدب) .

- ١١١ - مخطوطة ١١١ (٩٦ لاهوت) .
- ١١٢ - ٣١٢ طقس (كتاب البسغة) .
- ١١٣ - ١٥٠ (٤٠٨ طقس) .
- ١١٤ - ١٠٠ (١٣٧ أدب) .
- ١١٥ - ١١٠ (٩٥ لاهوت) .
- ١١٦ - ١٢٨ طقس .
- ١١٧ - ٩٩ (١٢٨ أدب) .
- ١١٨ - ١٧١ (رقم مسلسل ١١٨٠) .
- ١١٩ - ١٧٨ (١٦٥٤) .
- ١٢٠ - ٧٢ (٥٤ أدب) .
- ١٢١ - ١٠٢ (٥٥) .
- ١٢٢ - ٨٨ (٨٣) .
- ١٢٣ - ٢٧ (١٠) .
- ١٢٤ - ١٠٣ (١٥٦) .
- ١٢٥ - ١٠٨ (١٩٣ لاهوت) .
- ١٢٦ - ١٢٣ (٢٠٩) .
- ١٢٧ - ٣٤٣ (رقم مسلسل ٤١٠) .
- ١٢٨ - ١٤٨ (٣٥٥) .
- ١٢٩ - ١١٤ (٢٠٠ لاهوت) .
- ١٣٠ - ١٨٤ تاريخ .
- ١٣١ - ٤٠٨ محفوظة بالخزانة رقم ٣ المتحف القبلي .
- ١٣٢ - ١١٨٤ ٣٩
- ١٣٣ - ٢٧١٣ (على ورق كتمان) تتضمن رسالة أبي الاصلاح الى الشعب للاكتتاب في المدرسة الكبرى .

الثالث - مكتبة السيدة العذراء بحارة زويلة

- ١١١ - ١١١ (٢٠٠٠) - ١١١
- ٧١١ - ٧١٦ - ١٣٤ - مخطوطة ٣ فنية - ٢٤ عمومية لاهوت .
- ٧١١ - ٧٥١ (٨٠٠) - ١٣٥ - قطاريس شهر بؤونة رقم ١٥ - ٧٠ .
- ٣١١ - ٣٥١ (٧٧١) - ١٣٦ - د د طربة د ١٢ - ٥٥ .

رابعاً - مكتبة دير الانبا انطوني بجبل العربيه

- ٧١١ - ٧٢٢ (٨٢١) - ١٣٧ - كتاب (مخطوط) رقم ٢٩١ طقس .
- ٨١١ - ٨٧١ (٩٤٢) - ١٣٨ - مخطوطة طقس ٢٨٩ ، طقس ٢٤٣ .
- ٧٢١ - ٧٧١ (٨٤٢) - ١٣٩ - سنكار دير القديس انبا انطوني رقم ٢٤٣ .
- ١٧١ - ٢٠١ (٥٥) -
- ٧٢١ - ٨٨ (٦٨) -
- ٧٢١ - ٧٢ (٥١) -



- ٣٢١ - ٣٥١ (٢٥١) -
- ٥٧١ - ٨٠١ (٦٢١) -
- ٢٢١ - ٢٧١ (٥٥٠) -
- ٧٢١ - ٧٢١ (٥٥٠) -
- ٨٢١ - ٨٠١ (٥٥٠) -
- ٢٢١ - ٣١١ (٩٠) -
- ٥٦١ - ٣٨١ (٢٨١) -
- ١٧١ - ٨٠١ (٦٢١) -
- ٢٢١ - ٣٨١ (٢٨١) -
- ٢٢١ - ٢١٧٢ (٢١٧٢) -

... في سنة ...

الفهرست

٦٥٦

والله اعلم

٦٥٦

تفصيلها

صفحة

٧١٦

٧ -

منحدر شامق : ا - انبا غبريال السابع

٦٥٦

٨ - الانبا يونس الرابع عشر

٧٦٦

٢٠ - الانبا غبريال الثامن

٧٨٦

٢٧ - الانبا مرقس الخامس

٧٦٦

٢٧ - الانبا يونس الخامس عشر

٧٦٦

٤٢ - الشباب المتعرجة : ا - انبا متاوس الثالث

٧٦٦

٥٠ - الانبا مرقس السادس

٨٦٦

٥٩ - الانبا متاوس الرابع

٧٦٦

٧٢ - وتجدد مثل النسر شبابك

٧٦٦

١٠٥ - الشباب النهر

٧٦٦

١٢١ - تعديات مضاعفة : ا - انبا يونس السابع عشر

٧٦٦

١٣٣ - الانبا مرقس السابع

٧٦٦

١٣٨ - كبير مطارنة الصعيد

٧٦٦

١٤٢ - تفسيرات عقب بها الانبا مرقس (البابا ال- ١٠٦)

٧٦٦

١٤٨ - شدة على شدة

٧٦٦

١٨٥ - أحداث لها المعجب : ا - الانبا مرقس الثامن

٧٦٦

٢١٢ - ب - تقييم الحملة الفرنسية

٧٦٦

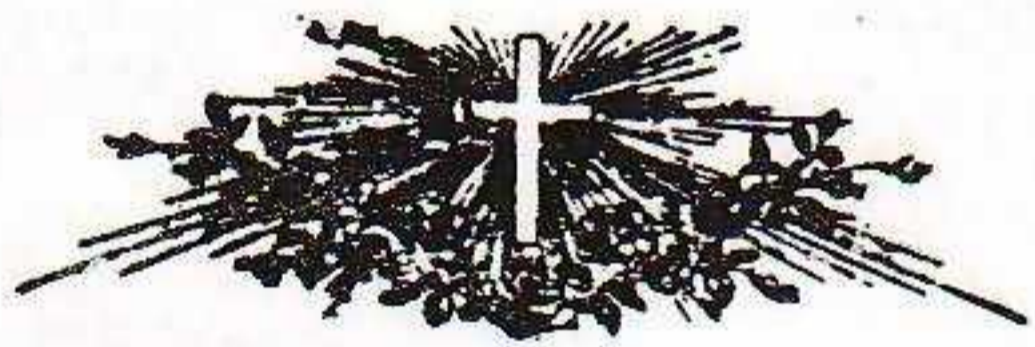
٢١٨ - ج - اراخنة هذا العصر

٧٦٦

مكتبة

٢٥٢	بداية الانفراج	
٢٥٣	إحدى القمم الشامخة	
٢٤٧	تعليق على سيرة البابا كيرلس الرابع ، البطريك الـ ١١٠ ،	
٢٥٠	حامل شملة جرى	
٢٥٩	استمرار السعي : ١ - الأنا دي تريوس الثاني	
٢٧٠	ب - ثلاثة من الكهنة الشيطانيين	
٢٨٠	ج - أراخنة هذا العصر	
٢٩٢	لمحة عن مصر في هذه الفترة	
٢٩٤	مقالات	
٢٩٧	بعض الآيات التي توضح أن الله صخرة	
٢٩٨	الأيقونات في الكنائس	
٤٠٢	جدول باباوات الاسكندرية المذكورين في هذا الكتاب	
٤٠٤	مراجع الكتاب	
٤١٣	الفهرس	
		٧٧١
		٧٧١
		٨٧١
		٧٣١
		٨٣١
		٥٨١
		٧١٧
		٨١٧





أردع بدار الكتب

تحت رقم ٢٨٦٧ لسنة ١٩٧٥

الناسر



للراسلات : ص . ب : ١٧ - الأبراهيمية - الاسكندرية



COD.
ST. GEORGE CH.
SPORTING
LE. 9.00

359003
100900

